al-Miṣrī, Ḥusayn Mujīb

حسين مجيب المصري

المدرس المنتــدب بكلية
الآداب في جامعة فؤاد الاول

Tārīkh al-adab al-turkī

تاريخ الأدب التركي

Cairo,
1951

مطبعة الفــكرة

ش . منشاة الفاضل
ميـدان الاسماعيلية

الاهـــداء

إلى كل محب للعلم من حيث هو علم لا يكرم الانسان إلا به ، فطلب منه المزيد والجديد ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

إني رأيت أنه لا يكتب انسان كتابا في يومه الا قال في غده : لو غير هذا لكان احسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان اجمل . وهذا من اعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

العماد الاصفهاني

مقدمة

الترك من نعرف ونألف نحن المصريين منذ الزمان الأطول ، فقد عهدناهم غزاة فاتحين وولاة وخلفاء وسلاطين ، وعاشوا بين ظهرانينا فكان للخلطة أثرها ، وللعشرة أحكامها . وأصهرنا اليهم فانجبت لنا جواريهم وحرائرهم ، وأصبح من بيننا متكلم بلسانهم ومتسم بصفاتهم ومتميز بملامحهم ، ولا تمر بنا ساعة مصبحين ولا ممسين من غير ألفاظ تركية كثيرة أو قليلة تملأ أفواهنا وأسماعنا . ولئن عرفت مصر الترك ، لقد عرفتهم الشام وبلاد المغرب وارتبطبهم الحجاز والعراق . وتاريخهم من الأهمية بمكان عظيم ، وهو موصول بعهد طويل من تاريخ الشرق العربى فعجب أى عجب أن تفتقر المكتبة العربية إلى كتاب فى تاريخ الأدب التركى . وان النفس لتذهب فى تعليل ذلك مذاهب شتى ، وأول إحتمال يعن لنا أن المتأدبين العرب لم يأخذوا من أدب الترك بطرف ، أو انهم نظروا فيه نظرة عجلى ومروا عليه م

النسيم ، وإذا صح هذا على جمهرتهم فإنه لا يصح على بعضهم ممن توفر على دراسة التركية حتى حذقها كل الحذق بعد أن اسلست له من قيادها وملكته ناصيتها وعرف منها صعوبة قد تفوق صعوبة العربية [1] . أما الاحتمال الثانى لخلو التركية من أدب يستحق النظر ويستلزم التأريخ ، وهذا رأى شائع لا يشعر الاخصائى تجاهه إلا بأليم الأسف لأنه ظلم صراح وباطل زهوق ، وإن كان الباعث عليه واضحا بينا ، فقراءة التركية فى أدبها القديم بخاصة تستوجب الماما كافيا بالفارسية ، وماذاك إلا لورود ألفاظها وتراكيبها فى الجملة التركية ، وقد تبلغ من الكثرة مبلغا يجعل بعض الجمل كلاما فارسيا فى لفظه تركيا فى نحوه وغنى عن البيان أن العلم بهاتين اللغتين فى آن يعز منالا إلا على القلال . ومن ثم فترت الهمم عن قراءة أدب الترك فخفيت روائعه كما تخفى الدرارى إلا على غواصها . ويفسر البعض قالتهم بأن

---

(١) هكذا يقول الأستاذ براون ، وهذا القول يعوزه التحديد ، وتفسيره أن الجملة التركية صعبة التركيب شديدة الطول حتى قد يفصل الفعل عن فاعله أكثر من عشرة أسطر ، وهذا معزو إلى كثرة الروابط وقلة أدوات العطف فيعسر الفهم تبعا لذلك وتنقطع الصلة بين أطراف الكلام ، وليس كذلك فى العربية على صعوبة نحوها .

الترك فى أدبهم إنما كانوا متبعين لا مبتدعين ، فقد قلدوا أدب الفرس وأحكموا التقليد ، حتى جعلوا الأدب التركى فى واقع الأمر تتمة للأدب الفارسى ، وهذا كلام لا يخلو من الشطط ولا يثبت على النقد ، لأن الفرق واضح بين التقليد والتأثر الشديد ، وقد تأثر الترك بالفرس تأثرا توجيهيا فطرقوا معانيهم واستعاروا من اخيلتهم وأقروا لهم بالاجادة وفضل السبق وعلى حذوهم احتذوا ومن بحرهم استقوا ، والأمثلة على ذلك لا تدخل تحت حصر ، فقد ترجم شريفى شاهنامة الفردوسى لنفاستها واصالتها ؛ وترجم نحيفى مثنوى جلال الدين الرومى وهو كنز للشعر الصوفى ، أما من عالجوا الشعر القصصى من الترك فكان مثالهم نظامى شاعر القصة فى ايران . وكل هذا لا يغض فى شىء من أدب الترك ولا جناح عليهم ان سبقهم من الفرس بعض شعراء كانوا أحسن شعرا منهم ، كما لا ينسينا أن من الترك من تميز بالأصالة والعبقرية ، وليس يصح فى الفهم أن ننفى الشاعرية عن شاعر لاحق لأنه تأثر بغيره أو تخلف عن شاعر سابق ، وليس الأديب هو صاحب الأدب الجيد فحسب ولكن الأديب من يعرض الأدب وان كان متوسط الجودة وأدبه يستحق النظر والدرس أسوة بأدب صاحبه المجيد العبقرى .

وعما يذكر أن جوته وهاينه وغيرهما من شعراء الألمان تأثروا بشعر الفرس فأحسنوا أيما احسان وكان هذا الصنيع منهم موضع اعجاب ، وتتلمذ الرومان لليونان حتى قيل ان الرومان الأوائل لم يكونوا في علومهم وآدابهم سوى ببغاوات اليونان، وضرب الشعراء الاسلاميون على وتر الشعراء الجاهليين في أكثر من موضع وحافظ الكثير منهم على عمود الشعر كما يقولون، فما عيب عليهم ماعيب على الترك ومن المأثور عن الترك فرط الولوع بالعلوم والآداب فقد أسس السلطان محمد الفاتح جامعتين عظيمتين وهما ايا صوفيا والمحمدية ولم يجر على عادة الغزاة الفاتحين من افناء الكتب تمزيقا وتحريقا ، فاعتز بخزائنها وابقى على نفائسها وأمر فزينت أبواب المكاتب بقول سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضـــة على كل مؤمن) ونقلت بمشيئته كتب اليونان والرومان الى التركية ، ومنها كتاب بلوتارك فى التاريخ ، كما تداول الناس شروح قيصر فى عهد ولده السلطان سليمان القانونى وقرأوا فى التركية أرسطو واقليدس . وبرز الترك فى كتابة التاريخ ولم يكونوا رواة وحسب ، بل ثقاة مفكرين ، فخلقوا من مصادره علما وخيرا كثيرا ، ومادة وفيرة هى معوان للباحثين على تأريخ عصور بتمامها ، وفى طليعة مؤرخيهم سعد الدين

المتوفى سنة ١٣٠٠ هجرية وهو صاحب تاج التواريخ ، وهذا الكتاب عمدة فى بابه ، ويعتبر بحق من أروع نماذج النثر التركى . وكان المؤرخ سعد الدين مؤدبا لمراد الثالث ومن أهل المنزلة عنده ، حتى ان الياصابات ملكة الانجليز طلبت اليه أن يقنع السلطان بضرورة مدها باسطول تستعين به على فيليب ملك أسبانيا . وقد صحب مولاه فى حرب المجر ، واليه يعزى فضل النصر فى احدى المواقع ، لأنه أشار عليه بالثبات ، بعد أن أجمع الرأى على التعلق بالفرار ، فعمل بمشورته وأداله الله من عدوه . ويتلوه فى المرتبة مؤرخ آخر يقال له نعيما ، وفى تاريخه تبصرة لنا بشئون أوربا وتبيان لما كان يربطها بتركيا من صلات ، وهو يعرض علينا وجهة النظر التركية عرضا واضحا كما ينطوى على خبر طويل للترك وفتحهم جزيرة كريت . وقد فطن علماء الغرب الى نفاسة تواريخ الترك فترجموا منها شيئا كثيرا .

وفى تاريخ الأدب التركى ما نعدمه فى غيره من الآداب قديمها وحديثها ، فقد كان من السلاطين والأمراء شعراء يبلغون العشرين عدا ، ولبعضهم دواوين كبيرة وللآخرين أشعار جياد فقربوا العلماء والادباء ورفعوا منازلهم واجروا عليهم رزقا حسنا .

وقال شاعر تركى فى قصيدة له ان تحت كل حجر فى طرقات استانبول مثوى لشاعر . وهذا كلام محمول على الأغراق وان كان له مغزاه ، ومما يجرى مجراه قول مؤرخ قديم من مؤرخى الأدب التركى وهو لطيفى المتوفى عام ١٥٨٢ ميلادية (كل من تم له نظم بيت ردىء الصنعة مسروق المعنى ، ظن نفسه شاعر العصر وسليمان الزمان ، فلو أوردت بيتا واحدا لكل شعرور واتخذت من الأشجار أقلاما ومن المياه مدادا ، لما أبقيت فى الغابات شجرة ولا فى البحار قطرة) وفى هذا كثير من التبسط غير أنه واضح الدلالة على تعلق الترك بالشعر ومعالجتهم له ، كما يسفه افتراء فولتير الذى كان يستحقرهم لأنه لا يعرف لهم شاعرا (١) وقد الف المستشرق النمسوى (فون هامر) كتابا فى تاريخ الشعر التركى منذ نحو من مائة عام ذكر فيه أكثر من الفى شاعر مع ايراد شواهد من أشعارهم . وفى هذا ما يدحض حجة من يقول ان الترك أهل بطش وقتال لا اهل عقل ووجدان ، ولقد اتتنا مذمة الترك منذ قديم ، لأن الاوربيين ظلوا حينا من الدهر كارهين لهم مشفقين من فتوحهم التى وصلت بهم الى أبواب فينا ، فوصفوهم بالهمجية والبربرية وضربوا الأمثال

(١) Navarian, Les Sultans Poètes. (Paris 1936). P.7.

بغلظتهم وصعوبة مراسهم حتى قال أحد الكتاب سنة ١٨٦٠ منفسا عن حقده عليهم (انه لأمر عجب فى هذا القرن قرن التسامح المعتدى ، ان تعود الى الظهور أفعى التعصب المحمدى فنشاهدها وهى ترفع رأسا مشجوجا وان كان غير محطم وتكشف عن ناب سام يهدد بالموت الزؤام . وفى يقينى ان نارا ستبدو خلل الرماد القديم لتلفح نصف الشرق ، مالم يتداركها الفرنسيون والانجليز بوطأة أقدامهم . فأى درس نستفيده نحن المسيحيين وحفدة الصليبيين من تلك المذابح إلا انه من عظيم العار علينا تركنا استانبول هذا الزمان الطويل حمى تستبيحه كلاب التتار وتعيث فيه بالتنجيس والتدنيس) (١) ومقت الترك والتعصب عليهم مما ندركه فى يسر ووضوح من قول نولدكه فى مجلة الاسلام عام ٩٢٤ ان ظهورهم فى الحضارة الاسلامية يعتبر نكبة قل نظيرها فى التاريخ منذ سقوط دولة الساسانيين بايران (٢)

ولا حاجة بنا الى تبيان ما فى كل هذا الكلام من باطل وتخرص ، ولكننا نريد لنقول ان قوما يتحاملون على الترك مثل هذا التحامل لا يمكن الا أن يجحدوا حسناتهم ، وينكروا عليهم أن يكونوا أهل علم وأدب وحضارة .

---

(١) Thornburry, Turkish Life and Character, V. I. P. 12 (London M. Dccc. Lx.)

(٢) Barthold, Histoire des Turcs d'Asie centrale. P. 112 (Paris 1945)

هذا ، ولهم أدب حديث يتناسون فيه الأدب الفارسى ويستوحون الأدب الأوربى والفرنسى منه خاصة فيبلغون من السمو شأوا بعيدا ، وكان ذلك نتيجة لامناص منها لتقدم الزمن وتغير الثقافة وتبدل الأحوال ، كما كان جميلا أن يكون أدبهم الحديث ترجمان الواقع وتعبيرا صادقا عما يختلج فى نفوسهم وتاريخا صحيحا دقيقا لمناحى حياتهم ، وهو اوضح مثال لخطتهم التى اختطوها للنهضة والاصلاح ففيه أعراض شديد عن القديم وإقبال مشوق إلى الجديد ، وأدبهم جديد فى معناه ومبناه وخياله وأحاسيسه ، وقوميتهم ظاهرة فى محاولتهم تخليص لغتهم من الألفاظ العربية والفارسية ، ولهم عناية بتطويع اللفظ للمعنى ، وليس من الأغراق فى شيء قولنا ان أدبهم الحديث أدب رفيع يساير المدنية فى تطورها ويوائم النفوس فى تساميها .

وجدير بنا بعدما أسلفنا ، أن نرى لزاما على الاخصائيين فى هذا الأدب التركى أن يدفعوا اللبس ويجلوا الشبهات ويضعوا الأمور فى نصابها ، فمن وفاء الذمم أن يشيروا إلى الترك ولو بلمحة ، ويخصوهم من علمهم ولو بكلمة ، ويثيروا الاهتمام بأدبهم ويضعوه فى مكانه بين آداب الأمم ، وانها لأمانة فى عنقهم

عليهم أن يؤدوها كرامة للعلم ولا مجال للريب فى أن الفناء والضياع أخوف ما يخاف على العلم ان ظل حبيسا فى صدور العلماء ، وفى الحق أن العالم بما يكتب لا بما يقرأ ، وبما يعلّم لا بما يعلم ، ومامات رجل ترك علما ينفع الناس .

ولذلك تحرك عزمى إلى كتابة تاريخ للأدب التركى، وتوخيت عمدا وقصدا أن يكون واضح المعالم ، وجهدت ما وسعنى الجهد أن أحسن التبويب والتقسيم مع ارادة الافهام والتفسير ، لأن ذلك فيما أرى أبقى فى الخاطر واعلق بالحفظ . والملحوظ انى لم أعمد إلى ترجمة كتاب من تلك الكتب التى تكدست لدى فى تاريخ الأدب التركى ، بالتركية وغيرها من اللغات الأوربية على مافى ذلك من تسهيل للصعب وتيسير للجهد وتوفير للوقت ، وآثرت أن أضيف جديدا على أن أردد قديما ، فاستقرت نيتى على جمع مادتى من أشتات الكتب واختيار ما ارتضيه منها لأضعه فى القالب الذى يوافق منهج تفكيرى . لست تركيا فاتعصب للترك وأكرمهم فوق مقدارهم ، ولكنى أخذت من أدبهم بطرف فوجدته جيدا يستحق منا أن نرويه ونتفاوضه ، وساءنى أن يكون منسيا مسكوتا عنه ، ورأيت من أوجب واجب على أن أقوم هذا الباطل باسان ولو عيي ، لأعلم بعض

المتعلمين مالم يعلموا ، وأنبه المستفيدين إلى مالا يسعهم أن يجهلوه .

وبعد فقد أردت لنفسى أن أكون مجتهدا ما أمكنت الطاقة واسعفت المراجع ، وقد أكون مجتهدا مخطئا ولكنى مجتهد على كل حال ولا أثم على مجتهد أى مجتهد كان . وما أملى من كل هذا إلا أن يستجيب الله دعائى ، فأسمع صدى لدعوتى ، إن فى الحال أو فى المآل ؟.

حسين مجيب المصرى

القاهرة فى ١٠ يناير سنة ١٩٥١

الـــترك

جميل بنا إذ نتصدى للتعريف بالترك توطئة لتاريخ أدبهم، أن ندير الحديث على أقوامهم وبيئاتهم ومدنياتهم لنضعهم في مكانهم بين الشعوب، ونرسم لهم صورة موضحة نهتدي بها ونتفهم على أساس منها. والرأي عندنا أن نصطنع الاجمال ونؤثره على التفصيل، فعندنا في خبرهم شيء كثير، والحديث عنهم يطول، ولا جدوى من طوله في هذا المقام، لأنه قد يخرج بنا عما نحن بسبيله، خصوصا أن الترك الذين سنعرض تاريخ أدبهم هم العثمانيون، ونسبة العثمانيين إلى الترك نسبة البعض إلى الكل والفرع الواحد إلى متعدد الفروع.

فالترك من تلك الأقوام التورانية التي تسمى عليا (أورال التاي) وهم من جنس المغول والمجر والفنلنديين (١)، والدلالة على ذلك واضحة من تشابه لغاتهم المعروفة عند علماء اللغة

---

(١) تنبه ابن خلدون إلى ذلك في القرن الرابع عشر فقرر أن الفنلنديين من الترك.

باللغات الالتصاقية (١) وموطن الترك قلب القارة الأسيوية، فى تلك المنطقة التى يحيط بها بحر قزوين وجبال التاى وأورال والتبت. فبيئتهم جبلية تتخللها الوديان وتكتنفها الأحراش، وطبيعتهم شحيحة قاسية فى الأعم الأغلب، تدفعهم إلى التجوال والترحال طلبا للخير وانتجاعا للرزق. وإن التاريخ ليذكر لهم هجرتهم فى الألف الخامس قبل الميلاد إلى حوض دجلة والفرات وهى هجرة الترك الشومريين الذين سكنوا هذا الاقليم وشادوا فيه حضارة زاهرة من أولى حضارات الدنيا ويؤخذ من تصاوير الشومريين وتماثيلهم انهم يشبهون الترك فى ملامحهم، كما أن نحوا من مائتى أصل من أصول الكلمات فى لغتهم مازالت فى التركية الحديثة. ويقال ان الحيثيين فرع من تلك الشعوب التركية التى نزحت نحو الغرب منذ عهود سحيقة قبل التاريخ من برارى التركستان، ثم استقرت فى الاناضول، وأسست لها هناك مدنية عظيمة، والمعروف أنهم أول من سكن بلاد الاناضول، وسموا عاصمتهم حاتوساس سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد. وقد أثبت أحد

---

(١) إذا أردت أن تقول بالتركية فى مصر ومن مصر مثلا قلت مصرده ومصردن. فكأنك الصقت حرفين للتعبير عن هذين المعنيين. ومن هنا سميت التركية لغة التصاقية.

العلماء الأتراك المحدثين وجود كثير من وجوه الشبه بين لغة العيلاميين ولغة الترك، مشيرا بذلك الى ارتباط اللغتين والقومين بصلة القرابة (١). وإذا تجاوزنا هؤلاء الشومريين والحيثيين الأقدمين، وطوينا ذكر أسماء الشعوب التركية الكثيرة، أمكننا أن نقسم الترك تقسيما واضحا قسمين، كوك ترك والاويغور (٢)

وكان لكوك ترك مملكة واسعة الارجاء فى القرن السادس الميلادى تنتظم منغوليا وتركستان وهم شرقيون وغربيون، وقد غلب الشرقيون على أمرهم فضاع استقلالهم عام ٦٣٠ م ودانوا للصين بالطاعة وداموا على هذه الحال حقبة من الزمان حتى قام فيهم من يدعى (قوتلوغ قاغان) فرفع عن قومه نير الصينيين

---

(١) نذكر هذا مع شيء من التحفظ فمن العلماء من يحمله على وطنية المؤرخين الاتراك الذين قد يتعسفون ويتحكمون ليثبتوا لقومهم مجدا تليدا وقد بلغت العصبية بأحدهم إلى أن يقول أن الترك الأقدمين نثروا بذور الحضارة فى مصر حين هاجروا إليها من أواسط آسيا وسكنوا وادى النيل. أنظر Evernol, Revolutionary Turkey, P.3

(٢) يظن أن Hounogures أو Hongrois بمعنى المجر من أويغور. كما يقال كذلك ان منهم Ogures وهم شعب عرف، فى العصور الوسطى بالفظاظة والقسوة حتى اشتق من اسمه كلمة Ogre وهى فى الفرنسية بمعنى الغول.

واسترد منهم كل حق مسلوب ، وعاش الترك سادة فى بلادهم إلى أن ذهبت ريحهم وانقطع ذكرهم سنة ٧٤٤م . أما الغربيون فكانوا على صلة بالصين وفارس وبيزنطة ، فارتبطت هذه البلاد بعضها ببعض من جهة ، وبالترك من جهة أخرى ، ولنا أن نقول ان اليهم مرجع الفضل فى توثيق العرى بين شرق آسيا وغربها مدة مديدة تبدأ بالقرن الخامس وتنتهى بالخامس عشر ، فقد اتجروا فى حرير الصين وورقها ومضوا به إلى فارس وبيزنطة كما جلبوا إلى الصين حاجتها من سلع الفرس والبيزنطيين . ويقال ان كسرى غضب مرة على الترك فأمر باحـــراق قافلة لهم تحمل الى الغرب حريرا ، وساءهم ذلك كثيرا فما كان منهم إلا أن اشترطوا على البيزنطيين ألا يمروا إليهم على فارس . ويروى أن أحد أباطرة الصين فى سنة ٥٤٥ م . أوفد على الترك رسولا يرحب بمقدمهم فكان من كلامه أن قال (جاءنا اليوم أهل مملكة عظمى فبشرى لنا ! سيعم الخصب بلادنا ، وستغمرنا أفانين الخيرات والبركات) . وفى سنة ٥٦٨ م . تزوج الامبراطور الصينى (ووتى) إحدى الأميرات التركيات ، ولعل ذلك كان لاشتهارهن ببراعة الحسن ، فى الشعر الفارسى الحديث ذكر كثير لمدن فى التركستان يضرب المثل بحسن نسائها . ويروى أن رسولا

لملك الروم عاد إلى بلاده من بلاد الترك فأطنب فى وصف خيام الحرير وتحدث حديثا عجبا عن عرش للخاقان من الذهب الابريز، وهذا قاطع بأنهم كانوا أهل حضارة وعمران، ولم يكونوا جميعا من البدو الرحل الذين لا يعرفون من الحياة إلا شظفها وخشونتها. وتاريخ الصين فى القرن السابع والقرن الثامن لا يخلو من أخبار حروب متطاولة متلاحقة بين الترك والصين، كما أن قدرا كبيرا من تاريخ الفرس فى شاهنامه الفردوسى يقوم على الحروب بين إيران وتوران أى بين الفرس والترك.

ولكوك ترك لغة عثر العلماء على نصوص منها فى منغوليا وأهمها الكتابات المعروفة بكتابات أورخون [1] وقد كشف العالمان يادرنتيف وطومسن عام ١٨٨٩ عن نصبين يحملان كتابة تركية قديمة، أقيم الأول باسم كول تكين المتوفى سنة ٧٣١ م، وأقيم الثانى إحياء لذكرى أخيه بلكه قاغان. (٧٣٥) ونشر هذه النصوص وفسرها وترجمها العالم الروسى رادلوف سنة ١٨٩٤. وتعتبر هذه الكتابات أقدم ما نملك من وثائق للغة الترك الأقدمين، وهى تصف لنا الترك فى أيام عصبية عسفهم

---

(١) أورخون اسم نهر فى منغوليا.

فيها الخواقين عسفا شديدا ، وساءت فى الناس سيرة الوزراء فاختلت أداة الحكم واضطرب حبل الأمن ، وافترص الصينيون ذلك منهم فاستولوا على بلادهم غير أن الترك وفقوا بعد مدة فى طرد الصينين وان كان كثير من الترك قد فر إلى الصين من وجه الظلم . وظهر كول تكين فرأى أن لا اصلاح للحال إلا بقتل الخاقان فدس إليه من قتله ، وارتقى العرش بلكه قاغان وكان أخا لكول تكين ، فحقق الأخوان الأمل . واستعاد الترك مجدا قديما . وقد وردت فى هذه الكتابات نبذة من قول بلكه قاغان وهو يخطب قومه قائلا (ان للصين ذهبا وفضة وخمرا وحريرا ، وفى القلوب حر شوق الى التنعم بهذه الطيبات ، ولكن اعلموا يقينا أن الرخاء مفسدة للترك ومجلبة للشر عليه ، لأنه يورثه خورا فى نفسه يحبب إليه الكسل ولا يزعه عن السفاهة والفشل) .

أما الاويغور فسكنوا شرق التركستان وحوض نهر تاريم ، وهم يختلفون عن كوك ترك فى اللهجة والكتابة ، وفى أنهم غير رحل وأهل حضر ويستدل على ذلك من لفظ (اويغور) فإنه مع مشتقاته بمعنى الاقامة والتجمع والعيش فى وئام ، ولهم مدائن أشهرها تورفان وقره خوجو ، والعلماء يعثرون دواما على جديد

من آثارهم . وقد تأثروا بما جاورهم من مدنيات وأظهروا لذلك حسن استعداد ، فأخذوا عن الصين والهند وفارس ، وأصبحوا بذلك أعرق الشعوب التركية فى الحضارة واستبحار العمران وأعظمها صولة وعزة جانب . فرفعوا شاهق البنيان ، وشيدوا عظيم الهياكل ، وحذقوا الكتابة على الأوراق والرقوق وزينوا ما كتبوا بتصاوير تأنقوا فى تنسيقها واختيار البديع المتسق من ألوانها . وقد عثر المنقبون عن الآثار التركية على حروف نقشت فى الخشب ، فجعلوا من ذلك برهانا ساقوه على أن الأتراك الأقدمين كشفوا فن الطباعة كما كشفه الصينيون قبل الأوربيين بزمن مديد . وبلغوا أوج عظمتهم فى القرن الثامن الميلادى ثم ذهبت دولتهم باستيلاء جنكيزخان عليها فى القرن الثالث عشر . وخطهم جميل فيه أثر الصنعة وهو مشتق من الخط المغولى ، أما لغتهم فسميت فيما بعد بلغة چغتاى نسبة إلى چغتاى وهو الابن الثالث لجنكيزخان (١) . كما عرف خطهم عند العثمانيين بخط

---

(١) ازدهر فى الجغتائية ادب تركى اسلامى على عهد السلطان حسين بيقرا (١٥٠٥) فى ماوراء النهر فقد كان لهذا السلطان وزير كاتب شاعر يقال له على شير نوائى (١٥٠٠) عاش فى هراة وله

الكافرين . ولدينا فى الاويغورية أثر فريد وهو كتاب (قوداتغو بيليك) الذى الفه من يدعى يوسف خاص حاجب فى مدينة كاشغر سنة ١٠٦٩ ميلادية . وقد عاش المؤلف فى عهد بوغرا خان واستحق من مولاه لقب خاص حاجب وهو يشبه الوزير على هذا الكتاب ، ومعنى عنوانه علم السعادة أو العلم المسعد والكتاب منظوم وهو فى الأخلاق وسياسة الملك، ففيه تبيان لحق الرعية على راعيها ، وواجب المحكوم نحو الحاكم ، وتحدث الكاتب عن الفضيلة والرذيلة ، وصف أثر كل منهما فى حياة الجماعة. كما أرشد الى كثير من امور الدين والدنيا، والروح التركية البحتة تتجلى فيه من مقدمته الى خاتمته ، والنزعة الخلقية من أخص ما يتصف به . والمؤلف معتز بما كتب فمن قوله فى المقدمة (ان

= ديوان من أروع الشعر تأثر به الشعراء العثمانيون مدة تبلغ مائة وخمسين عاما . كما كتب كتابا جامعا عن شعراء الفرس فى القرن التاسع الهجرى سماه مجالس النفائس . وللسلطان بابر (١٣٥٠) فاتح الهند ومؤسس دولة المغول فيها ديوان من الشعر بهذه اللغة وكتاب يقص فيه قصة حياته . ونكتفى بذكر هذين المؤلفين فى هذا الهامش لأنهما ليسا من العثمانيين .

هذا الكتاب أعجوبة الأعاجيب ، فقد ازدان بأقوال حكماء الصين وعلمائها ، وطوبى لكل من تفهم شعره وتدبر معانيه ، لأنه بذلك لاشك مرتفع درجات . لقد أجمع أهل الذكر فى الصين والتركستان وكل بلاد المشرق على أن هذا الكتاب وحيد نسجه فريد فى بابه ، وان أقلام بلغاء الترك لتكبو دونه ويعز عليها أن تأتى بشىء مثله ، وقد سماه أهل الصين أدب الملوك ، وعرف عند أعيان البيان فى المشرق بزينة الأمراء ، أما الفرس فقالوا انه شاهنامه تركية ، وقال غيرهم انه نصائح الملوك)

وبما جرى به قلم يوسف خاص حاجب قوله (العدل والقانون متمنى عاقل الحكام ، وايما حاكم جعل العدالة رائده فقد أرسى أساس ملكه واسعد ايامه . ياحاكما يريد الخير لبلاده ، عليك أن تسوس الرعية بخلوص نية ، وإلا هوى عنك ملكك وهان شأنك ، فطهر قلبك تملك رقاب من يعاديك وعش فى سلام وانعم بالوئام ، الحاكم يهدم ملكه ان حاد عن الصراط السوى وركب الطريق على غير قصد . إذا شئت الغلبة على عدوك فكن حديد البصر مرهف السمع ، واعلم ان العمل يبنى والكسل يهدم ، فخذ من الكسل حذرك ، وإذا تراخيت فمنذا الذى يدفع عنك عداك)

وما زالت الاويغورية أو لغة چغتاى لغة حية للشعوب التركية التى تسكن حوض نهر تاريم وعلماء اللغة المحدثون من الأتراك، ينوطون بها أهميـــة عظمى ويستقون منها مايعينهم على تجريد التركية مما يشوبها من الألفاظ العربية والفارسية، وهذا مشروع علمى لهم يقومون به بدافع الوطنية، وجريا وراء نهضتهم التى ترمى إلى التجديد فى كل شىء.

وقد تألفت الشعوب التركيـة من عشائر تسمى أصغرها (سميا)[1] وأكبرها (ايل) ولكل عشيرة رئيسها ويسمى (أغا)[2] ويجتمع هؤلاء الرؤساء تحت رئاسة (القاغان)[3] ويعتبر حاكم الشعب العام. ويسمى مجتمعهم (قورولتاى) وهو أشبه شىء بدار الندوة عنـد العرب، لأنهم كانوا يدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى شئونهم من اعلان حرب أو اتمام صلح وللخاقان علم تزينه تسع خصلات من شعر ذنب الخيـل

---

(١) Semia فى الروسية بمعنى اسرة.

(٢) اطلق العثمانيون هذا اللقب فيما بعد على طائفة من الضباط.

(٣) القاغان والقاآن والخاقان بمعنى، واصلها فى الصينية hu hang.

وتسمى كل منها (توغ) (١) . ويتولى قيادة الجيش امير يقال له (تكين) (٢) ويعرف عن كوك ترك انهم كانوا يحلون أعلامهم بحلية من الذهب على هيئة رأس الذئب . وللترك قوانين تسمى بمجموعتها (توره) ويمكن اعتبارها قوانينهم المدنية ، أما قوانينهم الجنائية فتسمى (ياسا) . وللمرأة فى الأسرة التركية القديمة منزلة لا تسامى . فالقرابة من ناحية الأم والخال اكبر رأس فى الأسرة ، وكانت زوجة الخاقان تشركه فى التوقيع على مايصدره من أوامر ومنشورات . ولم يعرف التركى تعدد الزوجات الا من غيره من الشعوب المجاورة ، ومهما يكن من شيء فقد كان للزوجة الأولى من المنزلة مالم يكن للثانية . ومن عاداتهم نحر القرابين على قبور موتاهم ، وتخطيط وجوههم بنصول المدى احياء لذكراهم ، ولابد من احراق خيول الميت ، واذا مات أحدهم فى الربيع فلا يدفن الا بعد ذبول أوراق الشجر وسقوطها ، اما ان كان موته شتاء

---

(١) اتخذ العثمانيون هذا الشعار الى وقت متأخر حتى انه ليقال ان « طوخ » وهى بلدة مصرية بمديرية القليوبية ، انما سميت بهذا الاسم نسبة الى ذلك ، فقد جرت العادة بأن تنصب هذه الحصلات للوزير فى المكان الذى يزوره فتكون ايذانا بمقدمه .

(٢) كلمة فارسية بمعنى الشجاع أو البطل .

فدفنه عند اخضرار الزروع . وكانوا اهل حرب وجلاد فلا تأخذهم بالضعيف رحمة ، والموت فى الحرب عندهم شرف وفخار ، أما الموت فى الفراش فهو العار كل العار (١) . وكانوا يسمون الأعوام باسماء الحيوانات فيقولون مثلا : ولد فلان فى عام الشاة ومات فى عام النمر . وخمرهم من لبن الفرس واسمها (قيميز) (٢) ولهم شراب آخر يتخذونه من الذرة وهو المعروف باسم (ترسون) وأطلقوا على الجهات الأصلية اسماء الألوان فالشمال اسود والجنوب احمر والشرق ازرق والغرب ابيض (٣)

---

(١) ترجع الى ذلك تلك الاوصاف العنيفة التى وصفهم بها اعداؤهم كالفرس فى العصور المتقدمة والاوربيين فى العصور المتأخرة فى الفارسية والفرنسية أمثال تنسب الى الترك الغباء والقسوة والجفاء وهذا لايخلو من تحيز وشطط . وهو ان صدق على فريق منهم لايصدق عليهم جميعا .

(٢) ورد اسم هذا الشراب فى شعر نديم وهو شاعر عثمانى من اهل القرن الثامن عشر .

(٣) بقيت هذه الاسماء الى يومنا هذا مميزة للبحار : فالبحر الاسود فى الشمال والاحمر فى الجنوب والابيض فى الغرب .

واعتنق الترك اكثر من دين على مر العصور ، فقد كان كوك ترك شامانيين ، وللشاماني اله للسماء واله للارض ، ويعتقد ان بالسماء سبع عشرة طبقة من الجنات ، وان بالارض سبع طبقات من الجحيم . وفي اعلى السموات اله خالق . وإذا مات الميت وكانت روحه خيرة ، صعدت الى السماء على هيئة طائر جميل ، اما الروح الشريرة فتسيخ في الارض ، وفي المياه جنيات تسكنها وعلى المؤمن أن يقدم القرابين اليها . وعرف الترك البوذية التي تسربت اليهم من الهند ، والمسيحية النسطورية التي حملها اليهم المبشرون ، كما عبدوا اله الخير والشر اسوة بجيرانهم الفرس ، وتمذهبوا بمذهب الفناء الذي دعا اليه ماني النبي الفارسي . ثم دخل عليهم الاسلام في القرن الثالث الهجري فدخلوا في دين الله افواجا ، وليلحظ انهم تقبلوه عن رضا وطواعية ، ولم يقسروا عليه ببطش الحسام ، كما انهم لم يناقشوا تعاليمه ويكثروا من تناولها بالتفسير والتأويل . فهم أهل تسنن يطيعون الله والرسول ، ولا يميلون كثيرا الى ذلك الاجتهاد الذي قد يسوق الى البدعة ، فالمجتهدون من الترك قليل ، وهم وقافون عند الحدود ولا أدل على ذلك من منزلة شيخ الاسلام عندهم فقد كانوا على مر أيامهم لا يبرمون امرا إلا إذا افتاهم ، والعهد بهم يستطلعون رأيه في

الحروب وغيرها من الخطوب . وظهر الترك فى التاريخ الاسلامى يوم استقدمهم الخليفة المعتصم من التركستان ليستظهر بهم على الفرس والعرب ، فقد كان الفرس يطمعون فى الملك لأنهم أصحاب الدولة العباسية ، فهم الذين أقاموها ، وكان للعرب عصبيات قبلية فرقت كلمتهم وقللت من صلاحيتهم لتدبير شئون الدولة .

وكان الجند التركى قوما مفسدين فقد استعلوا على الخلفاء وغضوا منهم وأذلوهم ما وسعهم الاذلال ، فكثيرا ما خلعوهم وسملوا عيونهم وقتلوهم . وقويت شوكة الترك حتى استقل احمد ابن طولون بمصر عام ٨٧٩ م . وفى منتصف القرن العاشر منح الخليفة الراضى أحد الأتراك منصبا عظيما هو منصب أمير الأمراء ، فكانت اليه قيادة الجيوش والاشراف على مالية الدولة ، وزاد ذلك فى الطنبور نغمة فاستكبر الترك وامتلأت أعطافهم زهوا وحكموا احكم ظلم ، ولم يجدوا امامهم احدا من اهل الحول والقوة ، وضاق الناس بجبروتهم ، فاستعدى اهل بغداد البويهيين عليهم فقدموا اليهم من فارس وبددوا شمل الترك ، وورثوا عنهم لقب أمير الأمراء واحتفظوا به فيهم قرنا من الزمان ، ثم ظهر الترك الغزنويون فاستولوا على ملك السامانيين والبويهيين واتخذوا من غزنة عاصمة لهم ، واتسع ملكهم حتى شمل ايران والهند .

فادخلوا فى الهند الثقافة الاسلامية واللغة الفارسية (١) . وخلفهم السلاجقة وهم من الترك المعروفين بالغز . وعظم شأن طوغرل بك حفيد سلجوق امير التركستان وثل عرش الغزنويين ثم استولى على اقليم خراسان الذى كان للبويهيين ، ودخل بغداد ونال من الخليفة العباسى لقب سلطان واخرجه من وصاية البويهيين ليصبح فى رعايته ، ونال طوغرل بك لقب أمير الأمراء وامحت سلطة الخلفاء نهائيا واصبحت مقاليد الامور

---

(١) كانت الفارسية لغتهم الرسمية ولهم على الادب الفارسى فضل كبير فقد أمر السلطان محمود الغزنوى شاعر الفرس الفردوسى بنظم الشاهنامه وهو كتاب فى تاريخ ايران منذ اول العصور الى الفتح العربى . والشاهنامه أثر أدبى نفيس يعتز به الفرس كثيرا . هذا فضلا عن ان هذا السلطان كان نصيرا للعلم والعلماء فقد احاط نفسه بجماعة من الشعراء والادباء واغدق عليهم من عطاياه ، وسار اعقابه بسيرته ولما دخلت جيوشه الهند امتزجت لغة الفاتحين بلغة اهل البلاد فنشأت من ذلك لغه جديدة هى لغة الاردو . والاوردو فى التركيه بمعنى المعسكر او الجيش . وبذلك نسبت هذه اللغة الى الجيش الفاتح . واصبحت لغة الهند الاسلامية واحدى لغات الأدب الاسلامى .

فى يد السلاجقة ، وفى القرن الحادى عشر كان لهم ملك عريض فى آسيا الصغرى .

وفى اوائل القرن الثالث عشر هاجرت احدى القبائل التركية فرارا من وجه المغول ويممت وجهها شطر ارمينيـة تحت لواء رئيسها سليمان شاه ، ولما مات خلفه ابنه ارطغرل ، واتفق يوما ان كان ارطغرل هذا يتجول مع فريق من فرسانه فرأى جيشين يقتتلان فوقف مشاهدا ، واثار حميته ان يصرع الضعيف بطش القوى ، فبذل معونته للفئة الضعيفة حتى غلبت من كاد يغلبها ثم عرف جلية الأمر وهى ان فئة من المغول اغارت على ارض لعلاء الدين السلجوقى سلطان قونية بآسيا الصغرى . فأجازه السلطان على معونته ومروءته بمقاطعـة من مدنها اسكى شهر كما انعم على ابنه بلقب بك . وفى سنة ١٣٠٠ تمزق ملك السلاجقة ففتح عثمان وولده اورخان شمال غرب آسيا الصغرى ، ومنذ هذا الوقت نبه ذكر عثمان ابى الترك العثمانيين .

ولعثمان هذا قصة نرويها لرمزها ومغزاها فيحكى عنه فى شبابه انه كان محبا لمن تدعى (مال خاتون) فطلب يدها فرده ابوها وظل عثمان يعاوده ولكن من غير طائل ، فاستيأس العاشق وأوى الى فراشه محزونا مكروبا ، ولما غلبته عينه رأى فيما يرى

النائم كأن الهلال يطلع من بطن مال خاتون فيملأ الدنيا عليه نورا ثم يلبث برهة ويغيب فى صدره . وحانت منه لفتة فإذا دوحة عظيمة تمد أغصانها من ظهره فتلق على الارض ظلا وارفا لاتأخذ العين اطرافه ، يمتد على الانهار والجبال ومنها جبال الثاى والقوقاز وطوروس ، ونظر فوجد النيل ودجلة والفرات تنبع من اصلها وعلى شواطئها جنان خضر ومدائن عظيمة . ثم عصفت الريح واشتد عصفها ، فاستحالت اوراق الدوحة سيوفا مشرعة الى المدائن ومنها مدينة القسطنطينية (١)

وهب عثمان من نومه متعجبا من هذه الرؤيا ، وما كان بأسرع من ان انطلق الى دار مال خاتون ، وهناك وجد اباها وكان شيخا من اهل الذكر فقص عليه رؤياه ، فهش له وبش وارتضاه زوجا لابنته .

---

(١) ماأشبه هذه الرؤيا برؤيا استياج ملك ميديا . وقد كان لهذا الملك ابنة تسمى ماندان تزوجها قمبيز ملك الفرس . ويقال ان استياج رأى فى منامه كأن كرمة تخرج من بطن ابنته حتى تمتد ظلالها الوارفة على كل ارجاء آسيا . ولما استفسر عن ذلك قال له علماء المجوس بأن ابنته ماندان ستنجب ، وسيتسع ملك ابنها فى آسيا بقدر اتساع ظل تلك الكرمة التى خرجت من بطنها .

وقد حققت الايام ما رأى عثمان فى المنام ، فبسط العثمانيون سيادتهم على الاناضول فى اوائل القرن الرابع عشر ، واتسعت فتوحهم فشملت بلغاريا والصرب فى القرن الخامس عشر . ونالوا طربيزون وقرمان وارمنية والبوسنة والهرسك والبانيا والقرم فى اوائل القرن السادس عشر ، كما ملكوا فى اواسطه تونس ومصر والجزائر والشام وبغداد والمجر . وهم جد فخورين بعثمانيتهم ، وينعتون غيرهم من الترك بقلة الادراك والتخلف عن مسارتهم فيما بلغوه من عزة ورفعة شأن .

واذا كان ادب الامة دليلا عليها وتعبيرا عنها ومعيارا لرقيها الروحى ونضجها العقلى ، فلنجهد ان نقف على خبر هذا الادب العثمانى بسرد قصته ، لنعرف العثمانيين على حقيقتهم من هم .

نشأة الأدب التركى

مر بنا كيف استوثق الامر للعثمانيين ، بعد ان بنوا دولتهم على اطلال دولة السلاجقة فى الاناضول ، نخلفوها فى ملكها وورثوا عنها سلطانها . غير ان تراث السلاجقة لم يكن سياسيا وحسب ، بل ادبيا كذلك ، فهم وإن كانوا من الترك الا ان الفارسية كانت لغتهم الرسمية ، وقد بلغت الفارسية على عهدهم شأوا بعيدا المدى ، فكان الشعر فى الذروة من دقة المعنى وفصاحة المبنى ، واستفاضت شهرة الشعراء الكثيرين والشعراء المتصوفين. وكان للتصوف تيار يغمر النفوس ويفيض منه الشعر الفارسى فى القرنين السادس والسابع على الخصوص ، وامتلأت ارجاء الاناضول بالزوايا والتكايا حيث يتبتل المتبتلون ويتعبد الزاهدون ، ويلتمس أهل العقول والقلوب ان يخرجوا بأرواحهم من هذه الدنيا العبوس التى ذهبت ببشاشتها غارات للمغول يشيب من هولها الوليد ، فلم يعد فى الناس من يأمن على نفس ولا على مال ،

وازعج الضعفاء عن اوطانهم فهاموا على وجوههم ، واضطربوا فى الارض لايلوون على شىء .

ودرج العثمانيون فى بيئة روحية تميل الى رفض الدنيا والتأمل فى ذات الله وصفاتها ، ومنيتها الفناء فيه والوقوف على الحقائق العلوية التى لايلقاها الا ذو حظ عظيم . وكان ذلك جديدا على التركى خواض الغمرات ، وفارس الهيجاء الذى عرف الحياة جهادا وجلادا وهدما وتشييدا . كما احاطت بالعثمانيين بيئة أدبية شعرها الفارسى شعر صوفى كأعلى مايكون الشعر الصوفى ، فتأثروا ابلغ التأثر بالادب الفارسى ونظروا اليه نظرتهم الى مثال يحتذى .

وانه ليقف بنا التأمل برهة فنتساءل لماذا أخذ العثمانيون عن الفرس ولم يأخذوا عن العـــرب ، فنحن لانعرف من شعراء العثمانيين من حذا حذو شعراء العرب فى عصر من عصور الادب العثمانى . ومرد ذلك الى انهم كانوا بالفرس اعلم منهم بالعرب ، فقد جاوروهم وخالطوهم منذ الزمان الطويل ، ولم تكن بين الترك عامة والعرب صلة تذكر الا بعد دخول الاسلام عليهم فى القرن الثالث الهجرى ، ثم ان السلاجقة الذين عاش العثمانيون فى كنفهم ثم ورثوا ملكهم ، كانوا تركا فى جنسهم فرسا فى ادبهم وظلت

الفارسية لغة العثمانيين الرسمية فى مكاتباتهم ودواوينهم الى عهد مراد الاول ، فما بالهم يتحولون عن ابناء جنسهم وبيئتهم الى غيرهم ، وكيف يصح فى الافهام ذلك على قلة خبرتهم بالعرب ولغة العرب خصوصا فى أول أمرهم وفجر نهضتهم (١) .

---

(١) يرى الاستاذ حيدر بامات أن هذا لايخلو من شطط ، ويقول أن انكار اثر العرب أمر لا يسوغ ، لأن الترك أخذوا عن الفرس المتأثرين بالعرب ، ويذهب مع من يذهب إلى أن التصوف الفارسى نتيجة لالتقاء الدين الاسلامى بدين الفرس القديم . ونحن نرى فى هذا القول تحكما ، وهو أن جاز عقلا لايجوز واقعا . فصحيح أن شعراء الفرس أخذوا عن شعراء العرب ، ولكن الشعر الفارسى الذى عرفه الترك غير الشعر العربى . ولم يكن بين العرب والترك من الصلة ماكان بين العرب والفرس . وحتى الألفاظ العربية فى التركية إنما تسربت إليها لامتزاجها بالفارسية ، ولم يتأثر الترك خطى العرب إلا فى التشريع والفقه وعلوم الدين وجدير بالذكر أنهم لم يظهروا من الميل إلى العربية والحذق فى تعلمها ما أظهر الفرس مثلا . أما العنصر العربى فى التصوف الفارسى فلا محل لذكره هنا ، وليذكر فى تاريخ المذاهب ، وإن اختلف العلماء فى أصل التصوف كاختلافهم فى معنى كلمة صوفى . راجع Haidar Bammate, Visages de l'Islam. P.405

وكانت مدينة قونية عاصمة السلاجقة ببلاد الاناضول ، وفيها جماعات الصوفية وحلقاتهم ، وملتقى مشايخهم ومريديهم ، وقد عرفت هذه المدينة شيخا يقال له بهاء الدين ويلقب بسلطان العلماء ، رحل اليها من ايران ومعه ولده جلال الدين ، فتعلم الصبي وتأدب وشب عن الطوق وكان موضعا لحب ابيه واعزازه لغزارة علمه واشتهار فضله . وخلف اباه فى مشيخته واصبح من يدعى جلال الدين الرومى ، نسبة الى بلاد الروم ، وهى الاناضول ، التى استوطنها . وهو اشهر من ان يعرف لانه اعظم شعراء الصوفية غير منازع ، وله فى الفارسية كتاب المثنوى . والمثنوى هذا منظومة صوفية فى نحو من ثلاثين الف بيت وهى موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقا الى شاطىء البحر الابيض غربا ، ومرجع لكل من اراد الماما بعقائد الصوفية ومبادئهم وعقائدهم ، كما ان لجلال الدين الرومى ديوانا كبيرا جيدا من الشعر ، وكان للمثنوى وهذا الديوان ابعد الاثر فى بلاد ،

وزن الشعر التركى

أخذ الترك شعرهم عن الفرس بأوزانه ومصطلحات عروضه ، والعروض الفارسى عروض عربى تناوله الفرس بشىء من التغيير =

والتحوير ، فتصرفوا فى الزحافات والعلل ، واصطنعوا بحورا قل فيها شعر العرب كالمجتث والمضارع والمقتضب ، كما زادوا فى الشعر ابحرا واجزاء خاصة بهم ، وعلى ذلك نجد عند الترك الأوزان العربية القديمة المألوفة إلى جانب تلك الأوزان الفارسية الحديثة المبتكرة ، وبعض اوزان وانماط من النظم لا عهد للعرب بها ولا للفرس. وإذا طلبنا تفصيلا لذلك قلنا ان الترك عرفوا عن الفرس ذلك النظم المعروف بالمثنوى نسبة إلى كلمة « مثنى » وشرطه أن يكون الشطران من روى واحد لا يلتزم فى بقية المنظومة ، وقد نظم الفرس فى هذه المثنويات شعرهم القصصى وملاحمهم المطولة ، لأن هذا النوع من المنظومات أطوع مايكون للشاعر وأعون على إمتداد النفس واتساع الأفق ، ومن هذه المنظومات الشاهنامه للفردوسى والمثنوى لجلال الدين الرومى والقصص الخمس لنظامى ، أما عند الترك فمنها ترجمة الشاهنامه لشريفى وترجمة المثنوى لنحيفى ، والقصص الخمس ليحيي بك.

والغزليات من أحب المنظومات إلى شعراء الفرس والترك وأوفقها لطبعهم ، والغزل منظومة ذات روى واحد لا تقل أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر ، والأصل فى موضوعها الغزل وقد تتناول أحلام الصوفية من خمر وغناء للبلبل بين الزهر ، ومما يلتزمه شاعر هذا الغزل أن يذكر اسمه الشعرى فى البيت الأخير أو

=قبل الأخير وهو ما يعرف عند الفرس والترك بالتخلص او المخلص ويسميه الاوربيون Nom de plume ويختار الشاعر تخلصه من اسمه كالشاعر التركى المتخلص بباقى واسمه محمود عبد الباقى . أو من اسم مولاه وممدوحه كالشاعر الفارسى المتخلص بسعدى نسبة إلى الأمير سعد بن زنكى واسمه مشرف الدين مصلح . أو من اسم حرفته أو حرفة أبيه وبلده وما يجرى هذا المجرى . وشعراء الفرس والترك معروفون بأسمائهم الشعرية ومرتبون عليها فى كتب سيرهم المعروفة بالتذكرة . ومن هذه الغزليات غزليات حافظ الفارسى وفضولى التركى .

ومما أخذه الترك عن الفرس الرباعى وهو يتألف من أربعة أشطر فقط يتفق فيها الأول والثانى والرابع فى الروى ويختلف الثالث . وهو من بحر الهزج . وهذا الضرب من النظم موافق للشاعر على عرض فكرة بعينها لأنه وحدة مستقلة ، فالرباعية لا ترتبط بغيرها . ومن هذه الرباعيات رباعيات الخيام الفارسى والقاضى برهان الدين التركى . ويقال ان الرباعى وزن فارسى أصيل .

وكثيرا ما نصادف عند الترك نوعا من النظم يسمى القطعة والفرق بينها وبين القصيدة والغزل أن روى الشطر الأول من بيتها الأول يختلف عن روى الأبيات التالية وقد تقصر القطعة فلا تزيد على بيتين وإذا ما حذفنا البيت الأول من القصيدة أو الغزل ، فالمتبقى هو القطعة أما المسمط ففيه تتوالى أربعة أو خمسة أو ستة أشطر متفقة فى رويها=

ثم يختص شطر بروى تشاركه فيه نظائره .

وترجيع بند وهو منظومة يسمى كل قسم منها خانه بمعنى بيت فى الفارسية ويحوى كل من هذه الأقسام أبياتا متفقة فى الروى يتلوها بيت مستقل يكرر بعد كل قسم ومثاله ما مدح به الشاعر واصف من يدعى حسين باشا .

ويختلف تركيب بند عنه فى هـذا البيت المستقل الذى لا يكرر لارويه ومثاله مرثية باقى التى رثى بها السلطان سليمان القانونى .

والمستزاد غزل تزاد بضع جمل أو ألفاظ على كل شطر فيه ولا بد أن تكون فى وزنها ورويها كالشطر الذى سبقها .

ومما أولع الترك به التاريخ ، وهو بيت أو أبيـات يذكر فيه تاريخ شيء أو تاريخ وفاة فى البيت الوحيد أو الأخير وذلك بحساب الحروف كتواريخ الشاعرة ليلى هانم . كما أكثروا من نظم مايعرف بالنظائر وذلك أن ينظم شاعر قصيدة يعارض بها قصيدة لشاعر آخر على أن تكون القصيدتان من نفس البحر والروى . وللشاعر لطيفى نظيرة اوردها فى تذكرته معارضا بها قصيدة لزينب هانم ، ولأحمد باشا نظائر قلد فيها نيازى .

وللترك منظومات تركية أصيلة تسمى توبوغ ، وهى شديدة الشبه بالرباعيات الفارسية غير أنها من بحور أخرى ولا ينظمها إلا شعراء الشعب وإن كنا نجدها عند نسيمى والقاضى برهان الدين

ولهم ما يعرف بتركو بمعنى أغنية أو نشيد وهى من الشعر الشعبي كذلك وتتألف من أربعة أشطر ثلاثة متفقة الروى والرابع مختلف ومما يدل على تركيبها أن الأوائل من شعراء الترك نظموها فى بدو ظهور الشعر التركى ، ولنامق كمال بك نشيد وطنى يسمى (وطن توركوسى)

وللتوركو ما يشبهها وتسمى (شرقى) ومعناها اغنية كذلك غير أنها أوفر من التوركو حظا من الجمال الأدبى أو أنها الصيغة الأدبية للتوركو المنظومة على أصول العروض ، وتختلف عن القصائد والغزليات ببساطتها وقلة العناية بالصنعة فيها وذلك الجو المرح الذى تموج فيه فيجعلها أوفق ما يكون للغناء والتنغيم ، وقد اشتهر بها الشاعر واصف الاندرونى . ومن المنظومات الشعبية مايسمى (مانى) وتتألف الواحدة من أربعة أشطر لا تزيد ولا تنقص ، وكيفية إلقائها لا يخلو من طرافة ، فإذا كانت ثلة من الفتيان فى قارب مثلا ومروا بقارب فيه فتيات ، ألقى الفتيان هذه المنظومة ، فردت الفتيات بأخرى ، وقد تدوم هذه المطارحة بعض الوقت .

وللترك وزن قديم خاص بهم يسمى بالوزن الهجائى أو حساب البنان وهم لا ينظمون فيه على اصول العروض الفارسى وتفعيلاته وانما يزنون الشعر على حركات الاصابع ، وقد بعثوا هذا الوزن القديم واصطنعوه فى اواخر القرن السابع عشر حين استيقظ فيهم

قدر للشعر التركى العثمانى أن يظهر فيها ، وتنسب إلى جلال الدين آبيات تركيـــة هى أول باكورة للشعر التركى ، يقول فيها (أنا اصطفيك من دون الأنام حبيبا كما قد تعلم ، والكمد لاشك قاتلى ان لم تجد بوصال منك يحييني . لله ما أسعدها لحظة تلك التى اراك فيها الى جانبي ، سأتعلم لغة الترك ، وأكب على الشراب أرشفه رشفا)

وليست هذه الأبيات من الأهمية بمكان عظيم ، وانما الأهمية لصاحبها الذى نشر طريقته الصوفية فى الأناضول ثم مات سنة ٦٨٨ هجرية ، بعد ان اعقب ولدا لقنه تعاليمه واهله لينشر دعوته من بعده ، ويدعى سلطـان ولد . وقد ادبه ابوه فأحسن تأديبه وقال له انت اشبه الناس بى خلقا وخلقا ، وما ذاك الا لكونه عالما بتعاليم ابيه ومراميه ، قادرا على تفسير

= الوعى القومى ، ونظم فيه بعضهم حتى عام ١٨٧٩ ثم ظهر عبد الحق حامد بك وادخل على الشعر التركى انواعا من النظم الاوربى . وفى هذا الوزن منظومة بعنوان الفرسان لأنيس جيبج .

اما الوزن العربى الاصيل وهو القصيدة فقد نظم الترك فيه كذلك ونصادفها كثيرا عند فطاحل شعرائهم كنفعى وباقى .

المبهم من معانيه وبذلك اصبح اسلافه خير الخلف ، ونال عن جدارة منصب جلال الدين الروحى ، فاتسع على يديه انتشار طريقته المعروفة بالطريقة المولوية وعمرت بها القلوب بعد شرح غوامضها وحل رموزها . وقد اقام فى خلافته الصوفية ثلاثين عاما .

وله شعر فارسى لا يعنينا بقدر ما يعنينا شعره التركى ، فله منظومة تركية سماها (رباب نامه) اى كتاب الرباب ، وتعتبر اول محاولة جدية للنظم بالتركية العثمانية ، واقدم اثر شعرى نملكه بهذه اللغه وهو فى شعره هذا لا يورد من الألفاظ العربية والفارسية الا قليلا الى جانب الفاظه التركية التى تخفى علينا معانى اغلبها لانها غريبة مهجورة بالقياس الى لغة العصور التالية . واسلوبه ظاهر السهولة عار عن الزينة خال من المحسنات اللفظية ، وعنايته بالمعنى قبل عنايته باللفظ ، وقد ترتب على ذلك عدم استنكافه من تكرار يشوه الجمال الأدبى ويصف شعره بالركاكة فى بعض المواضع . وهذا محمول على انه اخذ نفسه بالتزام منهج تعليمى لا يرتضى عنه حولا . ومن قوله فى (رباب نامه) . (اعلم ان مولانا جلال الدين الرومى قطب الأولياء ، فألق السمع الى قوله ، والزم نفسك ان تعمل به ، فما كلماته الغر الحسان إلا رحمات من

رب العالمين ، وفيها للعين العمياء نور ترى به معالم طريقها ، وانى لاستلهم الله قدرة لى على ان اوفيه حقه من مدح وتمجيد . انا خالى الوفاض من نشب ولا املك من حطام هذه الدنيا شيئا ، فكيف اجود بما ليس عندى ! وما غناى الا بتلك الكلمات التى تبصر من عمى وتهدى من ضلال ، وهى النفائس التى لا يرضى العاقل بديلا بها . زينة الدنيا وزخرفها الى تراب ، اما الكلمات فالى خلود واللفظ يبقى ابدا ، اما المال فيذهب بددا بددا . فامسك على نفسك ما يبقى ، واقطعها عما يفنى . الا فلتدع ربك فى صلاة باكية ، ولتضرع اليه ان يمد عليك جناحا من رحمته ، وقل له : اللهم فتح عيونى لرؤيتك واجعلنى كالقطرة تسقط فى البحر اللجى وتمتزج بأمواجه وامواهه ، فتخلد خلود البحر الى آخر الدهر) وهو هنا يذكر اباه بالحسنى ممتدحا تعاليمه داعيا اليها ، ويجرى على عادة المتصوفة من ذم الدنيا والزراية على مفاتنها وطيباتها ، فغنى المال فقر ومتاع الحياة غرور ، والسعيد من سمت روحه فطلبت الفناء فى الذات الالهية ، وامتزجت بالوجود الذى هو فى الواقع مظهر لوجود فاطر السموات والارض ، ومجال لقدرته تأتى فيه من الاعاجيب مالا تدركه الاوهام ، وتسمية الموجودات بالموجودات تسمية رمزية مجازية ، وذلك لانها مظهر للتجلى ، وهى موجودة بوجود

الخالق سبحانه، اما من حيث ذاتها فمعدومة .

وله مقطوعة رمزية يصور فيها صلته بالله على اختصار ، فيرمز لله بالنور ويشبه قلبه بالدار ، ونفسه الانسانية الأمارة بالسوء بمن يتلصص ، فيقول (ان نورا يضىء الليلة دارك ، فكأن البدر يسكنها بضيائه ، ولن تعرف الظلام بعد اليوم ، فلا ظلام مع هذا البدر . اما ذلك المتلصص الذى يعيش فى ستر فسوف ينكشف أمره فى النور) .

ومات سلطان ولد سنة ٧١٢ هجرية بعد ان عاش فى عهد السلطان عثمان ، فعاصر من اسس الدولة سياسيا من اسسها ادبيا (١) .

ولدينا شاعر آخر نذكره ولا ننساه لانه يعبر اصدق تعبير عن الروح التركية فى عهد نشأة الشعر التركى وهو يونس امره ومعنى اسمه يونس العاشق . ومن عجيب امر هذا الرجل انه

---

(١) من مؤرخى الادب من ينسب شعرا الى السلطان عثمان بالتركية الدارجة ، كما تنسب ابيات الى ولده ارطغرل ، وهذا الشعر منحول وان نظرة اليه لتكفى فى رفض نسبته الى قائله ، لان لغته لغة العصور المتأخرة ، ولذلك طوينا ذكره وقطعنا النظر عنه .

كان أميا كما تقول كتب التراجم، فلم يكن جزيل الحظ ولا ضئيله من تلك العلوم التي يفنى فيها البلغاء اعمارهم، ويجعلون على انفسهم ان يحيطوا بشيء منها، لتكون ذخرا لهم يستمدون منه ونورا يستضيئون به. فقال الشعر منطلقا على سجيته، وقد اعانه على ذلك طبع مداد وملكة اصيلة. فكان ملهما فيما يقول بأجمع معاني الكلمة. وشعره زاخر بالتعاليم الصوفية بلا تكلف ولا تعسف ولا شحذ لقريحة، والملحوظ عليه انه يخلو من زينة اللفظ خلوا يكاد يكون تاما. ويؤخذ من هذا ان يونس امره لم يكن من علماء الصوفية. فلا وجه لشبه مطلقا بينه وبين سلطان ولد مثلا، وانما كان عارفا، والعارف عند اهل التصوف، ملهم يلقى اليه، وكل قوله وعلمه وحي يوحى. وهم يفسرون ذلك بأن العلم علمان: علم الظاهر ويتوصل اليه بالتعلم وكد الذهن، وعلم الباطن، وشرط الاحاطة به صفاء النفس وخلوص القلب، والاقلال من الكلام والطعام والاعتزال عن الانام، حتى تتطهر الروح وترتفع عنها حجبها، وبذلك ترى ما لا تراه عينان وتسمع ما لا تسمع الاذنان. فعلمهم لا يستلزم عندهم امعان النظر وإعمال الفكر، وانما يستقى من منبع الالهام. وهذا لا ينفي مطلقا ان يكون يونس امره قد وعى كل ما عرف قومه عن التصوف،

واحسن التعبير نظما ، لانه مطبوع على الشعر ، فلم تمس حاجته الى استتمام اداة هذا الشعر ، كما ينهض دليلا على رواج التصوف وانتشار تعاليمه فى الاناضول . قيل وقد اظهر يونس امره الكرامات ووعظ وارشد وهز قلوب من جلس منه مجلس المسترشد المستفيد . وكان تأثيره على سواد الناس ابلغ من تأثير سلطان ولدو جلال الدين الرومى ، وذلك لوضوح معانيه وسهولة مراميه . ونظم الدعوة الى الصبر والقناعة ، كما زهد فى محبة الدنيا وقبح التهالك على حطامها . غير ان هذه المنظومات لا تعد شيئا بالقياس الى شعره الصوفى المحض كقوله (تعال وامض بنا الى الحبيب ولنكن شريكين . تعال وليكن منك دليلى ، ووجه الحبيب قبلتنا . تعال واطرح هموم قلبك ، فهمنا لقيا الحبيب وزايل معى هذه الدنيا فانها الى زوال . لا لا تفارقنى والى الحبيب سر بى . لادوام للدنيا على حال فاصح من سباتك وانتبه من غفلتك ، والى الحبيب هيا بنا ولنكن صفيين) ويلوح انه بهذا الشعر يدعو الى طريقته ويريد بغير الصوفى أن يكون مثله صوفيا .

وقال من مناجاة لربه يبوح فيها بذات نفسه ، ويفصح عما يجول فى قلبه (ان سألتنى يا الهى فهأنذا اجيبك ، انا ان كسبت

خطيئة فما ظلمت إلا نفسي ، ولا قصدت بشيء ذاتك العلية يارب.
الذنوب ارجاس ، واهلها جيف دنسة ، فهلا نزهت موازينك
عن ان تزن ادناسا وارجاسا ، فلو سترتها بفضل من رحمتك . .
وإن كان الشرك اثما كبيرا ففى يدك انقاص الشر ، وزيادة الخير،
وانقاص الخير فى يدك وزيادة الشر ، واذا أردت لى النار فانظر
الى كيف احترق ! وحاشا لله ان يكون ذلك منك يارب الأنام .
وإذا ما امتنى فصرت ترابا ، وامتلأت عينى ترابا ، فانت عليم
بنيتى نحوك لأنك عليم بذات الصدور ولايخفى عليك ماظهر وما
بطن ، ولكن هل يستحق إنسان مثلى وهو حفنة من تراب كل
هذا القيل والقال ، يا كريما ذا الجلال ، انا لا املك سوى ذلك
من جواب ، وهذا كلامى والله اعلم بالصواب)

وهذا مثال جيد للشعر الصوفى الشعبى ، ففيه نشوة الهية ،
وقد ادى اداء صوفيا فيه اخبات وتوكل ، واظهار لضعف
الانسان امام عزة الرحمن ، كما ان فيه ذكرا للرأى القائل بان
الله لا يريد بأحد شرا ، وان الناس هم الذين يختارون "شر لأنفسهم ،
ويذهب البعض الى ان يونس امره كان من البكتاشية ويوردون
قصة فحواها ان يونس هذا كان يعيش فى قرية من صغار القرى
يقال لها صارى كوى ، واتفق فى احدى السنين ان احتبس المطر ،

فخاب زرعه وساءت حاله . وكان يونس قد سمع بان حاجى بكتاش كريم معطاء لايرد سائلا فرأى ان ينتجع كرمه ، ومضى اليه وهو يحمل هدية من الفاكهة . ثم لبث اياما فى ضيافته ، ولما هم ان ينصرف ، خيره حاجى بكتاش بين ان يعطيه قمحا وان ينفخ فيه من بركته انفاسا على جارى عادة الصالحين الذين كانوا يمنحون البركات مريديهم بهذا الصنيع . فاختار يونس القمح ومضى . وما مضى بعيدا حتى ادركه الندم وعاد الى الشيخ ، فدفع اليه القمح وسأله ان يهبه البركة . وقال الشيخ ما الى هذا سبيل لأن (مفتاح رحلته) قد ارسل الى من يدعى طاپدق امره . وانطلق يونس اليه ، وتخدمه طاپدق خادما فكان يونس يحتطب له كل يوم . وبعد اربعين يوما عاد الى شيخه الذى استقبله فى حفل عظيم . واستندى شاعريته لأن (طريق العودة) قد فتحت له . فانطلق يونس امره على سجيته وقال شعرا لاعهد للسامعين بمثله حسنا (١)

وله تسعة ابيات رمزية فى السلوك يتبرك دراويش البكتاشية بحملها فى حزمهم . وقد الغزها فعمى مراده واتى به مشتبها واضمره على خلاف ما اظهره . وقال فى البيتين الأولين (طلعت على

---

(١) Birge, The Bektashi Order of Dervishes. P. 53 (Hartford 1947)

شجرة البرقوق واكلت منها العنب ، ونهرنى صاحب البستان قائلا لم تأكل من جوزى ، وضعت لبنة فى القدر وأغليتها بالشمال واتندمت بلبها وقدمته لمن سألنى اماهذا ؟)

وقد شرحها محمد نيازى المشهور بالمصرى فى القرن الحادى عشر الهجرى . (٢)

ولا يعرف تاريخ وفاته على وجه التحقيق ، والمشهور انه توفى عام ٨٤٣ هـ

هذا وقد اتم الشعر التركى دور نشأته بفضل جلال الدين الرومى وسلطان ولد ويونس امره ، فجلال الدين صاحب الفكرة واول من نظم ابياتا بالتركية ، وسلطان ولد شارح الفكرة ، وناظم شعر تركى الى جانب شعره الفارسى . اما يونس امره فعبر عن الفكرة بشعر تركى خالص . وقد تأثر شعراء الترك بهم اجيالا طوالا كما سنرى فى مقبل الفصول .

---

(١) انظر هذا الشرح وترجمته فى (التصوف الشعبي فى الأدب التركى) للاستاذ حمزة طاهر بفصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الثانى - ديسمبر ١٩٥٠

عصور الأدب التركى

إذا شئنا ان نقسم الأدب التركى عصورا أسوة بغيره من الآداب ، ألفينا ذلك امرا ليس بيسير ، وراعنا ان مؤرخى هذا الأدب من علماء الترك وعلماء الفرنجة مختلفون اختلافا لاعهد لنا به لدى مؤرخى الآداب الاخرى كأدب الفرس والعرب مثلا . وهم حتى إذا اتفقوا على عصر او عصرين ، لايتفقون على بقية العصور ، وان المؤرخ المتأخر الذى يرى ذلك شأن من سبقوه لواقع فيما يشبه الحيرة ، خصوصا إذا ذكرنا ان اتباع المنهج العلمى الأقوم يحتم عليه ان يبدأ من حيث انتهى سلفه ، ويستدرك عليهم آراءهم ، متمما بذلك مالم يتموا ومضيفا الى قديمهم جديدا . وهؤلاء المؤرخون إذا راعوا الترتيب الزمنى وهو امر بدهى لامحيص عنه ، فإن منهم من يجمع حشودا من الشعراء يصعب ان نميزهم بعصرهم او نميز عصرهم بهم .

وإذا تتبعنا التاريخ الأدبى عند الترك ، وجدنا ان اقدم

آثاره تلك الكتب المعروفة (بالتذكرة) [1] وما هى فى واقع الأمر الا معاجم للشعراء تضم اسماءهم وشذرات عن حيواتهم وبعض الأمثلة من شعرهم ، ومن التحكم ان نعتبرها تواريخ ادب بالمعنى السابق الى الذهن . اما الكتب التركية الأحدث عهدا ككتاب خرابات لضيا باشا [2] وهو مختارات من الشعر العربى والفارسى والتركى فإن فيه مقدمة منظومة عن شعراء الترك تعتبر اول محاولة لتأريخ شعرهم . والشعراء فيها ثلاث طبقات فالأوائل الى عهد الشاعر باقى والاواسط الى عهد نابى ، ويأتى بعدهم الاواخر والشاعر فيهم نادر . ولو امتد الزمان بضيا باشا لتحدث عن شعراء المدرسة الحديثة ، تلك المدرسة التى كان من اوائل روادها .

ولدينا بعد ذلك فائق رشاد صاحب تاريخ الأدب العثمانى [3] الذى قسم هذا الأدب اثنى عشر عصرا وسمى كل عصر باسم شاعره ، وتلك العصور هى عصر عاشق باشا وشيخى واحمد باشا

---

(١) مثل تذكرة لطيفى وهو شاعر تركى من اهل القرن العاشر الهجرى ، وكتابه من أقدم ما ألف فى هذا الموضوع

(٢) ضيا باشا ـ خرابات ٣ ج (استانبول ١١٩١ هـ)

(٣) فائق رشاد ـ تاريخ أدبيات عثمانيه (لم نقف لطبعته على تاريخ)

ونجمانى وذاتى وباقى ونفعى ونابى ونديم وراغب باشا وشيخ غالب وشناسى .

ويتلو تلوه عبد الحليم ممدوح فى التقسيم بالشعراء فيعقد فى كتابه [1] فصولا ثلاثة يتحدث فى اولها عن مميزات الأدب ثم يجعل للفصلين التاليين عنوانين هما من سنان باشا الى عاكف باشا ومن عاكف باشا الى العصر الحاضر .

وعندى ان تصور الأدب مقسما على حسب الشعراء تصور ناقص ، لأن الذهن يتجه اول مايتجه الى تحديد زمان الشاعر وتعرف مكانه من بيئة ادبية لها مايميزها عن غيرها . ولا ريب فى ان فائق رشاد قد ركب الشطط فى تقسيمه ، فليست الفوارق بين شعرائه الاثنى عشر من السعة بحيث نتصور معها اثنى عشر عصرا ، وسنرى بعد برهانا قاطعا على ذلك .

اما شهاب الدين سليمان فقد جعل للأدب العثمانى عصرا اولا وعصرا ثانيا ثم عهدا حديثا فى كتابه تاريخ الآداب العثمانية [2] . على حين نراه فى كتاب آخر الفه مع كوپريلى زاده محمد فؤاد [3]

---

(١) عبد الحليم ممدوح - تاريخ أدبيات عثمانيه (استانبول ١٣٠٣هـ)

(٢) شهاب الدين سليمان - تاريخ أدبيات عثمانيه (استانبول ١٣٢٨هـ)

(٣) كوپريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان - يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى (استانبول ١٣٣٢هـ)

يسمى التاريخ الحديث للآداب العثمانية ، يطلعنا من مؤلفه هذا على مدخل ودور للادب يدعى الدور الصوفى ثم دور السراى وبعده دور الكمال ثم دور الفكر . والمؤلفان موفقان في اختيار الأسماء على مسمياتها . ومن كتاب (دروس في تاريخ الأدب) لآكاه سرى [١] نرى هذا التاريخ مقسما على حسب القرون وللأدب الشعبي ذكر فيه . ونلحظ على هذا الكتاب انه غير مترابط الفصول والابواب . وعصور الادب التركى عند اوزون [٢] ثلاثة ، عصر ماقبل الاسلام وعصر التأثر بالاسلام ثم عصر التأثر بحضارة الغرب . ولن يتصور القارىء العربى هذا التقسيم للأدب التركى الا إذا تصور مثله للادب العربى وهيهات .

هذا ما لدىّ من الكتب التركية التى ارّخت الأدب التركى ، اما الكتب الافرنجية فاقدمها كتاب هامر النمسوى المعروف بتاريخ الشعر العثمانى [٣] وهو فى اربعة اجزاء وعصور الادب

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri (Istanbul 1939) 3c.

(٢) Mustafa Nehat Ozon, Son Asir Turk Edebiyati Tarihi (Istanbul 1945)

(٣) Von Hammer - Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst (Pesth1836)

عند هذا المؤلف خمسة كعصور التاريخ السياسى فى كتابه (تاريخ الامبراطورية العثمانية) ومما يؤخذ عليه الاطالة وقلة العناية بتمحيص الآراء. وهذا العالم ظاهر التأثر بالكتب التركية المعروفة بالتذكرة. واشهر واوسط ما اخرج للناس عن الادب التركى، تاريخ الشعر العثمانى للمستشرق الانجليزى جب [١] وهو كتاب جامع فى ستة اجزاء، وصاحبه كثير التفصيل مستفيض الدراسة يتحدث عن العلوم الاسلامية ثم يجمع الشعراء المتميزين بطابع مشترك ويحدد بالقرون وحكم السلاطين.

وفى فصل قصير بكتاب (تركيا) [٢] ذكر لين پول أن لأدب الترك عصرين، القديم والحديث واشار الى بعض الكتاب والشعراء، مميزا كلاً منهم بعهد السلطان الحاكم. وقد نص على ان عهد سليمان القانونى هو العصر الذهبى للادب التركى، وعصر محمود الثانى عصر التحول وبداية التجديد باطراح تقليد الفرس، والنهج منهج الفرنسيين. غير ان المؤلف يغفل ذكر كثير من الشعراء ما كان ينبغى لذكرهم ان يغفل.

---

(١) Gibb, A History of ottoman Poetry (London 1910)

(٢) Lane-Poole, Turkey (London 1908)

وللكاتب الارمنى باصماجيان تاريخ للأدب العثمانى [1] يقسمه فيه الى عصر قديم ووسيط وحديث ، ويذكر لمحات عن الشعراء دون ايراد امثلة من شعرهم ، كما ينحو باللائمة على من سبقه من المؤرخين الذين لم يخصوا النثر الفنى بقسط وافر من عنايتهم .

وعرض منتزل تاريخا للادب التركى ضمن مجموعة تعرف بالآداب الشرقية [2] وهو عرض سريع فيه كلام عن الأدب القديم والحديث والشعبي

وفى كتاب (اللغة التركية دراستها وتدريسها) [3] جعل هاختمان للأدب التركى عصورا اربعة ، الأول عصر نشأة اللغة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والثانى العصر القديم الذى حذا فيه الترك حذو الفرس ، وذلك فى القرن السادس عشر ، والثالث عصر التحول فى القرن السابع عشر والثامن عشر والنصف الأول من التاسع عشر . ثم قال ان الترك جهدوا ان

---

(١) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la litterature ottomane (Paris1910)

(٢) Menzel, Die türkische Litteratur (Die orientalichen Litteraturen) (Berlin 1925)

(٣) Hachtmann, Türkisch, wie man es erlernt und lehrt (Stuttgart)

يتخذوا لهم ادب قوميا فاخفقوا ، اما العصر الرابع فعصر التأثر بالأدب الفرنسى وذلك منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر . وقد وصف كتيبه هذا بانه نظرة عابرة ، وتمييزه لعصور الادب جيد لا بأس به غير انه لم يوفق فى قوله ان الترك اخفقوا فى اتخاذ ادب شعبي خاص بهم . ومن اسف انه ذهل عن ذكر تاريخ لطبع كتابه ، وان غلب على الظن انه الف فى عام من الاعوام العشرين الاولى من القرن العشرين .

وقسمت الكاتبة التركية خالده اديب ادب العثمانيين الى عدة اقسام فى كتابها (الصراع بين الشرق والغرب فى تركيا) فتحدثت عن فن كتابة التاريخ عند الترك وذكرت المدرسة الصوفيه ثم المدرسة الواقعية التى عرفت فى نهاية القرن الثامن عشر ثم المدرسة الحديثة (١)

وقد خص افرينول هذا الادب بفصل مقتضب فى كتاب (تركيا الثائرة) (٢) فقسمه الى ادب الشعب وادب القصور أو الادب الديوانى ثم الادب الدينى او ادب التكايا . وان وجازته

Halide Edib, Conflict of East and West in (١) Turkey (Lahore 1935)

Evrenol, Reuolutionary Turkey (Ankara 1936) (٢)

المخالة لتقلل من قيمته العلمية فهو لا يعتبر تاريخا بالمعنى الصحيح وان كان يطلعنا على رأى تركى من ابناء الجيل الحديث فى آداب لغته.

وقد تحدث نافاريان عن الادب التركى فى هامش من كتابه (السلاطين الشعراء) (١) فقال ان لهذا الادب مدرستين، مدرسة اسيوية تبدأ من سنة ١٣٠٠ ميلادية وتنتهى بموت السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٨ . ومدرسة حديثة او اوربية اسمها شناسى وهى تبدأ بعهد عبد المجيد الاول عام ١٨٢٩ . وهذا تقسيم صحيح وان كنت أرى أن يلحق بهاتين المدرستين غيرهما .

وتصدى روسى فى كتاب (تركيا الحديثة) (٢) لحياة الترك الثقافية فجعل لها ثلاثة عصور، عصر ماقبل الاسلام وعصر مابعد الاسلام والعصر الحديث، وميز كل عصر بسماته. وهذا لايخلو من موضع للتجريح . فالعصر الذى يسميه عصر ماقبل الاسلام، لانملك من أخباره الا النزر اليسير، وهو لايكاد يذكر الا فى مقدمات الكتب التى تؤرخ الادب العثمانى، ومن الاقحام ان نعتبره عصرا اولا، خصوصا اذا جعلنا له عصرا ثانيا يمتد أكثر

---

(١) Navarian, Les Sultans Poétes (Paris 1936)

(٢) Rossi, La nuova Turchia (Firenze 1939)

من عشرة قرون ، ولا يصح فى الفهم ان نضع عصرا ادبيا واحدا فى هذا الزمن الطويل دون ان نقسمه اقساما ، اللهم إلا اذا اكتفينا باللمحات والاشارات .

وللادب التركى تاريخ فى فصل قصير بكتاب مظاهر الاسلام لحيدر بامات (١) . وهذا الكاتب يلحق كل شاعر بالقرن الذى عاش فيه .

هذا كل ما تحصل لى من كتب تورخ الأدب التركى، ووسيلتى منقطعة الى غيرها مما ليس فى حوزتى . وهذه الأمثلة التى قبستها منها تدل دلالة واضحة على اختلاف اصحابها فى تعيين عصور هذا الأدب . والذى اراه سببا لذلك ، هو ان اسرة واحدة من السلاطين قد حكمت العثمانيين واقامت فى حكمها من عام ١٣٠٠ الى عام ١٩٢٢ فترتب على ذلك ان استحال تمييز العصور الأدبية بأسماء الأسر أو الدول الحاكمة كما هى الحال فى الأدب الفارسى والعربى مثلا . كما كان لتأثر شعراء الترك بالتصوف تأثرا شديدا وتهالكهم على تقليد الفرس ، باعثا قويا لبعض المؤرخين على اعتبار الشعراء المتصوفين والمقلدين للفرس من مدرسة واحدة

---

(١) Haidar Bammate, Visages de l'Islam (Lausanne 1946)

وعصر أدبي واحد هو العصر القديم الذي تلاه عصر حديث طرح شعراؤه التصوف والتأدب بأدب الفرس وتطلعوا الى الأدب الفرنسي يترسمون آثاره ويحتذونه مثالا .

فعلى اى نهج نسير ، وأى تقسيم نختار ؟ واين يبلغ جهد المجتهد بعد الذى كان من اختلاف الجهابذة الأعلام ؟

الواقع من الحال اننا إذا نظرنا حق النظر فى اقوالهم ، رأيناها متكاملة غير متناقضة فليس فيهم من يضع شاعرا قديما فى العصر الحديث، ولا شاعرا حديثا فى العصر القديم مثلا، واختلافهم اعتبارى لأن مرده الى اختلاف وجهات نظرهم ، والى ميل بعضهم الى الاجمال وبعضهم الآخر الى التفصيل . ونحن نرى اجمالا مخلا فى تقسيم الأدب التركى الى عصرين فحسب ، قديم وحديث ، كما نجد تفصيلا مملا يضلل القارىء فى اعتبار كل قرن من الزمان عصرا ادبيا قائما بذاته . والجدير بنا ان نتخذ لنا رأيا وسطا يتألف من آراء من سبقنا بعد تدبرها والنظر فيها مع التحرز من اللبس والشطط ، والعناية بضم النظير الى النظير وجعل الجزئيات تحت الكليات وتقديم الاصول على الفروع .

وإذ كان التاريخ الأدبي جزءا من التاريخ العام ، حسن بنا ان نحدده تحديدا زمنيا ما استطعنا الى ذلك سبيلا . فعصور الأدب

التركى (١) فى نظرنا بعد دور النشأة كالآتى

العصر القديم : وله دوران ، دور يبدأ فى عهد السلطان عثمان الأول وينتهى قبيل عهد السلطان سليمان القانونى. فزمانه من القرن الثالث عشر الى النصف الثانى من القرن الخامس عشر أو نحو ذلك .

ودور بدايته عهد السلطان سليمان القانونى ونهايته فى آخر عهد السلطان محمود الثانى . فيمتد زمانه من القرن السادس عشر الى منتصف التاسع عشر أو ما يقرب .

العصر الحديث : وفاتحته عهد السلطان عبد المجيد ولا خاتمة له لأن زمنه يمتد من القرن التاسع عشر الى يومنا هذا .

الأدب الشعبى : ولا يمكن تحديده بعصر من العصور . كما لا نمنحه من عنايتنا الا قدرا فى هذا التاريخ الأدبى ، لأن الآداب الشعبية تنفرد بكتب خاصة بها فى الأغلب .

---

(١) كان الترك العثمانيون قديما يسمون انفسهم العثمانيين فقط ، ويكرهون أن يتسموا بالترك لأن الترك فى نظرهم اقوام همجية تسكن اواسط القارة الاسيوية . فكانت كلمة تركى عندهم من الشتائم وهى بمعنى فدم أو غبى . كما دعوا ترك آسيا (اتراك بى ادراك) أى اتراك لاحظ لهم من ادراك . اما اليوم فقد انعكست الآية وطاب للعثمانيين ان يتسموا بالترك رغبة منهم فى التفاخر بمجد قديم كان لاسلافهم قبل ان يكون لغيرهم .

الأدب القديم

الدور الاول : من عهد السلطان عثمان الاول الى عهد السلطان سليمان القانونى

مر بنا كيف شاع التصوف وذاع فى ارجاء الاناضول، ورأينا ان الشعر التركى مدين بنشأته لهؤلاء الصوفية الذين جعلوه اداة تعبير لهم، واتخذوه وسيلتهم الى نشر افكارهم وتعميم تعاليمهم. وقد بلغوا بنفوذهم وسمو منزلتهم اكثر من هذا، لانهم لم يكونوا غرباء عن الاسرة الحاكمة، فالسلطان عثمان الاول صهر شيخ من مشيختهم يقال له الشيخ اده بالى (١)، وحاجى بكتاش كان يدعو الله للسلطان اورخان الذى سعى اليه يوم الف فرقة جديدة من الجند، ملتمسا منه ان يباركها فباركه وباركها، وسماها (يكى چرى) بمعنى الفرقة الجديدة (٢) واذا ما فهمنا الادب على انه تعبير عن

---

(١) راجع ماذكرناه عن زواج هذا السلطان فى ص ٣٥

(٢) حاجى بكتاش من اعظم الاولياء منزلة عند الترك. وقد

الحياة وتفسير فنى لها . فليس لنا ان نتلق بالغرابة ان يكون اول شعراء هذا العصر شاعرا صوفيا او صوفيا شاعرا .

والاجماع منعقد على ان هذا الشاعر الاول هو عاشق باشا الذى عاش فى مدينة قيرشهر بالاناضول على عهد السلطان عثمان واورخان . وولد سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م) وقضى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢م) . وهو سليل اسرة رفيعة النسب عريقة فى الحسب ، عظيمة الجاه عريضة الثراء ، ولذلك خلع عليه السلطان عثمان

= رحل عن خراسان الى الاناضول فى القرن الثامن الهجرى ، فكان السلطان يختلف اليه املا فى بركاته ودعواته ، وعاش حاجى بكتاش الى عهد السلطان مراد الاول . وقبره مزار يرحل اليه اهل التقوى . واتباعه هم المعروفون بالبكتاشية . ولما قصده السلطان اورخان فى كهفه وطلب اليه ان يبارك فرقة من جنده ، مسح بكمه رأس جندى فى الطليعة قائلا (ليكن اسم هؤلاء الضيفان الجدد يكى چرى ، جعلهم الله بيض الوجوه شداد السواعد ، ووهبهم سيفا بتارا وسهما مصيبا ونصرا مبينا) وهذا هو السبب فى ان الانكشارية يلبسون قلنسوة بيضاء هى قلنسوة الدرويش يتدلى منها مايشبه كم حاجى بكتاش .

لقب (باشا) لا لأنه وزير او امير [1] . ومرت طفولته كما تمر طفولة اترابه فى عصره ، فأخذ عن علماء الصوفية ، وجلس الى الدراويش ، وتعلم الفارسية والعربية ، حتى إذا ماكبر عن الصبا عرف فضله وسار ذكره ، وكان جم التواضع معروفا بالزهادة والعبادة ، حتى قيل انه كان صاحب عز وسلطان ، وصولة دونها صولة الملوك ، فلم يستعل ولم يفخر ، بل سار سيرة درويش لا يملك من عرض الدنيا شيئا ، وحيي حياة اهل التقوى الخاشعين المتبتلين ، فتخلى عن الدنيا ، وآثر الفقر على الغنى ، وإذا تحدث

---

(١) اصل باشا بادشاه بمعنى الملك فى الفارسية او باشقاق بمعنى القائد فى الخوارزمية ، وقد اطلق هذا اللقب اول ما اطلق على علاء الدين وزير اورخان ، ونادى سلطان ولد ربه قائلا (ياباشا) وهذا اللقب خاص بالامراء والوزراء غالبا ، اما اطلاقه على هذا الرجل الصوفى فى اكبر الظن فمن قبيل اضافة لفظ خنكار بمعنى ملك الى جلال الدين الرومى وسلطان الى ابنه ولد . اما عاشق فاسمه الشعرى او مخلصه ، وغنى عن البيان انه يقصد عشق الذات الالهية . والترك يسمون المنشد المتسول (عاشق) ومن عجب ان يسمى الارمن هذا الشاعر المغنى Ashug فى لغتهم وقد تكون النغمة الموسيقية المسماة عشاق نسبة اليهم . كما يقال للدرويش عاشق على المعنى الصوفى .

الصوفى عن الفقر او مـدحه ، فانما يعنى قناعة النفس بالقليل ، فالفقر على ذلك فقر النفس لا فقر المال .

وله مجموعة من الشعر أو منظومة تعرف بغريبنامه أى كتاب الغريب ، ويسميها حاجى خليفة معارفنامه اى كتاب المعارف ، وقد يجانب البعض الصواب والدقة فيسمونها ديوان عاشق .

وقد كتب لغريبنامه ديباجة بالفارسية ، ثم اورد فى خاتمته ابياتا يذكر فيها ماحداه على النظم بالتركية ، مستشهدا بقوله تعالى فى سورة ابراهيم (وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) . فكأنه بذلك يوجـه الخطاب الى الترك الذين لايعرفون العربية والفارسية ، ولهذا مغزاه ودلالته من عاشق باشا ، لأنه مظهر لرغبته فى اطلاع قومه على مايفهمون ، ومشير الى باكورة ادب تركى خاص بالترك دون سواهم . ولنا ان نفهم من ذلك اوضح معنى للقومية فى الأدب .

وهذه المنظومة من بحر الرمل كالمثنوى لجلال الدين الرومى وربابنامه لسلطان ولد ، ونمطها الشعرى هو المثنوى ، وكان فراغه من نظمها قبل موته بثلاث سنوات ، وقد رتبها على عشرة ابواب كل باب من عشرة فصول ، وفى مقدمة كل فصل عرض لفكرة الموضوع ، ثم تذييل على ذلك بالتفسير والتأويل ،

واستشهاد بآيات من القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة . ويتلو ذلك مختارات من كلام المتصوفة . والمنظومة من ألفها الى يائها فى احكام التصوف وفلسفته واركانه .

وهذه المنظومة تكاد تخلو خلوا تاما من الجمال الشعرى ، فعاشق باشا غواص على المعانى مولع بتوليدها غير انه لايعرف الأسلوب حقا . وكان يمكن لهذا الكتاب ان يكون منثورا لو وجد فى عصر متأخر ، غير ان صاحبه جعل على نفسه ان يتأثر خطى جلال الدين الرومى وسلطان ولدفنظم كما نظما. وقيمته العلمية اكبر من قيمته الفنية ، فقد كان كل همه ارشاد قومه الى طريق الحق . ومن قوله فى الفصل الأول من الباب الرابع .

(الا فانظر الى آثار ماصنع الرحمن وما ابدعته يد القدرة ، لقد شاء لذاته العلية ان تعرف وللملك العريض ان يمتلىء بخلقه. فتأمل فى صنعه وخلقه وابداعه ، لأنك بذلك تعرفه حق المعرفة . لقد جعل لكل شىء سببا ، فاتصلت بذلك الأسباب بين الأشياء . ولم يخلق شيئا عبثا من غير جدوى ، فلكل شىء اصل يتفرع عنه فرع . فهذا الذى لا أول له ولا آخر ، هورب العالمين ، فاستمع الىّ احدثك عن قدرته . العقل اول ماخلق ، فجعل له اربعة من العبيد هم للدنيا اربعة عمد ، ومنها كان الجر والنصب والرفع

والسكون ، وسماها الماء والنار والريح والتراب فكانت اس هذا العالم)

فهو فى كلامه هذا متحدث عن خلق الكائنات وواصف ذلك وصفا صوفيا رمزيا ، تؤدى فيه الألفاظ معنى قريبا غير مقصود ، ومعنى بعيدا هو المقصود . ويجرى هذا المجرى ذكره مايسميه اهل التصوف وجودا مطلقا ، فهذا العالم عندهم خيال ووهم كاذب وسراب خادع ، والوجود الحق فى نظرهم هو الوجود المطلق الذى يقول فيه (إذا بدأنا فليكن البدء باسم ربنا ، فمنه الابتداء ومنه الانتهاء ، وهو لاشك اول الأول وآخر الآخر الى ابد الآبدين ، فقد كان جل وعلا ، ذا وجود يوم لم يكن لهذا العالم وجود ، وفى ذلك الزمان الذى لم يكن فيه زمان ، كان تبارك وتعالى من غير زمان ولا مكان . كان العالمان فى العدم غريقين وكان العدم فى اصل اليم غريقا . والملك ذو الجلال والاكرام ، علىٰ قدير اينما كان)

والملحوظ على شعره انه ليس محكم النسج ، ولا جيد العبارة ، كما ان لغته لم تسلم من هنات تشينها ، وذلك معزو الى تقدم عصره ، هذا العصر الذى لم تكتمل فيه التركية وتتجاوز دور النشأة . فتسلس للشاعر من قيادها .

ويذكر بعده سليمان چلبي المولود بمدينة بروسه ، على عهد السلطان اورخان الذى جعل من تلك المدينة عاصمة للملكه ، وظلت عاصمة للترك حتى فتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م . وليس لدينا من اخباره الا النزر اليسير ، فهو من مشايخ الصوفية ، ومريد درويش خلوتى يدعى امير سلطان [١] . وكان اماما فى مسجد السلطان بايزيد . ولسليمان چلبي [٢] منزلة مرموقة فى

---

(١) الخلوتية فرقة من الدراويش ينتسبون الى الخلوة وهى عند الصوفية المكان الذى يختلى فيه المريد بنفسه متعبدا ربه بعيدا عن الناس حتى تصفو روحه . يقول القشيرى (الخلوة صفة اهل الصفوة والعزلة من امارات الوصلة ، ولا بد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة عن ابناء جنسه ثم فى نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه) والخلوتية يقضون اثنى عشر يوما على الماء والخبز اكراما لذكرى الائمة وعددهم اثنى عشر اماما ، ويقال ان ذلك ايضا يسمى الخلوة وان عمر والخلوتى هو اول من وضع ذلك . ويروى انه خرج يوما من خلوته فسمع هاتفا يقول (ياعمرو الخلوتى مالك هجرتنا) فعول على التكفير عن ذنبه بالزهد والحرمان وتأليف فرقة الخلوتية .

(٢) چلبي كلمة نصادفها كثيرا فى الاسماء التركية ، واصلها جلب او جالاب وهو تحريف لكلمة Saliba بمعنى الله فى السريانية . فمعناها =

تاريخ الأدب التركى لمنظومة له تسمى (مولد)[1] او (وسيلت النجات) وهى مثنوى فى ستمائة بيت قالها مدحا فى النبى صلى الله عليه وسلم . والباعث له على نظمها انه كان يستمع يوما لأحد الوعاظ ، فقال الواعظ فيما قال انه لا يفضل محمدا صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء والرسل وهو على حجة من قوله تعالى

= رجل الله او العابد . ويقال انها تحريف لكلمة صليب العربية فيكون معناها المسيحى . وقد اطلقها الترك فى آسيا الوسطى على النصارى ورهبان النساطرة وذلك فى العصر الوسيط . ولما كان هؤلاء الرهبان اهل علم وحكمة ، اطلقوها على علماء النصارى خصوصا وعلى العلماء عموما . ثم تطور معناها فاطلقت على المتأدب والكاتب ورجل الشرع والسيد المهذب وممن اطلقت عليهم جلبى سلطان محمد وكاتب جلبى وعاشق جلبى .

(١) المولد من مبتدعات الصوفية وهو نوع من المدائح النبوية ، وقد استعملت كلمة مولد بمعنى تاريخ منذ عهد بعيد ، وللواقدى كتاب اسمه مولد الحسن والحسين . ويقال ان النبى صلى الله عليه وسلم اوصى فى حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده بعد مماته . وقد احتفل الفاطميون فى مصر بالمولد النبوى .

(لانفرق بين احد من رسله) [1] واتفق ان كان بين الحاضرين عربى من الشام فرد ذلك وصاح على الواعظ قائلا (ايها الجاهل لاعلم لك بالتفسير ، وقد ذهلت عن الناسخ والمنسوخ والمتشابه، فإن المعنى المقصود انما هو عدم التفرقة بين الرسل فى امر الرسالة والنبوة ، لا فى مراتب الفضل . واذا ماصح هذا التفسير فمامعنى قوله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) [2] ورجع العربى الى بلده واستفتى فى قتل الواعظ ثم رحل اليه وقتله . فتأثر لذلك سليمان چلبي ابلغ التأثر وجاشت نفسه بتلك المنظومة . وهذه القصة من نسج الخيال كما يلوح . ويعتبر الشاعر بمولده هذا اول شاعر تركى عثمانى قال شعرا اصيلا فاض من قلبه ، فلم يتخذه اداة تعبير يردد بها ما قال غيره . ومن قوله (هذا القادم للعلوم اللدنية سلطان ، هذا القادم كنز توحيد وعرفان ، هذا القادم تدور الافلاك بمحبته ، ويشتاق الملائكة والانام الى طلعته - وتقول آمنة لما حان الوقت لمقدم خير البرية الى هذا الوجود، مسنى حر الظمأ فاسقونى قدحا مترعا ببرود يفوق الثلج فى نصاعة البياض ، والسكر فى حلاوة المذاق - فالوداع ياروح الروح

(١) بقرة : ٢٩ (٢) بقرة : ٢٦ انظر فى التفاسير .

الوداع ، الوداع يابدر التم الوداع ، الوداع يابلبل روض الجمال الوداع ياحبيب ذى الجلال ، مهما امتد عمر الانسان فالموت لاشك مدركه ، آه من الموت ثم آه من الموت ، الامير والحقير عنده بمنزلة سواء . لقد رحبت بمقدمك ذرات هذا العالم قائلة : مرحبا بك ايتها الشمس المشرقة مرحبا ، مرحبا بك ياروح الارواح مرحبا ، مرحبا بك ياشمس العاشقين مرحبا ، مرحبا بك يابدر الصادقين مرحبا ، مرحبا بك ايها الروح الباقى مرحبا ، مرحبا بك ايها الحب الصافى مرحبا ، مرحبا بك يارحمة العالمين مرحبا ، مرحبا بك ياشفيع المذنبين مرحبا ، مرحبا بك يادليل الأنبياء مرحبا ، مرحبا بك ياسيد الاصفياء مرحبا ، انت الدواء لداء القلوب ، والآخذ بيد كل عاجز مكروب)

وواضح كل الوضوح ان سليمان چلبي منطلق على سجيته معبر عن عاطفة متقدة وحس مرهف ، فجاء شعره سهلا شديد السهولة ، انيقا رقيق النسج ، والبون بعيد بينه فى مولده وبين عاشق باشا فى رموزه المغلقة ، وسلطان ولد فى تعاليمه المبوبة ، والنزعة الصوفية لاتظهر فى شعره الا بعض الظهور لتضفى الروحانية والشاعرية على حبه للمصطفى ، اما تكرار المقاطع فإنه لاريب يكسبه الصلاحية للترنم والتغنى .

ولهذا المولد سيرورة عظيمة عند الترك ، فقد جرت عادة المتقين منهم بأن يجتمعوا فى المساجد والمنازل فى شهرى ربيع الاول والثانى للاستماع الى من ينشده ، فيستخفهم الطرب ، ويقع الخشوع فى قلوبهم ، ويترحمون على صاحبه قارئين الفاتحة لروحه فى عليين . وهم يداومون على ذلك منذ نحو من ستمائة سنة . وقد ذكر لطيفى هذا المولد فى تذكرته فقال (لقد رأيت من الموالد مائة ، وامعنت النظر فى كل منها فلم اجد ما وجدت فى مولد سليمان چلبى من جمال اللفظ ورقة المعنى واتقاد العاطفة، فمولده على الموالد رتبة وأوسعها شهرة) وهذا دليل على ان الشعراء جهدوا ان يأتوا بمثله فكلت عن ذلك قرائحهم ، وانحطوا عن رتبته فى البلاغة وجمال الصياغة .

° ° °

ولدينا شاعر آخر يعرف بشيخى ومعنى شيخى شيخ الشعراء وقد ادرك عهد السلطان مراد الاول وبايزيد وچلبى سلطان محمد . وفى مدينة كوتاهيه كان مولده ووفاته . ورحل الى بروسه وفيها اشتغل بتحصيل العلوم غير انه طلب منها المزيد والجديد ، فولى وجهه شطر ايران ، وهناك جالس شيوخ العلم ودارسهم واظهر ميلا للطب فتوفر عليه حتى اتقنه احسن اتقان . واشتغل بالكحالة

على الخصوص ولذلك عرف بحكيم سنان الى جانب لقبه الشعرى [١] وقد وصف عاشق حسن وهو من اصحاب التذكرة حذقه فى الكحالة فقال (لقد بلغ فى ذلك شأوا بعيد المدى حتى كان فى قدرته ان يمحو الصفرة من عين القمر والحمرة من عين الشمس !) ومع ذلك كان اعمش ، فحاله مصداق للمثل القائل (من عجب الحال عمش الكحال) ومما يروى على سبيل التندر ، انه كان يوما يبيع مسحوقا للشفاء من الرمد فقال رجل ضحاك ان شيخى يذر الرماد فى العيون ، واشترى منه بفلسين ثم اعطاه فلسا وقال اشتر لنفسك فتقطع الطبيب الشاعر ضحكا ، وكان دائم الذكر لهذه النادرة والضحك منها .

اما التصوف برموزه واسراره فقد تتلمذ فيه لمن يدعى حاجى بايرام الانقروى [٢] . وبدأت حياته الادبية يوم عرف فضله

---

(١) ذكر فون هامر فى تاريخه للشعر العثمانى ستة عشر شاعرا باسم شيخى ولا ريب انهم من الشعراء المغمورين ولدينا امثلة من تشابه الاسماء عند شعراء الفرس والترك فللفرس فردوسى وخاقانى ونظامى كما للترك .

(٢) حاجى بايرام من اولياء الترك ، وشيخ فرقة من فرق

الامير سليمان وهو ابن بايزيد الاول فاقبلت عليه الدنيا وازدلف الى الملوك . ولما مرض السلطان محمد غما وهما لانكسار عسكره فى بعض المواقع ، امر باشخاصه اليه ، فوقع على معرفة دائه وقال لادواء له الا السرور ، وشاء الله لشيخى ان يصدق نظره ، فدخل البشير على السلطان يزف بشرى انتصار الجند وفتحهم لحصن من منيع الحصون . فطرب السلطان لذلك وسرعان ما تماثل من علته ومسح الله مابه ، واراد السلطان ان يكافئه بجائزة سنية فأقطعه ضيعة . وظهر من بعد ان لتلك الضيعة صاحبا ، فساء ذلك صاحبها ووقف من شيخى موقف من يدفع عن نفسه وماله شر المغير المغتصب فقعد له بالمرصد ، ونهب متاعه وذبح رجاله ، ونجا من فتك خصمه وان اثخنته الجراحات . وقد نظم شيخى فى هذا الحادث منظومة سماها (خرنامه) اى كتاب

= الدراويش المعروفين بالبايرامية . ولد فى قرية من اعمال انقرة ، وفى انقرة قضى الشطر الاكبر من حياته ، وكان يتصدق بكل مايهدى اليه فلا يحتجز لنفسه شيئا منه ، رغبة عن دنيا اقل قليلها يكفيه منها . قيل ومشى الوشاة بينه وبين السلطان مراد الثانى ، فاستقدمه اليه فى ادرنه ، ولما رآه وجد منه مابعثه على محبته واجلاله واكباره حتى سأله دعواته وبركاته . ومات بانقره سنة ٨٣٣ (١٤٢٠ م) .

الحمار ، وفيها هجو مقذع لأعدائه وسخرية مريرة منهم . ويقال انه احتشم من ان يقدم كتابا بهـذا الاسم الى السلطان فاضاف دالا الى عنوانه وجعله (خردنامه) اى كتاب الحكمة ، كما يقال ان اضافة الدال كانت من وهم القراء أو جهل النساخ (١) . ويروى ان السلطان اطلع على هذه المنظومة فاعجب بها الاعجاب كله وادركته الرقة للشاعر فعوضه عن كل مافقد .

وفى هذه المنظومة يسمى اعداءه بأسماء الحيوان ويتهكم بهم ويتهزأ ووسيلته الى غرضه اشارات وكنايات لاتخلو من طرافة فمن قوله (كان حمار نحيل هزيل انقض الحمل ظهره فأصبح حطاما محطما . وقد حملوه الحطب تارة والماء اخرى حتى ناء بما حمل وعلته القروح ،ولم يخل موضع من جسمه من جراح وندوب، وحرم عليه ان ينعم فى حظيرته بطيب الراحة ولذاذة القرار .

وهو الذى لم ينصب اذنيه يوما لزمجرة ليوث الغاب ، واستخف كل الاستخفاف بالذئاب فكان رعب الاسد منه اذنان

---

(١) Von Hammer - Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, B,1-S 105

ويرهب الذئب بما يشبه الصولجان ... ا غير ان الجوع ما لبث ان اضواه ، وعدم العلف فقل لحمه ورق عظمـــه ، فادركت صاحبه الرحمة عليه ، وساقه الى المرعى لينعم بالطيبات . وما وصل المسكين الى المرعى ، حتى رأى بقرات ترعى منها ماقرونها كالاهلة ولغيرها قرون كالقسي ، ورأى الحمار ذلك فقال ياعجبا لهذا الزمان فقد وضع على رءوس البقر التيجان ، وابتلانا نحن بالفقر والحرمان) (١)

واقرب مايستدل عليه من هذا ، هو قدرة شيخى على التأليف والابتداع الى جانب قدرته على النظم ، لأنه صور اعــداءه تصويرا تمثيليا فى سياق قصصى ولم يقتصر على وصفهم ووصف مانالهم من اذاهم فى قصيدة عادية .

وجرى القضاء بأن يكون هذا الرجل محسدا يكيد له

---

(١) لم يرد مثال من خرنامه فى تاريخ الشعر العثمانى لفون هامر، ولا لجب ، وقد صرح جب بأنه لم يقرأ المنظومة ، اما نحن فاعتمدنا على ماورد منها فى كتاب التاريخ الحديث للآداب العثمانية لكوبريلى زاده محمد فؤاد وشهاب الدين سليمان . وفى هذا دليل على وجوب تقدم علماء الخلف خطوة عن علماء السلف .

الخصوم ويكدرون عليه صفاء العيش . فقد كان من السلطان مراد الاول ان اكرمه وادنى مجلسه وعزم على رفع رتبته وجعله وزيرا له ، وعلم عداته بنية السلطان فكانت شجى فى حلوقهم وقذى فى عيونهم فتربصوا به الدوائر ، واسروا الى السلطان ان يذوط به القيام بعمل ادبى عظيم يشهد الناس على علو كعبه واتساع باعه ويبرر استحقاقه لرتبة الوزارة ، والواقع من الامر انهم لم يرغبوا الا فى تعجيزه والتهوين من شأنه والشماتة به ، فطلبوا ان يترجم المنظومات الخمس للشاعر الفارسى نظامى الى التركية [1] فترجم منها قصة خسرو وشيرين الا انه مات قبل

---

(١) نظامى كنجوى شاعر فارسى من اهل القرن السابع الهجرى وهو اعظم شعراء القصص فى ايران ، وله خمس منظومات تعرف بالخمسة أو الكنوز الخمسة . وعنوان الاولى مخزن الاسرار وهى مجموعة من القصص الرمزية تتضمن حكما ومبادىء اخلاقية ، وتعرف المنظومة الثانية بخسرو وشيرين ، وموضوعها قصة الملك خسرو برويز الساسانى مع جاريته الارمنية شيرين ، وفحواها ان هذا الملك كان محبا لهذه الجارية ، كما كان يهواها حفار أو نقاش يقال له فرهاد وعلم الملك بما بينها وبين النقاش فحزن لذلك حزنا شديدا وحار فى =

اتمامها وذلك فى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦م) فانجز الترجمة بعده ابن أخته جمالى زاده [1]. وقد أجاد شيخى فى الترجمة كانجلت روحه

= الامر. واستدعى العاشق وقال له (إذا مااستطعت بمفردك ان تحفر مجرى نهر فى جبل بهستون وتنحت على جانبيه تماثيل فى الصخر، فشيرين لك، فانجز فرهاد هذا العمل كاملا غير منقوص. وطار الخبر إلى الملك فكاد الهم يقتله، والتمس من يخلصه من منافسه. فتقدمت عجوز، وغدت إلى فرهاد، وهناك وجدته مكبا على صورة ينقشها لشيرين فى الصخر فقالت له (يا هذا ماذا أنت فاعل؟! لقد ماتت شيرين منذ ثلاث ليال، فآثر فرهاد الموت على الحياة وألقى بنفسه من حالق. والمنظومة الثالثة هى ليلى والمجنون تلك القصة العربية المعروفة إلا ان نظامى اضفى عليها لونا فارسيا. والرابعة تسمى الصـــور السبع، وهى سبع قصص عن الملك بهرام كور وزوجاته السبع، وفيها بعض شبه من مجنون ليلى. والمنظومة الأخيرة هى كتاب الاسكندر، وفيها نزعة صوفية ظاهرة وتصوير لهذا الملك كفاتح ونبى.

(١) كان هـذا الشاعر من اتباع امراء كوتاهية وندمائهم وقد اتم ترجمة منظومة خسرو وشيرين وبدأ شعره بهذا البيت (هلموا لشرب الراح فى الأقداح، واستمعوا للقول الحكيم واطربوا) وله منظومة بعنوان (خورشيـــد وفرخشاد) قدمها لبايزيد فأحسن جائزته.

الشعرية أجمل التجلى فاضفى عليها الكثير من سبحات خياله وبنات أفكاره ، ولم يرضى لنفسه أن يكون مترجما وحسب . وهو فيها ظاهر التأثر بالثقافة الفارسية وآخذ عن شعراء الفرس . ونزعته الصوفية واضحة ، ويعتبر شيخى مجددا فيها لأنه أول من نظم المثنوى فى بحر الهزج، فخرج بذلك عن عادة من سبقه من شعراء الترك الذين نظموا فى بحر الرمل كسلطان ولدفى ربابنامه وعاشق باشا فى غريبنامه وسليمان چلبى فى المولد . وهذا هو البحر الذى نظم نظامى فيه منظومته . كما ادخل شيخى الغزليات فيها وأجراها على لسان أبطال القصة ، وهذا منه تنويع يدفع السأم والملالة عن القارىء كما يلائم جو القصة ويجعلها أقرب إلى الواقع لأنه يكسب افرادها حيوية ويميزهم بالقدرة على الحس والتعبير .

ومن قوله فيما كان من أمر العجوز التى مضت إلى فرهاد تفترى الكذب لينطلى الزور عليه (فرهاد يافرهاد . أمالك علم بأن شيرين قدمضت ؟! وارحمتاالقوام السروة المياس اين مقره، بعد ان ذوى وعصف به الردى . اين تلك الحورية ذات الحسن ؟ بؤسا لك يادهر ، ياسوء ماجرت به الأقدار لقد غسلوا الجثمان بالدمع الهتون ، واتخذوا الحنوط من عنبر وعبير ، ثم اودعوا

اللؤلؤة جوف الثرى . وشقوا عليها النفوس لا الجيوب !
وأبلست ورفعت صوتها بالأنين والرنين بعد اذمج فوهامثل سم
الثعابين ، فيا عجبا لها كيف لم تحترق ولم تذرها الرياح رمادا
وهى تفوه بمثل هذا الكلام ! وما للسانها لا يخرس ؛ ولوجهها لم
تعله الغبرة وهى تحكى ذلك عن ذات الخال والشعر الغربيب !.
وما مر هـذا القول بسمع فرهاد حتى أحس فى قلبه بمسرى
السمام ،وانطلق كأنما انشط من عقال ، فألقى بنفسه من قمة الجبال)

ويعـزو كوپريلى زاده محمد فؤاد تبريز شيخى إلى توفيقه
فى أن يفيد من ثقافته الفارسـية أولا وحرصه على أن يضيف
جديدا إلى قديم الشعر التركى ثانيا . وقضى الشاعر بقية أيامه فى
دكان له يتجر فى العقاقير ويشتغل بالكحالة ثم مات فى مدينة
كوتاهية بعد أن ادرك عامين من حكم السلطان مراد الثانى. ولشيخى
بيت مشهور وهو (لا قدرة لعقل على تصور العظمة الالهية، ولا
خبر عن قافلتها ، ولن يصل إلى سمع الروح منها إلا رنين اجراسها !)
ويقال ان من يدعى الشيخ آق شمس الدين (١) كان جالسا

(١) الشيخ آق شمس الدين رجل صوفى رفيع المنزلة وهو الذى
اكتشف قبر أبى أيوب الانصارى ذلك الصحابى الذى خرج فى
تلك الحملة التى أراد بها معاوية فتح القسطنطينيه سنه ٤٨ هـ. وبنى له
مسجد عظيم الحرمة عند الترك .

فى جماعة من أصحابه ، وذلك بعد فتح القسطنطينية بزمن غير مديد ، فظهر عليه الوجد والطرب وغاص فى التأمل والتفكير ثم قال (ياكرميان ياكرميان !) فاستفسر عن ذلك أصحابه فقال انه ذكر هذا البيت اشيخى شاعر كرميان وهى (كوتاهية)

وإذا ماذكرنا شيخى وعزونا اليه الفضل فى إدخال فن القصص على الشعر التركى ، فلا مندوحة لنا عن ذكر احمدى ، فقد عاش هذان الشاعران فى عصر واحد وكانت بينهما مودة ، وكلاهما من كرميان كما يقول فائق رشاد بك ، وان ذهب لطيفى فى تذكرته إلى أن أحمدى من سيواس . واحمدى هو مترجم اسكندر نامه أو قصة الاسكندر للشاعر الفارسى نظامى ، فاتحف الشعر التركى بقصة منظومة أخرى بعد قصة خسرو وشيرين لشيخى . وقد رحل احمدى فى صدر شبابه إلى القاهرة وفيها حصل العلوم ، ولما قضى من ذلك مأربا عاد إلى وطنه وهناك اشتغل بتأديب أحد الامراء . وعرف شيخى فتلمذ له فى فنه واغترف من بحره ، واشتهر بالكياسة والظرف والصلاحية للمنادمة . ولما ترجم قصة الاسكندر وقدمها إلى الأمير سليمان بن بايزيد ، لم تقع من نفس الأمير موقعا حسنا وقيل له ان قصيدة جيدة كانت أولى بالتقديم من هذه القصة

الطويلة ، فحزن وانكسر وانطلق إلى شيخي وهو يشكو مر الشكوى ، فنظم شيخي من ليلته قصيدة طنانة ذيلها باسم احمدي ثم دفعها اليه لتقديمها للأمير . وما قرأ الأمير بضعة ابيات منها حتى أدرك الفرق بين حظها من الجودة وحظ شعر احمدي ، فانكشفت له الحيلة وقال للشاعر باسما (ان كانت هذه القصيدة لك ، فكتاب الاسكندر ليس لك ، وإن كنت صاحب كتاب الاسكندر فما انت بصاحب هذه القصيدة !)

ولما أغار تيمور لنك على الأناضول ، تلك الأغارة التي كاد ينهار لها ملك العثمانيين ، كان التعارف بين احمدي وتيمور ، لأن تيمور محب للأدب مكرم لأهله . واحمدي صاحب كتاب الاسكندر ، وسيرة عاهل الروم مما يهتم به عاهل التتار . وهنا تأتي قصة الشاعر مع الطاغية في الحمام . فيروى أن تيمور استدعاه يوما في الحمام وهو محاط بطائفة من خدامه الغلمان المرد ، وقال له متبسطا مداعبا (بكم يقوم هؤلاء الغلمان في نظرك ؟) فجعل الشاعر قيمة بعضهم ملء الدنيا ذهبا وفضة ، وقيمة بعضهم الآخر خراج مصر ، على أن خراج مصر مضرب المثل في الكثرة والنفاسة ، فقال تيمور متعجبا (ان كان هذا ثمنهم في حسبانك فما يكون ثمني انا ؟ !) فما تردد الشاعر في أن

يقول (ثمانون اقجه) [1] فشده لجرأة الرجل ورد عليه متهكما بقوله (ولكن منشفتي تساوى هذا الثمن !) وبلغ من جسارة احمدى ان يقول (نعم ، الثمن ثمن المنشفة ، فأنت عندى لاتتعدل قيمتك بشيء ، لأن نفسك الامارة بالسوء لا تساوى

---

(١) فى سنة ١٣٢٩ م . امر السلطان اورخان بسك عملة فضية صغيرة عرفت بأقجة عثمانى . ثم سميت (عثمانى) الى اواخر عهد السلطان سليم الاول اى فى الربع الاول من القرن السادس عشر الميلادى ، وعرفت بعد هذا الزمان (بأقجه) وهى مايعرف عند الانجليز Asper واشتقاق اللفظ التركى من آق بمعنى ابيض واقجه بمعنى مائل الى البياض . ولعل الغرض من هذه التسمية هو تمييز تلك العملة البيضاء الفضية من العملة الصفراء الذهبية ، كما قد يكون (القرش الابيض) مأخوذا عن الأقجة . وقد تطلق فى التركية على النقود بالمعنى العام وعلى راتب الجندى بمعنى خاص . والآراء متضاربة فى تحديد قيمتها فمن قائل انها تساوى قرشا وقائل انها لاتساوى الا ١ على ١٢٠ منه ، ومرد هذا الاختلاف فى تقديرها الى عدم ثبات قيمتها . فقد كانت قيمتها على عهد السلطان محمد الثانى مثلا سنة ١٤٨١م . غيرها على عهد محمود الثانى سنة ١٨١٨ .

شيئا !) . والعجب ألا يغضب عليه تيمور ولا يفتك به ، ثم يهبه المال الجزيل .

ويذهب مؤرخو الأدب إلى أن شعر احمدى لم يكن انيقا ولا طليا بالاضافة إلى غيره من المجيدين كشيخى مثلا ، فلم يعن الشاعر بالصناعة وتزايين الكلام ، وإن كانت ترجمته لقصة الاسكندر حدثا له أهميته فى تاريخ الأدب التركى . ولاحمدى ديوان من الغزليات والقصائد .

أما قصة الاسكندر فقد غير فيها وبدل وقدم وأخر ، فماهى بترجمة دقيقة ولا أمينة ، وكان فراغه من انجازها سنة ٧٠٢ﻫ (١٢٩٠م) وعدد أبياتها ثمانية آلاف ومائتان وخمسون بيتا ومن قوله فى بناء الاسكندر لما يسمى سد يأجوج ومأجوج . (ومضى الملك فى سبيله حتى إذا بلغ جبلين سامقين رأسهما عند بدر السماء ثم اقترب ، وجد قوما رجالهم كالنساء ضعفا ، وهم عراة أهل قلة وذلة ، الجوع أجهدهم فساءت حالهم ، وسألهم ما بالهم فقالوا ، اطال الله ايام الملك ، وابقاه مادار الفلك ، ايد الله ملكك وشد ازرك ، لاجعل الله الزوال لمالك من كمال ، لقد محوت الفتنة من الأرض برأيك ، وجعلت الدنيا جنة خضراء بعدلك ، وما دمت سألتنا عن قحطنا فاستمع لقولنا ، علك أن تجد

الدواء لدائنا والحل لعقدتنا . لقد غلب يأجوج ومأجوج على أطراف هذه الجبال والتلال ، وكلما حرثنا أرضا وعمرنا خرابا أفسد يأجوج ومأجوج ما أصلحنا وجعلوا أرضنا يبابا . فهم أهل الظلم وأهل العسف وكل مايعملون شر وخسر ، جسومهم قدر أنصاف جسوم البشر ، والواحد منهم له الف ولد ، وعلى أبدانهم شعر كشعر الخنزير ، وأظفارهم قاطعة نافذة ، لا خلق لهم ولا خلق ، وإن تعد حبات الرمال لا تعدهم . ومن بين هذين الجبلين ياملك الزمان طريقهم التى يخرجون منها علينا ولا طريق لهم سواها ، وانا نستعديك عليهم فأعدنا . ولتكن سعادة الناس فى عهدك ، وليذكر بالخير اسمك . ونحن على أهبة مظاهرتك، فهلا جعلت بيننا وبينهم سدا)

ومات احمدى فى كوتاهية سنة ٨١٥ هجرية (١٤١٣م) [١]

---

(١) ولاحمدى اخ يدعى حمزة جمع تاريخ سيدنا حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم فى اثنى عشر مجلدا ولذلك سمى حمزوى ، ولهذا التاريخ سيرورة فى طبقات الشعب التركى ، وهو محق جانب هام من الادب الشعبى فان المتسولين المعروفين بالمداحين أو القوالين يقصون كثيرا من قصص هذا التاريخ على المجتمعين فى المنتديات مناغمين =

وفى اواخر القرن الرابع عشر الميلادى، كانت قبائل من التركمان تتناحر فى حروب لايخمد اوارها، فتغير على ماجاورها من اقوام، ويتنازع شيوخها الرياسة، وكانت مواطنها بين انقرة وآذربيجان، وقد ادت هذه الحال الى ظهور اربع قبائل انشأت لها اربع دويلات وهى قره قويونلو اى الشاة السوداء فى ارضروم، وآق قويونلو اى الشاة البيضاء فى ديار بكر، وذو القدر فى مرعش، وبنو رمضان فى أدرنه. (١)

وقد تحدثنا عن هذه الدويلات ووصفنا حالها وبيئتها توطئة للكلام عن شاعر اتصلت اسبابه باسبابها هو القاضى برهان الدين المولود فى مدينة ارزنجان، والذى رحل الى حلب التى كانت تحت حكم المماليك، وفيها درس علوم الدين واحاط علما

= كلامهم بالخان قيثارتهم وهذا التاريخ معروف بحمزه نامه أى كتاب حمزه وهو منثور يتخلله منظوم ومات حمزوى سنة ٨١٥هـ(١٤١٢م)

(١) الشاة السوداء والشاة البيضاء نسبة الى شعارهما على علميهما. ودام حكم الشاة السوداء سبعين عاما ثم غلبتها الشاه البيضاء على امرها. وفى اوائل القرن السادس عشر الميلادى قضى الشاة اسماعيل الصفوى على الشاة البيضاء. اما دويلة ذى القدر فطالت ايامها الى عهد السلطان سليم الاول، وامتد عهد بنى رمضان الى حكم السلطان سليمان الاول.

بالشريعة ثم عاد الى مسقط رأسه ليقضى للناس أو على الناس بالعدل والقسطاس، فنال بذلك مكانة دونها كل مكانة. غير ان الدين لم يكن لينسى الرجل نصيبه من دنياه، فكان طموحا بعيد مناط الآمال تنازعه نفسه الى السلطان وتفتنه من الملك ابهته وصولته. فاتخذ الوسائل، واختلس كل نهزة تصل به الى رغائبه. فصادق امير ارزنجان وارتبط معه بأواصر الود والمحبة حتى جعله الامير نسبا وصهرا، بيد ان هذا الصفاء بينهما لم يدم على حال لاسباب سكت المؤرخون عن ذكرها، فاصبح الحبيب بغيضا والصديق عدوا، وهاج الشر بينهما حتى قتل برهان الدين حماه الامير، ونصب نفسه اميرا على ارزنجان، فنال بذلك ماكان يصبو اليه، ثم غلب على سيواس وقيسارية واظلهما بلوائه، واقام فى حكمه نحوا من ثلاثين عاما قضاها محاربا لجيرانه مغيرا عليهم. وفى سنة ٧٨٩ ﻫ جهزت اليه مصر جيشا عظيما فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على برهان الدين فطلب الصلح، وبعد عشر سنوات انتشب القتال بينه وبين بعض قبائل التركمان، ولما رأى نفسه مغلوبا على امره، استعدى سلطان المماليك فأعداه، ويقال ان السلطان بايزيد انفذ اليه جيشا لاسترداد سيواس فوقع الرعب في قلب برهان الدين واوى الى جبل يعصمه، ورأى ذلك عدو

قديم له يدعى قره عثمان [1] فشد عليه وقتله سنة ٨٠٠ هجرية (١٣٩٨ م)

والقاضى برهان الدين وان كان غير عثمانى الاصل ، لشاعر مجيد له فى الشعر التركى اثر لايسع مؤرخ الادب الا ان يذكره ، لأنه متميز بشخصيته اولا وشعره ثانيا ، فشخصيته غريبة على شعراء عصره ومعظمهم من اهل التصوف الراغبين عن زخرف الدنيا ، والقانعين بمايتزودونه منها لآخرتهم ، فلا امل لهم فى ملك ولا صدارة ، وشعرهم ترجمان نفس هادئة حالمة تسمو عن حياة كل مافيها الى فناء . اما برهان الدين فحب للحياة مفتون بنعيمها ، يناضل ويساجل ، ويطغى ويتعدى ، ولا يربأ بنفسه عن ان يخدع ويبرر وسيلته بما ينشد من غاية . وهو اول من خرج عن تلك النغمة الصوفية التى رددها سلفه من الشعراء فأطالوا ترديدها ، فهو واقعى فى شعره لايتغنى به الا إذا فاضت نفسه انغاما واحلاما ، والفرق بين بينه وبين عاشق باشا الغنى الفقير والشاعر المعلم ، وسليمان چلبى التقى النقى والرقيق الحنون

---

(١) قره عثمان هو حفيد اول رئيس للشاة البيضاء ، وكان فظا غليظ القلب سفاكا للدماء فلقب بالعلقة السوداء .

المتقرب الى الله بحب النبي ، ولا وجه للشبه يدنيه من شيخي واحمدى المترجمين المتبعين المبتدعين اللذين لم يخل شعرهما من نغمات التصوف وانها لتسكر الأرواح . ولبرهان الدين الاولوية فى الاستيقاظ من احلام الحب الالهى ، كما انه اول ناظم للرباعيات ، واول شاعر تركى غربى نقرأ له تيوغات.

وله شعر بالعربية والفارسية والتركية ، ومن غزلياته التركية قوله (شفة من العقيق فى وعاء من السكر تامت فؤادى فانطلق طائره ينوح . لقد طرحت القلب عند موطىء القدم ، فلابد للزجاجة من ان تتحطم ، وأى جدوى من ان تصان ، بعد اذ القيتها على الصوان ؟ فقطبت حاجبيها ورمتنى بسهم لحظها ، وكأنها ترامى فتى الترك فى ميدانها ، ان روحى من غدائرها وطرتها ، كالصندل فيه اللهيب ، ولتحكم كما تشاء ،ولتقل ماتقول، فأنا لها سميع مطيع ، الا يا ايها الساقى ، ناولها من كئوسك ، ياما احيلى الراح فى يدها واطيبها !)

وهذا الشعر مصداق لما قيل عنه من أنه أول شعراء الحب فى الأناضول ، وانه كان يرشف الصهباء على الملاهى . وهو القائل (انظروا ياقوم ماصنع الحبيب بنا ، لقد طلت وجهها بالحمرة ليجرى دمعنا دما ، لقد رأيت ثغرها الدقيق فشككت

فى وجودى ، وشاهدت خصرها الرقيق فحسبتنى طيف الخيال (١)
لقد ملكت عينها على روحى واسر جبينها قلبى ، اما حديثها
العذب المعسول فسلبنى عقلى . أواه لاطاقة لى بفراقها ولا سبيل
الى وصالها . هى دمية ، بدر التمام هلال إزاء طلعتها . الله حرم
حسنها علينا فكيف يحل لها سفك دماء عشاقها . لقدهام النسيم
وطاف حولها منذ تلعب بشعرها ، وليس هراء كل ماقيل ،واذا
ما كوت القلوب بمحبتها ، فلها برد الندى من ريقتها)

فهل ينسب هذا الشعر وهو صارخ الالوان رفاف البهاء إلا
إلى شاعر يستلهم ملكة اصيلة خصبة وطبعا مواتيامدادا.ويبرهن
بالدليل القاطع على ان صاحبه متفنن من اهل الدنيا لامتكلف
من اهل الدين ؟ ومن رباعياته (عاود القلب شوقه فهو لليلى
مجنونها ، واذرت العين دمعها ، فهذا الدمع جيحونها ، وكأنى
بشفتيها قد فتكتا بفؤادى ، وإلا فما تلك الدماء فيها ؟!)

فهذه الرباعية تتضمن صورة حسية عنيفة تذكر بعنف الرجل

---

(١) يريد ان تناهى ثغرها فى الدقة قد خيل اليه انه لايهتدى
اليه مع شوقه له فكاد الحزن يقتله ، ونفس الفكرة فى قوله ان خصرها
يحمله طيف خيال فى الضعف والهزال .

وميله الى التهجم ، وكأنما وصف نفسه فى احدى تويوغاته بقوله

(الله يعلم كل ماقدمت يدانا ، لقد كسبنا حلالا وكسبنا حراما ،
فيا ساقى الراح ادر على كأسا دهاقا تجلو عن القلب الصدأ)

وبالمتحف البريطانى نسخة من ديوانه لاوجود لغيرها ، وقد طبع ديوانه وقدم له المستشرق الروسى Melioranski سنة ١٨٩٥ . ومن عجب ان يغفل ذكره كل من فون هامر فى تاريخه الجامع وشهاب الدين سليمان فى تاريخه المفصل ، على حين اعتبره جب اول شاعر غنائى من الترك الغربيين ومنحه من التقدير ماهو اهل له فاحسن بذلك صنعا

• • •

وبعد مقتل القاضى برهان الدين ، استولى السلطان بايزيد الاول على ممتلكاته وهى ارزنجان وسيواس وقيسارية وتوقات ، وضمها الى ماسبق له ضمه لتتسع رقعة ملكه . ولما اجتاح تيمور لنك الاناضول واسر بايزيد فى موقعة انقره سنة ٨٠٤هـ (١٤٠٢م) هز بذلك مملكة العثمانيين هزا غير انه لم يهورها ، ثم زايلها الى غير رجعة . وكل ماعقب ذلك هو ضياع بعض المناطق وفوضى ضربت اطنابها فى البلاد ونزاع قام بين اولاد بايزيد وهم سليمان

وعيسى وموسى ومحمد فلبث احد عشر عاما ثم اعتلى العرش محمد باسم السلطان محمد الاول . والذى يعنينا هنا بخاصة هو ماعسى ان يكون لغزوة تيمور من اثر فى الادب التركى . والمسلم به ان شعراء الترك بعد هذه الغزوة تأثروا بالشعر الفارسى وجعلوا يقلدون شعراء الفرس ، وذلك ان تيموركان نصيرا للعلم والعلماء محبا للشعر والشعراء ، فاتخذ منهم حاشية عظيمة ولم يفارقهم فى سفر ولا فى حضر ، وكان ندماؤه شعراء من الفرس لحق بهم شعراء من الترك ، فتأثر الترك بالفرس وحذوا حذوهم فى شعرهم . واول من عمد الى تقليدهم الشاعر التركى نيازى فكان مثالا احتذاه بنو جنسه الى عصر النهضة الادبية التركية . ونيازى، من شعراء بايزيد وهو اول من ادخل (التخلص) على الشعر التركى فذكر الشعراء اسمهم الشعرى فى غزلياتهم وعرف الكثير منها باسمائهم الشعرية .

ويقال ان الاتجاه الى تقليد الفرس ظهر قبل غزو تيمورلنك بدليل وجود هذه الظاهرة بشعر هذا الشاعر فى زمان متقدم على الغزو ، وبذلك يكون مقدم المغول حدثا عرضيا لاصلة له بما يذهب اليه بعض المؤرخين ، وليس مقدمة لهذه النتيجة (١)

Gibb, AHistory of ottoman Poetry P. 253 V.1 (١)
Menzel, Die türkische Literalur, S. 288

ومن الشعراء الذين تأثروا بالفرس وظهر ذلك جليا فى شعرهم حمد داعى وهو من كرميان وعاصر شيخى واحمدى ، ورحل الى مدينة ادرنة حيث انضم الى بطانة الامير سليمان ، ويعتبره كوبريلى زاده وشهاب الدين سليمان ، فى كتابهما (التاريخ الحديث للآداب العثمانية) اول شعراء القصور ، ويذكرانه فى مستهل الفصل الذى تحدثا فيه عن ذلك العصر الادبى الذى يسميانه (دور السراى) . وكان يحذق العربية والفارسية وله منظومات فيهما . كما قدم الى الامير سليمان منظومة بعنوان (جنك نامه) اى كتاب الحرب وهى تاريخ للنزاع والتخاصم بين الامير وبين اخوته (١) ، والف كتابا لغويا عن الفارسية والعربية اسماه (عقود الجواهر) وله ترجمة شعرية عن الفارسية لرسالة فى النحو من تأليف رفيع الدين الوطواط وعدد ابياتها ستمائة وخمسون ،

---

(١) يسمى كل من لطيفى فى تذكرته ، وفون هامر فى تاريخه هذا الكتاب (جنك نامه) بمعنى كتاب القيثـــارة ، وتابعهما على ذلك كوبريلى زاده وشهاب الدين سليمان فى تاريخهما للأدب العثمانى ، اما جب فلا يجعل للجيم الا نقطة واحدة ، ونحن اميل الى رأيه ليكون على مسمى .

كما ألف رسالة فى أدب الرسائل هى الأولى من نوعها فى الأدب التركى ، ويقول قدماء مؤرخى الترك ان ديوانه كان معروفا متداولا فى الأناضول والروم ايلى . ومن أشهر غزلياته قوله (الشمس طلعتك والبدر قوامك ، وجمال المشترى جمالك ، فأى منظر هذا المنظر الطالع ؟ وأى طالع ؟ إنه طالع أنور . الدنيا بستان حسن من حسنك ، وروضة ورد من شفتك ، فأية روضة تلك الروضة ؟ إنها روضة الجنة ، وأى جنة ؟ إنها جنة الكوثر . من وجهك آية رحمة ، ومن روحك مظهر قدرة فأية قدرة هذه القدرة ، إنها قدرة الصانع . وأى صانع ؟ إنه الصانع الأكبر . سيرة سليمان سيرتك وصورة الاسكندر صورتك . فصورة من هذه الصورة ؟ إنها صورة يوسف . ومن يوسف ؟ إنه يوسف الصديق . الفلك غلبته وملك السعد نلته ، فأى ملك ملكك ؟ إنه ملك الدولة ، وأية دولة ؟ إنها دولة قيصر . على بابك عبيد لا يحصون ، وأذلهم عبدك أحمد . فمن احمد ؟ إنه أحمد داعى . ومن داعى ؟ إنه داعى خادمك) .

فهذا الشعر جميل الإيقاع سلس متسلسل وإن عدمنا فيه كل أثر للذاتية التى عهدناها عند القاضى برهان الدين ، وعرفنا فيه تلك الصناعة التى يزين بها المداحون مدائحهم . ومن شعره

السائر هذا البيت (الا ياعين ويحك اصدقيني بحق سورة طه ، أرأيت فتنة كحبيبي ، ومجنونا مفتونا كقلبي !)

وإذا مافسرناه وجدنا جمالا وقبحا ، ففي (فتنة) تورية جميلة لأن فتنة اسم جارية كان الامير الفارسي بهرام كور كلفا بها ، وقد تكون التورية قبيحة إذا ماذكرنا ان لفظ فتنة كان يطلق في هذا الزمان على جنس من الكلاب ، فاطلقها الشعراء على الرقيب والعذول [1] وكانت وفاة احمد داعي عام ٨١٥ هـ (١٤١٢م) .

وفي عهد السلطان مراد الاول ظهر من يدعي فضل الله ابن

---

(١) يذهب فون هامر الى ان صاحبة بهرام كور كانت تسمى دلارام لافتنة . أنظر Von Hammer- Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst B, 1. S, 72 ونحن نعلم ان اسمها دلارام وان وجدنا لها ذلك الاسم الذي ينكره فون هامر . فقدسماها فتنة كل من براون في كتابه Browne, A Persian Anthologie (p,149) وفيلد في Field, Persian Literature (P, 132) . ولم نعثر على فتنة بمعنى كلب في المعاجم التركية ، ومما يتخذ برهانا على هذا المعنى ذلك البيت (لقد اظهرت الصدر للرقيب وقلت له انبح هذه الفتنة ، انا كلب عند بابك لااعتبار لي فوا أسفي) .

محمد التبريزى المعروف بالحروفى ، وكان من اهل البدع فقد اسس له مذهبا يسمى المذهب الحروفى ، ودعا اليه تيمورلنك ، فلما عزم تيمورلنك على قتله لكفره ، لجأ الى ابن لتيمور ليكون آمنا فى حماه ، غير ان حاميه هذا ضرب عنقه بيده ، ولما عرف ذلك تيمور امر برأسه وجسده فاحرقا عام ٨٠٤ هـ (١٤٠١م) . ولكن مذهبه بقى بعده الى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، وقد تمذهب به شاعران هما نسيمى ورفيعى[١]

---

(١) افضل الله مؤلفات بالفارسية وهى جاويدان نامه أى الكتاب الخالد ومحبت نامه أى كتاب المحبة واستوا نامه بمعنى كتاب الاستواء ، وقصيدة عنوانها عرش نامه . ومنها يمكن فهم مذهبه الحروفى ، وهو يتلخص فى أن هناك علما خفيا لا يحيط به إلا كل ذى حظ عظيم . وبه يفسر كل موجود فى الأرض والسماء وتشرح الروابط التى تجمع هذه الموجودات . وهذا العلم فى القرآن الكريم غير أن مفتاح خزائنه فى يد فضل الله ثم فى يد من يخلفه ، وقد خلق الله الإنسان على صورته وهو معبود الملائكة إلا إبليس الذى أبى أن يسجد له ، وللقرآن معان سامية ، وكذلك لأركان الإسلام ؛ غير أن مجرد الوقوف عند المعنى الحرفى للقرآن ، والقناعة بظهر أركان =

ونسيمى اوسع شعراء الحروفية شهرة وهو من ناحية من نواحى بغداد يقال لها نسيم ، وقد لقى شيخى فى بروسه على عهد مراد الاول ، وتتلمذ لفضل الله فى مذهبه فاعتنقه سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) ولم يقنع بأن يكون مريدا ، فالزم نفسه بأن يكون مبشرا بهذا المذهب وهاديا اليه ، فلقنه صاحبه رفيعى ، ثم بلغ من حماسته وصدق عزيمته ان يستعذب العذاب من اجله والهلاك دونه ، فنظر الى الحلاج كمثال يحتذى وجعل لنفسه احسن اسوة فيه[١] . وما رهب نسيمى ان يجاهر القوم بعقيدته ويعالنهم رأيه ،

= الإسلام ، لا يجدى نفعا . ولهم تشبيهات غريبة كأن يشبهوا الانسان بالقرآن فيقولون إن رأسه سورة الفاتحة . كما يذهبون إلى أن بعض أعضائه معبودات . إلى غير ذلك من أضاليل وأباطيل .

(٢) هو أبو منصور الحلاج الذى قتل فى بغداد عام ٣١٠ هـ (٩٢٣ م) يوم قال (أنا الحق) وشعراء الصوفية يعتبرونه شهيدهم . ولفضل الله الحروفى رباعية بالفارسية هذا نصها (فى مطبخ العشق لا يذبحون إلا حسنا طيبا ، ولا يقتلون ذوى طبع ولا هزيل مروءة وإذا كنت عاشقا صادقا فلا تنج نفسك من القتل ، وكل مالا يقتل فهو جيفة من الجيف) وفى هـذا دعوة الى الاستشهاد فى سبيل الرأى والعقيدة .

فكان يطوف وهو يردد قول الحلاج (انا الحق) . وجهد اخ له ان يثنيه عن ذلك فكتب اليه هذا البيت (اخف السر واحذر فشوه ، لاتطعم العوام من خوان الخواص)

فردعليه نسيمي بقوله (تدفقت امواه البحر المحيط ، وللكون والمكان زفير وهدير ، برح الخفاء وانكشف سر الازل ، فكيف للعاشق ان يتستر بستر !)

ولقي نسيمي حتفه في مدينة حلب التي كانت في هذا الزمان تابعة لسلاطين المماليك ، فاجتمع العلماء واعلنوا كفره ، وافتى المفتي بقتله ، وقد قتل شر قتلة لانه سلخ حيا . ولموته قصة تستحق الذكر ، فقيل ان مفتي حلب كان من شهود قتله ، وما شهد الكافر وهو يلقى الجزاء على كفره حتى صاح عليه غاضبا وهو يقول (انه نجس يموت ميتة نجسة ، ولو وقعت نقطة من دمه على جارحة من جوارحي لقطعتها !) وكان من عجيب الاتفاق ان يكشط جلد نسيمي فيصيب المفتي رشاش من الدم وتسقط نقطة على اصبعه ، وتنبه الى ذلك صوفي كان حاضرا ، فالتفت الى المفتي وقال (لقد سقطت نقطة من دمه على اصبعك فاقطعها كما وعدت بذلك ايها المفتي) فذعر المفتي وقال (كلا ، انما قلت ذلك حينما كنت امثل وليس في التمثيل من حرج) ، وثار نسيمي

لتكذب المفتى وخساسته . فما منعه هول التعذيب عن ان يقول هذين البيتين على البديهة وهما (لابد من قطع اصبع هذا الزاهد الذى زاغ عن الحق وراغ . انظر الى ذلك العاشق المسكين الذى يمزق اهابه من قمة رأسه الى اخمص قدمه فما بكى ولا شكى !)

ويقول لطيفى ان نسيمى لم يقتل الا لهذا البيت (قال المنصور انا الحق . فما قال الا حقا ولا نطق الا صدقا . وما كان محزنا ان ينصبه على الاعواد جهلاء غرباء !)

فكأنه بذلك لم يقتل على انه حروفى . وفى هذا نظر . وقد يصدق هذا الرأى على نسيمى فى هذه الحال . غير انه يحمل بنا ان نتحفظ من اطلاق حكم واحد على الحروفية جميعا .(١)

---

(١) الترك اهل تسنن ورسوخ فى العقيدة . فقد تقبلوا تعاليم الإسلام بصدر رحب يوم أسلموا . وهم فى ذلك يغايرون الفرس كل المغايرة فالفرس مجتهدون بمعنى الكلمة . يقلبون الرأى ويطيلون النظر . وهم أميل الناس إلى ابتداع المذاهب . فايران أكثر بلاد الله مللا ونحلا .

ويؤخذ من هذا أن الترك متزمتون متشددون . تقوم سلطة سلاطينهم على الدين ويحاربون تحت راية الجهاد . فقد حاربوا الفرس لمذهبهم الشيعى المخالف للمذهب السنى . كما قتلوا من الشيعة مقتلة

عظيمة . وقوم هذا شأنهم لا يمكن أن يكونوا متسامحين مع الزنادقة والملاحدة .

نقرر هذا لما يذهب إليه جب من أن الترك أهل تسامح . فهم لم يضطهدوا قط طائفة من أجل عقيدتها . ثم يقول إن قتل نسيمى كان فى بلد عربى لا تركى، إلى أن يعلل محاربتهم للشيعة بانها ستر لمآربهم السياسية . وإذا ما قبلنا تعليل محاربتهم للشيعة ، فنحن لا نقبل ان تسكت دولة إسلامية عن مارق من الدين يفتن الناس عن دينهم . وليس مدحا للترك ولا لغيرهم أن يتسامحوا هذا التسامح الذى يعكس الأوضاع ويفسد العقائد وقد أهلك بعض الحروفية ضربا بالسيف واحراقا بالنار فى زمان بايزيد . كما اضطهد الترك الحروفية على عهد محمد الفاتح ، ذلك السلطان المحب للحكماء والأدباء الذى قرب إليه بعض الحروفية وهو فى قصره بادرنة ليقف على حقيقة مذهبهم . فاكرمهم ليسمع منهم تعاليمهم . وعلم بذلك محمود باشا الصدر الأعظم فكرهه وتخوف على السلطان من أباطيلهم . وأحب أن يأنس برأى الشيخ فخر الدين المفتى الثانى للدولة ويستشيره فى امرهم ، فاتفق الصدر الاعظم مع المفتى على دعوة الحروفية الى مأدبة يختبىء فيها المفتى خلف ستار ليسمعهم من حيث لا يشعرون بوجوده واقيمت الوليمة وحضر الحروفية وخاض متحدثهم فى حديث ذى شجون وهو آمن، حتى جاء ذكر الحلول الذى يذهب الحروفية فيه الى ان الله حل

ولنسيمي ديوان تركي وآخر فارسي الى جانب منظومات عربية ، ويتميز شعره بأن التعاليم الصوفية والحروفية تلتقي فيه . وهو يطرق المعاني الصوفية التي يتداولها شعراء عصره . فالانسان عنده هو المرآة التي يتجلى فيها الجمال الالهي ، وهذا مغاير لرأيه الحروفي فهو يرى ان محبوبه الله لأن الله حل فيه فيقول

= في الجميلات ، فعبادتهن فرض على الناس ! وسمع المفتي ذلك فلم يستطع صبرا عليه ، وبرز من خلف الستار غاضبا مزمجرا يلعن الحروفي ، فهرب الى قصر السلطان ، غير ان المفتي لحق به وتعلق بتلابيبه في حضرة محمد الفاتح ، ثم مضى به الى احد المساجد ، وهناك امر المؤذن بدعوة الناس ولما اجتمعت حشودهم ، صعد المنبر ، فتحدث عن الحروفية وكفرهم وقال باستئصال شأفتهم ، كما قال ان كل من اعان على ذلك اثيب عند الله . فسيق الحروفية الى مصلى ، وهناك اضرمت فيهم النيران ، ويقال ان المفتي الغاضب المهتاج وقف ينفخ فيها حتى ذهل عن نفسه وامتد اللهيب الى لحيته الطويلة !

يقول جب مبررا رأيه ، ان هذا المفتي كان فارسيا ، فهل معنى ذلك انه كان يرتضي هذا الكفر لو انه تركي ؟ هذه دعوى لانميل اليها وان كنا لانريد وصف الترك بالتعصب . راجع Gibb, A History of ottoman Poetry, PP,381,386. V,1.

(منذا الذى يقول لك انك لست الحق؟ من قال انك لست الحق فهو بمنأى عنه !)

ولا ينفك نسيمى عن صيحته هذه يرددها من اول الديوان الى آخره . وفى عقيدته ان من لا يعبد المحبوب فهو شيطان ، لأن ابليس ابى السجود لآدم ! وهو كثير الذكر لذلك . فيورد قوله تعالى فى سورة البقرة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين) ويجعلها حجة له على ان الانسان يستحق العبادة ، ثم يقول ان من أنكر ذلك كفر كما كفر ابليس من قبل . ويستشهد كذلك بقوله تعالى فى سورة القصص (ولا تدع مع الله اله آخر لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) ويقول ان هذا دليل على سرمدية الوجه الانسانى !. وهو يقول فى بعض غزلياته (كل لفظ من حديثك المعسول درة يتيمة ، ومحياك شمعة ، الشمس والبدر فراشتان عليها تتهافتان ، ووجهك ذلك القمر المنير ، ومن انواره يقبس الشمس والبدر شعلتين لا تنطفئان . اطرح مسبحتك وسجادتك ايها المدعى ، وتأمل تلك الذوائب وذلك الخال ما اعجبهما حبة منثورة وحبالة منصوبة ! الحق حبيب المحبين فهب للحق روحك ومن لا حبيب له لا روح له فلم البقاء من غير

روح ؟ اسجد لهذه الصورة انها صورة الرحمن ، فما ردقط ساجد لها . ان نسيمى مصفود فى قيود من شعرك ايها الجميل ، ومن لا يقع فى حبالة شعرك غر جهول)

وهذه رباعية يذكر فيها الأركان التى يقوم عليها المذهب الحروفى (يامن جمالك قل هو الله احد ، ونقش صورتك الله الصمد ، غدائرك لها طرف فى الازل وآخر فى الأبد . وشيطان كل من لم يسجد لحسنك مع الساجدين !)

وشعر نسيمى نمط وحده فى الأدب التركى لمعانيه العجيبة ورموزه الخفية . ويعتبر أصدق شعراء عصره القديم لأنه إنما عبر عن ذات نفسه وصور ما يختلج بين جوانحه ، وهو يفضل معاصريه كثيرا فى تساوق العبارة ونصاعة الديباجة . غير أنه لم يحظ من مؤرخى الأدب بما هو أهله من عناية على كل ما رأينا له من أهمية تاريخية وأدبية وكان مقتله سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م)

وإذا ذكرنا الشيخ ، فحرى بنا أن نذكر المريد ، فكلاهما متمم لصاحبه شارح له ، ومريد نسيمى هو رفيعى الذى لا نعرف شيئا مدونا عن سيرته ، لأن مؤرخى الترك وأصحاب سير الشعراء يغفلون ذكره إغفالا تاما . وفى مقدورنا أن نلم إلماما ضعيفا بطرف ضئيل من سيرته نستخلصه بعد جهد من ترائه

الأدبى(١) فهو صاحب منظومة تسمى بشارت نامه أى كتاب البشرى . ويقول فى أواخرها انه كان حائر الروح قبل أن يتتلمذ لنسيمى ، لا يهتدى الى مذهب يتمذهب به ، ولا قدرة له على اختيار مبدأ يعتنقه ، وهو مع ضربه بسهم فى كثير من العلوم عاجز كل العجز عن تميز صالح من طالح . وكان فى هذه الحيرة الروحية الشاردة سنيا تارة وفيلسوفا أخرى . وقائلا بالتناسخ ، ودهريا حينا من الزمن ، حتى أصبح صوفيا يرفض الدنيا ويزهدها ، وكان إذا سمع بعالم من العلماء ، بدر إليه فسبر غوره وأفاد من علمه ، وما زالت هذه حاله حتى شاء الله أن يجمعه بنسيمى . فبدد النور الظلام ، واهتدى السارى بالنجم . فعرف من العلم مالم يكن له عارفا . وفهم من القرآن مالم يكن فاهما . وكلفه شيخه نسيمى بالرحيل إلى بلاد الترك لينشر مذهبه على

---

(١) اعتمدنا اعتمادا كليا فيما ذكرناه عن رفيعى على ما اورده جب فى تاريخ الشعر للعثمانى ، وليس بين يدينا كتاب غيره يحوى شيئا عن هذا الشاعر . وقد ذكر باصماجيان شاعرا يدعى رفيعى عاش فى عهد السلطان سليم الاول غير انه ليس الشاعر الذى نعنيه هنا ، انظر Basmadjian, Essai sur L'histoire de la littérature ottomane, P. 64

الناس ويهديهم من الضلال . فنظم رفيعي (بشارت نامه) سنة ٨١١ هـ (١٤٠٩ م) .

وبشارت نامه قصيرة إذا قسناها بغيرها ، وأسلوبها سقيم مسف . فلا حظ لها من الجمال الفني اطلاقا ، وهي رسالة منظومة في المذهب الحروفي وأركانه . اما تكلف رفيعي مالا يحسن من الشعر ، فرده الى أن الشعر كان اداة التعبير في هذا العصر . ومن المعلوم أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر خصوصا اذا عنينا النثر الفني أو العلمي الذي لا ينبغي أن تكتب مثل هذه الرسالة إلا في أحدهما .

وهو في بشارت نامه يشرح مذهبه شرحا تعليميا ، ولا يعبر عنه تعبيرا شعريا كنسيمي ، فيبدأ بالحديث عن الأسماء وحروفها ، ويقول ان الحروف وعددها اثنان وثلاثون حرفا هي أصول كل الموجودات . والحروف كذلك هي أصول الكلام . وما الكلام إلا الفكر المنطوق فهي خالدة خلود الله . ولا فرق بين (الفكرة) والله ، كما لا فرق بين الكلام وبين المتكلم . وفي الانسان كل الأسماء ويستشهد على ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) . فالانسان للعالم

مركزه وبانيه وسيده .

ثم يتحدث عن وجه الانسان فيرى فيه معانى الصلاة والحج ويقول (افتح عينك وتأمل ذلك الوجه وجه الانسان ، لاتكن من الحق العظيم بعيدا !)

فللانسان أربعة صفوف من الأهداب وحاجبان وفروة رأس ، وعدد كل هذا سبعة فهو إذن أم الكتاب (السبع المثانى) اما الأنف ، فللأنف أربعة جوانب ، والشفتان وملتقاهما إذا انطبقنا ، وعدد هذا سبعة كذلك . فلدينا فى وجه الانسان أربعة عشر شيئا ، وضعف هذا العدد ثمانية وعشرون ، وهو عدد حروف الهجاء . كما أن فى القرآن الكريم حروفا فى فواتح السور ، وهى أربعة عشر حرفا . ومن قوله فى وصف منظومته . (هذا الكتاب ينطوى على كلمات قبستها من عرش نامه وترجمتها لتبقى تذكارا ونظمت بالتركية مقطوعات فلا تظن انى حدت عن الجادة ، فبشارت نامه معظمه مستقى من جاويدان نامه ومن فهمه وذهنه كان عظيم هذه الدنيا ، واستمددت كذلك من محبت نامه ، فكتابى هذا كتب ثلاثة فى كتاب واحد)

فما ابعد البون بين نسيمى الشيخ الشاعر ، ورفيعى مريده الناظم .

ويقول باصماجيان ، ان المذهب الحروفى مذهب ادبي اكثر منه مذهبا دينيا ، فاثار بذلك نقطة للبحث ، غير انه تركها مبهمة يعوزها طويل شرح يضيق عنه كتابه الموجز (١)

° ° °

وهناك اسرة تتألف من والد وولديه ، ادركتهم جميعا حرفة الادب ، فالأب يدعى صلاح الدين الكاتب وولداه هما المعروفان بيازيجى اوغلى (٢) محمد ، وبازيجى اوغلى احمد .

والشيخ صلاح الدين من أهل انقرة ، عاش فى عهد بايزيد الأول وتلك الفترة التى تنازع الأمراء فيها عرش آل عثمان ، وكل مالدينا من أخباره أنه كان عالما واسع العلم بالفلك ، فنظم منظومة من خمسة آلاف بيت سماها (شمسية) نسبة إلى الشمس ، واتمها نظما سنة ٨١١ (١٤٠٨م) . وتسمى هذه المنظومة

---

(١) Basmadjian, Essai sur l'Histoire de la Littérature ottomane, P. 30

(٢) يازيجى اوغلى بمعنى ابن الكاتب وما اشبه هذه الاسرة باسرة من عرب الشام هى اسرة الشيخ ناصيف اليازجى وولديه الشيخ ابراهيم والشيخ خليل .

كذلك (الملهمة) . وقد تناول الشمسية شاعر يقال له جورى بالاصلاح والتبديل ، فأعاد انشاءها وصياغتها وكان ذلك فى زمان متأخر عنها هو سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣٥م) . ويقول جورى فى المقدمة ان هذه (الملهمة) منظومة ترجمها عن الفارسية الشيخ صلاح الدين الكاتب ، غير انها لاتسلم من مآخذ ، كما أنها مبهمة مغلقة فأعاد نظمها نزولا على رغبة أحد الصحاب . ولا علم لنا بشيء عن جورى هذا .

والمنظومة علمية كما يفهم من عنوانها للوهلة الأولى . لم يعن فيها صاحبها بذوق فنى ولا جمال شعرى فهو يتحدث عن النجوم فى مسالكها ويشرح أحكامها ، كما يذكر الأرصاد الجوية ويمزج الفلك بالنجامة مزجا لا يمكن أن نستبعده من علماء زمانه . وإليه يعزى فضل السبق ، فقد قيل ان (الشمسية) كانت الأولى من نمطها . كما يقال ان لها أهمية علمية تقويمية لما ذكره عن السنة الشمسية السريانية ، ومن قوله فى شهر تشرين الثانى (إذا هبت رياح الجنوب فخذ حذرك ، ففى الخامس من هذا الشهر تدخل الهوام بطن الأرض ، وهذا اليوم يوم نحس . أما اليوم السادس فمن أيام السعد . فى السابع منه ، يجتنى زيتون الشام ، وفى الثامن منه يضطرب موج البحر ويتلاطم ، وفى الثالث عشر منه يحسن

نجر الخشب لأن شجراته فى ذلك اليوم تجود أخشابها . وفى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر يطول النهار إلى عشر ساعات ، ويبلغ الليل أربع عشرة ساعة . وفى اليوم العشرين منه يهلك الذباب مع العناكب . أما برد الليل فيشتد فى الثانى والعشرين من تشرين الثانى) (١)

أما ولدا صلاح الدين فجمعت بينهما اخوة العلم والأدب كما جمعت أخوة النسب ، فقد تلقيا أصول التصوف على حاجى

---

(١) خص فون هامر الشيخ صلاح الدين الكاتب بست عشرة صفحة من كتابه وتحدث تفصيلا عن الشمسية ثم اورد الكثير من نصوصها ، على حين لم يفرد له جب أكثر من صحيفتين واغفل ذكر الامثلة ، اما مؤرخو الترك فسكتوا عنه سكوتا تاما . ونحن لانكاد نتبين سببا لكل هذه المغايرة ، ولا ندرى وجه اهتمام فون هامر بهذه المنظومة الفلكية التى ترجم الكثير من نصوصها نثرا ماعدا نصا واحدا ، وهو الذى جرت عادته بالترجمة شعرا . وان ملنا الى تعليل هذا الخلاف بين العالم الانجليزى والعالم النمسوى بأن الانجليزى لم يجد لها قيمة أدبيـــة تذكر ، ورأى النمسوى نفاستها العلمية التى تستحق الذكر . راجع Von Hammer-Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, 1, B. S, 73

بايرام وسكنا إحدى ضواحى استانبول ، وأقاما معا شعائر الدين كما اشتركا فى التأليف ، وعرف كل منهما بصاحبه .

وكان محمد أكبرهما وأشهرهما . فلما تلقى العلم فى استانبول رحل إلى إيران مستزيداً منه ، وهناك التقى بالعلماء وأخذ عنهم ثم عاد إلى وطنه ليحيا حياة هادئة يتوزعها الدين والعلم والأدب فابتنى له مصلى يطل على هدوء البحر واعتكف . والناس يتحدثون عن زهده بالأعاجيب فيقولون انه ظل سبع سنوات لايذوق طعاما مطبوخا، وكان يجتزىء بأكل الفاكهة .ومن كرمه وإيثاره على نفسه وهو الفقير الوقير ، ان زوجته خرجت إلى الحمام ذات يوم مع أطفال لها ، فطلبت إليه أن يرفع قدر الطعام عن النار عند نضجه ، واتفق لأحد العفاة أن مر بالدار فرأى القدر من خلال الباب ، ثم مد يده إلى محمد يازيجى أوغلى سائلا ، فما رده الشيخ خائبا وجاد عليه بالقدر وما فيها . وعادت الزوجة من الحمام وعرفت الأمر فسخطت وغضبت وقالت له (أخزاك الله ياشيخ السوء ، ماذا أردت لأطفال يبيتون على الطوى؟ هبنا قادرين على الإمساك عن الطعام ، فهل بهم من قدرة ؟!) فساءه ذلك كثيراً من امرأته وخرج مغاضبا لها واعتكف فى مصلاه وهناك دعا الله أن يرزق أطفاله مايقيم الأود . وبينما هو فى

دعائه إذ طرق الباب طارق ولما أخبرته زوجته بذلك قال لها (لقد جاءنا رزق من الله وهو ماتطلبين ، وقد خزيت لطلبه) وفتح الباب فإذا بغلام للقاضي يحمل عشرة ألوان من أشهى المطاعم . وذلك أن عينا من الأعيان كان في زيارة للقاضي ، وكان للشيخ يازيجي اوغلى محمد محبا وبه معجبا . فجاء ذكره ، ولم يكن ما بين القاضي والشيخ عامرا ، فقذفه القاضي وبالغ في مذمته أمام الضيف ، فاغضب ذلك الضيف كثيراً وأقسم لا يمس طعاماً في بيت القاضي إلا إذا شاركه فيه الشيخ محمد . ولم يكن في الإمكان دعوة الشيخ إلى بيت مضيفه ، فبعث إليه بنصيبه في داره. وهذه الأقصوصة على سذاجتها تدل دلالة اكيدة على تقوى الرجل وجوده ومنزلته في قومه

ومما روى عنه كذلك أن الخضر والياس كانا يعينانه على فهم العلم وكشف غوامضه والياس حتى انه سمى مسجدا له مقام الخضر والياس ، وقال في ذلك هذه الرباعية (هو ذا مقام الخضر والياس فادع ربك وسلم وبارك ، لقد رآهما فيه يازيجي أوغلى ، ومن أجل ذلك ابتنى هذا المقام العالى) ومن المستطرف أن يقال انه كان يكتب ذات مرة ، ولما جرى قلمه بكلمة (زفرة) زفر زفرة حرى من حبه لله فاحترق هامش القرطاس!

أما أخوه أحمد فلقبه (بيجان) بمعنى من لا روح له أى أن زهده وحبه لله قد أنحلا جسمه وأضوياه فكأنه أشبه مايكون بالموتى .

وقد خلف الاخوان تراثا أدبيا يتألف من رسالة منظومة بعنوان مغارب الزمان نظمها محمد بالعربية ثم ترجمها أحمد نثرا إلى التركية وسماها أنوار العاشقين [1] واستمد كل منهما ما انطوت عليه مغارب الزمان من معلومات ، فألف احمد (الدر المكنون) . ونظم اخوه محمد (المحمدية) وكان فراغه من نظمها سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩م) . وان احمد ليشرح لنا البواعث على هذه المؤلفات فى مقدمة كتابه (أنوار العاشقين) فيقول

---

(١) لم نجد ذكر الهذين الاخوين فيما بين يدينا من تواريخ الادب التركى التى الفها علماء من الترك ، اما مؤرخو الاوربيين الذين ذكروهما فلم يقل منهم عنها انها منظومة الا العالم الارمنى باصماجيان ، اما جب فاشار الى انها منظومة من طرف خفى ، لانه قال ان احمد ترجمها الى التركية نثرا . وصرف المؤرخون كل عنايتهم الى المنظومة المعروفة بالمحمدية ، ويرجع السبب فى اهمالها هذا الاهمال الى كونها بالعربية فلا مجال لذكرها فى تاريخ للادب التركى .

(كان لى أخ يدعى محمدا ، وهو من أهل العلم والمعرفة ، كامل من عباد الله الصالحين وسيد الواصلين ، ومريد لقطب الزمان حاجى مارام ، وأنا الفقير أحمد كنت أقول له يا أخى لابقاء لهذه الدنيا ، ولادوام لطيبها ،فلو كتبت مايصبح تذكارا للورى. فأجاب طلبى وألف هذا الكتاب المعروف بمغارب الزمان ،وقد جمعه من تفاسير القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الصوفية وأفواه العلماء فتحصلت فيه زبدة اثنى عشر علما . وقال هأنذا يا أحمد قضيت لك سؤلك فضممت المبادىء ومختلف الموجودات فى كتاب واحد ، والنوبة نوبتك فدونك الكتاب ترجمه إلى التركية ليفهمه سواد الناس حتى أهل القرى وينالوا قبسا من نور العلم . فأتممت هذا الكتاب المسمى أنوار العاشقين . فأنوار العاشقين وقصيدة أخى (المحمدية) تفرعا عن (المغارب). فالمحمدية منظومة والأنوار منثور . فالحمد لله حق حمده على أن وفقنا إلى إخراج هذين الكتابين للناس . وقد كابدنا الجهد فى هذا السبيل ليترحموا على والدى الكاتب) .

أما المنظومة المحمدية فيقول محمد فى سبب نظمها انه كان يوما معتكفاً فى عزلته فإذا جماعة من صحابه يدخلون عليه ويسألونه لماذا لايخرج عن الرسول الكريم مايحيطهم علما بشمائله الغر

وسيرته العطرة فأجابهم بأنه مسبوق إلى ذلك . والكتب المدونة شيء كثير . غير أنهم رغبوا إليه أن يؤلف لهم فى الشروح والتفاسير فوعدهم خيرا . ولما أظله الليل ، رأى فيما يرى النائم كأن النبي صلى الله عليه وسلم جالس وصحابته جلوس من حوله وأمامهم أقداح من ماء صاف وعلى وجوههم النقب . فسأل الشيخ أحد الحاضرين عن جلستهم وهيئتهم فقال له (لمن يرفعون النقب ؟ ومن يفتنون بحسنهم ؟ ومن ذا الذى سيشمل بخمرهم فى مجلس انسهم؟) فبكى الشيخ وشق ثوبه ، بيد أن النبي طيب نفسه وقال له (ارفع الحجاب عن قلبك وابحث عن جمالى فى روحك) ثم أمره بتعليم الناس الحكمة واذاعة كلامه فيهم فتوفر يازيجى اوغلى محمد على نظم (المحمدية) حتى أتمها .

وهى منظومة فى تسعة آلاف ومائة بيت وتسعة . وليست من بحر واحد بل من بحور متعددة تبلغ السبعة . وجمالها الفنى لايوصف بالبراعة على سيرورتها وشهرتها ، فهى معروفة متداولة فى طبقات الشعب على اختلافها ، ومن المشاهد أن تجتمع مجالس للنساء لترتيلها . فيصغين إلى من تلقى عليهن أبياتاً منها فى ترجيع وتنغيم طلبا للمثوبة والبركة . وشاعرها يتحدث فيها عن خلق الكون والبعثة المحمدية ثم عن نهاية العالم . وهو معنى على الخصوص

بخلق العرش والكرسى والجنة والنار ، وان هذا الكون مخلوق من نور محمد . ومن قوله فى خلق الجنة (هلم ياطالب الحق إن كنت طالب أنس وبهجة ، وليكن فى هذه الطريق درجانك لتنعم بالسرور وبالحبور ، الق سمعك وتامل ماخلق الرحمن من العدم ، لقد خلق الجنة روضة وجعل الأنوار مصباحا لها . هى جنة عالية قصورها شم منيفة ، وكل جوسق فيها من سبعين ياقوتة سكانها آمنون وادعون قريرو العين ، وقد اتكأت على كل أريكة حورية فى الحسن آية . جبينها بدر وطلعتها صبح . ولما تم خلق الجنة فقد كمل الكمال فلا نقص ولا إصلاح ولا حاجة إليه . جعل الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم رفع قصرا سماه (الوسيلة) ليسكنه حبيبه ، وكان من أجله غرس طوبى ، وهناك ينال كل نصيبه من يد ابى القاسم)

ومات يازيجى اوغلى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٥١ م) ولم تطل بعده أيام أخيه أحمد إلا عامين لأنه مات سنة ٨٠٧ هـ (١٤٥٣ م) .

* * *

ومن مشخصات الأدب التركى ظاهرة مختصة به لانجدها شبيهـا فى غيره من الآداب ، فالكثير من سلاطين آل عثمان

وأمرائهم ، فضلا عن ولوعهم بالأدب وإكرامهم لأهله ، كانوا يقرضون الشعر ، وشعرهم متفاوت فى الجودة متفاوت فى الوفرة فمنهم صاحب الديوان ، ومنهم صاحب الأبيات المعدودات .

وأول هؤلاء الشعراء السلاطين ، السلطان مراد الثانى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) فنحن لا نعرف سلطانا سبقه قال شعراً ، وندر من السلاطين الذين خلفوه من لم يقل شعراً [١] ، وقد عرض لهؤلاء السلاطين والأمراء الشعراء كل من عطا فى الجزء الرابع من تاريخه ، ومحمد توفيق فى تذكرته المعروفة بقافلة الشعراء وكذلك على نور الدين فى كتاب كلام الملوك ملوك الكلام ، وإن كان لم يتحدث عن الأمراء [٢] .

---

(١) نسب عطا فى تاريخه شعرا الى مراد الاول وبايزيد الاول، ويذهب كوبريلى زاده محمد فؤاد الى ان هذا الشعر منحول . انظر كوبريلى زاده محمد فؤاد وشهاب الدين سليمان - يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ١٩٣ .

(٢) تاريخ عطا (استانبول ١٢٩٣هـ) محمد توفيق ، قافلهٔ شعرا (استانبول ١٢٩٠ هـ) على نور الدين ، كلام الملوك ملوك الكلام (استانبول ١٣١١هـ)

ومراد الثانى وإن كان مقلا ، أو كان مالدينا من شعره قليلا ، لصاحب فضل على الأدب والشعر لايجحد ، لأن نعمه جلت على الشعراء الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين من كل أسبوع ، ليقولوا ما عندهم ، ويأخذوا بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان ، فيستحسن أو يستهجن ، ويختار أو يطرح ، وكثيرا ما كان يسد عوز المعوزين منهم بنائله الغمر وبإيجاد حرفة لهم تدر الرزق عليهم ، حتى يفرغوا من هموم العيش ، ويتوفروا على قول الشعر ، وقد انجب عصره كثيرا من الشعراء[1] ومن شعره تلك الرباعية الجميلة (هاتها هاتها من شراب الأمس يا ساقى . ثم سل هذا القلب عن سرفيه يخفيه ، وإلى بالرباب وبالعود وما دمت حيا فحق لى هذا الانس وهذا الطرب ، واسوف يحل ذلك اليوم الذى يضيع فيه أثرى فى التراب) .

---

(١) ينوط باصماجيان بذلك كل الاهمية ، ويقرر ان فضل السلطان مراد الثانى على الشعر والشعراء ، اكبر من فضله كشاعر أنظر Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane (P. 27)

فهذا الشعر نغمة جديدة على هذا العصر جديرة بأن تسترعى النظر . وما أشبه هذه الرباعية فى روحها برباعيات عمر الخيام .

° ° °

وفى هذا الزمان زمان السلطان مراد الثانى ، دون كتاب له عند الترك شهرة مستفيضة ، يعرف (بحكايت قرق وزير) أى حكاية الوزراء الأربعين لمن يدعى شيخ زاده ، وقد ضاعت أخبار هذا الكاتب تمام الضياع فما يعرف له تاريخ مولد ولا تاريخ وفاة ، وخفيت شخصيته خفاء جعل بعض العلماء فى ريب من حقيقة أمره ، فقيل أنه كاتب مصرى لا تركى ، أما كتابه فقصة غريبة بعنوان (اربعين صباح ومسا) ترجمت إلى التركية. شيخ زاده فمن قائل انه رجل مصرى كتب القصة وأهداها إلى سلطان مصر ثم ترجمها عن العربية كاتب تركى مجهول ، وقائل ان شيخ زاده كاتب تركى ترجم هذه القصة وقدمها إلى السلطان مراد (١) . وبين يدى نسخة من هذا الكتاب جيدة الطبع وإن كانت لا تحمل اسم ناشرها ولا تاريخ طبعها . وفى مقدمتها

---

(١) راجع ما كتبه Deny عن شيخ زاده فى دائرة المعارف الاسلامية .

يتحدث صاحب الكتاب عن سبب تأليفه له ، فيمدح السلطان ويقول (انه من الحتم على أهل التقوى من رعيته أن يدعوا الله له ، وعلى غيرهم أن يتقدموا إليه بالهدايا من علومهم ولذلك يقتض شيخ زاده (حكاية أربعين صباح ومسا) (١) الذى ألف لسلطان مصر ، وهذا الكتاب كان فى العربية عاريا عن الزينة لامستطرف فيه ولا مستظرف ، فأضفنا إليه فى كل مناسبة آيات وأحاديث ولطائف وبدائع ، حتى أصبح كالعروس المجلوة تروق فى عين أهل الظاهر وأهل الباطن وإذا ما قرأه السلطان عرف أقاصيص الملوك الأقدمين الذين عصف الدهر بهم) .

ويؤخذ من هذا أن شيخ زاده صاحب الترجمة التركية لاصاحب الأصل العربى وإن كنا لانستطيع الجزم بذلك لغموض عبارة شيخ زاده ولا نعلم شيئا عن مؤلفه ولا عن سلطان مصر الذى قدم إليه الكتاب . وأكبر الظن أن قصص الكتاب من قبيل قصص ألف ليلة وليلة فهى هندية وفارسية رويت وجمعت من غير أن يعرف لها مؤلف ولا مصنف .

وقد ترجمه برنهاور الى الالمانيه سنة ١٨٥١ ، وذكر ان من

---

(١) كذا

يدعى احمد المصرى نقله الى التركية ، كما ترجمه جب الى الانجليزية سنة ١٨٨٦ ، وقدمه بمقدمة لم يهتد فيها الى مؤلفه ولا مترجمه (١)

وللكتاب أهمية ومنزلة عند الترك والأوربيين (٢) وإن كنا لم نجد له ولا لصاحبه ذكرا فيما بين يدينا من تواريخ الأدب التركى بالتركية واللغات الأجنبية ، فهل يعزى ذلك إلى خفاء شخصية شيخ زاده ؟ وإنا لنذكر مايقال من أن التاريخ العام أحداث وشخصيات ، ولا سبيل إلى فصل الحدث عن محدثه ، ونرى مايسوغ تطبيق هذا المبدأ على التاريخ الأدبى ، ومادمنا نملك أثر شيخ زاده ونعرف الكثير عنه ، فلا وجه لتناسى هذا الأثر من أجل صاحبه المغمور ونحن إنما ندرس المؤلفين والمؤلفات .

وتبدأ حكاية قرق وزير ، بأن ملكا من الملوك كان له ولد يعزه وزوجة يحبها ، وشكت الزوجة إلى زوجها من ان ولده يريدها على السوء ، فاشتد ذلك على الملك واستدعى ولده ، ثم

---

(1) Gibb, The History of the Forty Vezirs. (London 1886)

(٢) لقد اختاره Belletete كتاب مطالعة لطلبة اللغة التركية من الفرنسيين فطبع على نفقة حكومة نابليون عام ١٨١٢ ، وظل الكتاب الوحيد للمطالعة التركية فى اوربا الى اليوم أنظر Wells, The Literature of the Turks, P. 107 (London 1891)

أهاب بالجلاد ونوى أن يطيح رأسه ، وكان لهذا الملك أربعون وزيرا . فنادى أولهم وشاوره فى الأمر ، فأشار عليه بالروية وكلمه بكلام لين أسكت عنه الغضب ثم قص عليه من أحسن القصص ماتلهى به فتلهى عن قتل ولده . ولما اختلط الظلام ودخل الملك على زوجته . أكثرت له من أراجيفها وأقاويلها وأوغرت صدره على ولده ، فعاوده الغضب ، ولما كان من الغد استدعى ولده وجلاده ووزيره الثانى ، فصنع هذا الوزير مع الملك ماصنع الوزير الأول بالأمس وانثنى الملك عن عزمه ، ثم دخل مخدعه فاستقبلته زوجته بما استقبلته به البارحة وروت له من الأقاصيص مايفسد قلبه . ومازالت هذه حال الملك مع زوجته ووزرائه وولده حتى مضت أربعون ليلة ، ثم عرف أن زوجته تفترى على ابنه الأمير كذبا فجاء الحق وزهق الباطل . والكتاب يضم قصص الوزراء فى الأصابيح وقصص الزوجة فى الأماسى ، ويعرف كذلك بتاريخ قرق وزير ، وهو سهل العبارة طلى الأسلوب ، مصور للنفس الإنسانية فى خيرها وشرها ، كما أنه مثال طيب للنثر التركى فى ذاك العهد . ومن قصصه قصة عيسى والمرأة الميتة وهى (مما يروى ، أنه كان فى زمان عيسى عليه السلام ، رجل حائك يحب زوجته حبا ملك عليه فؤاده ، وتبادله

المحبة والوداد . فتعاهدا ذات يوم على أن لا يتزوج أحد منهما بعد ممات صاحبه ، ويقضى بقية أيامه مكبا على قبر فقيده يبلل ثراه بالدمع من الصباح إلى المساء . وجرى قضاء الله بأن تموت الزوجة ، فبكاها زوجها وأظهر التفجع عليها ، ووفى بالعهد فكان يخرج فى كل صباح إلى قبرها للبكاء والرثاء ، واتفق أن مر به عيسى عليه السلام ذات يوم ، ولما رأى ذلك من حاله عرج عليه وقال له فى ذلك ، وقص عليه الرجل قصته ، فدعا عيسى ربه ، واحيا المرأة بعد موتها . فخرجت من لحدها متلففة بكفنها ، ثم مضى عليه السلام لسبيله . وقال الرجل لامرأته (لن تسيرى معى وعليك هذا الكفن ، فتلبثى هنا برهة ريثما أمضى إلى الدار وآتيك بثوب) وانطلق الحائك إلى داره يحث خطاه ، ومر بالمرأة ابن الملك ، فعجب لحسناء فى كفن ، ووقع حسنها من قلبه موقع الاعجاب . فسألها ما بالها ، فقالت انها غريبة ههنا ، وقد خرج عليها لص سلبها ثيابها . وامر الأمير خدامه فحملوها إلى القصر ، وهناك كسيت ثيابا قشبا ، وعاد الحائك من داره فلم يقف لزوجته على أثر ، فرفع الصوت جازعا مستغيثا ، وما نفعه ان يسأل المارة عنها ، ولقى خدام القصر ، فاستفسروه عن حاله وسبب أساه ، فقال ان عيسى عليه السلام أحيا له زوجته بعد

موتها ، ثم تركها ليحضر ثوبا لها وعاد فما وجدها ، وقال له الخدام أن هذه المرأة حملت اليوم إلى قصر الأمير . ومثل الحائك بين يدى الأمير ، وقال ان هذه المرأة حليلته . وسئلت المرأة فانكرت ذلك وقالت انه اللص الذى سلبها ثيابها وطلبت قتله على ان فى قتله ثوابا عند الله عظيما . فأمر الأمير بقتل الحائك ، وقيدت يداه خلف ظهره وهو يبكى ويشكو ، ووضع الحبل فى عنقه ، ثم سيق الى حيث يعلق فى الأعواد . وبينما هو فى الطريق مع جلاديه ، لقيهم عيسى عليه السلام فتوقفوا عن سيرهم ويقينهم انه سيسألهم عن امر الرجل . فسألهم وأجابوه . ومنعهم من متابعة سيرهم بالرجل ، وتوجه الى الأمير ، وطلب المرأة ، واستوضحها أمرها ثم قال (هذه المرأة زوجة هذا الرجل ، وقد دعوت ربى واحييتها بعد موتها) ولما رأت النبي يواجهها لم تستطع الى الانكار سبيلا ، فقالت حقا . ودعا عيسى ربه ، وماتت المرأة ، كما نجا الحائك من الهلكة وندم على ذلك الدمع الهتون الذى اراقه على قبرها)

وهذه القصة مثال جيد لتاريخ قرق وزير لأنها تشير الى اتجاهه ، وتظهر اسلوبه المتميز بالبساطة والعارى عن الزينة، على غير ما كان يفهم من قول شيخزاده فى المقدمة ، اما تاريخ تدوين

هذا الكتاب فلا يعلم بصفة قاطعة وان كان الرأى انه دون سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م .) [١]

* * *

وبعد ان ارخنا الأدب التركى فى قرن ونصف من الزمان ، يجمل بنا ان نعيد النظر للالمام بما قررناه ، فقد رأينا كيف بدأ الشعر التركى تعليميا موضوعيا يتخذه عاشق باشا أداة تعبير عن تعاليم الصوفية ، وكيف كان البون بعيدا بين عاشق باشا وسليمان چلبى فى مولده الذى يفيض رقة وعذوبة ويهتز تنغيما وتطريبا ، فينفسح بذلك المجال للعاطفة فى الشعر الصوفى . ثم عرفنا شيخى ذلك الصوفى الذى لم ينس نصيبه من الدنيا فلم يصبر على أذى أعدائه وجازاهم (بخرنامه) بمجازاة الصاع بالصاع . وترجم (خسرو وشيرين) وهى اشهر قصص الحب عند الفرس واضاف الى الترجمة من عنده ، فدلل بذلك على اهمية المحاكاة كخطوة اولى تتلوها من الابتكار خطوات . واخذ احمدى مأخذه فترجم قصة الاسكندر ، وان لم يكن الا مترجما محاكيا . وهبط وحى

---

(١) هكذا قال Pertsch . راجع ما كتبه Deny عن شيخ زاده فى دائرة المعارف الاسلامية .

الشعر على القاضى برهان الدين ذلك الأمير المظفر الذى لم يتأثم من ان يجور ويعنف ، فخلا شعره خلوا تاما من تلك النزعة الحالمة التى يتميز به شعر غيره ولم يعبر الا تعبيرا صادقا صريحا.

ولما تغنى نسيمى بمذهبه الحروفى كان شاعرا غنائيا مبدعا، وليس كذلك مريده رفيعى الذى كان شعره تعليميا كشعر عاشق باشا.

ونظم الشيخ صلاح الدين منظومته الفلكية فعبر بشعره عن العلم البحت ، وينظم ابنه محمد (المحمدية) فى غرض تاريخى دينى لايمت الى الشعر بصلة ، اما (مغارب الزمان) فلا ندرى مابعثه على نظمها بالعربية فبعدت عن ادراك الترك ، واضطر اخوه احمد الى ترجمتها ترجمة نثرية نضمها الى تاريخ قرق وزير لشيخ زاده ، فنجد ان النثر التركى بدأ ترجمة لاتأليفا ، وهو نثر لاعناية فيه بالزخرف والمحسنات اللفظية ، شأن النثر فى نشأته ، فاماشاهد ان الصناعة لاتدخل على النثر الافى عصور متأخرة ومنحطة[1]

(١) هذا يشبه ما عند الفرس ، فأول مؤلف نثرى لهم هو تاريخ الطبرى الذى ترجمه البلعمى وزير الامير منصور بن نوح السامانى الى الفارسية فى القرن الرابع الهجرى . كما أمر هذا الامير نخبة من علماء ماوراء النهر بترجمة تفسير الطبرى فترجمة تاريخ الطبرى وتفسيره باكورة النثر فى الفارسية المتميز بالسلاسة والخلو من المحسنات اللفظية

وقد رأينا كيف أثرت الثقافة الفارسية على شعراء الترك فترجموا عن الفرس ورددوا فى شعرهم معظم معانيهم . كما يلحظ أن الترجمة النثرية كانت عن العربية لا عن الفارسية .

وفى هـذا الزمان كان السلطان مراد الثانى أول الشعراء السلاطين الذين سنصادفهم فى مقبل العصور . وكان شعراء هذه الفترة من الزمن ينظمون فى لهجاتهم المحلية التى تغاير اللهجة العثمانية بعض المغايرة ، وهذا مالا نصادفه إلا نادرا بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . إذ أصبحت هـذه اللهجة هى الجارية على السن الشعراء . ولا يسعنا أن ننسى فتح القسطنطينية لا لأنه فاتحة عصر أدبى يخالف عصرا سبقه ، وإنما لكونه فاتحة عصر استقرار للملك وارتقاء للحضارة ونهضة أدبية سار بها الشعراء قدما حتى بلغت ذروتها فى عصرها الذهبى عصر السلطان سليمان القانونى ، فخفت صوت الشعراء الفقهاء وأصبح الشعر يحتمل المعنى الرمزى والمعنى الحسى ، كما اتصلت أسباب أهل الأدب بالسلاطين وخرجوا من عزلتهم ، فأقبلوا على الدنيا بعد اعراضهم عنها .

* * *

وعلى ذكر فتح القسطنطينية لانجد معدى عن ذكر فاتحها

محمد الثانى كراع لنهضة أدبية وشاعر مجيد ،وقد حكم ثلاثين عاما كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء ، وعرف بأبى الفتح لأنه غلب على امبراطوريتين . وفتح سبع ممالك واستولى على مائتى مدينة . وشاد دور العلم ودور العبادة فعرف كذلك بأبى الخيرات . كان يجيد اللغة العربية ويداوم على المطالعة فى كتبها حتى قيل ان جمهرة الكتب فى مكتبته الخاصة كانت عربية ، ويروى انه كان يعرف اللاتينية واليونانية والعبرية ، وان شك بعض العلماء فى صحة هذه الرواية (١) .

وقد أغرم بمصاحبة الشعراء والعلماء ، واصطفى بعض وزرائه منهم كأحمد باشا ومحمود باشا وجزرى قاسم باشا وكلهم شاعر (٢) ووظف الأرزاق لثلاثين شاعرا ، وكان يرسل مالا جزيلا فى كل عام إلى الشاعر الهندى خواجه جهان والشاعر الفارسى جامى (٣) ويقول لطيفى فى تذكرته (كان إذا سمع بعالم متبحر

Suheyl Unver, Fatih Külliyesi ve zamani ilim (١) Hayati S. 159 (Istanbul 1946)

(٢) ذكرنا بعض افضاله فى المقدمة فارجع اليها .

(٣) هو الشاعر الفارسى جامى المتوفى سنة ٨٩٨ﻫ والمعتبر من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم فلم يظهر مثله من بعد . وله عند =

متفرد فى فن من الفنون ، فى الهنـد كان أو فى السند ، استماله بالاكرام ونفحه بالمال ، ومناه من المراتب والمناصب بكل عزيز المنال ، فحبب إلى العلماء أن يزايلوا أوطانهم ويفدوا عليه ، ومن المتعارف المشهور أنه استقدم العالم الكبير على قوشجى[1] من ديار العجم وقدر له ألف (اقجة) على كل مرحلة من مراحل سفره ، وأكرمه اكراما ووقره توقيرا[2] .

وكان يود الفرس كثيراً ، وذلك كرامة لعلمهم وأدبهم وقيل ان شاعراً تركيا واسع العلم بالفارسية يسمى لالى تمى الزلفى إليه وادعى انه فارسى فنـال منه مبتغاه ، غير أن حساده وشوابه وفضحوا أمره فأغضبوا السلطان عليه . وفى ذلك يقول هـذا الشاعر متأسفا (إذا ماصبت نفسك إلى درك المنى ، فكن عربيا

ـــ الترك منزلة وتأثر به كثير من شعرائهم. وقد خابره وراسله كذلك السلطان بايزيد الثانى ولد السلطان محمد الفاتح ، ويقال ان جامى مدح الفاتح غير أنى لم أوفق بعد الى الإطلاع على مدحته .

(١) هو على قوشجى المتوفى سنة ٨٧٩ ﻫ (١٤٧٤م) كان فيلسوفا وفلكيا من سمرقند ، وله عدة كتب فى الفلك وفى علوم أخرى .

(٢) أنظر ، كوبريلى زاده محمود فؤاد وشهاب الدين سليمان ـ يكى عثمانلى تاريخ أدبياتى ص ١٩٥

أو فارسيا. لا نفاسة للجواهر فى معادنها ولا للآلئ، فى قاع بحرها، وإذا خرج جوهر من حجر فكذا الفضل من أى رجل. لا يزحف الفرس إلينا، لا يتسلطوا علينا! كل قادم من فارس يامل أن تكون له الامارة أو الوزارة)

وهذا كاف حق الكفاية فى الابانة عن مدى اعجاب الترك بالفرس. ولما دخل الفاتح القسطنطينية ظافراً وقف بقصر من قصورها ورأى الدمار والخراب فتمثل بهذا البيت من الشعر الفارسى (البوم تنعق على قباب الأكاسر، والعنكبوت تضرب نسيجها على قصور القياصر).

فكانت قولة مشهورة لها مغزاهـا التاريخى والأدبى وللسلطان محمد الفاتح شعر رائق، وهو أول سلطان ذكر (تخلصه) فى غزلياته فسمى نفسه (عونى). وديوانه لطيف الحجم يتألف من ثمانين صفحة [1] وهو القائل (أنا عبد لسلطان

---

(١) لقد شك جب فى وجود ديوان لمحمد الفاتح، ورجح ضياعه إن كان قد وجد. Gibb, A History of ottoman Poetry P,31,V.2. هذا ما ظن منذ خمسين سنة وبين يدى الآن نسخة من ديوانه فى طبعة حديثة Saffet Sitki, Fatih Divani (Istanbul 1944)

من عبيده سلاطين هذه الدنيا ، ونور شمسه يبهر الضحا ، وإذا ماقتلني بالسهم أو أهداب العيون ، فسواء على القتيل فتكة الحسام أم قتلة السهام ، لك فرع هو ليلة القدر ، وحاجبك هلال العيد ، وما وصالك إلا فرحة العباد بحلول الأعياد . أما فراقك ، آه من فراقك ، فإنه شهر الصيام !) .

وقال وهو جالس على الشراب ، وقلبه يهيم فى الأحلام ويهتز مع الأنغام (أدر علينا الخمر ياساقى فهذا البستان إلى ذوى وذبول ، وإذا ماوافى الخريف فلا ربيع ولا رياض . انا إن شاهدت هذا الجميل ضاع الزمام من يدى فغلبت على تقواى وزهدى . الا لا يغرنك هذا الحسن يا من تتيه علينا بالحسن . ومتى دام للجميل جمال ؟ فالوفاء لنا الوفاء) .

فى هذا الشعر جمال لايحتمل المراء لأن معناه يسبق لفظه ، وإن صلح لأن يكون كلاما للناسك وللفاتك شأن كل شعر صوفى عاطفى جميل ، وانا لنستبعد كثيراً أن يكون الغزل الأول شعراً صوفيا أما الغزل الثانى فنغمة سوف تطرق سمعنا طرقا رفيقا رتيبا عند الجم الغفير من الشعراء . وكانت وفاة السلطان محمد الفاتح سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨٠ م) .

ومن شعراء السلطان محمد الفاتح وندمائه ؛ أحمد باشا . أصله من مدينة بروسه على المشهور ، وهو سليل أسرة كريمة تنتسب إلى النبي الكريم ، لأنه من حفدة الحسن عليه السلام (١) ، أبوه ولى الدين بن اليـاس كان قاضى عسكر فى زمان السلطان مراد الثانى (٢) . فعرف احمد باشا بولى الدين اوغلى ، أى ابن ولى الدين وبدأ حياته العلمية كمدرس بالمدرسة المرادية فى بروسه ، ثم تقلبت به الأحوال فاصبح قاضى ادرنة . واشتهر بالعلم والأدب حتى تكنى بابى العرفان . وعرف السلطان محمد الفاتح أخباره فاصطفاه مؤدبا ونديما ، ومما ينهض دايلا على قدرته وحضور بديهته ان السلطان كان يترنم ذات يوم بقول الشاعر الفارسى حافظ

---

(١) قال احمد باشا بيتين بالعربية فى رسالة من رسائله موضحا نسبه ، وهما :

سلام كانفاسى إذا كنت ناطقا بمدح رسول الله جدى وسيدى
على خير ابرار البرية سيرة صديق حميمى مشفق ومؤيدى

معلم ناجى ، عثمانلى شاعرلرى ص ٧ (استانبول ١٣٠٧)

(٢) لقاضى العسكر منصب دينى رفيع ، لايسمو عنه إلا منصب شيخ الاسلام ، وللدولة العثمانية قاضيا عسكر .

الشيرازى [1] (أولئك الذين يجعلون التراب كيميا (٢) بنظرة عين ، هلا وجهوا إلينا نظرة من جانب العين !) فرد أحمد باشا ببيت نظمه على الفور بالفارسية وهو (ان الذين يجعلون التراب كيميا بنظرة عين لقادرون على جعل تراب الجواهر تحت قدمك توتيا (٣)) .

وكان احمد باشا من خاصة السلطان أيام فتح القسطنطينية ، فارسله إلى الولى المعروف الشيخ آق شمس الدين ليسأله ان كانت هزيمة الأعداء أمراً متيسراً أم لا ، وغرض السلطان من ذلك أن يتعرف مافى الغيب . فاشار الشيخ بالهجوم من موضع خاص وعاد أحمد باشا إلى محمد الفاتح برأى الشيخ ، فعمل به ، وما

---

(١) هو حافظ الشيرازى أشعر شعراء ايران وأبعدهم صيتا ، وغزلياته اجمل غزليات فى الشعر الفارسى وقد مات بشيراز سنة ٨٩١ هـ .

(٢) الكيميا هنا حجر الفلاسفة وهو حجر كان الأقدمون يعتقدون انه إذا مس شيئا تحول إلى ذهب .

(٣) التوتيا دواء يجلو البصر ، والترك يسمون السياسة والاقدام الحكيم توتيا الدولة

أصبح الصبح حتى كان الأذان تردد اصداؤه فى حصن ظفر به المسلمون من الروم .

غير ان السلطان نقم من احمد باشا امرا فغضب عليه وهم بقتله . والأمر واحد فى نفسه وان اختلفت فيه الروايات . فيقال انه كان يهوى غلاما من غلمان السلطان ، وحدث ان اذنب الغلام فأمر السلطان بان تقيد رجلاه بالحديد . ورأى ذلك احمد باشا فرق له وارتجل هذين البيتين وهما (لتحترق هذه الدنيا ! لهذه الشمعة المعسولة البسمة ، فانها تبكى وفى ساقها قيد الحديد . ولو انه باع حلوى من شفته ، لكان ثمنها مصر وسمرقند وبخارا (١)

ونمى الخبر الى السلطان فاضطغنها على احمد باشا وأمر بزجه

---

(١) يشبه الشاعر الغلام الجميل بالشمعة ، ويشبه شفته بنوع من الحلوى يعرف بحلوى شيراز . وفى هذا الشعر اشارة الى قول حافظ الشيرازى فى مطلع غزله المعروف (لو ان هذا التركى الشيرازى رق لقلبنا ، لوهبت سمرقند وبخارا ثمنا لخاله الاسود) ومن طريف ماروى ان تيمورلنك استدعى الشاعر ولامه على تهوينه من هاتين المدينتين العظيمتين ، فكان من فطنة الشاعر ان قال انه مسرف متلاف وهذا سبب فقره وخلو وفاضه . فضحك تيمور وعفا عنه .

فى سجن البروج السبعة [١] ، وبينما كان الشاعر فى سجنه نظم قصيدته المعروفة بقصيدة الكرم وانفذها الى السلطان ومنها[٢] (القطرة من بحر كرمك بحر للكرم ، وروضة الجود يرويها فيض من غمام يدك . وإذا ماأذنب العبد فما ضران يعفو الملك؟ واذا مالوثت يدى بالدم من بعد ، فليكن الدم بديلا من الكرم! اى كرم هذا الذى تمحوه الجريرة ، وأى جريرة تلك التى لا يمحوها هذا الكرم ، الماء لن يغرق غرسه ، فأنى يغرقنى بحر كرمك!)[٣]

وفى رواية اخرى ان السلطان عرف ميله الى الغلام ، واحب ان يستوثق من الامر ، فامر بالغلام فقص شعره ، او اخفيت خصلاته تحت قلنسوته ليبدو مقصوص الشعر ، وانفذ الى الباشا

---

(١) يعرف هذا السجن بيدى قله . وهو قلعة بيزنطية قديمة بالقرب من بحر مرمرة . وكان الترك قديما يعتقلون فيه سفراء الدول التى تحارب الدولة العثمانية

(٢) الكرم هنا بمعنى العفو لا بمعنى السخاء . وهذه القصيدة طائرة الشهرة والعجب ان يغفل ذكرها أكاه سرى فى حديثه عن احمد باشا ، ولا يورد كوبريلى زاده محمد فؤاد مثالا منها .

(٣) قال الشاعر الفارسى سعدى : (النهر لن يغرق العصا ، فاى حكمة فى ذلك؟ انه ليحتشم ان يقتل ما ربى وأحيا) وقد اخذ شاعرنا =

فى حمامه حاملا قدحا من الشراب . ولما رآه تحركت، شاعريته فقال (قص لهذا الصنم الجميل شعره فما اقلع عن كفره ! وقطعوا زناره فما دخل فى دين الاسلام !)

واحاط السلطان بذلك علما فقطع الشك باليقين ، وقام فى نفسه ان يأمر بذبحه الا انه استبدل بالذبح سجنه ، فسجن فى (حجرة الحجاب)[1] ثم كان ما كان من نظم قصيدة الكرم . وفى رواية ثالثة ان احد حساده وشى به الى السلطان وأسر اليه ان الشاعر مستهام بالغلام ، فأمر الغلام باخفاء شعره تحت قلنسوته ولما رآه الباشا قال (اطلق خصلتك الفاتنة من حبس قلنسوتك ، فلكم على العشق جارت وكم فتنة اثارت !)

كما قيل كذلك ان السلطان خرج متصيدا وصحب الباشا

= التركى هذا المعنى عن الشاعر الفارسى . وسعدى هو الشيخ سعدى الشيرازى صاحب كتاب كلستان ومنظومة وستان وله شعر نضيد معظمه صوفى وتعليمى . وسعدى اعظم اخلاقى فى الشرق وقد مات سنة ٦٩٤ هـ .

(١) حجرة الحجاب او (قبوجيلر اوطه سى) اسم جناح فى قصر محمد الفاتح .

والغلام ، وبينما كان جواد السلطان مخبا ، اثار حافره قطعة من طين اصابت خد الغلام ، ورأى الباشا ذلك فقرأ قوله تعالى فى سورة النبأ (انا انذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) .

وأيا ما كان فقد أحسن السلطان العفو عن الباشا لما قرأ قصيدة الكرم وقال (ان أحمد لفصيح اللسان عذب البيان فلن يمسه شر ولا أذى من سلطان) غير أنه طارده من خدمته ثم أسند إليه منصبا صغيراً فى مدينة بروسه .

والرأى على أن احمد باشا أول الفطاحل من الشعراء الغنائيين العثمانيين . وشعره قصائد وغزليات . وقد تأثر بالشعر الفارسى تأثرا شديدا جعل بعض المؤرخين يقول ان شعره فى واقع الأمر محاكاة للشعر الفارسى ليس إلا ، ولم يزد على أن كسا عروس شعر الفرس ثوبا من ثياب الترك [1] وفى بدو أمره كان له من كماله وفضله مايعتبر به عالما بين العلماء ، إلا أن شعره كان من النمط التركى القديم ، لا ملاحة فى ألفاظه ولا رقة فى أسلوبه ،

---

(١) دفع ذلك عن احمد باشا معلم ناجى وكان دفعه شديدا، فرأه من هذا . انظر معلم ناجى - عثمانلى شاعر لرى ص ١٢

حتى أرسل إليه على شير نوائى ثلاثة وثلاثين غزلا من غزلياته ، ولما احتذاها حسن شعره .(١) والمعروف أنه تأثر بغزليات على شير نوائى الشاعر التركى الشرقى (٢)، وغزليات حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى . وقد أسلفنا أنه كان متضلعا من الفارسية كثير النظر فى آدابها وبلغ من اتقانه لها أن يستطيع النظم بها . ومن قوله فى قصيدة تعرف بقصيدة الشمس (الشمس كسرى على عرشه فى طاق الفلك ، وعليه قباؤه النارنجى . وهذه الأنوار من عرشه تفيض. لقد اتخذ سلطان الصبح له مسندا من سرير السماء ، ثم نثر الذهب والجوهر من أطباق الفيروز . أما الشمس فجهزت فلكا نوانى الشراع لتغرق زوارق الفضة فى الظلمات (٣) والشمس طاوس ذهبى الريش ينشر الجناح ويجول كل سحر فى بيدر القمر (٤) فيلقط النجوم حبا . وكأن الشمس أنوشيروان

---

(١) محمد توفيق قافلهٔ شعرا ص ٢٧ (استانبول ١٢٩٠)

(٢) راجع ماذكرناه عنه فى ص ٢٥ ولا يفوتنا ان نقرر ان على شير نوائى آخذ عن حافظ متأثر به .

(٣) يريد بزوارق الفضة نجوم السماء

(٤) فى هذا اللفظ تورية لأن كلمة (خرمن) الفارسية بمعنى البيدر وهالة القمر

الصبح العادل يدلى سلسلته الذهبية من القبة اللازوردية(١) وعلى عرش الفلك سلطان يوسف الحسن أوزليخا فى يدها نارنجتها العسجدية . أما حقيقة الأمر فهى أن الشمس فتحت لها كوة من ياقوت لتطل منها وتشاهد ديوان الملك !) .

فهذا الشعر خياله لا يعاب ، غير أن صاحبه متكلف متعسف إلى أبعد مدى ، فما قصيدته إلا صورة تزاحمت فيها الاصباغ وفشوه ذلك من جمالها . والناظر فيها لا يجد إلا ما يبهر بصره فينصرف عنها أما تأثر أحمد باشا بالشعر الفارسى فواضح بين . شعره تعوزه الرقة والعاطفة فهو براق اللفظ إلا أنه عسير الفهم (٢) . وكانت وفاته عام ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م) .

وعلى ذكر أحمد باشا ، يذكر من يدعى سنان باشا لما سنقف

---

(١) هو كسرى انو شيروان المعروف بالملك العادل ، وكان من عدله يتخذ فى قصره ناقوسا تتدلى منه سلسلة الى الخارج ، فاذا اراد مظلوم ان يدخل عليه متظلما جذب السلسلة فدق الناقوس وتنبه الملك لذلك فاذن له بالمثول بين يديه . والشاعر هنا يشبه شعاع الشمس بالسلسلة الذهبية .

(٢) انظر كوبريلى زاده محمد فؤاد وشهاب الدين سليمان - يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ١٩٩

عليه من وجوه شبه ووجوه خلاف بينهما ، فسنان باشا كاتب شاعر عالم حكيم ، نشأ فى بيت علم وفضل ونعمة ،فقد كان أبوه قاضيا مرموق المكانة غزير المعرفة ، ولاحت على سنان مخايل النجابة وهو صبى حدث فكان بليغا قبل بلوغه مبلغ الرجال يصعد المنبر ويعظ الناس آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر (١) وأظهر ميلا شديدا إلى الفلسفة والنظر المجرد واتخذ الشك مذهبا له فكان يشك فى كل شىء حتى يتحقق منه . وقد أوقع ذلك الجفوة بينه وبين أبيه . وحدث ذات مرة أن كان الوالد يواكل ولده فقال له (ياسنان لقد وصلت بك الحال إلى أن ترتاب فى كون هذا الصحن من النحاس !) فرد عليه سنان بقوله (صدقت يا أبت فى الحق أنه لايجوز الحكم بأنه من النحاس قبل التحقق والتحليل ،والشك فى ذلك أهون وأسهل من التصديق) فغضب أبوه وضرب بالصحن رأسه .

وقد ولاه السلطان محمد الفاتح قضاء استانبول ، وأعجب بعلمه وأدبه الإعجاب كله ، فاتخذه نديما وجعله مؤدبا له يتلق

---

(١) تذكرة لطيفى ص ١٩٣

عنه العلم فعرف (بخوجه باشا) (١) ثم رفعه الى رتبة الوزارة ، وبعد عام غضب عليه لأمر لا يقول المؤرخون الا انه تافه دون تفصيل له ، فعزله عن الوزارة وحبسه . وقضى فى الحبس مدة حتى شفع له بعض العلماء عند السلطان فاطلق سبيله الا انه ابعده عن استانبول والحقه بمنصب دون المنصب الذى كان يشغله درجة ومنزلة .

ولزمه هذا المبدأ الذى اعتنقه وهو مبدأ الشك الى اخريات ايامه ، فلما تصوف ورق للزهد قلبه ، لم تكن روحه روح صوفى بل روح متفكر متأمل ينفى ويثبت . وكان محمود الخبر لا مطعن فى عرضه ولا مغمز فى سيرته ، وهو فى ذلك يخالف الشاعر احمد باشا .

وسنان باشا كاتب بليغ بل هو رائد النثر فى الأدب التركى ، فلم يوجد قبله من كان كتيبا مثله ، والسلاسة والتجافى عن الافراط فى تزيين الكلام طابع كتابته ، كما يتميز اسلوبه بقصر الجمل ، والتوفيق فى اختيار اللفظ من غير تحكم ولا اقحام . وان روحا

---

(١) خوجه هى الصيغة العامية لخواجه بمعنى السيد او المعلم فى الفارسية .

شعريا يهيمن على نثره فيكسبه رونقا وطلاوة ، وان عيب عليه احيانا عدم الربط بين الجمل ، والوثوب من معنى الى آخر .

وله رسائل فى الشريعة والرياضيات ، وتذكرة الأوليا ، وكتاب التضرعات ، ومن قوله فى تذكرة الاوليا (ومن يدرى شيئا عن تلك البقية المتبقية لنا من عمرنا ، فإذا كانت بضعة أيام فلنفرض ان اليوم الأول منها هو آخر يوم فيها ! ولما رأيت ذلك من احوال الدنيا ، عرفت ان انسياق لها لايجمل ، فاتباع الهوى لايعقب الا حسرة وندما . وعقدت عزمى على طى مابينى وبين اهل الدنيا ، والاتئناس بالوحدة فى ركن بعيد . بيد اننى رأيت وفرة الأسباب وكثرة الوشائج فذكرت ان قطعها امر غير ميسور ، وانى يكون لى ان اصرم حبل اهل العلم ، ذلك العلم الذى الفته نفسى اعواما متطاولة) فهذا مثال من نثره ، وهو كما يلوح عار عن كل زينة ، يسيطر عليه عقل حكيم يرد النتائج الى مقدماتها ويجول فيه رأى سديد ونظر مصيب . وان هذا المثال ليصور لنا من الرجل جانبه العقلى المحض ، اما جانبه الفنى ، فهو يتجلى فى كتاب التضرعات ، فقد قال يصف الدنيا (الدنيا عجوز شمطاء فى ثوب كاعب حسناء ، ودار للخراب وان بدت دار عمران ، لها من الوفاء والصفاء ما للنساء ! فوفاؤها وصفاؤها سحابة صيف

اما همومها وغمومها ، فأوراق اشجار وحبات رمال لاتدخل تحت حصر . بالها هرة تأكل صغارها . وكلبا يعض بعدأن يتلطف ويتملق . إن وعدت نكثت عهدها . وإن عاهدت فلا إلَّ لها ولا ذمة . كل من عليها لايسلم صلاحه من فساد ، ولا رواجه من كساد ، فصعوده إلى هبوط وأمله إلى قنوط ، وبجانب أوجه حضيض نازل . وفى شهده سم قاتل . من ذا الذى سلمه من غير حرب ولا جدال . ودولته بلا تغير ولا زوال . وأى طلوع من غير أفول ، وأى نزول من غير قفول وقدوم لايتلوه ارتحال ، بعد الفرح ترح وبلاء ، وبعد المحبة محنة وابتلاء . الفناء بعد البقاء والغمة بعد النعم واللذة ثم الألم) .

هكذا يصف سنان باشا الدنيا وصف كاره لها ضائق بها . وإن هذه الاضداد المتتالية والاسجاع المتلاحقة لتدل دلالة واضحة على علو كعبه فى الكتابة وتأنقه فى الانشاء والترسل . وهو القائل فى تضرعاته (العشق جوهر ليس كمثله شىء ، ولا سبيل الى تشبيهه لاصابة صفته ، العشق سر خفى لايتوصل الى تصويره بضرب الأمثال ، وتحت السن العشاق كلام على شفاههم محرم حرام ، وبين جوانحهم انفاس هى غير ما فى افواههم من انفاس . ان للعشق مرآة لاتصدأ . والعشق هو الذى يضع اعناق

الأحرار فى ربقة العبودية ، ويطاطىء الهام المرفوعة . ليس العشق سحرا ولا حديث خرافة ، وما كل مدع من العاشقين ، وما اقل من تحدث عن المحبة فكان من الصادقين) فكلامه عن العشق الالهى الذى ترنم به شعراء الترك فى لوعة وحنين، ولكن قلما جرت به أقلام كتابهم ، وهذا مايحملنا على القول بأن هذا النثر شعر منثور لايصدر الا عن كاتب له روح شاعر . وما اجمل قوله وهو يضرع الى الله فيقول (ياعليما ليس لعلمه غاية ، وقادرا ليس لقدرته من نهاية . انت القديم ، وعن قدمك ترتد عقول المتقدمين والمتأخرين عجزا وقصورا ، وانت الحكيم ، وحكماء الأوائل والأواخر لايملكون شيئا من حكمتك . ايها القاهر الذى قهر بسطوته كل موجود ، ايها الرحمن الذى غمر حسنه كل ذرة بالمسرة . ايها السميع ولا آلة لسمعه ، والبصير الذى لا آفة لبصره . انت الخالق ولا نهاية لخلقك ، وكل موجود ينال من كرمك)

ولسنان باشا شعر ، الا ان شعره قليل وهو شاعر نحيل . ومما يستدل به على عدم تعلقه بالشعر ، انه لم يتخذ له (مخلصا) اسوة بغيره من الشعراء . ومنظومه يشبه منثوره فى براعة الاداء وقصر الفقرات . ونحن هنا لا نورد النماذج من شعره رغبة منا فى اعتباره

كاتبا لاشاعرا . وتوفى عام ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) .

* * *

ونعود الى الحديث عن شعراء الاسرة السلطانية ، فنتحدث عن الامير جم بن محمد الفاتح ، ولحياة هذا الامير قصة حزينة هى الشقوة فى اعجب صورها والانسانية فى كل عواطفها واحاسيسها ، وليس من الاغراق فى شىء ان نعتبرها اروع مأساة فى التاريخ العثمانى ، وللكتاب والشعراء ان يستمدوا منها غامر المعانى وسابح الأخيلة . فسيرة جم ادخل فى التاريخ القصصى منها فى التاريخ الادبى ، وان كنا نجد هنا مس الحاجة الى روايتها على اختصار ، بالقدر الذى يعيننا على فهم حياة جم من شعره ، وشعره من حياته (١) .

فقد ولى اقليم قرمان لابيه قبل بلوغ العشرين ، واستقر فى مدينة قونيه عاصمة السلاجقة القديمة . وهناك هوت افئدة من الناس اليه ، كما خالل الشعراء فكان من خاصته شاعران هما سعدى وحيدر ، وكانت حياته حياة ابناء الملوك امثاله ، خمر

---

(١) المنا بقصة الامير جم الماما مفصلا فى كتابنا (فارسيات وتركيات) تحت عنوان (الامير التعس) ، فللمستزيد أن يطلب ما يريده

وندمان والحان . وظهرت ميوله الادبية فاتقن الفارسية ونظم الشعر بالتركية . ويقال انه ترجم منظومة فارسية اهداها الى ابيه الفاتح [١] واتم تدوين ديوانه فى قونيه . ومات السلطان محمد الفاتح فتغير لذلك مجرى حياة جم ، لوقوع النزاع والتخاصم بينه وبين اخيه بايزيد واختلافهما ايهما يرث عرش ابيه . فثارت الحرب بين الاخوين والتقى الجمعان عند بروسه وكتب النصر لجم فاعلن نفسه سلطانا وامر بالدعاء له على المنابر وسك العملة باسمه . واوفد الى اخيه من يعرض عليه اقتسام الملك فيحكم جم ولايات آسيا وبايزيد ولايات اوربا . فرفض اخوه وحاربه فغلبه. وهرب جم الى مصر ونزل فيها ضيفا على السلطان قايتباى ثم رحل لقضاء مناسك الحج مع الشاعر سعدى [٢] ولما عاد الى القاهرة نصح له اصفياؤه بمعاودة قتال اخيه ، فشد رحاله الى انقره وهناك

---

(١) هى منظومة بعنوان خورشيد وفرخشاد . ولا ينسبها اليه الاسهى وسعد الدين من دون بقية الرواة مما يجعل ذلك امرا مشكوكا فيه أنظر Gibb, A History of ottoman Poetry (p. 72.V,2) كما قيل انه نظمها فى العاشرة من عمره ، وهذا بعيد الاحتمال .

(٢) هو شاعر تركى يدعى سعد الله وليس الشاعـــر الفارسى سعدى الشيرازى .

انفذ اليه بايزيد ابياتا من نظمه يقول له فيها (لقد حججت بيت الله فبلغت بذلك منزلة لا امل بعدها ، فبالله ماشوقك هذا ايها الامير الى عرش من حطام الدنيا ! ؟ ان هذا الملك من فضل ربي فكيف تتسخط قضاءه ولا ترضى لي بمشيئته)

ورد عليه جم بقوله (تتخطر فى الحرير وتتقلب على مهاد الراحة ، وتعيش لتنعم بطيبات الحياة ، فكيف يظل جم محروما من كل شيء ويذوق الشقاء الوانا ، ويقض مضجعه شوك القتاد !)

وينشب القتال وتدور الدائرة على جم فينوى الرحيل الى الغرب حيث يؤلب الولايات الاوربية على بايزيد لينال رغائبه. واقلع الى جزيرة رودس ملتمسا العون من حاكمها رئيس فرسان القديس حنا ، غير ان بايزيد ساوم صاحب الجزيرة على اعتقال اخيه ، فاستقر الرأى على ترحيله الى فرنسا ليكون فى موئل عند اتباعه . فوافى مدينة نيس وتنقل بين بلدان فرنسا ، وسكن احد القصور فخفق قلبه لابنة صاحب القصر وتدعى فيليبين هيلين وبادلته حبا بحب ، وبعد ان قضى فى فرنسا سبعة اعوام ، ارسل الى ايطاليا واسكنه البابا انوسان الثامن فى الفاتيكان . ثم مات هذا البابا وخلفه البابا اسكندر بورجيا وكان رجل سوء ففاوض

بايزيد فى قتل اخيه لقاء مبلغ من المال . ثم دخلت جيوش ملك فرنسا شارل الثامن روما ، فارغم البابا على تسليم اسيره الامير التركى .

وقصد ملك فرنسا مدينة نابلى فى صحبة الامير . وفى هذه المدينة هاجت اوجاع الامير وثقلت عليه العلة . وذلك لسم بطىء دسه له البابا فى طعامه فمات سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٥م .)

اما ديوان شعره فقد دون مرتين ، مرة فى قونيه بآسيا ، واخرى فى نيس بأوربا ويؤخذ من هذا ان النسخة الاوربية التى كتبها الشاعر سعدى فى حديقة نيس تتضمن شعر جم الذى قاله فى فرنسا مضافا الى ماقاله فى ارض الوطن (١) . ويقول الاديب التركى جاويد بيسون ان لجم ديوانا فارسيا (٢) ، غير انى لم اطلع من شعره الفارسى الا على غزليات اوردها عطا فى الجزء الرابع من تاريخه مع ما اورد من شعر جم التركى (٣) . والمعروف

---

(١) يقول جب ان ديوان جم لم ينشر وبين يدى طبعة حديثة له مصدرة بسيرته .
Cavid Baysun, Cem Sultan, Hayati ve Siirleri (Istanbul 1946)

(٢) أنظر . Cavid Baysun Cem Sultan, Hayati ve Siirleri, S 74

(٣) تاريخ عطا ٤ جـ (٨٧ - ٩٣)

ان الامير جم اشعر امراء آل عثمان ، وهو متميز عن شعراء عصره بالأصالة . وهذا ما يجعله الشاعر الحق ، ولتوضيح هذا نقول انه لم يدخل على الشعر التركى جديدا يذكر ، لا فى المعنى ولا فى المبنى ، بيد انه عرف كيف ينطق عن ذات نفسه ويصور مايعتلج بين جوانحه بتلك النغمات التى رددها معاصروه ، فقد درس معاصروه شعراء الفرس ليستعينوا بذلك على قول الشعر ، اما هو فدرسهم لاستكمال الاداة والوسيلة لا للاغارة على معانيهم والتوصل الى الغاية (١) . ويذهب الاديب التركى جاويد بيسون الى ان جم لم يكن فنانا ممتازا ، بل مقلدا متبعا فى كثير من الاحايين ، ومع ذلك لا نعدم فى شعره مايؤثر ويحرك المشاعر ، وان وجدنا بجانب شعره الغنائى شعرا تقليديا جافا . ثم يقول ان شعر الامير بعد مفارقته للاهل والوطن تلوح اللوعة فى بعض غزلياته ويظهر غنائيا مبتكرا (٢) ، وينحصر الخلاف بين العالم الانجليزى والاديب التركى فى ان الاول يثبت الشاعرية الى جم

---

(١) راجع . Gibb, A History of ottoman Poetry P. 85v.2.

(٢) Çavid Baysun, Cem Sultan, Hayati ve Siirleri S69

اثباتا مطلقا ، على حين نفاها الثانى عنه الا فى بعض الاحايين . وقد كان جاويد بيسون اكثر دقة وتحفظا من صاحبه ، لأنه اورد الشواهد على مايقول ، فعرض النماذج من شعر جم وشعر احمد باشا ، مشيرا الى تأثر الأمير بالباشا واخذه عنه وان كنا لانميل الى القول معه بأن الامير جم لم يكن فنانا ممتازا .

اما شعره التقليدى فلا دافع الى ايراد الامثلة منه ، وما دمنا نريد ان نتعرف روح الشاعر على حقيقتها فلا مندوحة لنا عن ذكر شعره الذى يتميز به تميزا واضحا . فمن قوله فى صاحبته الفرنسية هيلين (ابشرى ايتها الروح بمقدم حبيب القلب ،وليهنك ايها الجسد ان ترد عليك حشاشتك تم سعدى فى ليلتى هذه،ووافى الحبيب فكأن بدر التم لاح فى علياء سمائه . فهيا ياجم ، جد بالسويداء اكراما لضيف حل اهلا ونزل سهلا) .

فقد عبر هنا عن فرحة اللقاء تعبيرا ساذجا جميلا يناسب المقام احسن مناسبة ، وإذا عرضنا له هذه الصورة الباسمة ذكرنا بها صورة له باكية حزينة ،فسمعناه يقول (هو ذا السيل يجرى ضاربا صدره بالحجر حزنا على ، الا فتأمل كيف يرثى الكون بأسره لحالى ، لقد شق الشفق جيبه جزعا ، وفاضت السماء فى الفجر دما ، وبكى السحاب مدرارا وله على الجبال دموع تنحدر

اما الرعد فنشج نشيجا يثير الاسى !)

فالشاعر هنا يبكى ويستبكى الطبيعة ويفنى بروحه فيها متحدثا عن محنته وما لقيه من دهر خؤون ، وهو فى هذا صادق كل الصدق لأن النفس الحزينة تشع حزنها حتى على الضاحك فتراه باكيا ، كما تشع النفس الفرحة فرحها حتى على الباكى فتراه ضاحكا .

ومن قوله متحسرا على ماضيه السعيد (اين منى اليوم ايام ، كانت فيها محلتك كعبة لى ، وعتبتك موئل قلبى . اين منى اليوم ايام ، كنت فيها اروى بالدمع بستانك ، كيما يزهر ويخضوضر . اين منى اليوم ايام ، كان فيها لغبار طريقك ظل كظل جناح طائر الهما (١) اين منى اليوم ايام ، كان فيه القلب طيرا له عش على بابك . اين منى اليوم ايام ، كان فيها القلب والروح ضيفين بساحة قصرك بين اضياف قافلة قصدت اليك . اين منى اليوم ايام ، كان لجم فيها

---

(١) يقول ان الغبار فى الطريق التى بها دار الحبيب كان كثيرا فاذا ثار كانت له ظلال تظل ، ويشبه ظل هذا الغبار بظل جناح طائر يسمى هما . وهما بضم ثم فتح اسم طائر خرافى كان الفرس الاقدمون يعتقدون ان ظل جناحه إذا وقع على رأس رجل ، اصبح الرجل ملكا . والنسبة اليه هما يونى بمعنى ملكى .

مستقر باعتابك ، لقد تولت هذه الايام فيا اسفى عليها ، وماعرفنا لها حسنا ولا طيبا !)

وان وصفه للغبار الثائر لبرهان على خيالى مجنح ، وما قال الا حقا حين ذكر ايامه المواضى وعدم الشعور بالسعد فيها ، فإن النعمة لايعرف قدرها الا بعد زوالها . وله قصيدة طويلة مشهورة يناجى فيها نفسه متحدثا عن محنته ،واصفا فرنسا (١) ومن قوله فيها (ياجم ، تحس الخمر من جام جم ، (٢) نحن فى ارض الفرنجة ،

---

(١) تضاربت الاقوال فى هذه القصيدة فمن المؤرخين من ينسبها الى الامير ومنهم من ينسبها الى رفيقه الشاعر سعدى فعطا فى تاريخه وكوبريلى زاده محمد فؤاد فى تاريخ الآداب العثمانية وفون هامر فى تاريخ الشعر التركى يقولون انها لجم . أما شهاب الدين سليمان فى تاريخ الادب العثمانى وباصماجيان فى كتابه فيقولان انها لسعدى . ولا وجود لها فى ديوانه المطبوع . ولا يميل جب الى نسبتها الى جم ، وان ذكرها ضمن اشعاره لاهميتها التاريخيه .

(٢) جام جم أو جام جمشيد ، كأس تنسب الى جمشيد وهو ملك من ملوك العهد الخرافى عند الفرس وقد زعموا أنها كأس عجيبة صنعت من معدن خاص ، ورسمت عليها صور الافلاك مع رموز وحروف سحرية يستدل منها على أسرار الكون وما سوف تتمخض=

وسيلق كل ما كتب له الزمان . لقد وافيت هذه الارض وانت فى عافية وخير ، فلله الحمد والشكر ، من صح جسما فهو فى نفسه السلطان. خذ فرصة اللذات قبل فواتها ، كل من على الدنيا فان. افرح وامرح مع هذا الامير من الفرنجة (١) فهو المليح وسيد اهل الملاحة وان قوامه لسروة وان اهابه لفضة ، والشمس والقمر من حبه دائران مترنحان . وتقديم كأس المدام اليك بين هذا الحسن والبهاء، خير من عرش الصين وافضل من ملك اليمن وايران وتوران . التذ هذه الصهباء فانت فى مجلس الندمان . هذا دف ، ورباب ، وارغن كالقانون ، وللناى عند الفرنجة نوح وتحنان . المغنون بلغاهم ينشدون ، والراقصون حور وولدان) ويمضى الشاعر فى وصف ثيابهم وما يقدمون من المأكول والمشروب حتى يقول (ملوك الدنيا شرقها وغربها ضيفان ، وسواء اسكندر وسليمان .

= عنه الايام من احداث ولذلك عرفت فى الفارسية بالكأس التى تظهر الدنيا ويقال ان الاسكندر الاكبر كانت له مثل هذه الكأس. وفى سفر التكوين أنها كانت كذلك ليوسف عليه السلام أنظر
Nicolas, Les Quatrains de Khèyam (Paris 1867) P. 56

(١) لانعلم من هذا الامير

فالملك لله الباقى خالق الانس والجان . امض يا بايزيد فيما انت فيه واسترسل ، ان القول بدوام الملك والسلطان زور وبهتان !)

فالقصيـــدة فى مستواها الفنى لاتشبه شعر جم ، وتوجيه الخطاب دوما اليه ، مما يؤيد رأى من ينكرون نسبتها الى الأمير الشاعر . ولا نرى بعد ذلك بأسا فى ايرادها على احد الرأيين مع هذا التنبيه والتحفظ .

• • •

وهكذا قدر للامير الشاعر ان يقول شعره الحزين الباكى معبرا به عن عيش نكد وحياة مرة بعد ان رنق صفوه ذلك النزاع الطويل بينه وبين اخيه السلطان بايزيد ، وان هذه الجفوة بين الأخوين لتخطر على البال شاعرا تركيا آخر كان ما بينه وبين اخوته شبه ما كان بين جم واخيه ، ويدعى (حمدى) . وحمدى هذا هو الابن الثانى عشر للشيخ آق شمس الدين (١) . وكان مجفوا من اخوة له ينفسون عليه مكانه عند ابيهم ، واوغر الحسد صدورهم وافسد قلوبهم فتربصوا به الدوائر وتمنوا له العثار ، وكان الاب عليما بذلك ، يأسف له ويشفق على ولده الحبيب منه . ولما

---

(١) راجع ماذكرناه عنه فى ص ٨٣ .

نضجت شاعرية حمدى شاه التعبير عن نفسه الحزينة ، وتصوير اشد انواع الظلم ايلاما للفؤاد وهو ظلم ذوى القربى . وإذ كان حمدى شاعرا طويل النفس من شعراء القصص ، فقد اختار قصة يوسف وزليخا ، وكان اختياره لها بالذات توفيقا عظيما ، وما ذلك إلا لأن فيها اروع مثال لظلم الاخوة ، فأوجد حمدى المجال لتشبيه نفسه مع اخوته بيوسف مع اخوته الظالمين، ونظم مثنوى يوسف وزليخا الذى يعتبر اوسع المثنويات التركية شهرة واكثرها تداولا بين طبقات الشعب التركى التى لم تنل من الثقافة الخاصة حظا موفورا . وكان اعتماده على منظومتين ، الأولى للشاعر الفارسى ابى القاسم الفردوسى ، والاخرى لجامى شاعر ايران فى القرن التاسع الهجرى (١) قيل ولما اجهدته الفاقة كان

---

(١) الفردوسى أعظم شعراء الملاحم عند الفرس وهو صاحب المنظومة العظيمة المعروفة بشاهنامه ، أى كتاب الملوك ،وهى تاريخ لايران منذ ابعد الازمنة الى الفتح الاسلامى . وله منظومة أخرى هى قصة يوسف وزليخا وتوفى الفردوسى عام ٤١١ هـ (١٠٢٠م) . اما جامى الذى اسلفنا ذكره انظر الهامش فى ص ١٣٠. فهو صاحب سبعة مثنويات يسميها الفرس (هفت اورنك) بمعنى سبعة عروش=

ينسخها ويبيعها فيجد من المشترين كثرة فى العدد وسخاء فى الدفع، وعاش الشاعر منطويا على نفسه فلم يكن ذا حظوة عند السلطان كما شكى من ذلك فى شعره وقال ان اهل زمانه بخسوه حقه وغمطوا عبقريته . ويروى انه قدم منظومته يوسف وزليخا الى السلطان بايزيد بعد ان مدحه فى مقدمتها على جارى عادة الشعراء غير ان المنظومة لم تنل من تقدير السلطان ما كان يأمل الشاعر، فغضب وحذف مديحه له منها كما جردها من الاهداء . ومما يذكر سببا لذلك ان شعر الرجل كان من السهل الممتنع ، ولم يكن فى حسه ولا فكره اثر لتلك المبالغات التى كان يضيق بها ويتجافى عنها ، ولذلك كانت قصة يوسف وزليخا موضع اعجاب الجمهور ، اما فى القصر فسببت النفور ! (٣) اما المنظومتان اللتان اعتمد عليهما حمدى ، فبينهما فرق بين ، لأن منظومة الفردوسى ضئيلة الحظ من المحسنات اللفظية، وفيها يتحدث الفردوسى تفصيلا

= وهى ، سلسلة الذهب، سلامان وابسال، تحفة الابرار ، سبحة الابرار يوسف وزليخا ، ليلى والمجنون وخردنامه اسكندرى . هذا فضلا عن مؤلفاته النثرية .

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد وشهاب الدين سليمان ، يكى عثمانلى تاريخ أدبياتى ص ٢١٩

عن طفولة يوسف وكيف ناله الأذى من اخوته ، اما جامى فمعنى بالصناعة مولع، وكلامه كافواف الوشى ، ومعظم همته تنصرف الى ما كان بين يوسف وامرأة العزيز ، فجامى على ذلك أكثر تأنقا من الفردوسى فى الفاظه ، وارق ذوقا فى معانيه . وقد افاد حمدى من المنظومتين بكيفيتين مختلفتين فنقل عن منظومة الفردوسى نقلا ، او ترجم ترجمة حرة فضفاضة لا يلتزم فيها دقة ولا ترتيبا ، وذلك من اول قصة يوسف الى ان يباع عبدا فى سوق الرقيق بمصر ، ثم يعمد الى منظومة جامى فيترجم منها ما بعد موت يعقوب ترجمة دقيقة لا يفلت منها شيئا . فقصة حمدى مزيج من قصة الفردوسى وقصة جامى ، وقد عرف كيف يختار قصتين متكاملتين فى احداهما ماليس فى الاخرى ليستخرج من كل واحدة خير مافيها فتتألف له قصة خير من قصتين لشاعرين عظيمين . ثم اضاف حمدى الى منظومته غزليات ورباعيات وحكايات فى كثير من المواضع ، وكان منه ذلك جريا على عادة الشعراء فى تزيين المثنويات (١) ، وان ذلك ليدفع الملل عن القارىء الذى قد

---

(١) أنظر Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri Tanzimata Kadar, S. 104

تدركه سآمة ونعسة من تلك المثنويات المتطاولة الرتيبة النغمة .
اما عادة ادماج الغزليات فى هذه المنظومات فتنسب الى شعراء الترك فى اكبر الظن (١) . والاجماع على ان مثنوي يوسف وزليخا لحمدى لايفضله مثنوى قبله . واذا وازنا بينه وبين مثنوى خسرو وشيرين لشيخى ، رأينا حمدى اعذب نبرة واسلم ذوقا واقل تكلفا من شيخى فى الصناعة ، وهذا ينهض دليلا على اكتمال اللغة بمرور الزمن وسلاستها بعد شماسها (٢) . كما اختار حمدى لمنظومته بحر الخفيف فهو بذلك اول من استخدمه فى المثنوى ، ولم ينظم فى المتقارب وهو بحر الفردوسى ولا فى الهزج وهو بحر جامى (٣)
ومن قول حمدى فى وصف ما كان من اخوة يوسف (ولما صح عزمهم وقر قرارهم ، خرجوا متصيدين ، ليخدعوا اباهم ، ويوهموه انهم ليسوا بيوسف مكترثين . ومضوا فى تلال كنعان وسهوبها حتى دخلوا صحراءها. وهناك أخذ بصرهم ذئبا يعوى

---

(١) يقول جب انه لايعهد هذا عند شاعر فارسى متقدم .
Gibb, A History of ottoman Poetry 173 V. 2
(٢) Ibid : (147 v. 2)
(٣) لاذكر لحمدى على أهميته التاريخية فى كتاب ، تاريخ ادبيات عثمانية لشهاب الدين سليمان .

رافعا نحو السماء رأسه . فامسكوه وقيدوه وكل ناب له حطموه . وعادوا بالذئب الى مدينتهم ثم دخلوا به على ابيهم . فقالوا وهم يشيرون اليه ، هو ذا آكل غزالك موضع حبك واعزازك)

وهذا المثال يدل على اصله فى المنظومة الفارسية للفردوسى وهى كما اسلفنا سلسة قليلة الزينة ، وسنجد نقيضا لهذا المثال إذا اوردنا ابياتا ترجمها حمدى عن جامى ، كما فى قوله (هو ذا بحر العشق يفور ويمور ، وتلك امواجه متعالية متهاوية وللخرير العذب رسلة . من يغرق فيه سفائنه ، يجد من در البقاء خزائنه . امن النار هذا البحر العميق ، فكل غارق فيه هالك بالحريق . قلب الخلى بين ضلوعه برية جرداء ، وقلب الشجى للحبيب روضة غناء . وما البدن المجرد منه الا جثة للفناء ، اما من خلت منه روحه فلن يعد من الاحياء . هو الحب ، يجعل الاحرار عبدانا ، ويعصف بالديار واهل الديار) .

ولحمدى منظومة اخرى هى قصة ليلى والمجنون[1] ، لا يهديها الى احد ولا يذكر سببا لنظمها ، وان طلب الى (العاشق) ان ان يقرأها لأنها لنار تنور الحب وربيع للروح . ولم يتحدث

---

(1) لم يتحدث فون هامر عن هذا المثنوى فى حديثه عن حمدى

مؤرخو الترك عن هذا المثنوى إلا حديثا مقتضبا ،وإن كان منهم من يشير اليه عرضا (١) ومرد ذلك فى اغلب الظن الى مثنوى يوسف وزليخا الذى بهره بشهرته وجودته . والذى نفهمه هو ان منظومة ليلى والمجنون جيدة كذلك ، ولا يغض منها ان منظومة يوسف وزليخا تفوقها فى الروعة ، والبرهان على ذلك قول طاش كوبريزاده ان كثيرا من شعراء الفرس والترك نظموا هذه القصة فما يخرج عن طاقة البشر ان يوفق حمدى الى اخراجها فى تلك الحلة القشيبة (٢) ومن قوله فى وصف مجنون ليلى (انصدع

---

(١) Gibb, A History of ottoman Poetry (P173 v.2)

(٢) يصرح جب بأنه لايفهم المقصود من هذا القول ، ثم يقول انه لايعرف الا شاعرين تركيين سبقاه الى نظم هذه القصة اما بقية الشعراء فجاءوا بعده Gibb, A History of ottoman Poetry, (174. v. 2) والذى يمكن فهمه هو ان يكون طاش كوبريزاده اراد شعراء الفرس الذين عالجوا الموضوع وليسوا قلة ، فقد نظم قصة ليلى والمجنون ، كل من نظامى وجامى ، وامير خسرو المتوفى سنة ١٣٢٥ م. وكاتبي المتوفى ١٤٣٤ م. وهاتفى (١٥٢٠) . وجمالى (اوائل القرن الخامس عشر) ، كما نظمها على شير نوائى الشاعر التركى الشرقى المتوفى سنة ١٥٠٠ م. فلا معنى لأن يقتصر جب على ذكر شاعرين تركيين عثمانيين . وقد يكون هذا المؤرخ التركى مبالغا ، غير ان المبالغة لاتطعن فى صحة مايذهب اليه .

الفجر ، ونثرت زرقة السماء تبرا من الزهرة الصفراء ، وبسمت الأرض كالوردة الحمراء . وتبدى شعاع له من ليـــلى بهاؤها ورواؤها . فكان المجنون كنوارة صوحها الخريف ، يسير بوجه ذابل وعين تبكى دما . وكأنه وهو بالدمع يشرق ، تحطم فلكه فهو يغرق . وقد اصبح من نحوله ظلا فأوى الى دوحة ظلها ظليل ، ورأى غرابا يحط على فنن وعيناه ترنوان وتلتمعان)

فقال المجنون يخاطب الغراب (ما الذى جعل لك لون الليل يامن كنت تضيء ظلمة الليل انت من يقضى صباحه ومساءه فى اسعد حال ، ويطير بين الاغصان فى انعم بال ، فما هذا السواد فى جناحيك والاسى البادى عليك . كأنك ايها الغراب فى مأتم تلبس الحداد)

وان هذا المثال من ليلى والمجنون ليدل واضح الدلالة على ان الفرق فى الجودة بين هذه المنظومة ومنظومة يوسف وزليخا ، ليس من البعد بحيث يجعل احداهما معروفة مشهورة والاخرى مطوية منسية . وقد يكون ذلك باعثا لطاش كوبريزاده على الاشادة بها وامتداح صاحبها ، بعدما رأى من السكوت عنها .

وهى ترجمة لمنظومة للشاعر الفارسى نظامى (١) ، فان كان

---

(١) العالم الارمنى باصماجيان هو الوحيد الذى ينص على هذا ، ــ

الامر كذلك ، فعلى اى معنى نحمل تمجيد طاش كوبر يزاده ، مادام حمدى مترجما ليس الا . ومهما يكن من شيء فان نستطيع القطع برأى لاننا لانملك المنظومة بتمامها ، والقدر الذى اورده جب مثالا منها فى كتابه (تاريخ الشعر العثمانى)، لايمدنا بالحجة. ولا يسعنا الا ان نعجب لقول حمدى فى ليلى والمجنون ، وهو يشكو دهره وجحود اهل زمانه (إذا اقبلت الدنيا عليك، وجدت الدر فى الصحراء منثورا ، اما اذا ولت فلا مصيخ لنظامى وهو ينشد خمس منظومات ، ولا ينال الفردوسى على شاهنامه دانقا)[1].

ولحمدى مولد نبى يعتبر المولد الوحيد الذى يمكن افساح مجال له الى جانب مولد سليمان چلبى والفرق بين المولدين ان حمدى يضمن منظومته غزليات ، وهذا مالم تجر به عادة الشعراء على عهد سليمان چلبى . وليس لمولد حمدى نصيب من الشهرة كبقية

= ولم يشر الى ذلك احد من هؤلاء الذين نستقى من كتبهم فى تاريخ الادب التركى . أنظر Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane P37

(١) لما قدم الفردوسى الشاهنامه إلى السلطان محمود ، اعطاه عطاء قليلا لم يقبله . وحمدى يشير الى هذا .

منظوماته ماعدا قصة يوسف وزليخا . يقول حمدى فى مولده (وانطلق يوما رحمة العالمين الى حراء للتعبد والتهجد، وهناك بغته ان يظهر الحق له ، لأنه رأى عيانا روح القدس. فقال للحبيب بعد ان حيّا ، انا جبريل يانبي الدنيا ، لقد اتم الله نعمته عليك وجعلك اماما للثقلين . فأمتك خير امة اخرجت للناس، وقومك يأمرون بالمعروف وعن المنكر ينهون . ويحفظون القـــرآن عن ظهر قلوبهم ، وتلك نعمة لايشركهم فيها غيرهم)

والفرق جلي بين هذا المولد ومولد سليمان چلبي الذى يفيض عذوبة ويموج بالعاطفـة . وقد تضاربت الأقوال فى اسم هذا المولد فهو عند احد كتاب سير الشعراء من الترك، المولد الجسمانى والمولد الروحانى ، وعند آخر المولد الجسمانى والمورد الروحانى اما كل من شمس الدين سامى بك وباصماجيان ، فيجعـل هذه المنظومة منظومتين ، الاولى المولد الجسمانى والثانيـــة المولد الروحانى (١)

---

(١) انظر : شمس الدين سامى بك : قاموس الاعلام ٣ جلد ، ص١٩٨٢ ، Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane, P. 37 ولم يذكر فون هامر شيئا عن هذا المولد .

وله كذلك تحفة العشاق ، وهى منظومة قصيرة نسبيا ، طابعها السهولة والبساطة ، وقد ذكر الشاعر فى مقدمتها سبب نظمها فقال انه فى صباح مشرق باسم سمع قلبه يدعوه الى العمل ونفض غبار الكسل قبل انتهاء الأجل ، فعليه ان يخرج فى الحب كتابا يملك على الناس طرا اعجابهم . فنظم قصة من بنات افكاره فى اكبر الظن ، وفحواها ان تاجرا عريض الثراء كان له ولد ، ولما بلغ الولد العاشرة من عمره ، اطلع اباه على رغبته فى السياحة ليتجر وتربح تجارته ، فاقلق ذلك والديه ، واحزنهما ان ينصحاه بالعدول عن ذلك فلا ينتصح . فشاورا فى الأمر وليا من الأولياء ، ولما استخار الولى ربه ، لم ير بأسا فى ان يرحل الصبى الى استانبول على ان يكون فى صحبة جماعة من عبيده . ولما وافى الصبى مدينة استانبول علم بمقدمه احد الوزراء ، فدعاه الى زيارته وبذل له القرى ، وكان قصده ان يزوجه ابنته الحسناء التى شرط على نفسه الا يهديها الا الى شاب وسيم . وشاهد الصبى الفتاة وهو ثمل نخفق قلبه لها كما خفق قلبها له . ولما طلب يدها من ابيها ، رغب اليه فى ان يرتد عن الاسلام ويعبد الاصنام ، فدخل الصبى تحت شرط الوزير ، واحتفظ بمصحف بعد ارتداده ، واتفق يوما ان رأت المصحف زوجته وسألته عنه ، فثاب الى

نفسه وحن الى دينه فاعتنق الاسلام ، كما اعتنقه كل من زوجته وحميه .

ومعنى هذه القصة رمزى محض . فالصبي ما هو الا الروح الانسانية التى تفارق موطنها الأصلى وترحل الى الدنيا فتجد فيها من الشهوات واللذات مايسدل الحجاب عليها ، غير انها تهتدى بالقرآن اخيرا وتعود الى موطنها .

يقول حمدى واصفا اعجاب الفتاة بالفتى (ومالن رأت الفتاة انها نائلة اربها ، حتى رجت منه البقاء معها ، وتعلقت بأذياله وهى تقول له يامضرم النار فى الفؤاد ، كيف فتنت فتنة العشاق ، ومن طرتها ليلى والكل مجنونها . كان قلبى طائرا يطير آمنا فارديته ، وفى حبالتك أوقعته . هو ذا صيدك ياحبيبى بين يديك فلاتتركه ، لقد ارديته فى البلاء فلا تمض عنه)

ولحمدى رسالة بعنوان (قيافتنامه) بمعنى كتاب الفراسة ، وهى علم منظوم لاشعر بالمعنى المفهوم . وقد اقبل الناس عليها وتداولوها لطرافتها وجدتها ، ويلوح انها أول منظومة فى بابها ، والواقع ان تعرف طباع الناس من صورهم وتقاطيع وجوههم مسلاة وعلم عرفه الاقدمون والمحدثون . يقول حمدى فى كبير الاذن وصغيرها (كل من اذنه كأذن الحمير ، جاهل غرير ا وان كان

يحفظ الكثير ، اما من اذنه كأذن الحمر فأسرق من فأر !)
وكانت وفاته عام ٩١٤ هـ (١٥٠٨ م) .

وفى نفس الشهر وعين العام كانت وفاة شاعر يقال له نجاتى . وهناك خلاف على اصل اسمه ، فمن قائل انه نوح وقائل انه عيسى (١) ، وان هذين الاسمين ليفسران اختياره (نجاتى) مخلصا. وكان فى بدو امره اسيرا من اسرى الحرب ، فيؤخذ من هذا انه لم يكن مسلما ولا تركيا ، كما يقال له عبد الله اوغلى أى ابن عبدالله لخفاء نسبه . واتخذته سيدة فى ادرنه عبدا لها ، غير ان شاعرا من الشعراء ادبه وهذبه ، فقرأ وكتب ونال من العلوم حظا . وتقلبت به الاحوال فسكن مدينة قسطمونى ثم عرف احمد باشا فى بروسه فأخذ عنه واقتدى به . وعالج نجاتى نظم الشعر ، فظهرت اصالة ملكته . كان ذلك فى اخريات ايام السلطان محمد الفاتح ، فعزم الشاعر على الاتصال به والتزلف اليه ، وجعل وسيلته حيلة تشهد له بالظرف ورقة الذوق . فعمد الى رقعة كتب فيها مطلع غزل من غزلياته ، ثم دسها فى عمامة نديم من ندماء السلطان . ودخل

---

(١) يسميه آكاه سرى عيسى ، اما عند باصاجيان وشمس الدين سامى فهو نوح

النديم على مولاه الذى طلب اليه ان يلاعبه الشطرنج ، وبينماهما فى لعبهما إذ حانت من السلطان التفافة الى عمامة نديمه ، فرأى طرف الرقعـــة المدسوسة فيها ، وتناولها فقرأ قول نجاتى (ماحيلتى ! يامن لاتبالى فى السحر زفرتى وحرقتى . فالله اسأل ايها الحبيب ان ترق لى وتنصفنى) .

واعجب السلطان بمعنى الشعر وحيلة الشاعر ، فأمر بأن يبوأ منصبا فى الديوان . وفى رواية اخرى انه لما قدم الى استانبول قدم الى السلطان قصيدة فى وصف الشتاء منها (وللثلج هبوط من السماء ، فكأن ثؤالة من الجراد تتهاوى . الا ياقلب ويحك لاتؤمل الصفاء ، انه طائر اخضر القوادم والخوافى . والغمائم ابل جنت ، فقد القت على الأرض اكفانا ، ثم مضت عنها كما تمضى قافلة السرور والحبور . اما الناس فخرجوا بالمصابيح صبحا يتفقدون شمسا ، وما وجدوا منها الا شررة خنى لمعها . انه السلطان محمد ودارا وكيخسرو (١) يركعان ويسجدان امام بابه عبدين مطيعين . ولئن ارسلت الشمس شعاعها الذهبى وجعلت الى يوم الحشر تمسح به بحره وتسبر غوره ، لاتجد له من قاع ولا ساحل) .

---

(١) دارا وكيخسرو ملكان من ملوك الفرس الاقدمين .

وهى قصيدة مشهورة يظهر فيها تأثر نجاتى بأحمد باشا . وقد تقدم الى السلطان بقصيدة اخرى فى الربيع منها (هو ذا الربيع يرد على الدنيا بهجتها وبسمتها ، فكأنه لقاء العشاق بعد طول الفراق . يقولون حان وقت رشف الكأس وفرحة الجذلان ، فحذار ثم حذار ان يضيع منك هباء مع الهواء . انظر الى الغدير عذب الخرير ، وهو ينساب فى الروضة كما تنساب الحية ، لتداعب وجه قدم جميلة هناك فى ظل الخميلة ! فليكن لهذه الهناءة فى الارض بقاء كبقاء عيسى [1] ، وليدم هذا الانس والطرب دوام ملك جمشيد وكيخسرو [2] . محمد بن مراد فخر السلاطين ، انه دارا الذى يهب التيجان لملوك الارض . ان النجوم من اتباعه

---

(١) اشارة إلى ان عيسى عليه السلام ماصلب وما قتل ولكن شبه لهم . فهو مضرب المثل فى طول البقاء . لانه حي ، على حين ظن صالبوه انه قضى .

(٢) جمشيد من ملوك الاساطير عند الفرس ، وقد حكم سبعمائة عام كما يقول الفردوسى فى الشاهنامه . وكانت رعيته من الانس والجان والملائكة والطير ، حتى ذهب البعض الى انه سليمان بن داود. ويقال إن جمشيد اول من احتفل بعيد النوروز وهو عيد الربيع. وجم بمعنى البدر ، وشيد بمعنى منير فكأن معنى جمشيد البدر المنير .

والشمس رايته والبدر ركابه . فله رهبة الفناء وقوة الاقدار وكرم البحار)

ولما تولى بايزيد الثانى ، استدناه واحسن الالتفات اليه ، فجعله مؤدبا لولديه الاميرين عبد الله ومحمود . وقام النزاع بين السلطان بايزيد وبين اخيه جم الذى كان واليا على قرامان، فخلت قرامان من واليها . وولى بايزيد ولده عبدالله عليها فصحب الامير نجاتى وهناك الحقه بمنصب كبير فى ديوانه . غير ان عبد الله لم يعمر طويلا فمات سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) . وعاد نجاتى الى استانبول ، وهناك عرض على السلطان مرثيته التى رثى بها الأمير. وعين الامير محمود وهو اخ للأمير عبدالله حاكما على صاروخان فكان نجاتى معه ، وارتفعت منزلة الشاعر فمنحه الامير محمود لقب (بك) ، فتم سعده ونعم باله ، وفى هذه الفترة من الزمن اقبل على قرض الشعر فجمع ديوانه واهداه الى الامير . ومات محمود سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) بعد ان لبث فى الحكم ثلاثة اعوام فعاد الشاعر حزينا منكسرا الى استانبول ، وقد سئم الحياة بعد ان فجعه الموت فى الاميرين ، وصح عزمه على رفض المناصب والانزواء فى داره حتى ينقضى اجله ، ولما حضرته المنية استدعى اولاده وصحابه ، وقدم اليهم غزلا وهو يقول ان هذا آخر

العهد بالشعر وبهم ، ومطلع غزله (هى الدنيا قصير اجلها قليل خيرها ، وفى وهم ابن آدم ان متاعها ابدى . فهو يسمى هذا اللهو فى بستانها الذابل الفانى بالدنيا !)

والاجماع على ان نجاتى شاعر مجيد لم يسبقه الذى هو اشعر منه ، كما يعتبر مجددا لأن اليه فضل ادخال الفكر على الشعر التركى فهو يطلب المعنى قبل ان يطلب اللفظ ، ويقول جب انه قلد احمد باشا غير انه لم يجعل شعره ترجمة عن الفارسية كشعر من يقتدى به ، وإن يكن نجاتى فى شعره أقل قدرة وشدة أسر من الامير جم ، فإن مرد ذلك الى ان جم كان يسبغ الذاتية على شعره من شخصيته وما حدث له . أما نجاتى فذاتيته وليدة خياله (١)

ويقول فون هامر انه أمير الشعر العثمانى ، وظل محتفظا بإمارته خمسين عاما ، حتى نالها بعده الشاعر باقى فى عهد سليمان القانونى (٢)

ويرى فيه كوپريلى زاده محمد فؤاد غير هذا الرأى ، فيقول

---

(١) Gibb, A History of ottoman Poetry, P.104,V.2

(٢) Von Hammer - Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, S, 192, 1B.

ان نجاتی مفكر قدير على الموازنة بين الأشياء، وليس شاعرا كبيرا كحمدی ، فهو قليل الحساسية سطحيها ، وليس من العظمة على ما وصف به [1] أما شهاب الدين سليمان ، فيعتبره مخترعا فى ضرب المثل وهو إلى ذلك مدين بشهرته فى زمانه ، ولا رقة فى أسلوبه فليس بشاعر فكر ولا شاعر حس [2] والذى نراه ، أن نجاتى كان شاعر حس تارة وشاعر فكر تارة أخرى . وان نظرة إلى قصيدة الشتاء وقصيدة الربيع ، لكافية فى الدلالة على أنه رقيق الشعور مجنح الخيال ، وهل وصفت الدجنة قط بمثل ما وصفها به نجاتى ، وهو الذى يقول ان الناس خرجوا بالمصابيح صبحا يتفقدون الشمس فما وجدوا فيها إلا شررة تخفق وهل أملح من قوله عن الغدير انه ينساب لتغمس الحسناء قدمها الجميلة فى صفحته تحت ظل الخميلة ؟ فهذا يشهد لنجاتى بأنه ذواقة رقيق الحس . وإننا لنلمح جانبه الآخر فى رثائه للأمير عبد الله بقوله (أيها القلب ! امح اسمك من سجل الصداقة

---

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد - شهاب الدين سليمان ، يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ٢٤٦ .

(٢) شهاب الدين سليمان، تاريخ أدبيات عثمانيه ص ٥٢ و ٥٥

والصديق ، وكن من الزاهدين يمدحك الزاهدون . رحمة بالروح أيها القلب ، فاقطعها قطعا عن هذه الدنيا ، لا تحبس يوسف فى جب البلاء (١) ولا تنظر بعين الطمع اليها ، فكل من حدق فى الشمس بعينيه جرى دمعه على خديه . ما الجسم إلاثوب بال فلا تنخدع به ، انه فى سوق البقاء بخس القيمة وصاحبه من الخاسرين ، ولا تغرنك هذه الحفنة من التراب فان الحجر لا تبقى على الدهر منها (٢) . هذا الفلك خوان لا يصيب الناس كفايتهم من ماعونه المقلوب لقد خرب الملك واختفى الكنز فلا الملك ملك قرامان ، ولا الكنز كنز قارون) فنجاتى فى هذه المرثية الرسمية للأمير عبد الله مفكر حكيم يتحدث عن حال الدنيا وصروف الزمان حديث المؤمن المحتسب والعاقل المجرب فلاحظ لكلامه من عاطفة مشبوبة وحس دقيق ، ولا بدع فى ذلك فإن العاطفة تضعف حيث يقوى العقل ، كما يضعف العقل أمام قوة العاطفة .

---

(١) يشبه الروح بيوسف ، وحب الدنيا بالجب ، فكأن حبس الروح فى حب الدنيا كالقاء يوسف فى الجب .

(٢) يريد بالحفنة من التراب الانسان الذى خلق من طين .

وإن نجاتى ليبدو عاطفيا رقيقـا فى ذلك الغزل الذى منه

(لاوجود لمن لاهم له ولا غم فى الدنيا ، أمامن خلا قلبه منهما

فليس من أبناء الدنيا . إذا القلوب لم تبك مدرارا ، لم يرف

روض الحب ابتســاما واخضرارا . ولولا ذلك الحجر بين

جوانح الحسان ، ما كان للهوى هيكل متين الأركان . أنا كالسروة

التى بسقت أمام بابك ، لا أستطيع ابتعادا ولا أملك تحولا !

قال بدرى ، أنا فى هذه الأمسية معك ، ويلاه ! لاعهد لنجمى

إلا بظلمات بعضها فوق بعض فأين أمسيته ؟) (١)

والذى نراه هو أن شهاب الدين سليمان وكوپريلى زاده محمد فؤاد قد خالفا غيرهم من علماء الترك والأوروبيين ، ولا يمكن أن نناقش رأيهما إلا بشىء من التحفظ ، فمن العجيب حقا أن يعتبر شاعرا نحيلا فاز العاطفة ، وفى الوقت عينه ينادى به ملكا من ملوك الشعر . فللأذواق أن تتفاوت ماشاءت أن تتفاوت ، أما أن تكون على طرفى نقيض ، فهذا مايحتاج إلى نظر وروية.

---

(١) يقول ان حبيبه وعده بالوصال فى المساء ، غير ان نجمه او حظه لايعرف الا ليلا دائما وظلاما طامسا لا صباح له ولا مساء . فأين هذا المساء الذى ينعم فيه بوصل الحبيب ؟

* * *

وقد تأثر بنجاتى كثير من شعراء الترك ، وفى طليعتهم الشاعرة مهرى خاتون (١) ، وهى واحدة من كثيرات يزدان بهن الأدب التركى ، فيتميز بكثرة الشواعر ، إلى جانب تميزه بكثرة الشعراء من السلاطين والأمراء (٢) بلدها أماسيه ، وأبوها قاض من حملة العلم وأهل الفضل ، فعلمها وأدبها بأدبه حتى نطقت بالشعر العاجب . وان مهرى لتسترعى منا اهتمامنا بشيئين اثنين ، شعر جميل باهت به أهل عصرها ، وسيرة تشوق وتروق لا نعهد مثلها عند بنات زمانها . فقد كانت ضعيفة القلب مرهفة الحس

---

(١) فى القاموس المحيط : الخاتون للمرأة الشريفة كلمة اعجمية . وفى اقرب الموارد : الخاتون كلمة اعجمية ج خواتين والعرب يلقبون بها نساء الملوك . وفى معجم ردهاوس التركى انها عربية مأخوذة عن التركية (قادين) بمعنى سيدة . وفى قاموس شتاين جاس الفارسى انها فارسية . وهى تطلق اليوم فى ايران على كل سيدة ذات سن .

(٢) ورد ذكر خمس وعشرين شاعرة منهن فى كتاب احمد مختار عن شواعر الترك . احمد مختار ، شاعر خانملرمز (استانبول ١٣١١) ه

جامحة العاطفة ، هامت بفتى يدعى مؤيد زاده . غير أنه لم يستجب لها لما أن أصبح عظيما بين العظماء ، فسلته وكفت قلبها عنه وهى التى قالت فيه (أنت يامن تخونت عهدى ونسيت ودى ، والله مافى القلوب قلب يهواك مثل قلبى !)

ودارت الأيام فعاودها الحنين إلى حبيب يملأ قلبها أنغاما وأحلاما ، ووجدته فى اسكندر بك الذى الهمها أروع شعر لها فصرحت باسمه بعد أن برح الخفاء وفضح العاشق لسان حالها ، والعجب أن الشك لم يساور أحدا من قومها ، فى عفتها وطهارة ذيلها ، وان قيل انها تفطنت يوما إلى أن بعض الناس من حولها يتحدثون متهامسين عن حبها لاسكندر بك ، فقالت هذا البيت دفعا للشبهة وقطعا لقالة السوء وهو (كم من اسكندر ورد نبعى من أجل رضاب ثغرى . فصدر عنه وهو ظمآن لهفان !)(١)

وكانت مهرى تغشى مجالس الأمير احمد بن بايزيد حاكم اماسيه ، لتسامر وتناظر ، وتدخل مع الداخلين فى كل فن وادب

---

(١) اشارة الى ماء الحياة الذى رحل الاسكندر ليصيب منه فارتد خائبا . وهى قصة رددها كثير من شعراء الفرس والترك .

كما راسلت شاعرة يقال لها زينب (١) .

اما شعرها فكانت منطلقة فيه على سجيتها بكل مايفهم من هذا المعنى ، لأنها تحدثت عن حبها ، وذكرت اسم من تحب . وان التصريح بأسماء الأحباب لأمر عديم الوجود أو نادره فى الشعر التركى ، ولا يمكن ان نفسر هذه الجرأة منها على ذلك الا بشذوذ الفن وعبقريته . وهى صاحبة هذا الغزل المشهور (وفتحت بعد السكرى جفنى ، ثم رفعت رأسى . فاذا وجهه بدر تم يلوح لى . فوالله ما ادري اكنت فى ليلة القدر ام ان نجمى كان نجم سعد ، وانا بمخدعى اشاهد المشترى فى ليلتى . النور فى حسنه يتألق ، وهو وان كان مسلم السحنة الا انه كافر البزة . وما ارتد الى طرفى حتى غاب عن ناظرى ، فحسبته ملكا او من ابناء الحور . ستعيش مهرى ابدا ، انها الى ماء البقاء وصلت ورأت الاسكندر فى ليلة الظلمات) (٢)

---

(١) لم يذكر احمد مختار من سيرة مهرى الا هذه المراسلة ويقول ان هذا كل مايعرف عنها . ولا شك انه بذلك لم يوف الشاعرة حقها فى كتابه الوجيز . أنظر : احمد مختار ، شاعر خانلرمز ص ٥٩

(٢) يقال ان ماء الحياة فى الظلمات .

وواقع الأمر ان مهرى خاتون لم تكن ميمونة الطالع الا في تلك الرؤيا التى اضغثتها ، لأن اسكندر بك لم يكن لها محبا . وانها لتصور شقوتها وتشكو بثها فى قولها (لى بين احناء الضلوع فؤاد لا يطيق صبرا عن حبيب ، آه ما حيلتى فيه ؟ لقد اعيانى وغلبنى على امرى ، انا ان ذكرت من اهوى جفانى وتناسانى ، فكيف يمكن ان يكون الانسان وحيدا فى دنياه ؟ . وإذا وعدنى بالوصل يوما اخلفنى ما وعدنى ، فيا له من قاس لا دين له ! وقلت بالله ياطبيب الروح خذ بيدى ، لقد برح السقم بى ، فقال ان قتل مشاق ديدنى ومذهبي ، أى جميل من غير محب ، واى زهر من غير شوك لا أستطيع نزوعا عن محبته او اكتوى بناره ، ولعاذل ان يعذلنى ، فلن اعيش وعيشى مقفر من حبيب !) .

ويقول لطيفى انها امرأة فى شعرها ونبرات كلامها ، وإن كانت رجلا فى وصف شوقها وهيامها (١) ، وانا لنجد مصداقا لذلك فى قولها (كان املى ان تكون وفيا بعهدى ، وما دار يوما بخلدى ما اجد من جفائك . انت زهرة جميلة فى روضة من رياض الجنة ، فليس بدعا ان يحف بك ذاك الشوك الجارح ،

---

(١) لطيفى - تذكرة لطيفى (استانبول ١٣١٤ هـ) ص ٣٢٠

انا لا ادعو الله عليك ، وقصارى متمناى ان تبتلى بحبيب يقسو عليك كما تقسو على)

فهرى هنا مثال للمرأة الضعيفة التى لاتقابل الاساءة بمثلها وإنما تستسلم ، وتدعو الله با كية ان يقصها من ظالمها .

وكان لمهرى اعجاب شديد بنجاتى شيخ الشعراء فى زمنها فكانت تنظم نظائر لغزلياته وتنفذها اليه ، حتى ضاق بذلك وكره ان يرى من يقلد شعره ، او يدعى القدرة على تقليده ، وبلغ من كبريائه أن ينظم أبياتا يوجهها إلى مهرى ويذكرها فيها بأنه السابق الذى لا يشق غباره ، والمبرز الذى تقصر همم البلغاء عن الاتيان بآية من آياته ، فيقـــول (يامن يأتى بالنظير لشعرى ، الزم أدبك ، وحذرك قولك ، ان شـــعرك كشـعر نجاتى فى الأوزان والقوافى . أرأيت إلى لفظى عيب وفضل ، فى عدد الأحرف يستويان ، وفى معناهما يختلفان)

ولنا أن نفهم من ذلك أن شعر مهرى خاتون على نوعين ، شعر تقليدى تحاكى فيه غيرها وتطرق من المعانى ما يطرقون ، وشعر تنطق به عن هواها وجواها ، فهو لسان صدق وشاهد عدل . وان هذا الشعر التقليدى لايشين شاعريتها ، لابل انه يدل على قدرتها وعلو كعبها خصوصا إذا حكمنا عليها حكم

أهل عصرها . ومن قولها (مادامت المرأة ناقصة فى عقلها ، فلتعذر على قولها ، أما ان كانت ذات أفضال ، فانها لتفوق الفا من الرجال)

فقد قالت مهرى هذين البيتين فيما بين أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، غير أن لهما جدة لم يغيرها البلى على مر العصور وكر الدهور .

وقد سكت المؤرخون عن ذكر عام مولدها ووفاتها . وماتت ولم تتزوج لأنها ردت كل من طلب يدها ، بعد أن تحطم قلبها وخابت فى غرامها . وقبرها فى أماسيه مزار للعشاق وأهل القلوب . وزار قبرها الرحالة التركى اوليا چلبى فقال فى رحلته (حفظت سبعين كتابا من نفيس الكتب ، ودارست العلماء وحاورتهم فغلبتهم واعجزتهم . وأصل اسمها (مهر وماه)(١) فجعلت مخلصها (مهرى) . ولها بيان ناصع وديوانها مرتب على حروف الهجاء ، ولها بحوث فى الفقة والفرائض ، وفى النفاس مسائل ، ورسائل منظومة)(٢)

---

(١) مهروماه بمعنى الشمس والقمر فى الفارسية ، ومن معانى مهر الحب كذلك .

(٢) كوبريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان : يكى عثمانلى =

وهناك شاعرة أخرى ذكرها مؤرخو الأدب على ذكر مهرى خاتون وهى زينب خاتون وكان بين الشاعرتين صحبة ومكاتبة شعرية، كما داومت معها على حضور مجلس الأمير أحمد لمحاورة الشعراء والعلماء. وهى كمهرى من أهل أماسيه تلك المدينة الجميلة التى عرفت ببغداد الترك تشبيها لها ببغداد العرب. وقيل عنها (انها على شاطىء النهر بين الهضاب والوديان، فهواؤها سجسج، والزروع والبساتين المخضوضرة تكسو جبلين يحفان بها وما أكثر علماءها وفضلاءها وادباءها المتحدثين عن البلاغة والبلغاء) (١)

ولما شعر أبوها بأن لها ملكة وعبقرية، علمها العربية والفارسية، فقرأت شعراء العرب والفرس، واجتمع لها تمام الاداة وحسن الاستعداد، وقيل انها الى ذلك كله كانت مولعة بالموسيقى متقنة لعلمها. فقالت الشعر بالفارسية والتركية، وجمعت

= تاريخ ادبياتى ص ٢٥٣. ولنا مقابلة بين حياة مهرى وشعرها وحياة وشعر الشاعرة الفارسية مهستى فى كتابنا (فارسيات وتركيات)

(١) Von Hammer - Purgstall: Geschichte der osmanischen Dichtkunst. S. 190. 2 B

شعرها فى ديوان قدمته الى السلطان محمد الفاتح .

ولا يعرف من سيرة زينب سوى انها تزوجت فشقيت فى حياتها الزوجية ، وما ذاك الا لأن زوجها كان رجلا متزمتا ضيق الافق فحرم عليها ان تقول شعرا ، بعد ان حال بينها وبين مجالس الأمير احمد حيث يدار الجدل ويشقق الكلام . ولها غزل مشهور تقول فيه (حسنك ومحبتى ، جورك واصطبارى ، تزداد على المدى ، ولا تنقص ابدا . ارفعى هذا النقاب وانيرى الارض والسماء ، واخلق من هذا العالم جنة ذات ضياء . حركى شفتيك ليموج ماء الكوثر ، فكى الغدائر العنبرية وانثريها ، لتفعمى دنيانا عطرا وطيبا . لقد كتبت بخطك الى الصبا [1] آمرة بالتوجه الى الصين وغزوها ! ايها القلب . لانصيب لك من ماء الحياة ، ولو تبعت الخضر وسرت مع الاسكندر الفا من الاعوام [2] اطرحى زينة هذه الدنيا يازينب ، فإن لها طبع النساء ، وطهرى قلبك مما

---

(١) خط فى الفارسية لها معناها العربى الى جانب معنيين آخرين وهما الرسالة وشعر الصدغ الخفيف . فتقول الشاعرة ان الحبيب كتب الى الصبا (بخطه) يأمرها بالذهاب الى بلاد الصين وغزوها . وليلحظ أن فى الصين غزال المسك . والطيب كذلك فى شعر الحبيب

(٢) فى الاساطير القديمة ان ماء الحياة فى ارض يقال لها دار =

يشينه، وعطى جسمك ما يزينه ، وكونى كالرجال)(١)

فى هذا الشعر رقة وجمال، وروح نسوية واضحة كل الوضوح. وللشاعرة خيال بعيد المحلق ، لم تستطع له الاوزان والقوافى حبسا ولا تقييدا، ولا يعلم تاريخ وفاتها وان كان يظن على التقريب

=الظلمات ، مقرها بحر الظلمات ، ويقال ان الاسكندر توجه بجيشه الى دار الظلمات طلبا لماء الحياة ، ذلك الماء الذى يكتب الخلود للشارب منه . وقد اتخذ من الخضر دليلا ورائدا ومضى الخضر فى الظلام الدامس مستضيئا بجوهرة فى يده ينبعث النور منها ، حتى رأى من الماء ما يشبه خيطا من فضة ، فعرف فيه بغيته التى ينشدها ، وتهافت عليه يعب منه ، ثم نظر ، فما وجد لهذا الماء من اثر . ولما لحق الاسكندر بالخضر وتفقده ، لم يشاهد له ولا الماء وجودا ، فاستيأس بعد المشقة وبعد الشقة ، وعاد ادراجه منقلبا الى بلاده . ويذهب كتاب الفرنجة الى ان الخضر هو سان جورج . كما يقال انه يهدى التائهين والحيارى إذا ظهر لهم فى صورة شيخ وقور اخضر الثياب . وكثيرا ما يشبه شعراء الترك ثغر الحبيب بماء الحياة ، ووجه الشبه بعد المنال ، ويفهم من الاصابة من ماء الحياة ، طول البقاء والخلود

(١) يشبه الشعراء الدنيا بامرأة ، على زعم ان النساء غادرات خائنات ، وان كيدهن عظيم .

انه فى سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) (١)

. . .

ومن شعراء الطليعة فى هذا العهد ، شاعر البانى الاصل يقال له مسيحى ، وقد رحل عن بلاده فى ريق شبابه الى استانبول وفيها حصل علوم الشرع فكان ممن يسميهم الترك صوفته (٢) . ثم مال مسيحى الى جمال الخط كل الميل ، فعالج تحسينه ، واتقن ذلك اتقانا بلغ الغاية . وكانت بداعة خطه مما لفت اليه الوزير على باشا ، ذلك الوزير الذى كان يود اهل العلم والفن ويرعاهم ، فاسند اليه منصبا فى ديوانه . غير ان مسيحى كان خليعا يمضى فى الغواية مخلوع العذار ، لاوازع له من دين ولا رادع من ضمير ، فكثيرا ماطلبه الباشا ولى نعمته ليكتب له شيئا فما وجده ، فبعث برجاله للبحث عنه فى مظانه ، والاتيان به من بين دنان الحان ،

---

(١) لم يذكرها شهاب الدين سليمان . اما آكاه سرى فاورد لها مقطوعة قصيرة ولم يتحدث عن حياتها . اما تاريخ وفاتها فما وجدناه الا فى كتاب Ottoman Literature, by Gibb (London 1901)

(٢) هذه الكلمة محرفة عن (سوخته) بمعنى المحترق فى الفارسية ، فكأن الصوفته محترق فى نار الحب الالهى .

أو من عند رفاق السوء . ومات الباشا ، فساءت حال مسيحى لنضوب معين رزقه ، وتطلع الى من سوف يكفل عيشه ويعينه على امره ، فتقدم بقصيدة الى يونس باشا قائد الانكشارية [1]، غير انه لم يظفر بحسن القبول ، فتحول عنه الى الامير سليم الذى اصبح فيما بعد سلطانا ، غير ان الامير كان عنه فى شغل بالنزاع المستحكم بينه وبين اخيه الامير احمد .

ومات مسيحى معدما محروما قبل غروب شمس يوم الجمعة الموافق للسادس عشر من جمادى الأولى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢م)

وهو من شعراء الترك الذين اقر لهم النقاد بالتبريز والاجادة[2]. ويقال انه تخلص بمسيحى ذهابا منه الى انه احيا الشعر احياء ، كما احيا المسيح الميت من قبل . ويقول عنه اطبقى فى تذكرته (كان له فى الخيال دقة ، وعلى الفكر البكر قدرة ، كما برع فى ايراد

---

(١) هو يونس باشا الذى وزر فيما بعد للسلطان سليم وقد أطاح رأسه أثناء غزوه للشام ، والى يونس باشا هذا تنسب بلدة فى جنوب فلسطين تعرف بخان يونس .

(٢) لاذكر لهذا الشاعر عند كوبريلى زاده محمد فؤاد ولا شهاب الدين سليمان كما سكت عنه آكاه سرى

الخاص من المعانى ، غير ان تناهى خياله فى البعد ، والتزامه منهجا خاصا ، لايحيط به الا الخاصة ، مما ابعد شعره عن ادراك العامة وتذوقهم)[١] ويقول باصماجيان ان مسيحى شاعر غنائى تغنى بالربيع وفى اشعاره سحر وجدة[٢] . ولهذا الشاعر مربع مشهور فى الربيع ، ومنزلة هذه المنظومة عند علماء الاوربيين لاتسامى ، فقد اوردها سير وليم جونز فى كتاب له عن الشعر الأسيوى كان ظهوره سنة ١٧٧٤ ، وترجمها الى اللاتينية . وهذا تقدير لمسيحى لم يظفر به شاعر تركى سواه[٣] . وضمن تودرينى تاريخه للأدب التركى هذه الترجمة اللاتينية[٤] كما ذكر هذا الشاعر بين شعراء خمسة يعتبرهم اعظم شعراء الترك . ويوجد لها ترجمة منشورة فى كتاب دافيدز (النحو التركى)[٥] وهى

---

(١) لطيفى ، تذكره' لطيفى ص ٣٠٩

(٢) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane P. 61

(٣) Gibb, A History of ottoman Poetry v. 2.p. 232

(٤) Toderini, Letteratura Turchesca, Traduit de l'Italien en Francois par l'Abbé de Cournand (Paris, 1789) T1. P. 191

(٥) Davids, Grammaire Turke (Traduit de l'Anglais par Sarah Davids Londres, 1836) P. i x v iii.

ترجمة لسير وليم جونز الى الانجليزية . وترجمها ويلاند الى الالمانية عام ١٧٩٦ (١) ثم فون هامر فى تاريخه للشعر التركى . وولز فى منتخباته التركية (٢) التى لم يتحدث فيها عن شاعر غير الشاعر مسيحى . ومن عجب الا يذكرها من علماء الترك لطيفى فى تذكرته ولا ضيا باشا فى مختاراته التى تسمى (خرابات)(٣) . وهذه أبيات من هذا المربع (استمع للبلبل ، انه يزف البشرى بمقدم الربيع ، فتمتلىء البساتين بالحشود من الورود (٤) ، وحيته ازهار اللوز فنثرت عليه من فضتها ، فاشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام ، وتحلت الرياض والمروج من افانين النوار اما الازاهير فرقدت ناعمة على اسرتها فى البساتين . آه من

---

(١) أنظر Von Hammer - Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst B1. S. 299

(٢) Wells, The litterature of the Turks, A Turkish Chrestomathy P. 144 (London 1891)

(٣) ضيا باشا ، خرابات ٣ جلد ; استانبول ١٢٩٢)

(٤) يريد ان يقول ، ان البلبل اعلن مقدم الربيع ، فاجتمعت فى الرياض جموع من الازهار لرؤيته . وهو هنا يشبه الازهار بأناس تجمهروا لرؤية شى عجيب .

يدرى اينا يمتد به العمر حتى يشهد هذا الربيع قبل انقضائه ، فاشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام ، هى ذى اكناف الروض مفعمة بنور احمد [١] ، وله من الأعشاب صحابة ومن الزنابق اهل بيت ، لقد هل زمان السرور والحبور فبشراك يا امة محمد ، اشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام . بدت الورود كما تبدو الحسان حمر الخدود ، وفى الآذان جواهر الأنداء . لا لا يغرنك ماترى من جمال مآله الى الزوال ، اشرب واطرب ليس لأيام الربيع دوام . ومضى زمان كان فيه العشب راقدا على فراش الضنى ، والكم جاعلا رأسه على صدره شوقا الى الروض [٢]

---

(١) اختلف مترجمو هذا المربع فى معنى نور احمد ، فقيل انه اسم لزهرة وهذا مالم نجده فى معاجم اللغة التركية كما قيل ان عودة الربيع تذكر بنور النبي صلى الله عليه وسلم . ويذهب فون هامر الى ان نور النبي من العظمة بحيث ان رداءه الذى يغطى رأسه بذيله ، كان يبدو كأنه جلد دبغ بالحمرة . ويقول فون هامر انه نقل هذا عن الريحانى على شروح ابى الفداء . ونحن نستبعد أن يكون الشاعر قد قصد الى هذا . ومما يذكر ان الايرانيين يصنعون بعض العطور من زهرة ارجة يسمونها الزهرة المحمدية

(٢) الكم وردة لما تتفتح ، فكأنها تجعل رأسها فى صدرها . =

وان ذلك الوقت الذى تبدو فيه الازهار ، على الجبال وبين الاحجار . اشرب واطرب ليس لأيام الربيع دوام . الغمامة تسكب اللآلىء كل صبيحة ، وتحمل الصبا عن المسك اطيب النفحات ، فلا تنس زينة الدنيا ولا تغفل عن متعتها . اشرب واطرب ، ليس لأيام الربيع دوام ! ان النسيم معطر ، وقد جعله طيب البستان كالمسك الأذفر . وكأن الندى على الأرض قطرات نثرت من ماء الورد ، وقد بسط الفلك له فراشا على الرياض من بخور السحاب . اشرب وطرب ، ليس لأيام الربيع دوام !)

فمسيحى يمزج روحه بالطبيعة ، ويستلهم الازهار والاطيار من المعانى مايصوغ له لفظا براقا ووزنا مرقصا ، ولعل نزعة الشاعر المرحة هى التى حببت الى الاوربيين هذا الشعر الرائق الذى نسمع فيه صدى بعيدا لشعر الخيام .

ولمسيحى مثنوى يسمى شهر انكيز بمعنى مثير المدينة . ويطلق هذا الاسم على شعر يوصف فيه مكان من الامكنة أو سكانه من الكواعب الحسان أو المرد الصباح فيثور الهوى فى القلوب .

= ويقول الشاعر ان الاكمام تشبه فى انقباضها وانطوائها حزينا مطرقا ، يكاد يلمس صدره برأسه .

ويقول جب ان مسيحى يبدو فى هذا المثنوى مجددا مبتدعا ، فهو لم يحتذ مثالا فارسيا ، لأن الفرس لا يعرفون هذا الفن من الشعر كما انه مخترع المعنى والمبنى لمنظومة هى اول ماعرف الترك من الشعر الهزلى [1] . وفى الحق ان هذه المنظومة لاتعد من الشعر العالى فهى سهلة العبارة لا اناقة فيها ولا تزويق ، ويلوح انه قصد ببساطتها وسهولتها ان تكون فى مستوى فهم العامة . اما موضوعها فغلمان مدينة أدرنه . وفى ديباجة المنظومة يذكر الشاعر خطاياه ويسأل الله العفو والغفران ، كما يتمنى عليه ان يجعل لمنظومته فى المدينة شهرة وسيرورة ، ثم يصف المدينة مادحا ويخلص من ذلك الى غلمانها فيذكر اول مايذكر انهم يترددون فى ماء النهر . وقد احصى منهم ستة واربعين وخص كلا منهم بمقطوعتين بعد ذكر اسمه . واسماؤهم تدل على اختلاف جنسيتهم ودينهم فنهم المسلم والمسيحى واليهودى واليونانى والارمنى . ومعظمهم من صبية الحوانيت وابناء اهل الحرف . ويتحدث عن اوصافهم ، ويستدل عليها من اسمائهم ، ويقول انهم اجمل من الولدان فى الجنان ثم يختم المنظومة بالدعاء لهم . وواضح ان اشخاص المنظومة من خلق خيال الشاعر الذى اراد ان يتبسط ويطرح بعض الوقار

Gibb, A History of ottoman Poetry, V.2. P.232. (1)

على سبيل المطايبة والمفاكهة ، يقول مسيحى (كلما شاهدت عينى من قوامه قوام السرو ، القيت بنفسى على قدمه كأننى ظله ، واذا رنوت الى من جبينه جبين البدر ، فعلى الخدين انجم من ادمعى ، واذا ماشئت ان اقص قصص دموعى ، فماءسبعة البحور لايغسل السواد عن وجهى . ولقد كسبت من الخطايا مالو رحمت عليه لكانت الرحمة اثما ! اما اذا كان ذنبا منى ان اكتب هذا الشعر ، فلا تؤاخذنى يا ربى ، لأنك لا تؤاخذ على الهنات ، وما دمت محروما فى دنياى ، فلا تدخلنى النار فى آخرتى ، اليوم لاتمد هذه السروة الى يدا (١) ، فهب لى طوبى يا الهى غدا ، انا لاحظ لى من ثغر حبيبى ، فاجعل الكوثر نصيبى ، وقدر لهذا الشعر شهرة ، وفى المدينة ثورة)

فهذا الكلام يدل على ان صاحبه لايريد من ورائه الا أن يتلهى ويتسلى ، وان كان تداعى الأفكار يفتق ذهنه عن معان جيدة فى الأحايين . ولا شك ان المنظومة لاتخلو من الظرف كما فى قوله فيمن يدعى يوسف (ومنهم مليك الحسن يوسف ، انه

---

(١) يريد بالسروة رشيق القوام الذى يشبه السروة فى جمال القد واعتداله .

بين الصباح فى مصر صاحب التاج ، كل من شاهـدنى فى طريقه قال ان هذا الذئب فى النهاية آكله !)

فهو هنا يشير الى انه برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.
وقد قلد هذه المنظومة كثير من الشعراء المعروفين بالتزمت والوقار ، لغرض واضح هو التنفيس عن النفس وتزجية الفراغ فيما يسر . وكان فى عصره شاعر كبير يقال له ذاتى، فاتهم مسيحى بالاغارة على شعره وسرقة معانيه ، واتصلت لذلك بين الشاعرين مراسلات شعرية هى موضع اعجاب ونظر [1]

وقد اشتغل مسيحى بالتأليف الى اشتغاله بالشعر وله مجموعة من الرسائل تسمى (كل صد برك) [2] ، تتضمن مائة نموذج للرسائل ، وقد عرف الكتاب والمترسلون لهذا الكتاب قيمته فتداولوه وتدارسوه ، ولا غرو ففيه تقعيد لقواعد الانشاء والترسل ، وتبويب لأنواع الأساليب وافانين النثر . كما حوى تعريفا بالقاب الناس على اختلاف درجاتهم ، وتبصرة بما يساق

---

(١) أنظر ، تذكرة لطيفى ص ٣١١ .

(٢) كل صد برك فى الفارسية بمعنى زهرة ذات مائة ورقة ، وهو اسم يطلق على نوع من الازهار ، او على كل زهرة كبيرة كثيرة الورقات .

اليهم من الفاظ وجمل .

• • •

ونعود الى قصور السلاطين لنتحدث عن شاعر منهم هو السلطان سليم الأول ، فقد كان جنديا عظيما وشاعرا مجيدا ، وله شخصية عجيبة هي جماع المتناقضات من لين وشدة وغلظة ورقة وان كان العنف غالبا عليه فعرف في التاريخ التركي (ياوز) بمعنى الفظ . وهو شديد البطش صعب المراس لا يرحم من يعاديه ، فلما قام النزاع على العرش بينه وبين اخويه ، لم يكتف بقتلهما ، بل اعمل الحسام في خمسة من ابناء احدهما ، وصادف ان اسرت زوجة الشاه اسماعيل الصفوى وهو في حرب مع سليم فانفذ الشاه اليه اربعة من الرسل يحملون الهدايا ويطلبون ضارعين ان يطلقها من اسرها ويردها على زوجها ، فما كان منه الا ان امر بسجن الرسل ، وتزويج احد رجاله بالأميرة الايرانية . كما جرت عادته بأن يعزل الوزير من وزرائه بعد شهر من توليه منصبه ، ثم يقتله في غير جريرة ، فشاعت في عهده بين الناس لعنة رهيبة وهي (جعلك الله وزيرا للسلطان سليم) .

هذا هو الجانب العنيف من نفسيته ، اما جانبها الآخر ، فيستدل عليه من توجعه لأخيه قورقود بعد مقتله . فقد اطلع

سليم على ابيات نظمها اخوه وانفذها اليه قبل مماته ، فأخذه مر الأسى وبكى مدرارا . كما قيل انه كان جم التواضع ، يجالس الدراويش على البساط ، ولا يقعد وهو معهم على العرش. وعرف بالميل الى الدعابة والمرح ، فلما سأله المفتى لماذا لم يطلق لحيته قال (حتى لايجد الوزراء شيئا يقودوننى به !)[1] ولما كان فى مصر دعا الى حضرته ثلاثة من الشعراء ، فلما وقفوا بين يديه سلموا عليه بكيفية اثارت حفيظته ، فأمر بضرب اعناقهم ، ولما هدأت ثائرته خفف الحكم بالقتل وجعله حكما بالضرب ، ثم سكت عنه غضبه فتجاوز عنهم .

وكان السلطان سليم مشغوفا بالشعر والشعراء والعلم والعلماء فقد استصحب الشاعر جعفر چلبى فى حملته على فارس، والشاعر كمال باشا زاده فى غزوه لمصر ، ولما مدحه ذاتى بقصيدة عصماء يوم اعتلى العرش اجزل صلته وأقطعه ضيعتين ، كما جعل ولاية كردستان للمؤرخ ادريس . وسليم شاعر رقيق ، غير انه نظم شعره بالفارسية لغة الثقافة والادب الرفيع فى عهده ، وقيل انه

---

(١) جرت عادة أمراء آل عثمان بحلق لحاهم ، اما اذا اعتلى احدهم العرش فلزام عليه ان يطلق لحيته . والسلطان سليم الاول هو الوحيد الذى لم يطلق لحيته .

لم يكن فى زمانه من شعراء الفارسية من يجيد مثل اجادته (١)، وهو فى شعره يتلو تلو حافظ الشيرازى اشعر شعراء الفرس. وشعره صورة واضحة لنفسه، غير أنه لاينبغى لنا ان نتحدث عن شعر فارسى فى تاريخ للادب التركى (٢). وله ديوان بالفارسية طبعه المستشرق الالمانى پاول هورن طبعة انيقة فاخرة بأمر من الامبراطور غليوم الذى اهداه الى السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٤ وقد وجد الترك اخيرا مس الحاجة الى ان يتفهم ابناء الجيل الجديد شعر السلطان سليم، فترجم الديوان الى التركية الدكتور على نهاد تارلان (٣). ولا ينسب اليه من الشعر التركى الا القليل

---

(١) مير على شيرنوائى، مجالس النفائس ص ٣٦٠ وهذا الكتاب مترجم الى الفارسية عن التركية الجغتائية. وقد نشر هذه الترجمة على اصغر حكمت بطهران سنة ١٣٢٣ ش

(٢) درسنا شخصية السلطان سليم ودرسنا ديوانه الفارسى فى كتابنا فارسيات وتركيات. وقد ترجم جب غزلا فارسيا له فى كتاب Ottoman Literature P 68. وهذا الصنيع منه يناقض قوله فى كتاب تاريخ الشعر العثمانى (ولكن ديوانه ليس تركيا فهو لايدخل فيما نحن بصدد البحث فيه) Gibb, A History of ottoman Poetry V. 2. P 261

(٣) Prof. Dr. Ali Nihad Tarlan, Yavuz Sultan Selim Divani (Istanbul, 1946)

ويقول لطيفي ان معظم مايعتبر له من هذا الشعر ، ان هو الا من افتراء العوام (١) . وله بيت جرى على الاقلام والالسن يقول فيه (لقد تهالكت ورقدت . فيامن قوامك فى حسن شجرة السرو ، اعزز على بأن تقف امامى ، والله ان الحرمان من الصلاة على بعد مماتى ، لآثر عندى واحب الى) (٢)

ومما ينسب اليه كذلك من الشعر التركى هذان البيتان (لست ادرى اى سحر اصاب به الزمان مقلتى ، لقد استدر عينى فدمعها همى ودمها جرى ، ان الاسود لترعدها سطوتى وصولتى ، فمالى عيون الظبي تضوينى وتصمينى !)

وان التخالف لشديد بين شعره الفارسى والتركى ، فهو مجيد ولاشك كشاعر فارسى ، اما شعره التركى فلا ماء فيه ولا رواء له

ومات السلطان سليم سنة ٩٢٦ هجرية (١٥٢٠ ميلادية)

* * *

ومن اهل هذا الزمان عالم تضلع من مختلف العلوم ، وفقيه

---

(١) لطيفى ، تذكرة لطيفى ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) يقول الشاعر إن وقوف الحبيب عند رأسه مما يحزنه ، لانه يعز عليه ان يتعبه هذا الوقوف ، فعدم الصلاة عليه بعد الموت اهون عنده من ادنى بأس ينال من يهواه .

شهد الناس عليه بالفقه ، واخذوا عنه صلاح دينهم ودنياهم ، وهو إلى ذلك كاتب حسن الترسل وشاعر مذكور ، عرف فى الأدب العثمانى بابن كمال او كمال باشا زاده [1] . كان جده قائدا من قواد الفاتح ، كما كان ابوه محاربا عظيما ، فانتهج الفتى سبيل ابويه وانخرط فى سلك الجندية . ومما اتفق له وهو جندى فى معسكر ابراهيم باشا وزير بازيد، ان دعى الوزير الى مجلسه ذات يوم جمعا من صفوة القوم ، وكان ابن كمال واقفا ناحية يرمق الحضور ، فرأى عظيما من رجال الجيش هو اورنوس اوغلى بك يدخل ويقعد فى صدر المجلس ، وبعد هنيهة دخل رجل رث الهيئة يبدو عليه انه من اهل العلم ، فراع ابن كمال ان يفسح له اورنوس اوغلى بك فى مجلسه ، ويستقبله العظماء والامراء بالتجلة والتكرمة على مايظهر من هوان شأنه ، وسأل من يكون هذا الرجل ، فقيل له انه منلا لطفى العالم الجهبذ . وكان لهذا المشهد اروع الاثر فى نفس ابن كمال ، فاحب ان يكون من العلماء ليكون فى أعلى الرتب مثلهم ، وقدر فى نفسه انه لن يبلغ رتبة اورنوس اوغلى بك فى الجيش ، ولكنه بالغ رتبة منلا لطفى فى العلم . فتتلمذ لهذا

---

(١) كمال زاده فى الفارسية بمعنى ابن كمال فى العربية .

العالم النحرير، بعد اذ هجر حياة الجندية الصاخبة ، واقبل على حياة العلم الهادئة . ودارت الايام فرسخت قدمه فى كثير من العلوم ، واصبح للتدريس اهلا فدرّس . ثم ولى القضاء فى ادرنه وكان قاضى عسكر الاناضول عام ٩٢٢هجرية (١٥١٦ ميلادية) فطار فى الآفاق صيته .

واذا ما افسحنا مجال القول للطيفى ، رأيناه يسميه سلطان المتأخرين وخاتمة الفقهاء المجتهدين ، شمس الملة والدين وارث علوم الانبياء والمرسلين . كما يقول عنه فى تذكرته (لقد اجمع العلماء على أنه ماظهر فى بلاد الروم ولا وردعليها عالم يشق غباره ، لقد كان علامة الخافقين ومفتى الثقلين ، وعى كل علم وفن ، ورقى فى مراتب الكمال . كم مشكلة فى العلوم والفنون والشروح والمتون اصلح واوضح بفكره الثاقب ورأيه الصائب ، وكم رسالة ومقالة دبجت يراعته فى كل علم وكل فن . وقولة الحق فيه انه مجمع العلوم ومفخرة علماء بلاد الروم) (١)

وقد الف كمال باشا زاده بالعربية والفارسية والتركية

---

(١) لطيفى ، تذكره لطيفى ص ٨٠ (در سعادات ١٣١٢)

وقيل ان تآليفه بلغت ثلثمائة [1] ، وهو مدين بشهرته العلمية الى ما كتب بالعربية . وله بالفارسية كتاب نكارستان بمعنى المتحف وقد حذا فيه حذو الشاعر الفارسي سعدى فى كتابه كلستان [2] . اما بالتركية فله رسالة فى فقه اللغة الفارسية بعنوان دقائق الحقائق وتاريخ آل عثمان ، ذلك التاريخ الذى امر السلطان بايزيد بأن يكتبه بالتركية بعد اذ رأى مس الحاجة الى وجوده باللغة القومية الى جانب ما كتب ادريس بالفارسية [3] . وقد سرد فيه تاريخ العثمانيين الى سنة ٩٣٢ هجرية (١٥٢٦ م) وهى السنة التى احتل فيها السلطان سليمان القانونى بودا . وصحبه السلطان سليم فى حملته على مصر ، ولما كان فى الطريق اليها امره ان يترجم له كتاب

---

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان ، يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ٢٦١

(٢) راجع صفحة ١٣٨ .

(٣) كان ادريس هذا عالما من اشراف الاكراد ، وقد ضاق ذرعا بتعصب الشاه اسماعيل الصفوى وانضم الى العثمانيين . وكتب تاريخ ثمانية من سلاطينهم بالفارسية ويعرف كتابه بـ (هشت بهشت) بمعنى ثمانى جنات ، كما آزر السلطان سليم الاول فى توطيد سيادته بالموصل وديار بكر . ومات فى استانبول عام ٩٦١ هجرية (١٥٥٤ ميلادية)

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى فترجمه عن العربية ، وكان في كل يوم يطلعه على القدر الذى ينجز ترجمته من الكتاب ، فما دخل السلطان مصر الا وهو على علم بتاريخها واخبار ملوكها . وله مثنوى يوسف وزليخا الذى تعمد فيه الا يستعمل لفظا فارسيا ولا عربيا طالما وجد فى التركية مرادف له ، وهذا خروج على مألوف الشعراء فى زمانه . وتحكم يحبب الى المتأدبين منظومته وله كذلك ديوان غزليات (١) .

ومن اروع ما قال تلك المرثية التى يتفجع فيها على السلطان سليم . وقد اورد لطيفى فى تذكرته بيتين منها ، وهو الذى يقول (هو فى عزمه فتى غرير وفى حزمه شيخ كبير ، هو صاحب القلم وصاحب التدبير ، هو قائد الجيوش فى الميدان ، وفى اصالة الرأى كوزير سليمان ، فلم تكن به من حاجة لا الى وزير ولا الى مشير ، له خنجر من قلبه وصمصامة من يده ، له الرمح من ذراعه والسهم من بنانه ، لقد انجز الكثير من المهام فى القليل

---

(١) ذكر هذا جب فى الجزء الثالث من كتابه تاريخ الشعر العثمانى ، رواية عن عهدى ، وبين يدى نسخة مطبوعة من غزلياته بعنوان كمال باشا زاده ديوانى (درسعادت ١٣١٢)

من الاعوام ، وامتد ظله بين الخافقين ، واذا كان فخر الملوك بالعروش والتيجان ، فان العرش والتاج به يفخران ، كان شمس العصر ، وشمس العصر طويل ظلها قصـــير زمانها . مارأت الأفلاك له من ضريب فى ملاعب لهو ولا سوح وغى ، فهو إذا خرج الى ايوان الأنس والطرب شمس تنير ، واذا دخل ميدان الحرب اسد هصور ، الا فلتذكره الهيجاء ، ولتبكه السيوف بالدماء . لقد قضى السلطان سليم فوا أسفا عليه ، وليبكه السيف واليراع جميعا)

وهذه المرثية مثال جيد لشعر المناسبات ، الذى يكاد يخلو من العاطفة خلوا تاما ، فالشاعر هنا معنى بتعداد مآثر السلطان ، وحديثه عن حياته اكثر من حديثه عن مماته ، وهذا مانعهد فى مراثى الشعراء للعظماء .

وقد جعله السلطان سليمان القانونى شيخا للاسلام ، وظل فى هذا المنصب العظيم ثمانية الأعوام الأخيرة من عمره ، وبولغ كثيرا فى وصف ما انجز من جلائل الاعمال حتى قيل انه كان يعطى كل يوم الف فتوى . كما يروى انه كان مزاحا حلو الدعابة فلما كان مارا من اقليم قرامان مع السلطان سليم ، راعت السلطان كثرة الاعاصير التى تهب فى هذه المنطقة وتعجب من ذلك ، فقال

له كمال باشا زاده ان قونيه عاصمة لهـذا الاقليم ، وهى التى سكنها مولانا جلال الدين الرومى ، ولذلك فغبارها وتلالها واحجارها ترقص رقصة المولوية (١) . ويحكى عنه وهو شيخ الاسلام ان مدمن مخدرات يتعاطى البنج جاءه يوما مستغيثا وهو يقول : إذا افطر زيد من الناس بالغبار فى الفجر الكاذب والشهر شهر الصيام ، فماذا يسعه ان يصنع . فما كان من كمال باشا زاده الا ان قال له : انت مثاب على ذلك ! وفى هذا الجواب ظرف وذكاء وسرعة خاطر . ومات كمال باشا زاده عام ٩٤١ هجرية (١٥٢٤ ميلادية) ، وبهذا العالم الشاعر نختتم الكلام عن الدور الأول من عصر الأدب التركى القديم ، لنستشرف دورا ثانيا نستفتحه بذكر السلطان سليمان القانونى . ومما تحسن الاشارة اليه مراعاة للدقة ودفعا للبس ، ان تحديد بداءة عصر ادبى او نهايته باسم شاعر أو بعام وفاته ، لن يكون امرا قاطعا بالمعنى المتبادر الى الذهن ، ولكننا بهذا الصنيع انما نحاول جهد المستطاع ان نحدد المعالم ونعين الصوى . فان التاريخ الأدبى كالتاريخ السياسى

---

(١) رقصة يدور فيها المولوية حول انفسهم كالاعاصير . وقد وصفناها فى كتابنا من ادب الفرس والترك ص ٢٢٠

سلسلة لا انفصام بين عراها ونتائج ترد الى مقدماتها، حتى الثورات ادبية كانت ام سياسية ، لا تقوم الا بعد ان تتهيأ لها العقول والنفوس شيئا بعد شيء . ونحن إذا ما اعتبرنا كمال باشا زاده آخر شعراء الدور الأول والسلطان سليمان القانونى اول شعراء الدور الثانى، خطر على البال فورا انهما تعاصرا ، وان امتد العمر اثنين وثلاثين عاما بالسلطان بعد شيخ الاسلام . ورأينا ان كثيرا من شعراء الدور الثانى اشبه بشعراء الدور الاول من الماء بالماء ، فليست التطورات الادبية وليدة التو والساعة ، وقلما تغيرت تيارات الأدب واتجاهاته تغيرا فجائيا فى عصر من العصور .

الادب القديم

الدور الثانى ، من عهد السلطان سليمان القانونى الى عهد السلطان محمود الثانى

العصر عصر السلطان سليمان القانونى اعلى السلاطين العثمانيين قدرا وانبههم ذكرا واعظمهم من عبقرية الحكام حظا . فقد بلغ بقومه ذروة العلياء مجدا ، واتسعت رقعة ملكه بكثرة الفتوح ، وقيل انه خاض غمار ثلاث عشرة معركة بنفسه حتى خفقت بنوده فى مياه الهند ، ودخل جنوده بغداد وتبريز فى الشرق ، كما طرقوا ابواب فينا فى الغرب ، واظل عرشه من الممالك مالم يظل عرش سلطان قبله ولا بعده . فجدر عصره بأن يكون العصر الذهبي للتاريخ العثمانى ، كما خلق هو بأن يكون العظيم عند المؤرخين الغربيين .

غير ان سليمان القانونى لم يكن عظيما بحروبه وحسب ، ولم يعرف عصره بالعصر الذهبي لرخائه واستبحار عمرانه ليس الا

فهذا السلطان كان كذلك اديبا شاعرا فأقام الأدب دولة وزاد من شأن الشعراء والأدباء رفعة وأصبح رائد نهضة أدبية علمية هى اسمى نهضة عرفها الترك فى الآداب والعلوم ، حتى قيل ان مائتى شاعر أو مايقرب قد نبغوا فى ايامه ، الى جانب مائتى عالم شهد لخمسين منهم بروعة مؤلفاتهم (١) ومؤرخو الادب التركى متفقة كلمتهم فى هذا الصدد . ومنهم فائق رشاد الذى يقول ان شعر العصور المتقدمة كان بدائى الحالة يجرى على نسق واحد ويكرر المعنى المكرر ، وشعر هذا العصر هو الشعر بحق إذا سمى وبلغ شأوا بعيد المدى (٢) اما جب فيشبه الشعر التركى قبل عهد سليمان بكلام طفل غرير ، يستقيم تارة ولا يستقيم تارات ، ويقرر ان هذا الشعر لايستدل به على الحذق والألمعية ثم يقول ان شعراء الترك قد شرعوا ابتداء من عهد سليمان فى الوقوف على قدم المساواة مع شعراء الفرس المجيدين(٣) وليكن معلوما أن فنون الشعر فى هذا العصر لم تتغير عما كانت عليه فى

---

(١) Jouannin et Van Gaver, Turquie (Paris MDcccxl) P. 154.

(٢) فائق رشاد ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٢٦٩ . برنجى جلد

(٣) Gibb, A History of ottoman Poetry P.1 V. iii

العصور السابقة ، وإن كان فن القول قد بلغ أوج الكمال . وعليه فكل ضعيف الصيغة رديء الصنعة أصبح جزلا رصينا مشرق الديباجة ، فكأن هذه النهضة الأدبية انما تناولت الشعر فى مبناه لا فى معناه وفى عرضه لافى جوهره ، ودار الشعراء حول عمودهم القديم متناولين تلك الأغراض التى الفوا ان يتناولوها ورددوا ألحانهم ، فطرب الناس لما لم يطربوا لمثله من قبل . وحقيق بالذكر ان اسماء لامعة رنانة لشعراء هذا العصر قد اضفت عليه رونقا وجلالا ، فمن المعلوم أن بعض المتأخرين قد فضلهم ورجحهم ، غير ان اجتماع المجيدين فى زمان واحد له اثره ومغزاه ، وما أصدق المثل الفارسى الذى يقول ان الربيع لا يكون بزهرة واحدة .

اما إذا راعينا الدقة كل الدقة فيما نقرر ، فلزام ان نقول ان فنا شعريا جديدا على الترك ظهر فى هذا العصر وهو التاريخ المنظوم الذى اولاه شعراء الفرس مزيدا من عنايتهم فبرزوا فيه كل التبريز وعلى رأسهم أبو القاسم الفردوسى صاحب شاهنامه . وقد ابتدع سليمان منصبا شعريا رسميا ليشغله شاعر يسمى (شاهنامجى) نسبة إلى شاهنامه [1] ، وهى ذلك الكتاب المطول المنظوم الذى

(١) هكذا يقول جب فى الصفحة الرابعة من كتابه المذكور ،=

سرد فيه صاحبه تاريخ الفرس منذ أقدم العصور إلى الفتح العربى لايران ، فشاهنامجى هو ذلك الشاعر الذى ينظم الحوادث التاريخية كما فعل الفردوسى فى شاهنامه ، وله راتب كبير ومنصب عظيم . وإلى جانب هؤلاء الشعراء الرسميين كان من الشعراء من ينظم تاريخ العثمانيين ويسمى منظومته شاهنامه كذلك . كما أن منهم من كان يتحدث عن سلطان من السلاطين فيسمى منظومته باسم من نظمت فيه . غير أن هؤلاء الشعراء الرسميين وغير الرسميين الذين كلفوا أنفسهم هذه المؤونة ، وركبوا هذا المركب الوعر ، لم يكونوا من الفحول المشاهير ، والجمال الشعرى يعوز مانظموا . وقد أمحت هذه الآية فيما بعد ، وأمحى معها كل ذكر لهؤلاء الشعراء (١)

وكثر عديد شعراء القصص منذ استهل زمان السلطان سليمان ، كما بلغوا فى الاجادة غاية لامتجاوز وراءها لشاعر . ولم يكن القصاصون قبلهم من المجيدين اللهم إلا مع استثناء

= وقد يكون غرضه من ذلك ان السلطان سليمان اولى هذا المنصب مزيدا من عنايته ، لانه غرف فى عهد محمد الفاتح .

(١) Gibb, A History of ottoman Poetry Viii P.4

شيخى فى قصة خسرو وشيرين ، وحمدى فى قصة يوسف وزليخا، فهذا العهد يعتبر بحق عهد القصة المنظومة الزاهر ، وسنرى مصداق ذلك فى دراستنا ليحيي بك ولامعى وفضولى .

وفى هذا العصر ظهر أصحاب (التذكرة) اول ماظهروا ، وهم شعراء ادباء ترجموا بشعراء الترك فوصفوا حيواتهم ، وسردوا سيرهم ثم ساقوا أمثلة من شعرهم فى كتب تعرف بالتذكرة [1] وأولهم سهى بك المتوفى سنة ٩٥٥ هجرية (١٥٤٨ ميلادية) وهو شاعر له ديوان وصاحب (هشت بهشت) بمعنى ثمانى جنات فى الفارسية [2] . وقد ذكر فى هذه التذكرة شعراء العثمانيين منذ نشأة الدولة العثمانية إلى ايامه . والثانى لطيفى الذى

---

(١) التذكرة ما يستذكر الشىء به وهى كلمة عربية . وقد اراد الكاتب التركى مصطفى جلال الدين ان تكون تركية واشتقها من كلمتين تركيتين تفيدان معنى الكتابة السريعة . وهذا منه وهم وتحكم . انظر Moustapha Djelaleddin, Les Turcs, anciens et modernes (Paris 1870) P. 260.

(٢) لاينبغى الخلط بين هذا الكتاب وكتاب ادريس فى تاريخ العثمانيين الذى يحمل نفس العنوان .

أتم تأليف تذكرة لطيفى عام ٩٥٣ هجرية (١٥٤٦ ميلادية) ثم مات بعد هذا التاريخ بست وثلاثين سنة. وكتابه قيم لنفاسة ماجاء فيه. والثالث عاشق چلبى، كان شاعرا فقيها، له ديوان ومؤلفات أهمها تذكرة أوسع من التذكرتين السالف ذكرهما، وأكثر تفصيلا فى ذكر الشعراء الذين عاصروه وتأكدت الصداقة بينهم وبينه، وإن كان ثقيل الأسلوب مفرطا فى تزويق الكلام ويقال إن له قصيدة جميلة فى نهر الدانوب. وكانت وفاته سنة ٩٧٦ هجرية (١٥٦٨ ميلادية).

اما رابعهم فاحمد عهدى، وهو أحد ثلاثة من شعراء الترك عرفوا بعهدى. كان فارسيا من بغداد، الا انه رحل الى استانبول واقام فيها عدة اعوام تأتى له خلالها ان يحذق التركية ويعرف كثيرا من الشعراء والعظماء، ثم عاد الى بغداد، وفيها الف تذكرته المسماه كلبن شعرا بمعنى روضة الشعراء فى الفارسية. ويميزها من غيرها انه لم يتحدث فيها الا عن معاصريه. وقد فرغ من تأليفها سنة ٩٧١ هجرية (١٥٦٣ ميلادية) ثم مات بعد ذلك بثلاثين سنة.

أما السلطان سليمان فلنا ان نعتبره اول شعراء عصره، وهو أهل لأن يعرف بالقانونى فى رأى من الآراء، بعد الموازنة بينه

وبين اسلافه السلاطين الذين كانوا رجال سيف لا رجال قلم (١)
وقد ذكره ضيا باشا فى تلك المقدمة المنظومة لكتاب خرابات
بعد ذكر ابيه السلطان سليم فقال (لقد ادبه ابوه فاحسن تأديبه
وهل يخرج من جوهر الا جوهر ، فأربى من الدولة اساس
البنيان ، كما نهض بالأدب والبيان . ودان الناس له فى سلطانه ، كما
دان الفصحاء له فى كلامه ، ولئن فتح البلاد بحسامه ، لقد اسر
النفوس بفضله واحسانه) (٢) وله ديوان مطبوع يعرف بديوان
محبى (٣) ، لانه كان يتلخص فى غزلياته بمحبى . وشعره متميز

---

(١) Lybjer, The Government of the ottoman Empire in the time of Soleiman The Magnificent (Cambridge 1913 P. 159) . ولست ادرى ما الذى بعثه على ابداء هذا الرأى فما الصلة بين ان يكون القانونى ويكون صاحب القلم ، خصوصا وان بعضا من اسلافه السلاطين كانوا من اصحاب القلم كأبيه السلطان سليم . والمعلوم انه عرف بالقانونى نسبة الى تلك القوانين التى اصدرها واصلح بها مرافق دولته . راجع نفس المرجع وانظر ما كتبه هيار عن قانونامه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ضيا باشا ـ خرابات ، برنجى جلد .

(٣) ديوان محبى (استانبول ١٣٠٨)

من شعر معاصريه بوضوح المعنى وقلة العناية بزخارف اللفظ، ومن ثم فهو صورة صادقة لنفسه . وهو فى شعره يبدو هادئا الى حد الضعف ، رقيقا الى مايشبه الخور ، وما ظنك بهذا العظيم الذى احب زوجته روكسلانا حبا ملك عليه فؤاده ، تلك الروسية الماكرة العظيمة الكيد ، التى زينت له ان يأمر بقتل ولده مصطفى حتى يخلو العرش لابنها الامير سليم ، فرضخ لمشيئتها بعد ان سلبته الحول والقوة . والفرق جلى بين الرخاوة والاسى فى شعره ، والشدة والجبروت فى شعر ابيه السلطان سليم مثلا . وقد استتبع ذلك ان يكون متقلب المزاج قليل الثبات على حال من الاحوال . فبينما يقول (لما صورك مصور القدرة فابدع تصويرك ، حار فيك كل وهم وهام كل خيال ، وإذا خطرت فى البستان فلا قد للسرو بجانب قدك ، وان حمر الورود لتنشق حسدا إذا تحركت شفتاك بكلمة ، لقد خلبت لبى فبالله كيف اصيب جميل صفاتك !) اذ به يخرج من هذا الشعر المشرق الجميل الى شعر قاتم كئيب فيقول (ليس على وجه البسيطة الامن يطلب الثراء والهناءة ، ولا هناءة الا فى برهة من عافية . مهما كثرت اعوامك وامتد بك عمرك ، فلن يبلغ ساعة من عمر هذا الفلك الدوار ، واذا ماشئت الحياة فى رغد ودعة ، فاقطع الرغبة عن

دنياك ، وان تجد السلام كما تجده فى ركن عزلتك) .

والعجب من شمس الدين سامى بك حين يورد شاهداً من شعره ، ان لا يورد له الا بيتين من الشعر الفارسى مع ان السلطان سليمان القانونى لم ينظم بالفارسية جديا كالسلطان سليم ، وكان الاحجى ان يذكر شيئا من شعره التركى الذى جرى على كل لسان[1] وقد بلغ من ولوعه بالشعر ، ورغبته فى استنهاض همم الشعراء ، ان يجمعهم فى مجلسه ويطلب اليهم ان يعارضوا غزلياته بغزلياتهم ، كما كان يعارض غزلياتهم بغزلياته . وحكم ستة واربعين عاما ثم مات ببلاد المجر فى حصار احدى المدن وكان موته عام ٩٧٤ ﻫ (١٥٦٦ م .) وقد ورثه بنوه حب العلم والادب ، فكان خمسة منهم يقولون الشعر ويكرمون اهله ، كالامير مصطفى ، والامير سليم الذى عرف فيما بعد بسليم الثانى ، والامير بايزيد المتخلص بشاهى ، وكان بايزيد منكود الطالع ، فقد قام النزاع بينه وبين سليم على العرش ، فاحترب الاخوان ودارت الدائرة على سليم ففر الى ايران وهناك سلم الى اعدائه وقتل . وان رنة

---

(١) شمس الدين سامى بك ، قاموس الاعلام دردنجى جلد ، ص ٢٦١٧ .

الاسى لتتردد فى قوله (فيم اضيع النفس بطول الامل واتلفها، بعد ان صد الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ،ايها القلب، هاهى ذى اجراس القافلة تدق ايذانا بالرحيل الى ارض العدم، وان رنينها ليملأنى مسامعى. مادامت لله رحمة تدركك وانت المحزون المذنب المسكين، فطب نفسا وقر بذلك عينا ياشاهى.)

* * *

ونتحدث بعد ذلك عن لامعى وهو شاعر ناثر مغمور عند قوم ومشهور عند غيرهم، فقد أغفل ذكره كل مؤرخى الأدب من الترك المحدثين الذين أشرنا إليهم، الا مؤرخا واحدا فيما نعلم وهو آكاه سرى، الذى أفسح له مكانا ضيقا فى كتابه دروس تاريخ الأدب (١) على حين منحه فون هامر حظا جزيلا من عنايته، فخصه بمائة وأربع وسبعين صفحة من كتاب تاريخ الشعر العثمانى (٢) وإن مثل هذا التناقض ليلفتنا إليه ويغرينا بالوقوف

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimata kadar, S. 193.

(٢) Von Hammer — Purgstall, Gescihichte der osmanischen Dichtkunst ii B ومما يؤسف له جد الاسف انى لااملك منه الا الجزء الاول والثالث والرابع وكم كان بودى ان استطلع رأى مؤلفه فى لامعى ولكن ما كل مايتمنى المرء يدركه.

على جليـة أمره . تقول كتب التراجم انه من أهـل بروسه ، ويعرف بمحمود بن عثمان النقـاش ، نسبة إلى جده الذى كان نقاشا رحل إلى مدينة سمرقند ليحذق فن النقش والتطريز ، ثم عاد إلى تركيا بأول سرج مطرز . ودرس لامعى فى صباه ماكان يدرس الفتيـان من أهل زمانه ، ولما اكتمـل عقله واتسع ادراكه مال إلى التصوف فأصبح من أتبـاع الطريقة النقشبندية (١) .

هذا مجمل سيرته ، أما شخصيته الأدبية فيميزها من غيرها ان لامعى أكثر المؤلفين انتاجا ، ولا يبلغ مبلغه فى ذلك أحد من أدباء الأتراك . وقد قال لطيفى ان مؤلفاته بعدد ساعات

---

(١) النقشبندية فرقة من الدراويش تنتسب الى بهاء الدين الملقب بنقشبند المتوفى عام ٧٩١ هـ (١٣٩٠ م) ونقشبند فى الفارسية بمعنى النقاش وفى ذلك يقول صاحب الشقائق النعمانية هؤلاء القوم يزينون عقولهم بالرسوم والنقوش ، وهم بنجوة من اوضار الحياة وشرورها فان تغرهم تلك الدنيا التى تتلون تلون الحرباء ، وقد رسم نقشبند من العلم الالهى صورا لامثيل لها ونقش نقوشا خفيـة للخلق الابدى ولذلك عرف اتباعه بالنقشبندية انظر Ikbal Ali Shah, Islamic Şufism (London 1933)P,99.

الليل والنهار فهى أربعة وعشرون مؤلفا ، بينما يرى منزل انها تربو على ذلك (١) وشبه بالشاعر الفارسى الكبير جامى فعرف بجامى الروم ، غير أن وجـه الشبه بين الشاعرين كان موضعا للخلاف فيذهب لطيفى إلى أنه شبه بجامى فى وفرة انتاجه ، أما آكاه سرى فيرى أن ترجمة لبعض منظومات جامى أكسبته اسمه. وإن التخالف بين ماجاء عنه فى الكتب التركية والأوربية ليثير العجب حقا ، فبينما يقول لطيفى (ومع كونه صاحب ديوان ، ومدوناته لاتدخل تحت حصر ، إلا انه لم يتوخ الاجادة كما ينبغى فى الشعر ، وقد جره عدم التأنى إلى عدم الدقة ، ومع أنه عارض قصة خسرو وشيرين بفرهاد نامه ، وضمنها الكثير من روائع الخيال والصنعة ، إلا أن ماينسب إليه من أثر طبعه ووليد قريحته قليل نادر . وإجماع الفضلاء والفصحاء على انه متعدد النواحى متصرف فى الفنـون ، ومع كل فلا ماء ولا رواء ولا روح فى منظومه ولا فى منثوره ، ومعظم ما ألف وصنف مردود إلى عباقرة الأقدمين مأخوذ عنهم (٢) .

بينما نرى ذلك فى تذكرة لطيفى يقول جب (ويلوح أنه كرس

---

(١) Menzel, Encyclopedie de L'Islam (Lami)

(٢) تذكرهٔ لطيفى ص ٢٩١ .

كل وقته وعنايته للدرس ، فداوم عليه ونبغ فى الشعر نبوغا عظيما ، وان شعره ليطاول شعر باقى فى الجمال والاصالة ويفوقه كثيرا فى المقدار)[1]

وقد ترجم لامعى عن العربية والفارسية ، ومن مترجماته المنثورة (شرف الإنسان) وهى الرسالة الحادية والعشرون من رسائل اخوان الصفاء ، ومدار الكلام فيها على أفضال الانسان ومامیزه الله به من دون المخلوقات ، وهذا الكتاب أكثر مؤلفاته سيرورة واوسعها شهرة ، أما ترجمته فحرة مطلقة لا يأخذ نفسه فيها بالتزام حرفية النصوص .

كما ترجم عن الفارسية نفحات الأنس من حضرات القدس لجامى وهو كتاب كبير فى تراجم الأولياء والعارفين والصالحين . وقد صدره بمقدمة قال فيها ان جماعة من اخوان الصفاء وخلان الوفاء شكر الله مساعيهم وبشر بالخير دواعيهم ، صاروا اليه

---

(1) Gibb, Ottoman Literature P. 220 (London, 1901)
ومما يذكر ، ان جب قد رجع عن رأيه وانتقض على حكمه ، لانه فى كتاب آخر يقرر ان لامعى لا يعدو ان يكون مترجما مجتهدا قليل الحظ من قوة الملكة واصالة الشاعرية Gibb, A History of Ottoman Poetry V, iii P.24

ذات يوم ، وتفرقت بهم شجون الحديث حتى جاء ذكر كتاب نفحات الانس ، فطلبوا اليه ان يترجمه إلى التركية، ولم تجد معهم تلك المعاذير التي اطالها رجاء ان يعفوه عما لا طاقة له به ولا قدرة له عليه . ثم حمد الله حق حمده على نصره للسلطان سليمان القانونى ففتح قلعة بلغراد ، بعد ان عز منالها على كثير من الملوك الصيد ، فإن لها من نهر الطونة سدا منيعا يحميها ، وكأنه دموع هؤلاء الملوك الذين ارتدوا عنها منكسرين محزونين . (ثم قال السلطان المظفر المنصور ، لاعاصم اليوم من أمر الله ، ثم فتحت له هذه القلعة المنيعة فى أدنى زمان بعون الرحمن ، وكان ذلك فى رمضان من سنة سبع وعشرين وتسعمائة . فضمها إلى ممالكه المحمية وشرح بذلك صدور المؤمنين بعد إذ كسر قلوب الكافرين) (١)

ولامعى واضح العبارة سهل الأسلوب يستعمل المحسنات

---

(١) نفحات الانس ص ٧ و ٨ و ٩ . وهذا الكتاب هو المطبوع الوحيد الذى املكه للامعى . وقد ضاعت صفحته الاولى فاستحالت معرفة تاريخ طبعه . اما كتبه الاخرى فبعضها مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الاول بالقاهرة .

اللفظية ولـكن بمقدار . أما مترجماته المنظومة فنذكر منها أول ما نذكر قصة ويس ورامين ، وهى قصة فارسية قديمة نظمها الشاعر الفارسى فخر الدين كركانى وقدمها إلى عميدالدين نيشابورى وزير السلطان طغرل السلجوقى (١) . ويقـال ان لامعى ظل يشتاق ترجمة هذه القصة ردحا من الزمن ، ولم ينل بغيته إلا بعد أن ظفر بنسخة غنمها الترك فى حملتهم على إيران ومن

---

(١) فخر الدين كركانى شاعر ايرانى من اهل القرن الحادى عشر الميلادى ومنظومته فى تسعمائة بيت تقريبا وهى تتضمن قصة ملك مرو مع زوجته ويس . فيحكى ان ام ويس هذه كانت ملكة ميديا وكان ملك مرو يهواها وهى ذات بعل . ولما عرفت امره ، وعدته ان تزوجه ابنتها ، التى كانت حملا فى بطن أمها . ووضعت ذات الحمل حملها ، ثم اصبحت الطفلة شابة تامةالحسن ، فقسرت على زواج ملك مرو وهو شيخ كبير بعد طول تمنع وتأب ، لأنها كانت تعلم انه ابوها فصرحت بأنها لن تسعد معه فى حياة الزوجية ، وبعد الزواج كانت تخونه مع اخيه الاصغر رامين . والقصة تصور الزوج الشيخ تصويرا مضحكا مع زوجته الشابة التى وهبت قلبها حبيبها الشاب . أنظر
Paul Horn, Geschichte der persischen Litteratur S. 174 (Leipzig 1901)

ترجمة لامعى قوله (ولما انقضى النهار المنير ، طمس الظلام الآفاق ، فانسدل نقاب العنبر على جبين الكافور ، وإذا بالفلك كصحن ملىء بالقناديل . وبقيت بعض الملاح مع الملك لتبديد وحشته وايناس وحدته ، فكانت هذه تقبل منه اليمين ، وتلك تعفر عند قدمه الجبين ، وكل منهن تقص عليه أحسن القصص منادمة مسامرة ، فطاب نفسا واهتز لذلك طربا . ووقعت عينه على مليحة منهن معسولة الثغر وردية القد ، الياسمين صدرها ، والتفاح غبغبها ، وكأن رجع حديثها فتات السكر ، ولها خد يبهر الشمس لألاء ، وإن نسمات الربيع لتستحى من طيب نسيمها ، والعود الأرج ينكسر من غدائرها ، أما بدر السماء فياله فراشة تتهالك على شمع وجنتها ، وإذا مابدا شعرها جنت شمس الضحى . وتطرب الملك ذلك الحسن فدعاها اليه ، ووضع كأسا من ذهب فى يدها وهو يقول : احورية انت ! عجبا لسحرك ، لقد ملكت فؤادى وسلبت رشادى ، اتريدين الملك أم خزائن المال ؟ انظرى حولك واطلبى ماتشتهين ، فإن ترابا وطأته قدمك لأثمد اعينى ، وكنوز الأرض بجانبك هباء عندى)

وترجم لامعى عن جامى قصة سلامان وابسال ، تلك القصة الصوفية الرمزية الجميـــلة كما ترجمها من بعد فتزجرالد إلى

الانجليزية (١) ونجتزىء بهذا القدر من مترجماته لنتحدث عن مؤلفاته أو منظوماته غير المترجمة.

فنها مقتل الامام الحسين (٢) وهى منظومة صور فيها تلك المأساة الحزينة التى هزت قلوب المسلمين عموما والشيعة خصوصا ومما يروى أن منلا عرب وهو من وعاظ بروسه، سمع يوما بهذه المنظومة، وساءه أن تنشد فى ملأ من الناس، واعتبر ذلك غضا من حرمة الحسين عليه السلام. فدعا لامعى صفوة القوم ومنهم منلا عرب، واجتمعوا فى المسجد، ثم انشدهم من منظومته

---

(١) تدور القصة على الامير سلامان الذى يهوى ابسال مرضعته فيهرب معها الى جزيرة مجهولة ثم يدركه الندم ويعود الى والده الذى يستتيبه. غير ان آلام الضمير تنغص عليه عيشه فيتخلص من عذابه بالقاء نفسه فى النار مع ابسال. وتحترق ابسال اما هو فلا يناله سوء، ويحزن عليها ثم يصبح مريدا لأحد الصوفية، ويعده الصوفى برد صاحبته عليه. غير ان قلب سلامان يرق للحب الإلهى ويكف عن الحب الارضى. أنظر ماذكر عن هذه القصه فى Field, Persian Literature P. 235.

(٢) لم يوفق باصماجيان فى فهم معنى هذا العنوان لأنه ترجمه هكذا Lieu ou Imam Houssein a été tué. Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littèrature ottomane P, 46

حتى وقع الخشوع فى قلوبهم وفاضت من الدمع عيونهم، وقد شك جب فى اصالة هذه المنظومة، غير أن البرهان أعوزه، لأنه قال ان كثيرا من شعراء الفرس قد تناولوا هذا الموضوع وقد نجانب الصواب إذا تصدينا لتعيين ذلك الشاعر الفارسى الذى أخذ عنه لامعى (١) ووصف لامعى مدينة بروسه وضواحيها فى منظومة بعنوان (شهر انكيز بروسه) وشهر انكيز فى الفارسية بمعنى (مثير المدينة) وهو اسم يطلق على تلك المنظومات التى يصف فيها أصحابها مدينة من المدن بما فيها من عمائر ورياض ونساء حسان، يثير حسنهن الهوى فى قلوب أهل تلك المدينة. ومنظومة لامعى يعتبرها فون هامر احسن ما نظم فى هذا الفن، وقد ترجمت إلى الألمانية (٢)

وللامعى مناظرة الربيع والشتاء. ومن مؤرخى الادب من يسميها مناظرة الربيع والخريف، وهى مزيج من الشعر والنثر يتخيل الشاعر الفصول فيها ملوكا يحتربون ويتنازعون. وهذا مثال من هذه المنظومة، وقد اورده فيكارهاوزر فى منتخباته من

---

(١) Gibb, A History of Ottoman Poetry V. iii P.24.

(٢) Pfizmaier, Verherrlichung der Stadt Brusa (Wien 1839)

الادب التركى (١) يقول لامعى (اقبل ايها الولهان المستهام فالوقت وقت الغرام ، واقض ساعة الوصال فى نسيم عذب للحقول ، لقد اطل السفرجل شموسا من غصونه بعد ان انضجته الرياح واكسبته من الالوان لون التبر ، وتدلى من الكرمة عنقود كهيئة الثريا ، واتخذت المروج لها حلة معصفرة من الازاهير ، اما الاشجار التى اشتعلت ذهبا فالقت على الارض من ورقاتها قلائد العقيان) (٢)

وان هذا المثال من شعره لكاف فى الدلالة على ان لامعى من شعراء الطبيعة المجيدين . اما ديوانه الذى قيل عنه انه يحوى عشرة آلاف بيت فلم اشاهده مطبوعا ولا مخطوطا . وكانت وفاة لامعى سنة ٩٢٨ هجرية (١٥٢١ ميلادية) .

• • •

---

(١) Wickerhauser, Deutsch-Turkische Chrestomathie (Wien 1853) S.280.

(٢) المناظرات فن شعرى عرفه الفرس عن العرب ، غير ان الفرس هم الذين سموا به وبرزوا فيه . واسدى أول من قال فى هذا الفن ، وله أربع منظومات وهى الأرض والسماء والرمح والقوس والليل والنهار والعربى والفارسى وكانت وفاة هذا الشاعر سنة ٤٦٥ هجرية . انظر Paul Horn, Geschichte der persischen Litteratur S.113.

وكان ذاتى شاعرا مكثارا شهر خبره فى عهد ثلاثة من السلاطين وهم بايزيد وسليم وسليمان وقد اعتبره شهاب الدين سليمان من شعراء عهد بايزيد (١) ، والاقرب الى الصواب ان ينسب الى عهد سليمان الذى مات فيه سنة ٩٥٣ هجرية (١٠٤٦ ميلادية) .

ولد ذاتى لأب رقيق الحال يحترف بصناعة الأحذية فى احدى المدن ، وتقيل اباه فى اول الامر فأخذ عنه حرفته ، الا انه مال الى الادب وقرض الشعر على ضآلة حظه من مختلف العلوم ، ورأى ابوه ذلك من حاله فانفذه الى استانبول لدنيا يصيبها وشهرة ينالها فى حياة الشعر والأدب . وكان السلطان بايزيد الثانى على عرش آل عثمان ، فقصد ذاتى القصائد وحبر المدائح فيه ، حتى ازلفه ذلك اليه ، كما انعقدت روابط الألفة بينه وبين علية القوم كالصدر الاعظم وقاضى العسكر . غير ان نفقته كانت الكفاف وليس فيها فضل . فرأى ان يتخذ لنفسه صناعة تدر عليه الرزق ، واختار ان يكون نجاما ينظر فى النجوم ويحسب مواقيتها ليعلم منها احوال الناس . وقبع فى دكان صغير بفناء

---

(١) شهاب الدين سليمان ، تاريخ أدبيات عثمانيه ص ٥٩

مسجد بايزيد ليباشر حرفته ويجنى قوت يومه . واصبح دكانه ملتقى لأهل الشعر والأدب ، وهؤلاء المتأدبين الشداة الذين كانوا يعرضون عليه بواكير شعرهم مستطلعين رأيه فيها ، واملهم ان يفيدوا من تصحيحه وتنقيحه. ويلوح ان الرجل لم يكن على خلق عظيم ، فقد كان ينتحل ما يروقه من اشعارهم ويثبتها فى ديوانه ، اما اذا اعترض معترض على هذه الشناعة ، فكان يبررها بقوله (لست شاعرا ولن تكون مادمت لا تملك ديوانا ، اما انا فلى ديوان لا نسيان له على طول الزمان ، وإذا ما ادرجت شعرا لك فى ديوانى فسوف يخلد خلوده)

ومرت الايام فرق عظمه وضعف سمعه وشح رزقه وساءت حاله فقضى بقية عمره فى عهد سليمان وهو يشكو الجهد والخصاصة والبلاء . وضيا باشا فى (خرابات) يسميه الهائم الكسير القلب ولهذا اثر واضح فى شعره ، فقد بعثه على ان يقول الشعر متكسبا ، والجوعان يسد جوعته بطعام اى طعام كان .

ومع كل فلطيفى يقول عنه انه خلاق المعانى وحسان الثانى ، ويعجب كيف يقتدر على ذلك مثله وهو لم يتتلمذ لمعلم ولم يضرب فى العلوم بسهم ، ثم يقرر ان عبقريته لن تكون الا فطرية (١)

---

(١) تذكرة لطيفى ص ١٥٨

ويقول آكاه سرى ان الشاعر باقى اعظم من نظم القصيدة والغزل في القرن السادس عشر الميلادى ، ولكن علينا ان نعتبر ذاتى الذى ظهر فى اوائل هذا القرن استاذا لهذين الفنين من المنظوم (١) وقد نظم كثيرا حتى قيل ان له من القصائد والغزليات ما ليس لشاعر عثمانى غيره ، وهو صاحب مثنويان يعرف اولهما بشمع وپروانه اى الشمعة والفراشة والثانى احمد ومحمود ، عدا القصائد والغزليات والرباعيات . وهذا غزل له فى غلام من حلقة الحمام وهو واضح الدلالة على روح مرحة ورغبة فى التبسط . يقول ذاتى (ياله من حسن الحلقة بض المتجرد فضى الاوصال ، احنى الرءوس امامه بماله من جمال وكمال . وإذا تصاعد البخار فى الحمام، فقد انتشى رأسى من بخار الغرام ، واى عجب بالله ان تجرى دموعى جريان الماء فى الحياض ! ليت جبينى موضع قدمه فى حمامه فالثمها والثمها)

اما قصتاه المنظومتان ، فلا نملك منها الا سطورا معدودة لاتكفى ولا تفيد فى تصورهما والحكم عليهما ، فآثرت ان اشير

Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimata(١) Kadar. S 113

الى ذلك مكتفيا بالاشارة

• • •

وكان خيالى بك شاعرا جيد القول للشعر سريع البديهة فيه. نشأ بالاناضول ثم اصبح مريدا لشيخ من مشايخ الصوفية وهو صبي حدث، وقد لازم المريد شيخه ولم يفارقه فكانا يسيحان معا على عادة الصوفية [1] حتى انتهى المطاف بهما الى استانبول. قيل ورآه قاضى المدينة مع الصوفى فكره له ذلك، ووكل به من ادبه فاحسن تأديبه، ولم يمض طويل زمان حتى اظهر الفتى فى الشعر عبقرية وبراعة، وسمع احد العظماء بخبره وعرف منزلته فى الادب فقدمه الى الصدر الاعظم ابراهيم باشا الذى اكرم وفادته واعجب كل الاعجاب به، وكان من يمن طالعه ان يوصله الصدر الاعظم الى حضرة مولاه السلطان سليمان، فقدجعله من ندمائه

---

(١) ساح الرجل سياحة ذهب فى الارض للعبادة، ولبس أثواب السياحة كناية عن ترك الدنيا والزهد فيها. وكان من الصوفية من يسيح تعبدا. قيل وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى قوله (لازمام ولا خزام ولا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة فى الاسلام) انظر، دكتر قاسم غنى، تاريخ تصوف دراسلام ص ٦٦ (طهران ١٣٦٢ ه)

المقربين[1]، واقطعه ضيعة تدر عليـــه رزقا حسنا ، غير ان هذه الدنيا التى اصابها لم تكن لتمحو من نفسه تعاليم شيخه المتعبد المتزهد الذى حبب اليه رفض الدنيـا وزين له الاعراض عن زينتها ، فلم يكن خيالى حريصا على ذلك الثراء الذى اصابه بعد العسر والحرمان ، فبسط يده كل البسط الى من ساله ، ولم يرد من استسلفه مالا ، جزيلا كان ام قليلا ، وما كان خيالى ذلك الغريم الذى يطالب بحقه فيلحف فى المطالبة ، بل كان سمحا كريما تجد المدين من العذر مالا يجد المدين لنفسه ، فأتلف بذلك ماله وخلت وفاضه ، حتى الجأته الحاجة الى اراقة ماء وجهه امام السلطان ، وطلب (سنجق) او جزءا من ولاية ، ليستعين على العيش ، وكان له ماطلب ، ولعله نال رتبة (بك) بهذه المناسبة (١)

وشعره غنائى جميل ، ولم ينظم شعرا قصصيا جريا على عادة الشعراء ، كما انه لم يجمع شعره فى ديوان بنفسه ، بل فرقه بين اصحابه ، فجمعوه فى مجموعة كان يطيب للسلطان سليمان ان يطالعها . وقد امتد صيت خيالى الى ايران ، فيقال ان الشاه طهماسب

Gibb, A History of ottoman Poetry V, iii P, 60.(١)

وهو الملك الثانى من ملوك الدولة الصفوية (1) كان يوما فى بعض مجالسه ، واتفق لاحد الحضور ان استشهد ببيت لخيالى يبدو فيه مزهوا بنفسه الى ابعد مدى فيقول (انا خيالى ، ذلك الخمير الذى يتشمل الكأس فى بلاد الروم . ولقد شرب الخاقان كأسه الخزفية على ذكراى فى التركستان) وما ان سمع الشاه طهماسب هذا الشعر حتى عرته هزة الطرب ودعا بالشراب ، فشرب على ذكرى شاعر الترك .

وان المخيلة لظاهرة شديدة الظهور فى قوله (ان كلامى لدائم الدوران على لسان كل حزين ولهان واللفظ منه قصة عن عالم الهوى والفتون . هذه الدنيا دير اصنام ودمى ، ولها الخمر والالحان من عبراتى وزفراتى (2) لقد امحت تصاوير مانى وتهاويله ، ولكن

---

(1) جلس الشاه طهماسب على عرش فارس بعد ابيه الشاه اسماعيل الصفوى وكان ذلك عام ٩٢٠ هجرية . وقد بعث اليه سليمان القانونى برسالة شديدة اللهجة يتوعده فيها ويتحرش به ، فلم يرد عليه وارسل رسله الى ملك المجر وشارل السابع مقترحا عقد معاهدة دفاعية هجومية . وغزا الترك بلاده واستولوا على تبريز ، ثم اعادوا الكرة بعد اربعة اعوام . وكانت وفاته سنة ٩٨٤ هجرية

(2) يشير خيالى الى تلك الصور المقدسة التى فى الكنائس والاديرة =

صورتك البديعة فى شعرى جعلت من كل بيت متحفا لفن هذا الرسام (١) ولئن حكم اليوم ملك يتخذ من الفلك عرشا له ، لقد اصبح خيالى افرس الفرسان فى حلبات الشعر والبيان)

فما اعجب ان تتقلب الاحوال بهذا الرجل الذى كان بالأمس محطوط القدر خفى المنزلة ، حتى يفاخر السلطان ويطاوله ، وان حاله مع السلطان فى الحاضر لتذكرنا بقصة له معه فى الماضى ، فلما دخل خيالى على سليمان اول مادخل وقعت الهيبة فى نفسه واطرق اطراقا طويلا واحتبس عليه القول فى حضرة السلطان .

وقضى خيالى سنة ٩٦٤ هجرية (١٥٥٦ ميلادية)

• • •

وبعد خيالى ينفسح المجال امامنا للتحدث عن فضولى الذى

= ويذكر الالحان وهى تصدح اثناء الصلوات والخمر حين يشربها المسيحيون تبركا فى كنيستهم .

(١) هو مانى الفارسى صاحب المذهب المعروف بالمانوية الذى دعا اليه فى القرن الثالث الميلادى . وقد ظهر مانى فى عهد الملك شابور الاول فقربه اليه واعتنق مذهبه عشرة اعوام ثم ارتد عنـــه الى الزردشتية ، فهرب مانى الى التركستان والصين وهناك تبعه خلق كثير ومات شابور فعاد مانى الى ايران فى عصر هرمز . ولمــا خلفه =

يعتبر بحق اشعر واشهر شاعر فى تاريخ الأدب التركى القديم . وهو ينتسب الى عشيرة تركمانية تسمى بيات ، كما قيل انه كردى الأصل فى رواية اخرى ، والمؤرخون متضاربة اقوالهم فى تحديد مسقط رأسه ، فمن قائل انه كربلاء وقائل انه الحلة ، كما ذكر بعضهم انه بغداد ، ومهما يكن من امر فقد قضى العمر فى بغداد وعرف بفضولى البغدادى ، وباعد ذلك بينه وبين ان يكون

= بهرام تمذهب بمذهبه ثم اضطر الى قتله مع شيعته بعد ان قويت شوكته واستفحل امره . وقد ظهر المانوية فى عهــد العباسيين واضطهدهم الخليفة المهدى . وبقى هذا المذهب الى القرن الثالث عشر الميلادى فكانه لم يدم اكثر من الف عام ، ولايعتبر مانى نبيا بالمعنى الواضح ، فهو حكيم لأن مذهبه تأمل فلسفى دينى . ومذهبه ماتق عدة ثقافات وديانات اساسها الزردشتية والمسيحية ، ويتلخص فى ان الخير والشر ازليان فى هذا الوجود وهما منفصلان تمام الانفصال ، وكل شر من اله الظلام ، اما الخير فمن لله النور . ومن تعاليمه ايضا ان هذا العالم شر يجب الخلاص منه .

هذا ، ويعتبر مانى كذلك رساما يضرب المثل بحذقه فى الرسم ، وله متحف يسمى ارتنك او ارزنك . واننا لنصادف ذكره وذكر صوره كثيرا فى الشعر الفارسى . وهاهو ذا خيالى بك يذكره فى شعره التركى ويشير اليه .

تركيا عثمانيا ، فلهجته هى اللهجة الآذرية التى يتحدث بها الاتراك من اهل اذربيجان فى شمال غرب ايران ، والفرق واضح بينها وبين اللهجة العثمانية وإن كان غير كبير . ولقد شط عليه فى الحكم كاتب تركى حين قال عن لغته انها اخلاط من كلام فاسد مخلوط (١) وفضولى فى الصفحة السادسة من مقدمة ديوانه ، يتوقع ان تقع الفاظه وتراكيبه موقع الغرابة من بلغاء الروم وفصحاء التتار فيطلب المعذرة .

وقد اخذ من كل فن بطرف فبلغ فى العلم المبالغ، وهو يشير الى ذلك بقوله (الشعر من غير علم كالبنيان من غير اساس، وما اهون شأن مثل هذا البنيان . وإذ عرفت ان عطل شعرى من حلى العلم يزرى به ، فقد كرهت للشعر ان يكون مادة من غير روح ، ولبثت حقبة من الدهر ، وانا انفق ايام العمر انفاق الدراهم فى اكتساب افانين العلوم العقلية والنقلية ولقن الهندسة والحكمة ، حتى تراخت المدة فتأتى لى ان اجعل من شعرى عروسا تزينها الدرر الغوالى) (٢)

---

(١) محي الدين ، يكى ادبيات (استانبول ١٣٣٤هـ) ص٨١

(٢) ديوان فضولى ص ٤ و ٥ (استانبول ١٢٩١ هـ)

اما فى مقدمة ديوانه الفارسى فيحدثنا عن مخلصه او اسمه الشعرى ، ويقول ان الشاعر إذا اختار له مخلصا ، فلن تطول المدة حتى يجد ان شاعرا آخر قد اخذه عنه واصبح سميه ، ومن ثم آثر ان يتخذ لنفسه مخلصا لايروق احدا ، رجاء ان لايسلب منه ، فتسمى بفضولى ! ثم يذكر أنه اذا اختار اسمامشتركا واجاد فاجادته منسوبة الى سواه وهذا مايسوءه ، كما يظلم سميه ان كان غير مجيد . وكان فضولى فى ريق شبابه يجلس مجلس التلميذ من رحمة الله افندى ، واتفق له ان شاهد ابنة شيخه فخفق لها قلبه اول خفقة وقال فيها اول قصيدة ، فأهلها وانجبت له،وسمى ولده فضل الله ، وقد اصبح شاعرا عرف فيما بعد بفضلى ،والمشهور انه استبدل التشيع بالتسنن بعد هذه الزيجة ، غير ان فائق رشاد بك يشك فى صحة هذا الخبر ، وان كان لم يقطع الشك باليقين . (١)

---

(١) يقول فائق رشاد ان هذه الرواية مشكوك فيها دون ان يبرر وجهة نظره . ثم يقول ان ترجمته لكتاب فى استشهاد آل البيت اذا اتخذ دليلا على تشيعه ، فكل مسلم يحب آل البيت يعتبر شيعيا على ذلك . وانى وان كنت لااقطع برأى فى ذلك ، اقرر ان اختيار فضولى لترجمة كتاب شيعى يمكن ان يكون دليلا على تشيعه . راجع ، فائق رشاد ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٣٠٢

وقد بخس هذا الشاعر حقه من التقدير في زمانه ، وان عرفت افضاله فيما بعد ، ووضعه المتأخرون فى منزلته . وبذلك تعوض خيرا من جحود معاصريه [1] . فأصحاب التذكرة لايخصونه الا ببعض عبارات منمقة يسوقونها كلما تحدثوا عن شاعر من الشعراء مظهرين بها تضلعهم من علوم البلاغة ، اما المحدثون من علماء الاتراك ، فاجماعهم منعقد على ان فضولى اعذب شعرائهم نبرة واصدقهم لهجة . يقول محي الدين انه اكثر شعراء الشرق رهافة حس واصالة شاعرية بكل ماتتسع له الكلمة من معنى [2] ويذهب شهاب الدين سليمان الى ان فضولى هو الشاعر التركى الاوحد فى الادب التركى القديم الذى استمع الى خفقات قلبه فترنم بشكواه وآلامه [3] اما فائق رشاد فيراه نسيج وحده ودنيا شعر وادب [4]. واذا ما استعرضنا آراء علماء الغرب فيه الفينا جب يقول ان السلطان سليمان القانونى قد شارك فى الاعلاء

---

(١) محي الدين ، يكى ادبيات ص ٨١

(٢) المصدر نفسه ص ٨٢

(٣) شهاب الدين سليمان ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٧٥

(٤) فائق رشاد ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٣٤٦

من شأن الادب التركى يوم فتح بغداد عام ٩٤٠ هجرية (١٥٣٥ ميلادية)، لأن فضولى اصبح بذلك معدودا من شعراء العثمانيين (١) ويقرر باصماجيان ان فضولى لم يقلد شاعرا قبله، ومن الخطأ ان يسمى حافظ الترك، لأنه لم يتل تلو حافظ الشيرازى امير الشعر عند الفرس، ولقد استلهم قلبه وعبر عن عواطفه بعبارة لانعهدها عند شاعر سابق ولا لاحق (٢) اما كارادوفو فيعقب على رأى باصماجيان بقوله ان فضولى تغنى بالحب الانسانى وكان فى هذا التغنى اصدق لهجة من حافظ، واقل عناية برسم الصور الرمزية الصوفية، وعدم ذكره للخمر الا فى الندرة دليل على ذلك. فهو بذلك يخرج من زمرة شعراء المتصوفة والشعراء المتفلسفين ويعتبر شاعرا غنائيا غزلا. ثم يعده من المتشككين والملاحدة كعمر الخيام (٣)

ويفاضل منزل بينه وبين شاعر الترك الكبير باقى قائلا انه

---

(١) Gibb, A History of ottman Poetry V. iii. P. 9.

(٢) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane P. 42.

(٣) Carra de Vaux, Les Penseurs de l'Islam, (Paris 1923) V.1 P. 290

يفضله فى ذاتيته وقوة شاعريته ثم يعتبره اعظم شعراء المدرسة القديمة عند الترك (١)

وعلى ذلك ففضولى شاعر الوحى والسجية ، يقول مايحس ولا يتبع شعراء الفرس اسوة بجمهرة شعراء الترك ، وكان من اثر ذلك ان امتاز بوحدة القصيد وتدفق كلامه من نبع واحد آخذا بعضه برقاب بعض (٢). واذا تحفظنا فى الحكم قلنا ان قصائده اقل جودة من غزلياته ، لأنه يريد فى القصيدة ان يتباهى بجزالة اللفظ ورونق العبارة وهذا مايسوق الى التعمـــل والتصنع ، والضرب على تلك الاوتار القديمة التى الف الناس ان يطربوا لأنغامها ، اما فى الغزل ، وهو ذلك القالب الذى يضمنه الشعراء ارق مايتغنون به ، فقد اتى فضولى بالأعاجيب ورقم اسمه على

---

(١) Menzel, Die türkische Literatur. S. 286

(٢) هذا لايعنى انه لم يتأثر بحافظ وسعدى وكاتبى من شعراء الفرس ونوائى من شعراء الترك فقد اورد كولبينارلى فى طبعة جديدة لديوان فضولى ، شواهد من شعره وشعرهم مشيرا الى ماقبس منهم . انظر Gölpinarli, Fuzuli Divani S,xxxviii xlii (Istanbul 1948) ولن يغير هذا من وصفنا لشاعريته بالاصالة . فليس يصح فى الافهام ان لا يتأثر شاعر بغيره . وما اكثر المعانى التى الف شعراء العرب والفرس والترك ترديدها .

جبين الدهر . وهذا الشاعر لا يصف شيئا إلا ذكر نفسه به فعبر عما يعتلج فيها من خوالج . وقد التفت جب الى هذه الحقيقة فقرر أن مدح العظماء بالقصائد فن من فنون الشعر يتجافى عنه طبع فضولى ، اما شعر الغزليات الغنائى ، فقد اودعه قلبه وزفراته وبسماته (١) وما اجملها صورة تلك التى رسمها له شاعر من شعراء العصر الحديث فقال (فى عينه قبس من نار شمس العراق ، وفى نظرته حزن واستغراق ، وللذكاء والدهاء فى ناصيته اشراق . اما ارتعاش شفته الذابلة فأغنية الفراق . وان وجهه هذا الساهم الحالم لباد فى اشعاره ، وهو وجه الاسى ووجه الهوى . انه يحب وحبه هموم وغموم ، لا نشوة له ولا بهجة فيه ، واذا تحرك منه اللسان فبالشكوى . ولما جاء إلى هذه الدنيا ادركه الندم المرير ورفيقه فى سفرته حورية دمعها يجرى ، لا يماشيها إلا فى الخراب اليباب ، وبعينها يبكى وهو يرنو إلى السحاب) (٢)

وإن فضولى ليطلعنا من شعره على نفس مولهة وقلب وجيع فيقول (حبيبى صد عنى ، والفلك والدوار لا يرحمنى ، اما الزمان فكأنما اغرى بى ! الله فى آلامى . ما أكثر من يعاديني وما اقل

Gibb, A History of Ottoman Poetry V. iii P.83. (١)

(٢) توفيق فكرت بك ، رباب شكسته (استانبول ١٣٢٦ هـ) ص ٣١٠

من يسعدنى ويواسينى . شانئى شديد بأسه وجدى عاثر انكد ، لى أمل ، ولكنه ظل ليس له من دوام ، ولى شوق ، هو شمس ذات ضرام . نحسى فى درجات للصعود وسعدى فى دركات للهبوط . انا الغريب فى هذه الدنيا . من سلك طريق الوصل رصدته الحيلة والخديعة ، ، دهرى ختال ختار وأنا سليم دواعى الصدر . وإذا تخطر بمشوق القوام ، فجلوته فيض من طوفان المحن ، أما هلالى الحاجب فكأن حاجبه أول سطر فى سجل المجانين ا المكانة فى العلم كورقة الزهرة فى مهب النكباء ، أما تصاريف الزمان فمنعكسة كخيال سروة على صفحة الغدير ، حمر الدموع تحدرت على خد شاحب فضولى ، الا فتأمل هذه الألوان من البلاء ، التى منى بها من فلك السماء !)

غير أنه لا يداوم على هذه النغمة الحزينة الدامعة ، فقد يغفل الدهر من غفلاته ويرد عليه ماسلب منه ، فيتغنى بفرحة الوصال ، بعد طول الوجد والهجران (ياطيب أيام كان حسنك فيها ملء ناظرى ولى من سراج وصلك نور يملأ عين املى ، أما الشوق إلى قربك فيا طالما شفانى من سقامى ، والفرحة بك اسعدت ذلك القلب المتيم المهجور ، كانت هناءتى شمعة منيرة ، وانجمى فى سماء السعد مضيئة ، انال ماتصبو اليه رغبتى وقد اكتملت بهجتى . فالعذول ساكت عنى ، والحسود بعيد منى ، كنت آدم

الذى نال حسن القبول عند اعتابك ، وكانت الجنة ماواى ، من كوثرها مدامى ومن حورها ندمانى ، إذا رجوت فلى رجائى ، وإذا تمنيت تحققت منيتى . كان الهجر وهما لا يخطر على قلبى فيعكر صفوى ، مع كل ماعرف عن غدر الزمان ! فكيف إذا جرى القضاء بأن يلقى فضولى فى حرقة الهجران ، وهو الذى غتر بغفلات العيش فى تلك الأيام)

وشاعرنا موكل بالحسن يتبعه ، فإذا وصف الحسناء أصاب صفاتها ، وجلاها فى صورة حية تزاحمت الوانها الزاهية ، ثم عبر عن وقع مايرى من جمال على حسه الأدنى كشاعر ، وعاطفته الجياشة كعاشق ، فيقول (قوامك الفضى فى الحرير ، كماء الورد فى البلور ، وصدرك البض صفحة الغدير ، إذا زانها الموج والحباب . يالحسنك الفتان ! لا طاقة لعين الدنيا بالنظر إلى اشراق نوره . اما إذا تجردت من غلالتك وطرحت هذا النقاب ، فتلك فتكة بأهل الأرض تجعلها يبابا ! إن قلبي الدامى ليذكر حجلتك فى حمرتها . وشفتك فى عقيقها القانى ، فتستمع له أذنك الوردية . واحر قلباه من هذا المشط الذى يضل فى غدائرك ، وينعم بلثمها فى تلافيفها ، ومداعبة ثناياها ، وانا عنها بعيد بعيد . ان روحى لتأمل كمدا وحسدا . يامن وجهها الورد ، تميسين فى

حمر ثيابك فتحرقيننا بالنار إحراقا . لم تولد بعد التى هى مثلك ، فما للشمس ولا للقمر بعض حسنك ، فكأن لك أما من شمس الضحى وابا من بدر الدجى ياقاسية على من يهواك . عيناك بالأثمد مكحلتان ، وراحتاك بالحناء مخضبتان ، مالك شبه بين الملاح فى البهاء والرواء . حاجبك القوس ونظرتك السهم : وفضولى فى شوق اليهما فيا عجبا لطائر يقبل عليهما ولا يفر منهما !)

ومن أوسط منظومات فضولى قصة ليلى والمجنون ، وهى آخر ما نظم لأن فراغه منها كان سنة ٩٦٣ هجرية (١٥٥٦ م) وهى السنة التى مات فيها . وهذه القصة مشهورة فى أدب الفرس فقد نظمها نظامى وجامى وغيرهما ، كما نظمها من شعراء الترك قبل فضولى بهشتى وحمدى وخيالى ومير على شير نوائى . ومن عجب ان يغفل فضولى ذكر من سبقه اليها من شعراء الترك ، فقد ذكر فى مقدمتها سبب نظمها فقال انه كان فى مجلس انس مع رفقة من ظرفاء الترك ، فاقترحوا عليه ان ينظمها (قالوا بالله يابديع القوافى ، إلا كشفت للدنيا عن هذا الكنز الخفى . انها قصة طالما تداولها الأعجام ، ولا وجود لها عند الأتراك . اسردها على حقيقتها ، واعد لهذه الروضة نضرتها)(١)

وهى من ٢٤٠٠ بيت ، غير أن فضولى لا يروى قصته

---

(١) فضولى بغدادى ، دستان ليلى ومجنون ص ٢٠

رواية تبعث فى النفس الملالة ، ولكنه يضمنها كثيرا من رقيق غزلياته التى يجريها على لسان أشخاص القصة ، وهذا مايضفى عليها لونا غنائيا جميلا ، ويخرج بها عن السرد القصصى الرتيب.

ومن قول ليلى عند موتها (الآن قد ازف الرحيل ، فليبرح الخفاء ، وليظهر السر بعد الإفشاء . لى حبيب فى حسن البدور تيمنى وادنفنى ، وجرت محبته على كل شقاء وبلاء ، ياطالما حن اليه حنينى وإن كنت لم انعم معه يوما بالوصال . الآن امضى وفى قلبي آثار من معسول كلامه ، وهذا نصيبى منه ، ونصيب كل من له مثل حظى . اماه ! انت من يؤنس وحشتى ويواسينى فى بليتى ، هأنذا ازايل دار الفناء إلى دار البقاء ، فالوداع الوداع . إذا جزعت لافتقادى ، وبكيت لموتى ثم جزت بهذه الصحراء وعجت بتلك الديار ، فبالله إلا ماخبرته ماصنع الهوى ، وذكرته بتباريح الجوى ، وقولى له ان ليلى فى سبيلك قد قضت ياذاكرا للعهد وباقيا على الوفاء . وإذا ما كنت مخلصا فى هواك ، فعجل بالرحيل إلى من تهواك ، لنكن سويا ، وليسعد قلبانا حيث لاعذول يرانا . ولما اتمت ليلى وصيتها ، مضت لطيتها ، بعد أن ذكرت حبيبها ، واسلمت املا فى وصله روحها .)

وقد حل نظمها منذ سبعة أعوام كاتب تركى هو وصفى قوجه ترك

وقال فى مقدمة كتابه ان لهذه القصة قيمة ادبية وانسانية ، لأنها تصور لنا كثيرا من التقاليد والاحاسيس والشخصيات ، ففيها ام ليلى الوالهة الثكلى ، وابو قيس يموت اسى ولوعة، وابن سلام يطالب بدليلى، وذلك الصياد الذى يجنى قوته فى الصحراء الجرداء، وان بكاء المجنون على قبر ليلاه ليذكر بعبقرية شكسبير فى تمثيلياته [١] .

ولفضولى منظومتان اخريان وهما (ساقى نامه) اى كتاب الساقى و(بنك وباده) بمعنى البنج والخمر والمنظومة الأولى بالفارسية، فلا وجه للتحدث عنها فى هذا المقام . اما بنج و باده فمثنوى صغير يتألف من ٤٤٠ بيتا، وهو مناظرة شعرية بين انواع من المخدرات والوان من الشراب ، يظهر فيها البنج والخمر كملكين متمادين متحاربين . وقد نظم فضولى هذا المثنوى فى مطلع حياته وقدمه الى الشاه اسماعيل الصفوى اول ملوك الدولة الصفوية فى ايران وذلك أيام كانت بغداد من ممتلكاته ، وهذه المنظومة ضئيلة القيمة الأدبية ، وان كانت تاريخا لتعاطى الخمر والمخدر فى زمان شاعرها . وفى رأى ان فضولى انما ذكر البنج والخمر على سبيل الرمز والايماء ، فأراد بالبنج السلطان بايزيد الثانى وبالخمر الشاه

---

(١) Vasfi Kocatürk, Leyla ile Mecnun (Istanbul 1943) S.5.

اسماعيل الصفوى [١] .

وله كتاب حديقة السعدا ، وهو ترجمة حرة عن الفارسية لكتاب روضة الشهدا ، الذى الفه حسين واعظ الكاشفى ، وصور فيه استشهاد الحسين وغيره من الأئمة تصويرا عاطفيا بنثر فنى مرصع بأبيات من الشعر [٢] . وفى حديقة السعدا مرثية مؤثرة بكى فيها فضولى آل البيت ومنها قوله (لقد دبرت قتل آل العباء ايها الفلك ، فياسوء ما صنعت ويا قبح ما اقترفت ايها الفلك . وسلمت

---

(٢) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri Tanzimata Kadar. S. 133.

(٢) هو حسين واعظ الكاشفى ، الذى عاش فى كنف مير عليشير نوائى وزير السلطان حسين بيقرا التيمورى وقضى سنة ٩١٠ هجرية (١٥٠٥ ميلادية) وحسين واعظ من اشهر كتاب النثر الفنى عند الفرس وله عدة مؤلفات منها تفسير للقرآن ، وكتاب فى الاخلاق بعنوان اخلاق محسنى . كما ترجم كتاب كليلة ودمنة وسماه انوار سهيلى . اما كتابه روضة الشهدا فله عند الشيعة فى ايران منزلة لا تسامى ، فاذا احتفلوا فى المحرم من كل عام بذكرى استشهاد الحسين ، قرأوا منه فقرات فى مجلس عزائهم ، وتسمى القراءة روضه خوانى بمعنى قراءة الروضة ، ويعرف القارىء بروضه خوان أى قارىء الروضة

سيوفا من سحاب البلاء ، لتعمل كلا منها فى شهيد ايها الفلك . واردت لحرمتهم أن تنتهك ، ولعصمتهم ان يذهب بها ، وصرعتهم فوطئتهم اقدام العداة ايها الفلك . فما ادركتك رحمة بكبود دامية واشباح تهيم فى ارض غربة ايها الفلك) .

وقد اجرى عليه السلطان سليمان راتبا ، ولما توجه الى ادارة الأوقاف وطلب وظيفته ، سخر منه القائمون بالأمر ولم يكترثوا به ، فاغضبه ذلك وكتب رسالة الى محمد نشانجى باشا متولى الاوقاف ، يتظلم ويشكو ، وهى معروفة بشكايتنامه اى كتاب الشكوى ومن قوله فيها (وحييتهم بتحية فما ردوها ، ولو كانت رشوة لقبلوها . وتقدمت اليهم بالقرار ، فما التفتوا اليه لخلوه من شىء ينفعهم . وتظاهروا رياء بالاطاعة ، الا انهم اجابوا على كل سؤال بلسان الحال . فقلت يا ايها الصحاب ، ماهذا التصرف المعكوس ، واى معنى لهذا الجفاء والعبوس ، فقالوا تلك عادة لنا ، لانملك المحيد عنها . قلت ولكنهم رأوا رعايتى واجبا عليهم فمنحونى براءة التقاعد ، لأنال بها نصيبى من الاوقاف وادعو الله للسلطان ، قالوا ايها المسكين ! لقد ظلموك ، ووهبوك ماسوف تغدو به وتروح ، ومادمت تجادل عبثا وتشاهد وجوها تفيض خبثا ، فلسوف تسمع من الكلام مايؤذيك . قلت كيف لاتحققون

ماجاء فى هذه البراءة ، قالوا هذه زيادة لايمكن صرفها . قلت وهل تخلو الاوقاف من مثلها . قالوا إذا تبق من مال الوقف فى الآستانة شيء فهل يتبقى شيء عندنا ؟ قلت اتلاف مال الوقف وبيل العاقبة . قالوا شريناه بمالنا فهو حلال لنا . قلت سيفضح الحساب امركم . قالوا هـذا الحساب فى يوم الحساب . قلت فى الدنيا حساب كذلك قالوا لقد سمعنا به ولا نأبه له . ولما رأيت انى لم أظفر منهم الا بأجوبة على اسئلة ، وانهم لن يقضوا لى حاجتى عملا بما جاء فى براءتى ، كففت عن السؤال والجدال ، وشعرت باليأس والحرمان فقبعت فى ركن عزلتى ، بعد ان غضبت لما لحق البراءة من اهانة ، كما خجلت لأنى عذبتها معى من غير طائل ! واستولى على شعور شاهد الزور إذا ندم على ما قال ، والمدعى الكاذب إذا شنعوا عليه البهتان . فيالها آية منسوخة ممنوعة العمل ، ويالى من أمة ممسوخة مقطوعة الأمل)

ولهذه الرسالة شهرة فى ادب الترك بأنها من اجود النماذج للنثر الفنى فى العصر القديم . وهى بالتركية العثمانية لا الآذرية ، وان تهكم فضولى المرير بموظفى الاوقاف ليضفى عليها طرافة وجدة ، وقد علق عليها ابو الضيا توفيق ويؤخذ مما قال ان فضولى اكتب كاتب واشعر شاعر فى اللغة التركية لو قد اوتى من انتظام

التفكير بقدر ما أوتى من سمو الوجدان [1]

وله رسالة صغيرة بالفارسية تتألف من خمس عشرة صفحة وعنوانها (صحت ومرض) وفيها حوار يدور بين جوارح الجسم يستدل منه على اسباب العلل . وان مثل هذه الرسالة لتشهد لفضولى بالالمام بعلم الطب كما عرف فى ايامه ، وبذلك يكون قد برز فى العلم الى جانب تبريزه فى الشعر والنثر .

. . .

وكان يحيى بك آخر شاعر تحدث عنه لطيفى فى تذكرته ، وهو من اولئك الشعراء المشهود لهم بالإجادة . وقد اختطفه جند الترك من بين عشيرته فى البانيا ، ليصبح جنديا من الانكشارية وتلك كانت عادتهم فى جلب الفتيان من بلاد يفتحونها ليتأدبوا بآداب الاسلام وينخرطوا فى سلك الجندية . وقد قال يفخر بقومه (انا الباني ، من قوم يعشقون الحسام ويصرعون الضرغام ، ويتخذون بيوتا لهم فى الصخور شأن الصقور . تلك صفة الألبانى وفضيلته ، فما أشبه بالجوهر فى ذاك الحجر)

وضرب يحيى فى العلوم بسهم حتى استكمل اداة الشعر ،

(1) ابو الضيا توفيق - نمونه ادبيات ص ٢١ (استانبول ١٣٠٨)

ووصل اسبابه بأسباب كثير من أدباء عصره وعظمائه فاصبح
مرموق المكانة مستفيض الشهرة ، كما نال فى الجيش رتبة عالية
وللجندية أثر فى نفسه ، فهو شديد البأس صعب المراس يقول
ماعن له من غير ما خشية ولا اشفاق ، وينهض على ذلك دليلا
أنه رثى الأمير مصطفى ابن السلطان سليمان القانونى ، ذلك
الأمير المنكود الطالع الذى قتله ابوه بغير حق ، وجرت هذه
المرثية على كل لسان فتعرض الشاعر بذلك لسخط السلطان .
وما ان علم الصدر الاعظم رستم باشا بهذه الحال - وكان شديد
الكراهية للشعراء - حتى انهى الخبر الى سليمان ، وجهد ان
يستصدر منه الامر بقتل يحيي بك ، غير انه لم يجب الى رغبته .
فاسرها الصدر الأعظم فى نفسه وعمد الى الحيلة ، ثم استدعى يحيي
بك الى حضرة السلطان ، وما موله ان يوقع به ويستوجب قتله
فقال له (الى اى شيء تقصد بتقبيح حكم السلطان على مصطفى
وكيف تستهجن فعله وتعلن استهجانك على الناس !) فكان من
المعية يحيي ان يقول (لقد رأينا فيه رأى السلطان وان بكيناه مع
الباكين) فاسقط فى يد رستم باشا بعد انقطاع وسيلته الى تحقيق
رغبته . واكتفى باقالته من منصبه العسكرى .

وتعرف مرثيته بالمرثية المصطفوية ، ولها فى ادب الترك من

الشهرة قدر مالها من جمال ومنها (ويلاه ويلاه ماذا دهانا ، لقد انهار جانب من دنيانا ، بعد ما كان من زبانية الردى الذين قتلوا الامير مصطفى ، فكسفت شمس طلعته ، ومنى آل عثمان بالبلاء والوبال بما كان من لؤم وخسة واحتيال ، ان حقد الحقود واثم الكذوب وغدر الفاجر ، ما اشعل للفراق نارا ، واستقطر من عيوننا امطارا . فياليت هذه العيون لم تكن ولم تشاهد هول ما كان . هو بدر الكمال وبحر العلوم . ورد المنية ، واورده طالعه المشئوم موارد التلف ، ان النجوم الطوالع خفقات وحرقات وبلاد الشام والترك تفيض بالعبرات . هو ذا الثعبان الرهيب يطوق عنقه واحر قلباه (١) فكأنه الهالة ! وقد ارتضى ماجرى القضاء به كيفما كان . والله انه برىء الساحة ماعرف عنه من سوء ، ياله شهيدا سعيدا وملكا مظلوما ! قتل فى الأرض لتصعد روحه إلى مقرها وتلقى محبورة وجه ربها . افسح الله له فى رحمته واسكنه جنته ودامت أيام مولانا السلطان فى عز واقبال)

وهذه المرثية تعجبنى غير أن خاتمتها لا تعجبنى ، فقد جامل الشاعر السلطان ودعا الله له ، وهو كأب قاتل لا يستحق إلا

---

(١) الثعبان هو الحبل الذى شنق به على التشبيه .

دعاء الله عليه ، ولعاذر ان يعذره فى مثل هذه الحال ، غير أن ذلك لا يمنع من وصف وقع شعره على حسنا الأدبى .

ولم يذكر يحيى بك الا فى بعض تواريخ الأدب على مالذكره من أهمية ، فقد كان الرجل صاحب مذهب أدبى لو قدر له أن يشيع لتغير مجرى تاريخ الأدب عند الترك ، وأصبح لشعرهم من الخصائص والسمات مالا نعهده حتى فى القرن التاسع عشر ، يوم جدد الترك أدبهم وانصرفوا عن تقليد الفرس إلى تقليد الفرنسيين . فيحيى بك أول من دعا إلى ضرورة أن يستلهم شاعر الترك روحه التركية ، ورغب عن إحتذاء الشعر الفارسى على حين تباهى شعراء عصره بترجمة آثار الفرس وأخذ معانيهم والنظم بلغتهم . فقال فى منظومة يوسف وزليخا (هذا المؤلف المستظرف لى ، وتلك الدرر درر المعانى وهى من بنات خيالى ، وتلك قصة لا ينبغى أن تترجم . كلا كلا ، لا أذوق حلوى الموتى !)

فنكف عن ان يكون مترجما ، وشبه الترجمة بأكل الحلوى التى يتصدق بها أهل الميت ، وهو تشبيه عجيب . كما ردد هذا المعنى فى (كتاب أصول) فقال (انا ماترجمت كلام غيرى . وما مزجت قولى بما قال الغرباء ، فما كان لسانى ترجمان الفرس ،

واست بآكل حلوى موتاهم !)

ويقول فى خاتمة كتاب له يعرف بشاه وكدا (انه عار من ثوب العارية، لاأثر فيه لأوضار الترجمة، ولم آخذه عن أحد والله على ماأقول شهيد. وقد تتوارد فيه الخواطر كما يقع الحافر على الحافر)

أما آثاره المنظومة فنذكر منها أول مانذكر قصة يوسف وزليخا، ويقال فى الباعث له على نظمها انه خرج للحج فمر ببلاد كنعان، وهناك ذكر القصة وتحركت فيه الرغبة إلى سردها (١). كما قيل ان مشاهدته للقاهرة التى يسميها مدينة يوسف كانت ذات أثر فى ذلك (٢) وقد نظم هذه القصة أكثر من شاعر فارسى وتركى كما أسلفنا، وكان الظن بهؤلاء الشعراء ألا يغادروا متردما لشاعرنا، غير انه دلل على عبقريته بتناول الموضوع تناولا جديدا لانشاهده عند أحد منهم. اما أشهر منظوماته فهى (شاه وكدا) بمعنى الملك والشحاذ، وتدور على المحبوب وهو الملك والمحب وهو الشحاذ. ويلحظ أنه يجعل محبوبه غلاما

---

(١) فائق رشاد، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٣٣٧

(٢) Gibb, A History of Ottoman Poetry V. iii P. 125.

امرد ، وهذه نقطة تحتاج إلى فضل تفسير ، فقد درج كثير من شعراء الترك على التغزل فى المذكر ، وليس هذا بإثم ولا عار ، لأنه خيال لا حقيقة ، ورمز مهموس لا واقع ملموس . وذلك أن قدماء اليونان وعلى رأسهم حكيمهم أفلاطون كانوا ينظرون إلى عـلاقة الصـداقة بين شاب وشاب نظرتهم إلى عاطفة كريمة وآصرة نبيلة . فحب الذكر للذكر حب روحى عفيف وهو أسمى من حب الذكر للأنثى الذى لا يمكن الفصل بينه وبين الشهوة ، وفى الأساطير اليونانية أمثلة للحب بين الذكران من الآلهة . ويقال ان هذا اللون من الحب ظهر أول ماظهر فى وسط آسيا ثم فى جزيرة كريت وانتقل منها إلى اليونان (١) . ومهما يكن من شيء فنحن لا نتحدث هنا عن اليونان إلا على سبيل المثال ، من غير رغبة فى الاستطراد . فبهذا المعنى تحدث الترك أو معظمهم عن الغلمان فى شعرهم ، وهمهم أن يرمزوا إلى حب طاهر سماوى هو الحب الإلهى . فإذا نظرنا فى قصة الملك والشحاذ رأينا يحيى بك يتحدث عن ثلة من الاخوان يأخذون بينهم بأطراف حديث الأدب ، فيمدح أحدهم فرهاد عاشق شيرين والمجنون صاحب

---

(١) Tennebaum, The Riddle of Sex. P. 266.

ليلى ، غير أن يحي يعترض عليه بقوله إن هذين العاشقين غير مخلصين ولا صادقين فى حبهما لأن كل همهما هو امتلاك المرأة ، ثم يقترح عليه صحابه أن يكتب لهم قصة فى ذلك فيحقق رغبتهم ويستهل قصته بوصف ميدان من ميادين استانبول يعرف بآت ميدانى أو ميدان الحصان ، وفيه يجتمع الغلمان المرد . فيذكر منهم واحداً هو (احمد) ويجعله (الملك) أو المحبوب فى القصة اما محبه أو (الشحاذ) فرجل من أهل العلم والورع والتقوى . ويرى الشحاذ الملك فى المنام . فيرحل إلى استانبول وأمله أن يلحقه الملك بخدمته ، الا انه لايصادف إلا خيبة الأمل ، لأن الحبيب يعرض عنه ولا يلتفت إليه . ثم يسمع الشحاذ هاتفا يقول له ان كل حب على وجه الأرض بالغا مابلغ من الطهارة والروحانية ، لايعقب إلا أسفا وندما . فعليه أن لايشغل القلب إلا بالحب الإلهى . وتنتهى القصة بهذه الفكرة . ومن قوله (حدثينا أيتها الببغاء [1] باللسان الفتيق العذب ، وأذيبى قلبك فى نار الهوى أذيبي فان النقطة منه سفر من الأسفار ، اما الذرة

---

(١) تذكر الببغاء كثيرا فى شعر الترك والفرس ، وتشبه بها الحسناء لملاحة شكلها وصوتها ، كما تستعار لكل قاص او متكلم معسول الحديث

فشمس فى رائعة النهار ، الكون والمكان يغرقان فى قطرته ، والعالمان يضلان فى ذرته . بالحب الطهور يصبح ابن آدم كآدم المرشد الكامل المكرم ، وبعد المذلة يسود ، فكأن الشمس تخلق اليواقيت من أحجار سود [1] ان الهوى نور لعين العاشقين وبراق للسالكين . عبده ملك الدنيا ، والشقى فى اتراحه سعيد فى أفراحه)

وهذا المثال يدل بما لا مجال فيه للريب على أن يحيي بك يتحدث عن الحب الصوفى دون سواه .

وله كذلك كتاب الأصول ، وهو مجموعة من الأقاصيص المنظومة تتميز بالمغزى الاخلاقى ، كأقصوصة العدل التى يجعل فيها من السلطان مراد الأول مثلا يسيره فيقول : (ولما وافى الربيع تهلل وجه الأرض فكأنه قلب شرحه الإيمان . وبدت الأشجار كطور سيناء ، وعليها من أزهارها كنور الله . فاتقدت فى مصابيحها نيران حمر ، وارتدت ملاح المرج الحلل الخضر ، وشاء الغازى مراد أن يخرج إلى البستان . وهو ذلك

---

(١) يعتقد القدماء ان اليواقيت احجار سود انضجتها حرارة الشمس .

السعيد فى حياته الشهيد فى مماته [1] ليتملى زينة الربيع ورونقه، ويتفكر فى صنع الله وقدرته. فقطف أحد عبدانه زهرة حمراء قدمها إليه، فقال ويحك اقبض يدك عنى، لقد كنت سببا فى هلاكها، يا أسفى عليها. كانت تسبح بحمد الرحمن، فأسكتها عن التسبيح أيها الشيطان، انما مثل الملك العادل لهذه الدنيا كفصل الربيع، ذلك الفصل الذى تبسم فيه الكائنات، ويغمر الصفاء كل الجنبات)

فالشاعر فى مثل هذه الأقصوصة إنما يقصد إلى ذكر العدل بالذات، أما وصف جمال الربيع وما وقع للسلطان مراد مع عبده فأشبه شيء بحاشية على متن واطار يمسك الصورة. ومات يحي بك عن سن عالية سنة ٩٩٠ هجرية (١٥٨٢ م).

* * *

أما اعلى الشعراء قدرا وارفعهم منزلة فى عهد سليمان القانونى فباقى المولود سنة ٩٣٣ هجرية (١٥٢٦ ميلادية) والمتوفى سنة ١٠٠٨ هـ. (١٦٠٠ م.) كان أبوه مؤذنا بجامع الفاتح لا يجد إلا الكفاف من الرزق، فوجد حاجة ولده إلى حرفة يستعين

---

(١) هو السلطان مراد الاول الذى قتل فى بلاد الصرب عام ١٣٨٩ م.

على العيش بها . فارسله إلى من علمه السراجة ، وصنع باقى السروج ، غير أنه آنس فى نفسه شوقا إلى العلم والأدب ، فاسترسل على سجيته واصاب من المعارف ماشاء الله ان يصيب ، وتردد على حانوت الشاعر ذاتى الذى كان يشتغل فيه بالنجامة ، ويجعل منه منتدى للمتأدبين يتناقلون فيه الأخبار ويتناشدون الأشعار ، ويعرضون على صاحبه ماجادت به قرائحهم مستطلعين رأيه ويروى أن باقى دفع مرة إلى ذاتى رقعة تتضمن غزلا جميلا له ، فملك الشعر عليه اعجابه ولم يصدق أن يكون لفتى فى حداثة سن باقى ، ثم التفت اليه وقبح انتحال الشعر وحذره منه ، بيد أن باقى أكد له ابوته للشعر ، واتاه بسلطان مبين حين أحسن الأجابة على كل سؤال وجهه اليه وهو يختبره فى الشعر والأدب ، وأصبح باقى منذئذ تلميذا لذاتى يغترف من بحره ويقر بفضله . ودارت الأيام وبلغ باقى مبلغ الرجال فغزر علمه واتسعت مداركه ونال نصيب كل مجتهد ، وعين قاضيا لمكة وقاضيا لاستانبول ، ثم أصبح قاضى عسكر الأناضول وقاضى عسكر الروم ايلى ، وكانت سنه قد انافت على السبعين فاعتزل . وعاصر باقى اربعة من السلاطين وهم سليمان القانونى وسليم الثانى ومراد الثالث ومحمد الثالث . ومامنهم إلا من عرف له

قدره وعظيم منزلته . وكان الرجل محسدا شأن كل ذى نعمة وناله من حساده شر عظيم ، فيقال انهم دسوا عليه بيتا لشاعر يسمى نامى بعد أن تناولوه بالتبديل والمسخ ، وغرضهم من ذلك أن يلقوا به إلى التهلكة ، فانهوا إلى السلطان مراد الثالث ان باقى يقول (ان سكيرنا الذى مالت برأسه الصهباء فى وليمة الفناء ، لخير من ذلك المغرور الشقى فى احضان الثراء) وظن مراد ان الشاعر يعرض بابيه سليم الثانى وكان شريب خمر [1] ، فاستشاط غضبا وعزله عن القضاء ثم امر بنفيه كما جاء فى بعض الروايات . غير ان الله لم يخز الشاعر فسرعان ما عثر على اصل البيت المنحول فى مجموعة لشعر نامى [2] ، واخبر السلطان مراد بحقيقة

---

(١) هو السلطان سليم الثانى المتوفى سنة ٩٨٢هـ (١٥٧٤م) ولقبه (مست) بمعنى السكران فى الفارسية ، ويقال انه اباح شرب الخمر وبيعها علانية يوم جلس على العرش وكان سلفه سليمان القانونى قد حرم ذلك على الناس ومنعه منعا باتا . وقد تهكم به اهل عصره فقالوا (اين نذهب لنجد خمرنا ، ألى المفتى نذهب أم الى القاضى !) ويروى ان الكروم التى اشتهرت بها جزيرة قبرس رغبته فى فتحها.

(٢) هو شاعر مغمور ضعيف الشأن . اما البيت فهو (يكفينا من نعم الدنيا الماء والحب ، ومن القصور المنيفة كوخنا الخرب)

الأمر فاصدر عفوه عن باقى . وقد ساء شيخ الاسلام بوستان زاده محمد افندى مثل قوله (انا لا اعرف يوسف الحسن ولكنى اعرفك يابارع الجمال) وكاد ينسبه الى الكفر (١)

غير ان شيخ الاسلام صنع الله افندى صلى على جثمانه فى جامع الفاتح وذكر قوله فى بعض غزلياته (سيعرف الخلان قدرك ياباقى إذا وقفوا عليك صفا صفا وايديهم على صدورهم)

وكان باقى مسنون الوجه شديد السمرة ، فشبهه احد خصومه من الشعراء بالغراب وعرف (بقارغه باقى) وان هذا اللقب ليذكرنا بقصة له مستملحة مع احدى النساء . فقد اهدى اليه السلطان سليمان جارية اديبة تسمى (طوطى) بمعنى الببغاء، وانتهى خبر هذا الى صديق من اصدقاء باقى هو الشاعر نوعى ، واحب

---

(١) لقد اشتط الشاعر فى التعبير، وان كان غرضه انه لم يشاهد يوسف الصديق وليس غرضه انكار المعرفة به عليه السلام . ويقول معلم ناجى فى كتابه (عثمانلى شاعرلرى) ان شيخ الاسلام غضب وكاد يعلن كفره . اما كوبريلى زاده محمد فؤاد وشهاب الدين سليمان فيذهبان فى كتابهما (يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى) الى ان شيخ الاسلام اعلن كفره ، ونجا الشاعر من عقوبة القتل ولم يكد ،

ان يزف اليه التهنئة على تلك المنحة السلطانيه التى لاتتطلع الآمال الى اعظم منها ، كما شاء ان يمازحه لدعابة كانت بينهما فقال له (ليهنك انك قارنت الببغاء) فقال (على رسلك يا أخى لكى لاتعلو كثيرا فى طيرانها ، انها غراب) [1] وسمعت طوطى بما وقع بين الشاعرين ، فعمدت الى بيت لنوعى وحورت فيه فاذا هو (ولما وجد الغراب نفسه بغتة مع الببغاء ، شكا مر الشكوى فيا عجبا كل العجب !)

هذا مجمل سيرته ، اما منزلته الأدبية ، فأرى ان يكون تصورها باستعراض آراء الشعراء والعلماء فيها ، مع الاستدراك

(١) يشير الشاعران هنا الى قصة فى كتاب كلستان للشاعر الفارسى سعدى ، ونحواها ان ببغاء وضعت فى قفص مع غراب ، فتأذت بقبحه وقالت فى نفسها ماهذه الطلعة القبيحة والهيئة المقيتة ، ياغراب البين ياليت بينى وبينك بعد مابين المشرقين . واعجب من ذلك ان الغراب على قبحه ضاق بمجاورة الببغاء على حسنها ، فشكا من تقلبات الزمان ، وتمنى ان يتبختر مع غراب مثله على جدار بستان . ثم يقول سعدى انه ضرب هذا المثل ليبين ان العالم ينفر من الجاهل ، بقدر مايستوحش الجاهل من العالم . كلستان سعدى ص ٤٩ ، كليات سعدى (بمبى ١٣٣٥ هـ)

إذا انفسح المجال لاستــدراك ، ومن حق وواجبي بعد ذلك ان اصرح برأيي . ولنا ان نبدأ بقول باقي عن نفسه (لقد تعلم الغزل شعراء الروم ، يوم تغزل باقي في عين غزال له يهواه) وقوله ايضا (انا ملك الكلام فى هذا الزمان ، فقدم الشعر الى قصائده وغزلياته)

وباقي هنا انما يجرى على عادة بعض الشعراء في الفخر بأنفسهم وقلما اقر انسان بعيبه ، والذى اراه ان فضولي كان ارق منه غزلا ، اما ان كان يعنى شعره فى الغزليات ، فقد قرر فون هامر انه فى غزلياته اقل اجادة منه فى قصائده [١] . ويقول عنه الشاعر نفعي (الا بذكر كلام باقي يدوم اسم سليمان ويبقى الى يوم يبعثون ، فانما كلامه ماء الحياة) وقد ذكر الشاعر نديم ثلاثة من الشعراء فى قوله (ان نفعي فارس الميدان فى قصائده ، غير انه لايتعلق بغبار باقي ولا يحيي فى غزلياته) ومما يجرى هذا المجرى فى مدح باقي قول الشاعر ثابت (من قال ان باقي نقاد ، اصاب شاكلة الصواب وانصف ، ولو كانت افكارنا من لجين ، لما كانت اشعاره الا دراهم الفضة !)

فهذه الأشعار لايخرج معظمها عن كونه كلاما باقارنا نالايفيدنا

---

(١) Joseph Von Hammer, Bak'is Diwan (Wien 1828) S.13

فى تعرف شاعرية باقى الا اقل فائدة ، وان دل دلالة واضحة على اتساع شهرته فى عصره ، وان الشهرة وحدها لاتصلح مقياسا للاجادة على الدوام . وقد مر بنا ان فضولى كان مغمورا ولم يعرف فضله الا فى زمان متأخر .

اما كتاب (تذكرة الشعراء) الذين عاصروه ، فلم يذكروه بعبارات التمجيد وصفات المدح التى افرغوها على غيره، ويعزى هذا الى انهم انما عرفوه فى اول امره قبل قبل ان يصبح شيخ الشعراء ويعد من اعيان البيان . وإذا مانظرنا فى كتب المتأخرين من اصحاب التذكرة، رأينا منهم من ينسب اليه الآيات والمعجزات كمحمد توفيق [1] الذى قال عنه انه سيد شعراء الروم . وجعل عنوان الفصل الذى عقده عنه (مولانا باقى ملك الشعراء فى عصره).

أما مؤرخو الأدب التركى من الأتراك ، فبعضهم يعتبره اعظم شعراء عصره ولايتحدث عنه الامادحا ، وبعضهم يذكر ماله وما عليه ويوازن بينه وبين فضولى مترددا فى الاقرار بامارة الشعراء لأحدهما . فضيا باشا مثلا يقول فى مقدمة كتابه (خرابات) إن الشعر التركى القديم اصبح له كيان بفضله فهذا

---

(١) محمد توفيق ، قافله" شعرا (استانبول ١٢٩٠هـ) ص ٥٦

الشاعر جدير بأن يعتبر رائد التجديد [١] ويجعله كوپريلى زاده محمد فؤاد اول شعراء دور الكمال ثم يقول انه خير من يمثل الحالة الروحية لعصره ، ومن ثم وجب اعتباره ممن ساهموا فى انشاء الأدب وتهذيب اللغة [٢] ولما تحدث عنه فائق رشاد فى كتابه (تاريخ الآداب العثمانية) قال انه سلطان شعراء عصره ، وقد اقترن اسمه بالتبجيل وذكر بالحسنى على مر العصور [٣] ويذهب اكرم بك فى كتاب له بعنوان (بعض الشعراء الأقدمين) إلى أن باقى جدير بأن يعد من المجددين فى الشعر التركى لأن شعراء الترك قبله كانوا يشدون الالفاظ ويضغطونها كأنها من مطاط ، حتى توافق أوزان الشعر ، فخلا شعرهم من البهاء والرواء . وشعر باقى براء من هذا العيب . ثم يقول ان غزلياته غنائية فى جملتها ، وعلى ذلك فهو عند الترك كحافظ الشيرازى عند الفرس [٤] .

---

(١) ضيا باشا . خرابات (استانبول ١٢٩١) برنجى جلد .

(٢) كوبريلى زاده محمد فؤاد - شهاب الدين سليمان ، يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ٣١٢ .

(٣) فائق رشاد ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٢٧٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٥

وقد خصه معلم ناجى باحدى عشرة صفحة من كتابه (الشعراء العثمانيون) وقال ان الامالة فى شعره أكثر من الزحاف. والغلط نادر، وقد يشاهد عدم الارتباط كذلك اما استعماله لبعض كلمات وتعبيرات قديمة فليس موضعا للتجريح، بل ان سعيه إلى التقليل منها فى زمانه ليستحق الشكران، وقد يأتى حين من الدهر يعتبر فيه اخلافنا الفاظنا وتراكيبنا قديمة بالية (١) ويقول آكاه سرى ان أهم مزية لباقى هو اقتداره على التصرف فى اللغة التركية، وتقديمها اليناعالية خالية من كل شائبة. وهو متميز بسلاسة الأسلوب ورنين العبارة كما أنه اول من ادخل لهجة استانبول فى الأدب التركى. ولم يكن لباقى أى ولوع بالتصوف وفلسفة وحدة الوجود، ولا أثر فى شعره للجذبات الدينية، وقد خلا ديوانه حتى من المناجاة والتوحيد والنعت، وغير ذلك من موضوعات دينية لانعدمها عند كل شاعر تركى. أما ديوانه فيتألف من قصائد قالها فى مدح السلاطين والوزراء ومرثية أو مرثيتين وغزليات. وباقى رجل واقعى وشاعر ذواقة وفنان قدير (٢) وآخر من نستطلع رأيه فى باقى من مؤرخى الترك،

---

(١) معلم ناجى، عثمانلى شاعرلرى (استانبول ١٣٠٧هـ) ص ٢٥

(٢) Agah Sirri, Edebyat Tarihi Dersleri, Tanzimata Kadar, (Istanbul 1936) S. 143.

محي الدين الذى لم يذهب فى تمجيده مذهب القدماء ، وانما نظر فى شعره حق النظر فقال انه لم يكن من عباقرة الفكر والروح، وقد عنى أكثر ماعنى بالشكل والصورة ، وجهد ان ينظم شعرا متسقا فجره ذلك إلى التلاعب بالألفاظ على عادة الشعراء فى زمانه ، ومع هذا ينبغى اعتباره اول شاعر عثمانى عظيم لفصاحة اللغة فى شعره ، غير ان روحه الأدبية لم تكن سر عظمته . فما رفعه إلى تلك المنزلة السامية التى بلغها إلا عصر السلطان سليمان القانونى (١)

ومن تتمة القول أن نأنس برأى علماء الغرب فيه بعد أن عرفنا منزلته عند علماء الترك . ولنبدأ بالعالم النمسوى فون هامر الذى ترجم ديوانه إلى الألمانية وصدره بمقدمة قال فيها ان حافظا الشيرازى وجد منافسا له فى سلمان ساوجى (٢) كما ساجل المتنبى

---

(١) محي الدين ، يكى ادبيات (استانبول ١٣٣٠هـ) ص٩١و٩٢

(٢) هو الشاعر الفارسى سلمان ساوجى المتوفى سنه ٧٧٨هـ. كان مجيدا مبرزا فى الغزل والتشبيب ، وقد تطلع اليه حافظ الشيرازى وتلا تلوه فى كثير من غزلياته . انظر رضا زاده شفق ، تاريخ ادبيات ايران (طهران ١٣٢١ ش) ص ٣٢٥

كل من أبي تمام والبحترى ، أما باقى فلا منافس له ولا مساجل (١) وقد اعتبره أعظم شعراء الترك وقال فى الصفحة الخامسة عشرة من مقدمة ديوانه ، إن له اربع عشرة قصيدة ومائتى غزل واربعة. ويرى جب ان فون هامر انما ذكر هذا لاعتماده على نسخة ناقصة لاتحوى إلا نصف شعر باقى أو اقل (٨) ويرى باسماجيان ان باقى كان ملك الشعر الغنائى فى رأى معاصريه ، الا أن النقاد المتأخرين خلعوا هذا اللقب على فضولى فيما بعد (٣) ، ثم يقول ان باقى اكمل فنا من فضولى والطف ذوقا ، وان كان اقل منه حساسية واضعف شاعرية ، اما جب فيقول ان باقى شاعر يقلد شعراء الفرس وفى طليعتهم حافظ الشيرازى غير أنه متين السبك ، ولا نظير له فى جودة العبارة بين المتقدمين والمتأخرين ، ثم يقول ان معاصريه نظروا اليه كأمير للشعراء على حين صرح المحدثون بأنه لم يكن سوى مجدد فى اللغة والشعر. ولو كان جب من اهل ايامنا هذه لاقتنع برأى محيي الدين

---

(١) Joseph Von Hammer, Baki's Diwan (Wien 1825) S.5

(٢) Gibb, A History of Ottoman Poetry V. iii P.147.

(٣) Basmadjian, Essai sur L'histoire de la littérature ottomane (Paris 1910) P. 96

وآكاه سرى اللذين غضا من شاعريته وعبقريته ، ولم يقتصرا على ذكر لغته واسلوبه كما صنع من سبقهم من نقاد الأتراك ، ثم يعلل جب اختلاف رأى القدماء والمحدثين فى باقى ، بأن القدماء كانوا يحكمون على الشعر بالجودة مادام جيد اللفظ ، اما المحدثون فاعظم منهم عناية بروح المعانى (١) . وهذا حسبان جائز . وان كنا نجد شيئا من الغضاضة فى اعتبار فون هامر من هؤلاء المتعلقين برونق اللفظ دون سواه . فنعال بدورنا اعجابه الشديد به وتمجيده العظيم له ، بأنه ترجم ديوانه ، فليس عجيبا ان يحب العالم النمسوى كل عظمة ومجد لشاعره التركى . ومنتزل يصرح برأيه فيقول ان العثمانيين يلقبون باقى بالخان والخاقان والسلطان لجمال اسلوبه الا ان فضولى يفضله كثيرا بقوة الملكة واصالة الشاعرية (٢)

فيؤخذ من كل تلك الآراء فى باقى ، ان باقى امير الشعر التركى عند الأقدمين ، غير ان فضولى يزاحمه على هذا اللقب عند المحدثين . وان هذه النتيجة لتحدونا على النظر فى مقدمتها ، فالشعر لفظ ومعنى والشاعر الشاعر هو المجيد فيهما جميعا ولكن لاجناح

---

(١) Gibb, AHistory of Ottoman PoetryV.iii P.144.145

(٢) Menzel, Die türkische Literatur, S. 289.

على فضولى ان يتحدث بلسان قومه ، ولا يعيب لغته الأذرية ان تكون غريبة فى استانبول . اما الا يبلغ فى المدح مبلغ باقى ، فدليل على انه الشاعر بحق الذى لايقول الا ماجاشت به نفسه . ثم ان فضولى اكثر فنونا من باقى لأنه نظم قصة ليلى والمجنون وله ديوان بالفارسية ، ومثنوى آخر بالتركية عدا مؤلفاته النثرية على حين نظم باقى قصائد وغزليات وترجم عن العربية مجموعة من احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذا كل ماجادت به قريحته ، وعلى ذلك فكثير فضولى خير من قليل باقى .

ومن قول باقى فى مدح السلطان سليمان القانونى (وقب لليل ، وازدانت للسماء شرفات بنجوم مشرقات ، وبدا القمر ، فياله مشعلا بين كواكب لاتحصى . وتلألأت المجرة فى الفضاء فما اشبهها بطريق لاحب . فرنت عين العبرة ، والقت الروح السمع للكشف عن سر مكنون . فاذا هذا البهاء منحة منحها اليمن والاقبال فى دولة مالك الدنيا ، ذلك المتربع على عرش ذوى التيجان ، جمشيد اللهو والصبوة (١) ، دارا سوح الوغى (٢) كسرى العدل

---

(١) جمشيد ملك من ملوك الفرس فى العهد الخرافى ، وهو فى الشعر مضرب المثل فى حب اللهو والشراب .

(٢) هو الملك دارا من ملوك الدولة الكيانية وقد اتسع فى =

والرحمة ، اسكندر الزمان وسلطان الشرق والغرب والبحر والبر وصاحب هذا الدهر . ان كان العدل ميدانا فهو فارسه ، وعلى الملوك ان يسيروا امام فرسه ، انه رب السماحة والندى . ومافى بطن الأرض من جوهر وما فى قاع البحر من لؤلؤ ، الطاف على خوان جوده . الربيع عطار ، وهو فى شوق الى عطر خلقه والخريف عظيم المال الا انه فى حاجة منه الى نوال[1]

فهذا شعر لاروح فيه ، ومبالغاته تبعث فى النفس الملالة ، وذكر اسماء ملوك الفرس برهان قاطع على تأثر باقى بأدب الفرس. وهذه المدحة مثال لشعر المديح الذى يردد فيه الشعراء تلك المعانى التى قلما يجدون عنها حولا . غير ان باقى يرق فى بعض غزلياته فيقول (روحى من هواك كالناى إذا نفخ فيه ، آه من آلام قلب لاحبيب له يواسيه ، ليت اسياف لحظك مزقتنى تمزيقا كأنها أسنان المشط (٢) ، فى سبيل ان اسعد مثله بغدائرك ! وانما مثل

= الفتوح وكانت مصر والهند من البلاد التى فتحها .

(١) يشبه الخريف برجل غنى ينثر الذهب ، لأن الاوراق الصفر تتساقط فيه من اشجارها .

(٢) الشاعر هنا يتخيل اسياف اللحظ المشرعة مشطا ، ويغبط المشط إذا جال فى شعر الحبيب .

الكائنات فى بحر حبك ، كحفنة من غثاء على امواج الدأماء ، والعاقل العـــاقل من لم تغره الدنيا بزخرفها ومتاعها ، فما اسرع الافلاك فى دورانها ، وما اقصر عمر هذا الانسان ، فلا تحزن ياباقى لما تلقاه فتلك شيمة الزمان . ونصيب الأشواك ورود تجاورها ، اما نصيب البلابل فاقفاص تحبس فيها)

اما احسن ما قال باقى فتلك المرثية التى رثى بها السلطان سليمان ويعتبرها فون هامر اجمل مرثية فى الشعر التركى (١) ويقول جب لو ان شعر باقى كان فى مستوى هذه المرثية لاعتبر من اعظم شعراء العالم (٢) . وفيها يقول (انت يامن تنشد الصيت البعيد وتطلب المجد التليد ، فاصبحت من حرصك هذا فى القيود ، الام بزخرف الدنيا تعلقك ، وحتام على متاعها تهالكك؟ لا بد للحمرة فى خد زهرات الربيع من صفرة كورقات الخريف ، ولا بد من ان يكون مقرك الاخير كهذه الثمالة التى تلقى ، وذلك التراب الذى ينفض ، ولسوف يصدع الزمان كأسا تدار على الندامى فيتصدع الشمل الجميع . اما آن لعين ان تمسح عنها نعاس الغفلة . أليس

---

(١) Joseph Von Hammer, Baki's Diwan (Wien 1828) S. 13.

(٢) Gibb, A History of Ottoman Poetry, V. iii P. 146

لك عبرة فى حكم الزمان على سيد الحكام وفتى الفتيان وفارس الميدان ، راكب الأغر المحجل الذى كانت الدنيا على اتساع رقعتها مسبحا له يجول فيه ويصول ، ويعدو ملء فروجه شامخا برأسه ذلك الذى رفع السيف الحسام الملتمع ، فانخفضت امامه رءوس المجر ، وعرف الفرنجة من خبره ماعرفوا . لقد جعل وجهه فى التراب كورقة الوردة فتسلم خازن الأرض جوهرة . كانت ادنى عطاياه تجعل من فقير وقير غنيا مليا ، هو كريم الكرام وعظيم الحكام . وعلى اعتابه كان الشعراء والعلماء يرقبون مناهم . لاتحسبنه ضاق ذرعا بحدثان هذا الفلك الخؤون ، لقد كان خروجه عن ملكه وزهده فى عزه ومجده تقربا منه لرب العالمين واختيارا لجواره) .

فباقى يصف سليمان القانونى بالعظمة فى سلمه وحربه ، بعد ذم الزمان على عادة الشعراء فى مراثيهم ، غير انه يلتفت الى نفسه فيعبر عن وجده به ، ثم يطلب الى الكون ان يشركه فى بثه واساه فيقول (كأن سحائب الربيع حزنت لموتك مثلى وامتنع قرارها فهامت فى الآفاق تذرى ادمعا لها ، فلتندبك اطيار السحر ، ولتنح عليك وتملأ الدنيا نواحا ، ولتشق ازهار الروض جيوبها الى جانب الهزار ذى الحنين والرنين ، وإذا ماتناوح الزهر فى مأتمك فليبك

ماشاء الله ان يبكى اما الجبال فلتنحدر دموعها على سفوحها. ايها القلب ، انت من يسعدنى وعلى بلواى يعيننى ، تعال نرفع من صوتنا ما يرفع الناى من صوته ، وليسر بثنائى نفوس المحزونين من امثالنا)

وباقى بعد ذلك يذكر ميتة السلطان ويصورها تصويرا شعريا عاطفيا جميلا بقوله (لقد تنفس الفجر وانصدع عمود الصبح فهل لسلطان السلاطين يقظة من رقدته او خروج كعادته من خيمته ، تلك الخيمة التى كان يزينها مازين قبة السماء ؟ لقد وقفنا وطال وقوفنا ، وامتد الى طريقه بصرنا ، غير انه ارتد حسيرا الينا ، فلم نشاهد له اثرا ولم نسمع عن موكبه العظيم خبرا . ويلاه ان هناك مثواه وقد يبست شفتاه وذبل خداه)

وإن الفرق لبين بين كمال باشا زاده فى رثائه للسلطان سليم وبين باقى ، فالأول يرثى السلطان رثاء رسميا تفرضه المناسبة فرضا أما الثانى فلا يغفل التحدث عن نفسه وتصوير وجدانه ، فكانت مرثية كاملة عامرة .

ولنا أن نعتبر تاريخ وفاة باقى ، فاتحة عهد يمتد قرنا من الزمان ويتميز تميزا واضحا بنفاق سوق الأدب الفارسى فيه ، فمما ينبغى الاشارة اليه ، ان شعراء الترك قبل هذا العهد كانوا يتناولون

المادة التركية بالطريقة الفارسية ، اما إبانئذ فاقبلوا اقبالا شديدا على التباهى بثقافتهم الفارسية العالية ، وانصرفوا عن التركيات الى الفارسيات ، فافعموا لغتهم التركية بكثير من الالفاظ الفارسية ، وكان من أثر ذلك ان تبرقشت عبارتها واشرقت ديباجتها ورقت حواشيها ، غير ان هذا الرواء لم يكن خيرا محضا ، لأن التركية أصبحت بذلك لغـة تستبهم على عقول السواد ، ولا يفهمها الا قوم من الخواص يكتبون وينظمون لأنفسهم دون سواهم ، فما كانت فارسية لا ولا تركية (١) وفى ذلك يقول شمس الدين سامى بك وهو عالم لغوى من أهل المدرسة الحديثة . (لقد اعتدنا على ادبنا المعاصر فإنه يلوح لنا طبعيا موافقا . ونحن إذا ما عمدنا إلى نص لويسى (٢) او نركسى (٣) ، او رسالة لفريدون (٤) ، ثم قرأنا

---

(١) Menzel, Die türkische Lfteratur, S. 289 , 290

(٢) هو ويسى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) . ولى القضاء سبع مرات وكان شاعرا كاتبا ، ونثره افضل من نظمه الا ان لغته التركية كثيرة الالفاظ والعبارات الفارسية والعربية فلا يفهمها من الترك الا اعلاهم ثقافة واوسعهم علما .

(٣) كاتب شاعر خطاط توفى سنة ١٠٤٤هـ(١٦٣٤م) . وشهرته بنثره اعظم من شهرته بشعره .

(٤) هو فريدون بك الشاعر الاديب الخطاط صاحب منشآت =

شيئا منْ ذلك على تركى لايحذق العربية ولا الفارسية ، أو سيدة اصابت من العلم حظا ، او فارسى يجيد لغته ، اوعربى واسع العلم بالعربية ، وجدنا انهم جميعا لا يفقهون شيئامما تلوناعليهم . ويؤخذ من هذا ان تلك الكتب لم تكتب بالتركية ولاالفارسية ولا العربية . ولقد درج الناس على القول بان لغة العثمانيين تتألف من ثلاث لغات ، هى العربية والفارسية والتركية)

هذا هو شعر ذلك العهد من حيث صورته ومبناه ، اما اذا عرضنا بالوصف لغرضه ومعناه ، فالذى يتبين لنا ، ان ركودا نسبيا طرأ عليه طوال ثلاثين السنة التى اعقبت موت السلطان سليمان ، فكان صدق العاطفة يعوز معظم الشعراء ، وان تمت اداتهم وحسن تعبيرهم ، كما سيطرت النزعة الدينية صوفية وغير صوفية على شعرهم اكثر من ذى قبل ، وظهرت عناية الشعراء بقصائدهم ظهورا واضحا حتى بلغت القصيدة غاية الاتقان لدى نفعى . ويعزى هذا الاقبال على نظم القصائد فى رأى جب الى ظهور عرفى الشيرازى فى ايران ، ذلك الشاعر الفارسى الذى نظم

= السلاطين ذلك الكتاب المعروف فى الادب التركى بصعوبة الاسلوب وزخرفة العبارة ، توفى سنة ٩٩١ هـ (١٥٨٣ م) .

القصائد الرنانة ، ونظر شعراء الترك الى شعره كمثال يحتذى ، فقفوا على آثاره [1] . اما المثنويات فزهد فيها ورغب عنها ، ولم تعالج نظمها الا الافلون على مر الزمان ، فامتنع شعراء الترك عن تقليد الفرس فى مثنوياتهم المطولة ، ويلحظ ان هذه المثنويات القليلة كان اغلبها اخلاقيا او تعليميا لاقصصيا . وفى عهد السلطان مراد الرابع نظم الشعراء مثنويا قصيرا يقال له ساقى نامه اى كتاب الساقى ، وقد اخذوا هذه المثنويات عن الفرس الذين كانوا يتغنون

---

(١) هو عرفى الشيرازى ، الذى استفاضت شهرته فى عهد الدولة الصفوية بايران ، وإن كان قد نال مجده الادبى فى الهند . رحل الى الهند فى شباب سنه على عادة كثير من شعراء الفرس فى ذلك الزمان واصبح من اصحاب المنزلة عند السلطان المغولى اكبر ، وله خمس منظومات قصصية عدا ديوان وتركيب بند ورسالة منثورة فى التصوف . وشعره كثير البديع براق اللفظ كشعر أولئك الفرس الذين رحلوا الى الهند واتخذوها دار اقامة . وهذا المذهب الشعرى معروف فى تاريخ الادب الفارسى بالمذهب الهندى ، والفرق ظاهر بينه وبين مذهب شعراء خراسان الذين يعنون بجودة المعنى أكثر من عنايتهم بزينة اللفظ . ومات عرفى الشيرازى بلاهور سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) .

فيها بالخمر والجمال والغرام رامزين الى معان صوفية (١)

واول من يستحق الذكر من الشعراء الذين عاشوا بعد عصر سليمان ، روحى البغدادى وهو شاعر مجيد له طابعه الخاص ، وشعره مرآة نفسه ، وان لم يحظ من عناية الباحثين المحدثين بحقه عليهم ، فما خصوه ببحث وكأنهم نسوه (٢) ولد روحى فى بغداد لأب تركى عثمانى رحل اليها فى حاشية اياس باشا الذى وليها من قبل السلطان سليمان القـــانونى . واظهر فى صدر شبابه ولوعا شديدا بالشعر والأدب ، فكان يذاكر الشعراء ويشاور الأدباء ، ثم اندمج فى زمرة الصوفية فتهافتت روحه على مذهبهم وتلا تلوهم فى كل مايصنعون ، وساح فى الأرض حتى بلغ استانبول ثم شد رحاله الى مدينة قونية لزيارة قبر جلال الدين الرومى . وبعد ان بلغ من ذلك أربه ، حج البيت وعاد ، ومات فى عودته بدمشق سنة ١٠١٤ هـ . (١٦٠٥ م .) .

ولم تؤثر بيئته البغدادية فى لغته ، فنظم باللهجة العثمانية لا الآذرية كما صنع فضولى ، وذلك معزو الى انحداره من اصل

---

(١) Gibb, A History of Ottoman Poetry V. iii, P. 165,166,167.

(٢) شهاب الدين سليمان ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ١٢٤ .

عثمانى وتطوافه بالبلاد تطوافا طويلا . وروحى كما يبدو فى شعره فارغ القلب من هموم العيش ، يقنع من دنياه بأقل قليلها ، ولا يأبه لسعادتها ولا لشقوتها ، فهى اهون عليه من ان يقيم وزنا لها وابتسامها وعبوسها عنده بمنزلة سواء ، لأنه لا يكلفها ضد طباعها . وهو فى هذا المعنى يقول (السعيد السعيد فى دنيا الى فناء ، من تساوى عنده الهناءة والشقاء)

فروحى يرتضى من الحياة ان تكون كما هى لا كما يريد لها ان تكون (١) ، وهذا استسلام يائس ولد فى نفسه التشاؤم والهزء والسخرية ، فهو يتهكم بكل راغب فى الدنيا بمثل قوله (انى لأرثى لحالك يامن جعلت الحرص والطمع رائدك ، فصنعت مايسمج فى القالة ويقبح فى الذكر ، من اجل حبة ما اهونها ! انت لا تقنع ابدا ياجائع العين ، الا يسد الخبز جوعتك حتى تصلح اساغته بلحم !)

وقد ترددت أصداء كثيرة لهذه النغمة فى قدر كبير من شعره ، فدعا الى الزهد ، وانحى باللائمة على كل من ناط املا بتلك الحياة فقال (تبكى بكاء بعد بكاء إذا ما انتزعوك من اهلك وولدك

---

(١) هذا يذكر بمذهب فلسفى حديث يسمى Pantagruélisme .

وذهبك ونشبك ! ولسوف تعلم قدر عالم فان قدمت اليه من العدم ، يوم رحيلك عنه . وإذا ما اتخذت لك ترسا من تبرك ولجينك ، فلا تحسبن انك مترس به من نبال الردى)

وان السخط ليملأ نفسه على كل شيء ، فاذا نفس عن صدره مايعتلج فيه ، تأفف وزفر واستولت عليه من الغضب نوبات عاصفات بخير الحياة وشرها فقال (أفا لشوك الدهر أفا ، ولزهره وروضه أفا . أفا للغريب وأفا للحبيب الجافى . العدم صحراء مقر اهل هذا الوجود فيها ، فأفا للقافلة وأفا لحاديها . امور العالم الى الادبار ، وامور الجاهل الى اقبال ، فأفا للادبار والاقبال على حد سواء . الا لعنة الله على الافلاك فى سعدها ونحسها ، وأفا وتفا للكواكب سيارها وثابتها !)

وروحى فى شعره لايغوص على اللفظ البراق ، ولكنه يورد الفاظه كيفما اتفق ، فلا تنبو كلمة عن موضعها ولا يفسد المعنى لاصلاح العبارة . وقد اخترنا كل هذه الابيات السالفة الذكر من (تركيب بند) يعتبر خير ماقال ، وشهرته فى الادب التركى مستفيضة لجودته ، واعجب به شعراء الترك كل الاعجاب فقلده ثلاثة من القدماء واثنان من المحدثين وهو يحوى مائة وسبعة وثلاثين بيتا تموج بمعان ليست من المعار ولا المكرور .

وفى كلياته كثير من المدائح قالها فى العظماء ، غير انها فاترة

إذا قيست بشعره فى الفنون الاخرى ، ومرد ذلك الى روحه الساخرة وعادته فى الغض من قدر كل شيء ، فضعفت رغبته فى المدح ، لضعف عقيدته فيمن يمدح . وكان الرجل مرتابا حتى فى مذهبه الصوفى فلم يتبع مذهبا بعينه ، بل ظل حائرا لايهتدى إلى ما تطمئن اليه نفسه ، وهو يبدو صوفيا ويتحدث بلسان صوفى فى منظومته المشهورة غير أنه فى الواقع ، إنما أراد أن يقبح الرياء واهله ، وينزع عن الخداع والخادعين المتسترين ، وليس صحيحا أنه كان مولويا أو بكتاشيا كما قال بعض أصحاب التذكرة [١] أما فى غزلياته فليس بالشاعر العظيم كباقى مثلا ، وانما هو صوفى له فكر وروح على حدة [٢] وله قصائد مبتكرة تشبه الرسائل ، يحن فيها إلى بغداد ويذكر خلانه بأسمائهم ، متحدثا عن كل منهم فى بيت شعر ، وقد اورد اسماء كثيرة هى نكرات إلا عند من يعرفها حق المعرفة ، وعلى كل فروحى يعرض علينا سجلا يمكن ان نعرف به كثيرا من صفوة القوم واعيان بغداد فى ذاك الزمان .

---

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان - يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ٣٢٠ و ٣٢١ .

(٢) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimata Kadar, S. 151.

ومن قوله فى إحدى هذه القصائد (تلك الفراريج أما زالت فى المجلس مغردة ! وكيف هذان البلبلان الصداحان أنس الحفل وبهجته ، ومعين الاسلام مفتى بغداد ، وارث علم النبي ونائب لقمان ما حاله ، ووسائل السرور ، أما زالت مقيدة كالعهد بها)

فمن مثل هذا الشعر الذى يظهر فيه صاحبه متبسطا طارحا للتكلف ، نعرف البيئة البغدادية ، وما اتصل بين أهلها من أسباب . وكل ذلك مما يجعل لروحى البغدادى طابعه الخاص فى الأدب التركى .

وبعد روحى الذى قفى على آثار الصوفية فى شعره يذكر خاقانى الذى مدح النبي صلى الله عليه وسلم بوصف شمائله الغر الحسان ، فكان لشعره عند الترك من القداسة ، شبه ما كان لشعر سليمان چلبى صاحب مولد النبي . وتسمى منظومته حلية خاقانى أو الحلية النبوية ، وهى فى واقع الأمر تعقيب وتعليق على كل ما عرف من أوصافه الشريفة ، فاذا ذكر أنه صلى الله عليه وسلم أزهر اللون . وصف ذلك خاقانى وتحدث عنه فى عدة أبيات ، وهذا صنيعه مع كل وصف حتى يفرغ من منظومته . وهى من أقسام متعددة تفصل بينها عناوين بالعربية كما تخللتها آيات قرآنية وأحاديث نبوية . وقد تبرك الترك بها فراجت أعظم

رواج بين طبقات الناس على اختلافها ، وهى قليلة القيمة الفنية ، غير أن معانيها المتساوقة فى ظاهر ألفاظها السهلة الواضحة التى لاتعزب كثيرا عن الفهوم . ومما يدل على اشتهار الشاعر بها ، وهم ذلك الخطاط الذى رقم اسمه على قبره ، فقد جرى قلمه بقوله (الفاتحة لروح حله خاقانى) وانما أراد أن يقول الفاتحة لروح حلية خاقانى ، فأطلق اسم المنظومة على صاحبها .

ولما فرغ خاقانى من نظمها سنة ١٠٠٧ هجرية (١٥٩٩ م) قدمها إلى الصدر الأعظم الذى أعجب بها الاعجاب كله ، ودفعها إلى الوزراء والعظماء ليطلعوا على روعتها ، وأراد أن يجزيه بها ، فأمر بقدومه إلى ديوانه . وقدم خاقانى إلى أنه لم يركب فرسه مراعاة لشروط التقاليد التى كانت تفرض ذلك فرضا على أمثاله من ضعاف الشأن ، ولما سئل عما يتمنى قال (لقد أطردت بى السن وبلغت من الكبر عتيا ، فلم تبق فى منة أقوى بها على المجىء من باب أدرنه إلى باب الباشا ، ومتمناى أن يسمح لى بركوب فرسى فى قدمتى وعودتى !)

وإذا لم يكن إلى ذلك سبيل ، منح الشاعر دارا على مقربة من مقر الحكومة ، فكانت بديلا من داره البعيدة فى طرف من أطراف استانبول . ونال خاقانى هذه المنحة العظيمة بعد أن كني

عنها، وتلطف فى إظهار حاجته اليها.

ومن قوله تحت عنوان (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون) ، لقد أجمعت جميع الأمم، على أن فخر العالم، كان أزهر اللون. فوجهه خالص البياض والنقاء، وخداه أبيضان فى صفاء. كان لون وجهه كلون الزهرة مائلا إلى الحمرة. وقد غشيه نور السرور، فكان سورة النور أو مطالع النور. انه مصحف الحسن هذا الوجه الجميل، والزغب فى خده نص التنزيل. لقد استحى ماء الحياة من شمسه فاستقر وراء الظلمات. وأصبح هذا الوجه الصبيح شمع المجلس فى حرم عليين. وأكمل زينته مصور الفكرة باسط الوجوه. وإذا ماعرق هذا السلطان، فياله من زهرة مطلولة فى البستان. وإذا سطع عطره الزكى، تنسمت المشام ريح العنبر والمسك الأذفر. وفى سيمائه الشريفة بدت نياته، كانت نورا مرآة وجه النبي لأظهار رضاه والغضب. ذلك الصريح النسب لم يسىء من أجل نفسه إلى أحد قط. وما تقلصت هاتان الشفتان الياقوتيتان غيظا من إنسان كائنا من كان)

فهذا كلام نفيس يهز القلوب فى أعماقها، وله طلاوة تترشفها النفوس المؤمنة، وحلاوة تلق الخشوع فى الأرواح وتهيم بها فى عوالم علوية. وقال خاقانى فى موضع آخر من حليته (ذلك أن

الملك القيوم مالك الملك السرمدى ، عالم سر الخفايا ، فما من ذرة فى هذه الدنيا ، إلا وله علم بها . قضت إرادته أن تخلق هذه الموجودات . وفى تلك البرهة بعينها ، ظهر العشق وبزغ نور ، فأحب الحق هـذا النور ، وقال النور حبيبى . وهام بطلعته كل الهيام ، وسخر له عالم الشهادة ، فجاء إلى الوجود بالعز بالاقبال ، وتردد فى الدنيا صيت أحمد ، واختلجت فى الحب الإلهى لوعة الوجد . ورنا الرب الغفور إلى هذا النـور ، فامتلـكته خجلة وتفصد عرقا ، واندفق هذا اللؤلؤ الرطب على عالم الأرواح ، فكان من كل قطرة نبى . ونظر الله إليـه كرة أخرى من فرط المحبة ، فغرق النور فى بحر من الحياء ، وأصبح وردة تساقطت عليها الأنداء . ثم رمقه الله بعين المهابة ، فذاب هذا الجوهر وكان بحرا . وسكبت سحابة لطفه البحار ، فظهر الموج والبخار . ثم خلقت الأرض من زبده ، والأفلاك من بخاره)

وقد تداول كثير من شعراء الترك هذه المعـانى الروحية السامية ، وجعلوها فاتحة لدواوينهم ، متقربين بها إلى الله ورسوله ، ومستلهمين الخير والبركات . وكانت وفاة خاقانى سنة ١٠١٥ هـ (١٦٠٧ م) .

والآن نـكف عن حديث الشعر والشعراء إلى حين ، لنتحدث

عن التاريخ والمؤرخين . ولقد يكون من المفيد أن نعرض بالبيان لكتابة التاريخ عند الترك مع إرادة الاجمال ، على ان نجعل من ذلك توطئة قبل الكلام عن سعد الدين وبجوى وهما مؤرخان من اهل هذا الزمان الذى نؤرخ نهضته العلمية و الادبية

فما لامجال للريب فيه ، ان العثمانيين يوم رحلوا عن ديارهم بقلب آسيا الى الاناضول ، كانت لهم اغان شعبية ، يتغنون فيها بمناقب اسلافهم ومآثر ساداتهم . ويقال ان شعراء العوام كانوا يترنمون بها وهم يوقعون على آلة موسيقية تسمى (قوبوز) . ويقال ان اجزاء من كتاب اوغوز مازالت الى اليوم فى اغانى الشعب بالاناضول . وهذا الكتاب باللهجة التركية الشرقية ، وهو يتضمن ذكر اوغوز جد الاتراك العثمانيين مع ذكر اولاده ووصف سلاحه وعتاده (١) .

أما أول مؤرخ عثمانى ، فيخشى فقيه صاحب (مناقب آل عثمان) الذى عاش إلى عام ١٤١٣ م . (٢)

ولنا أن نقسم مؤرخى الترك فريقين ، فمنهم (كتاب الوقائع)

---

(١) Babinger, Die Geschichtsschreiber der Osmanen (Leipzig 1927) S. 8,9

(٢) Ibid, S. 10.

وهم رجال رسميون ينوط بهم قصر السلطان هذه المهمة ، وغيرهم مؤرخون يتوفرون على كتابة التاريخ بصفتهم العلمية أو الشخصية لا الرسمية . وفى الحق ان هؤلاء المؤرخين الرسميين لا يعبرون عن وجهة نظرهم ، وكيف لهم بشىء من هذا وهم يرسفون فى صفاد الوظيفة ، أما غير الرسميين فمنطلقون من قيودهم منطلقون على سجيتهم [1] .

ويمكن أن نلحق بالمؤرخين الرسميين أصحاب شاهنامه ، ويسمى الواحد منهم (شاهنامجى) كما أسلفنا [2] وقد عرف هؤلاء المؤرخون أول ماعرفوا فى القرن الخامس عشر الميلادى ، يوم أنشأ السلطان محمد الفاتح هذا المنصب الأدبى ، الذى دام إلى القرن السابع عشر ثم ألغى حين استبدل به محمد الرابع منصبا آخر هو منصب (كتابة الوقائع) . ومما يذكر أن أصحاب الشاهنامه كانوا يعملون مع شرذمة من الكتاب والرسامين والمجلدين ، ليستعينوا بهم فى إخراج الشاهنامه أجمل إخراج . وكانت الشاهنامه منظومة من ألفها إلى يائها ثم أصبحت فيما بعد

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, S. 181.

(٢) انظر ص ٢٠٨

شعرا يتخلله النثر . ومن هؤلاء المؤرخين الشعراء فتح الله عارف المتوفى سنة ٩٦٩ هـ (١٥٦٢م) وهو رجل فارسى رحل إلى مصر مع أبيه فى فتاء سنه ثم عاد إلى وطنه إيران ، وقدر له أن يزور استانبول ، وفيها نال منصب (شاهنامجى) كان كاتبا حسن الترسل وشاعرا فى الفارسية والتركية فأجرى عليه السلطان سليمان القانونى راتبا يوميا . وقد سرد تاريخ العثمانيين فى شاهنامه من ثمانية آلاف بيت بالفارسية وأشاد بذكر السلطان سليم الأول على الخصوص وله ألفا بيت بالتركية تحدث فيها عن حروب الصدر الأعظم سليمان باشا فى الهند . وقد مات فتح الله عارف فى مصر . وخلفه فى منصبه أفلاطون شيروانى ، وهو تركمانى الأصل ، رحل إلى استانبول كسلفه فتح الله عارف ونظم للسلطان سليمان شاهنامه تسمى هنرنامه بمعنى كتاب الفضل . وتعتبر أجود ما جادت به القرائح فى هذا الفن . وقد صور أفلاطون فى منظومته حياة سليمان الخاصة أحسن تصوير ، كما تحدث عن حياته الرسمية فأحاط بكل شىء علما ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها حتى أحلام السلطان . ولهذه الشاهنامه نسخة بديعة التلوين والتصوير ، يمكن الوقوف من تهاويلها وشكولها على كثير من الحقائق التاريخية فى

ذلك العصر (١) غير أن السلطان غضب فى شىء فأمر بضرب عنقه سنة ٩٧٧ هـ (١٥٦٩ م).

هذه هى التواريخ المنظومة، ومما لا يتداخله الشك أن معظمها يتقلب فى المعنى الفسل لكثرة ما يتغشاه من ألوان البديع. كما أن كثيرا من أصحابها شعراء مغمورون لا ماء لشعرهم ولا رواء.

وإذا ما أرخينا النظر إلى التواريخ المنثورة، ألفينا أن للعثمانيين مؤرخين آدب واكتب من مؤرخى العرب (٢). ونذكر منهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ الذى أشرنا اليه فى مقدمة هذا الكتاب. وهو فارسى الأصل. وقد نزح أبواه إلى استانبول مع السلطان سليم الأول بعد موقعة چالديران التى انهزم فيها الشاه اسماعيل الصفوى، وأقبلت الدنيا على أبيه فأصبح خادما خاصا للسلطان سليم. ثم ولد له سعد الدين سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م). ولما شب سعد الدين عن الطوق طلب العلوم وبرز فيها واشتغل بتأديب الأمير مراد أيام كونه واليا بمغنسيا، فعرف بخوجه سعد الدين، أى سعد الدين المدرس. ولما اعتلى مراد العرش

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, S. 182.

(٢) Carra de Vaux, Les Penseurs de l'Islam, (Paris, 1923) V. i. P 228.

وأصبح مراد الثالث ، أكرم مؤدبه واستشاره فيما حزب من أموره . وأصبح سعدالدين شيخا للاسلام قبل موته بعامين ، فقد مات سنة ١٠٠٨ ﻫ (١٥٩٩ م) . والسلطان مرادالثالث هو آمره بتدوين كتاب تاج التواريخ ، ذلك الكتاب الذى ذهب لصاحبه به ذكر وبعد صيت ، والكتاب فى مجلدين ، وينتظم فصولا يخص كل منها سلطانا من السلاطين ، كما تحتوى خاتمته تراجم لعلماء وشعراء وكتاب ، عرفهم سعد الدين وعايشهم . وقد كتب تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها إلى عام وفاة السلطان سليم . ويعتبره الترك أول كتاب الوقائع الرسميين . وإذ كان سعد الدين صنيعة القصر السلطانى ، لم يقتدر على التعبير الصريح والرأى الحر كما أقر بذلك فى تاريخه(١) . وهذا المؤرخ يحبس عنايته على تزويق العبارة ، ويستعرض تمكنه من ناصية اللغة وتفقهه فى أساليبها . قال يصف فتح استانبول (ووضع الترك مدافعهم فى مواضعها . وبعضها على هيئة الثعابين ، والأخرى لها رءوس التنانين ، وتحصنوا فانعصموا ، وقام الانكشارية والعزب (٢) بما وكل اليهم أن يقوموا به ، فأطلقوا على البروج

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersler, S. 182

(٢) العزب اسم فرقة من البحارين فى الاسطول التركى

والقلاع مدافع تدق الحصون فتدكها، وتتابعت الضربات والطلقات، حتى تصدع البنيان وتخرقت الجدران كأنها قلب عاشق ولهان، ووسعوا الصدوع والشقوق توسيعا. أما النيران التي انبثقت من تلك الأجسام الحديدية والأفواه النارية فقد خطف سناها أبصار الكفار وملأت نفوسهم حيرة ورعبا، وارتفع الدخان فكفت العين عن الأبصار، ووقب الليل بعد ان امحت آية النهار، وأصبح وجه الدنيا كحظ هؤلاء الكفار، وكأنما السهام رسل تنطلق من قسيها لتقول في آذان العداة المبهوتين بأعلى صوتها: أينما تكونوا يدرككم الموت. وان قذائف المدافع والبنادق التي انهالت من جانب الكافرين الظالمين، قد اقتلعت من أبدان المجاهدين قلاعا من أسسها. فامتلأت ساحة الوغى من دماء الغزاة وأشلائهم بحمر الأزهار، واصطبغ وجه الأرض بالحمرة، وانتثرت المغافر والخوذ ههنا وههنا)

فهذا كلام يتعصى على الترجمة لكثرة السجع والازدواج فيه، وتلك المحسنات البديعية التي تستكره استكراها وتستهلك الغرض المقصود. ولسعد الدين مؤلف آخر يسمى سليم نامه، أي كتاب سليم وفيه تاريخ السلطان سليم الأول. وهو كتاب شعبي أكثر منه تاريخا بالمعنى الصحيح وشهرته لا تذكر إلى جانب تاج التواريخ

الذى قدره علماء الغرب حق قدر، فترجم إلى عدة لغات أوربية منها اللاتينية والفرنسية والانجليزية والإيطالية والروسية والمجرية، وقد أحصى بابنجر أسماء المترجمين وعناوين ما ترجموا، فليرجع من شاء إلى كتابه(١) الخاص بالمؤرخين العثمانيين ومؤلفاتهم لأن كتابنا هذا لا يتسع لذكرها برمتها.

أما پچوى فمؤرخ عرف بتحرى الصدق والدقة فى روايته، وتوخى السلاله فى كتابته، والتعبير عن وجهة نظره التى لا يشركه فيها غيره، فكان من خيرة المؤرخين فى ذلك الزمان (٢). ولد بمدينة (پچ) ببلاد المجر فى بداءة عهد السلطان مراد الثالث واليها نسبته. وعرف الأسى والحرمان فى ريق شبابه، فقدمات عنه أبوه وهو فى حدود الرابعة عشرة من عمره فكفله عمه، ولم تطل أيامه فلجأ إلى من يدعى لالا محمد باشا ليعيش فى كنفه وكان قائدا من القواد، فشاهد معه حروبا كثيرة شارك فى بعضها كما ساهم فى تدوين المذكرات وابرام المعاهدات بين المتحاربين لعلمه

---

(١) Babinger, Die Geschichtsschreiber der Osmanen, S. 126

(٢) كوبريلى زاده محمد فؤاد، شهاب الدين سليمان - يكى عثمانلى تاريخ أدبياتى ص ٣٢٨

بلغة المجر . ومات لالا محمد باشا ، فوجد بجوى ألوانا من الجهد والعناء . ورحل إلى الأناضول ، وفى تاريخه ذكر للمناصب التى شغلها . فكان (دفتردار)[1] فى أكثر من بلدة . وفى عام ١٠٥١ هـ (١٦٤١م) عاد إلى مدينة (بچ) وفيها دون تاريخه ، وقضى ماتبقى من أيام عمره ، ولا يعلم عام وفاته على التحديد ، وإن كان يظن أنه مضى سنة ١٠٦١ ميلادية .

وقد أظهر بجوى منذ حداثة سنه ميلا إلى دراسة التاريخ ، وتزايد ميله هذا على المدى . وتاريخه يتناول المدة المنحصرة بين سنة ٩٢٦ هـ (١٠٤٩ م) وسنة ١٥٢٠ هـ (١٦٣٩ م) . ويبدأ بعهد السلطان سليمان القانونى ثم ينتهى بموت مراد الرابع . وهو فى جزءين ، ومما يميزه قلة السجع وخلوه من تكلف الصنعة ، كما تشاهد فيه بعض ألفاظ مجرية . وقد ترجم قدر منه إلى الألمانية والمجرية (٢) .

* * *

ونطوى حديث التاريخ والمؤرخين لنعود إلى حديث الشعر

---

(١) أى صاحب الدفتر وكانت وظيفة يدير صاحبها الشئون المالية

(٢) Babinger, Die Geschichtsschreiber der Osmanen, S.295

والشعراء فنذكر الشاعر نفعى ذلك العبقرى الخبيث اللسان الذى قال شعرا سويا محكم النسج ، وكان بين الشعراء العثمانيين معجزة من معجزات الفطرة ، وصاحب قدرة ليس كمثلها كل قدرة (١) وقد تحدث عن نفسه بقوله (فيض طبعى فى عالم المعانى لمعان الشمس فى الضحى ، وان لفكرى عينا نيرة كأن عين الشمس سوادها !)

وقد قصد نفعى القصائد فكان فى طليعة المجيدين ، والإجماع على أنه أشعر من قال قصيدة من شعراء الترك . وله مدائح فى السلطان مراد الرابع والوزراء والعظماء ، وقد جره المدح إلى المبالغة فى الأحايين ، كقوله من قصيدة طويلة فى مراد الرابع (يامن غزوت ، فأبهجت النبي وجبريل على السواء والله أعلم بالرشاد . وقتلت ذلك الجبار ، فأبطلت طلسم الفتنة وحكمت بالكساد على سوق الفساد)

ووصف نفعى الخيل فأصاب صفاتها ، وجعل من حديثه عن كرائمها توطئة جميلة لبعض قصائده كما فى قوله (يا حسن هذا الفرس السلس الذى يرى العاشق مشيته فينسى مشية الحبيب ،

---

(١) أبو الضيا توفيق ـ نفعى (استانبول ١٨٨٧) ص ٥

لو كان غادة حسناء ، لطأطأ الناس الرءوس لحسنه والبهاء) .

غير أن نفعى إذا انصرف عن شعر المناسبات ، وتبسط فلم يعن كثيرا بالرصانة والجزالة واللفظ الرنان فشاعريته تتجلى فى أسهل لفظ وأرق معنى ، وفى هذا الصدد يقول أكرم بك ، ان مايعبر عنه بالسهل الممتنع هو أن تؤدى المعانى بطلاقة وحرية بعد أن تعرى الألفاظ من زينتها ، وهذا يلوح سهلا بادى الرأى ، وإن كان الاتيان بمثله عسير أو متعذر أحيانا [1] ثم يسوق مثلا لذلك من قول نفعى (يالرقتك يانسيم الريح ، إن القليل منك كثير وفيض عميم . السكون زهرة تفتحت لأنفاسك ، فوجه الأيام طلق بسيم . أمررت بالصين فى مسراك [2] ، أم أن نفسك يحوى نافجة للمسك ؟ لك نكهة مسكية خافقة بالشذا تضوعت الدنيا منها عبيرا . وما كان ذلك لولا مرك بطرة الحبيب . فكيف حال ذى القلب المستهام ، الا يحزنه هذا المشط ويثير فيه تباريح الأسى ؟) (٣)

---

(١) محمود اكرم بك - تعليم ادبيات (استانبول ١٢٩٩) ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) ينسب المسك الاذفر الى بلاد الصين فى الشعر الفارسى والتركى

(٣) لعله يريد ان المشط يثير الحسد والكمد فى نفس العاشق لانه ينعم بشعر الحبيب .

ولكن شاعرنا قبل كل هذا هجاء يذكر المثالب والمعايب، طعان فى الأعراض، عياب لاينظر الى الناس الا مستخفا، فهو حطيئة الترك لأنه اهجى شعرائهم. وقد هجا بأشد من وقع الأسنة، ولم يفلت من بذاءته وسفهه شريفا ولاوضيعا. بيد ان اديبا تركيا هو ابو الضيا توفيق درس هذا الشاعر حق الدراسة فى كتيب قيم فقال ان من سماه هزّالا لم يصب، لأن الهزل خفة تسيطر على مزاج الشخص فتجعله ميالا الى المزاح والهزل، وسواء فى ذلك قادر على النظم وغير قادر. والهجاء ليس من هذه الخفة فى شىء، ولكنه سلاح يقتدر به على دفع الطغاة والبغاة. وهو مذموم، الا انه شبيه بالسم فيه الشفاء والفناء. وقداضطر نفعى الى هجاء بعض العظماء فى زمانه لما ساء من أفعالهم وأقوالهم اما ذلك التهاجى بين الأدباء والشعراء فمن قبيل المداعبة ويسمى ملاعبة الشعراء (١)

ويجرى مجرى المداعبة ماوقع بين نفعى وبين شيخ الاسلام يحيى افندى. فقد قال فيه شيخ الاسلام بيتين وهما (واليوم اى الشعراء كنفعى شاعر؟ ان شعره المعلقات السبع، وامرؤ القيس نفسه كافر!)

---

(١) ابو الضيا توفيق - نفعى، ص ١٨ و ١٩.

فما كان من نفعي الا قوله (قال المفتى ان نفعي كافر ، واذ ماقلت انه من المسلمين ، فكلانا يوم القيامة من الكاذبين !)

ويروى ان من يدعى طاهر افندى شبهه بالكلب النباح [1] فقال ردا عليه (لقد قال عنى طاهر افندى انى كلب ، والالتفات فى هذا الكلام ظاهر ، فأنا على مذهب مالك ، والكلب عند المالكية طاهر !) فهذا هجاء غير بذىء وهو اشبه شىء باضاحيك الكلام . وكان نفعي يزدرى قدر الناس ويتهاون خطرهم ويتلمس الفرصة ليهزأ بهم ويسخر منهم ، فقد صادف ان انفذ اليه السلطان مراد الرابع كتابا ذات مرة مع خصى اسود ، ولما تسلمه ارخى اليه نظرة فاترة ولم يكترث لما جاء فيه ، واتفق ان كان الخصى يكتب شيئا فى صحيفة ، فسقطت عليها نقطة مداد من قلمه ، ولم ينتبه الخصى الى ذلك حتى رأى الشاعر يتقطع ضحكا فسأله مايضحكه ، وكان الجواب قول نفعي (ان عرق مولانا المبارك قد سقط على الصحيفة !)

وله مجموعة تسمى سهام القضاء ضمنها شعره فى الهجاء . ولهذه المجموعة من شعر نفعي قصة مع السلطان مراد الرابع

(٢) من عجائب المصادفات ان يقال فى العربية نبح الشاعر بمعنى هجا

يقصها علينا المؤرخ نعيما فيقول (في يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر ذى القعـــدة سنة ١٠٢٩ ، انهالت السماء بالمطر وقصف الرعد وخطف البرق ، فانخلعت القلوب رعبا من كثرة الصواعق . واعتكف السلطان مراد خان فى جوسق المغفور له السلطان احمد الأول ببشكطاش . وكان بين يديه مجموعة من شعر نفعى فى الهجـاء ، كما حضر بمجلسه امير چلبي رئيس الأطباء . وسقطت على مجلسه السلطانى صاعقة عظيمة تتطاير النيران منها ، فأصابت وجوه مدرسى الأندرون وكان هولا عظيما . ومزق السلطان مابين يديه من صحائف ، كما انحى على نفعى باللائمة ، ثم استغفر وتاب واناب وتصدق بمال جزيل . وفى ذلك قال أحد الظرفاء يبكت نفعى ويتهكم به (لقد هبطت من السماء نظائر لسهام القضاء ، فوجد نفعى بلاء الله من خبث لسانه) (١)

ويقال ان السلطان استدعاه واستتابه من الهجو ، فاغلظ الايمان على التوبة ، وان غلب عليه طبعه واعياه ان ينطلق من شنشنته فقال لمولاه هذا البيت (على عهد الله لاهجوت احـدا ابدا ، اما ان اذنت لى ، هجوت الحظ العاثر وحده)

---

(١) نعيما ـ تاريخ نعيما ، اوجنجى جلد ص ٤١

وقد جرت عليه مقذعاته مايكره ، لأنه بغض بغاضة واصبح موضع سخط عارفيه وغير عارفيه ، وقيل فيه بيتان من الشعر دارا فى عصره على كل لسان وهما (هذا الشاعر الهجاء المسمى نفعى ، قتله جائز فى المذاهب الاربعة كقتل الأفعى)

ورجل كنفعى لايمكن الا ان يكون شكسا غليظ الطبع شديد البأس ، وهذا واضح شديد الوضوح فى معظم غزلياته ، فشعره الغزلى ملىء بالمبالغات بين التعسف والتكلف ميت العاطفة . ولم يكن متصوفا ، لأنه لايحمل بين جنبيه قلب متصوف . وكيف يكون زاهدا متواضعا متسامحا من قال (ليعلم كل من خاصمنى فن القول بأن حملتى عليه شر وبلاء ، فشعرى رستم ذلك البطل الرامى عن قوسه (١) ، وكنانته سهام القضاء)

ولما هجا الصدر الأعظم بايرام باشا بعدان نسى العهد ووقع فى الحنث ، غضب عليه السلطان مراد الرابع وامر بقتله سنة ١٠٤١ ه (١٦٣٢ م) . ولما سيق للقتل وكان قتله فى مخزن للأخشاب قال له الجلاد متهكما (سر بنا يانفعى الى الغابة لتبرى

(١) رستم بطل من ابطال الفرس الاقدمين الذين اورد الفردوسى قصصهم فى شاهنامه .

من خشبها سهاما !) فزجره الشاعر بقوله (اخسأ ايها التركى[1] انجز عملك ولا تبسط فى لسانك)

والمؤرخون يستنكرون هذا من مراد الرابع ، ويقولون ان السلطان كان ينفس على نفعى شاعريته واجادته ، وكان شاعرا مثله ، فأوعز اليه ان يهجو الصدر الاعظم ، وافترص ذلك ليتخلص منه بالقتل .

. . .

وبذكر نفعى يذكر شاعر عاصره وهو شيخ الاسلام يحيى افندى . وقبل ان ندير الكلام على شيخ الاسلام ، يحسن بنا الوقوف عند اسمه حين يقترن باسم نفعى ، لأن فى ذلك تبصرة لنا بمذهبين فنيين ، او تعريفا بمدرستين ادبيتين كانت رئاستهما لهذين الشاعرين . فنفعى شيخ مدرسة ادبية ، شعر أتباعها ادنى شبها الى شعر الفرس ، لأنه يتقلب فى المعانى الفارسية ويحتفل بالألفاظ والتراكيب الفارسية . اما يحيى افندى ومن تلا تلوه من الشعراء ، فكانوا واقعيين اكثر منهم خياليين ، وموضوعيتهم اوضح من ذاتيتهم ، يصفون مايقع تحت الحس ومايهيم فى الخيال

---

(١) اذا قال عثمانى لعثمانى ياتركى ، فكانما قال له ايها الغبى الرقيع

جميعا ، ولا يقتصرون على ترديد ماتردد فى مسامعهم . ولم يقدر البقاء الطويل لمدرسة التصنع التى رأسها نفعى، امامدرسة الواقع والفطرة فدامت واطردت بها الايام حتى مستهل عصر التحول فى الشعر التركى (١) .

ونعود الى يحيي افندى فنقول انه كان فى مؤتنف الصبا يزاحم ليله بنهاره فى تحصيل العلوم والفنون حتى رسخت قدمه فى علوم الشرع وفنون الأدب . ثم انخرط فى سلك العلماء وأصبح قاضى عسكر الروم ايلى وشيخ الاسلام ، وقد شغل هذا المنصب الرفيع مدة مديدة تبلغ عشرين عاما . وكان عظيم المنزلة عند السلطان مراد الرابع الذى صحبه فى حروبه ليأنس به ويعمل بمشورته، كما كان رفيق النفس رقيق الطبع لايرى الا متهلل الوجه . وقد عرفت عنه صلابته فى الحق وتجافيه عن الباطل ، ومثال ذلك مايحكى عنه ايام كونه قاضى عسكر الروم ايلى ، فيقال ان يحيي كان من المجتمعين بالصدر الأعظم درويش باشافى الديوان ذات يوم ، واصدر الباشا امره بقتل رجل . ولما سأله يحيي افندى عن موجب الحكم بالقتل ، اجاب بقوله (هذا مالايعنيك) ، فنهض

Gibb, A History of Ottoman Poetry, V. iii P246,247(١)

وتولى مغضبا . وكان احمد الاول سلطان هذا الوقت ، فمر هذا الخبر بسمعه ، واستجوب يحيى افندى الذى قال له (تلك هى الأمانة ، لقد نصبنا السلطان قضاة عسكر للاستماع الى الدعاوى واحقاق الحق وحماية المظلوم ، ولم يكن فى ذلك اليوم موجب شرعى للقتل ، ولم ييسر لى ان احكم وادلى برأيى ، فلم اجد عن الاستقالة محيدا) وتسبب عن موقف يحيى افنـــدى قتل درويش باشا .

ولئن نسب الى نفعى فضل الاجادة فى القصـيدة ، لقد بلغ الغزل غاية الحسن بفضل يحيى افندى . وفى الحق ان اثر الصنعة يتوضح فى غزليات باقى فهو متصنع ، اما يحيى افندى فيسيطر طبعه المداد على غزلياته (١)

وقد ركب مركبا وعرا لجرأته فى التعبير عن رأيه ، ورغبته فى ان يكون شعره لسان صدق ، فنطق بكلام رمزى صوفى يغضب المؤمنين معناه القريب ، وان قصد منه معناه البعيد . ويروى ان احد الوعاظ انشد فى المسجد بيتا له ذات يوم ، وكان السابق الى الفهم من معنى البيت ، ان من فى المسجد اهل رياء ،

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimata Kadar, S, 235.

ما احلاس الحانة فأهل صفاء . ثم قرر ان صاحب هذا الكلام من الكافرين وان تصدر للفتيا .

ولما خرج مراد الرابع الى بغداد محاربا ، وتلبث جيشه ببعض الطريق ، وجد مس الحاجة الى الراحة ، فدخل بستانا فى ثلة من اتباعه ويحي افندى يرافقه ، وطاب مجلس الانس فى مساء عذب النسمات ، فجاشت بالشعر نفس السلطان وكان شاعرا طيع البديهة ، وعمد الى نافذة من نوافذ جوسق هناك فكتب عليها هذين البيتين (هذا المتنزه روضة من رياض الجنات ، من دخله حي وان كان من الاموات . ولما انتهى مرادى [1] عن فتح ايران وعاج به ، نعم عيشه وترشف من كوثره خمرة لذة للشاربين)

وطلب السلطان الى يحي افندى ان يقول شعرا فى هذا المعنى فقال (ياطيب هذا المكان ، انه ليحي النفوس حبورا وصفاء ، لو طعم الطائر من نباته لأصبح ببغاء ناصعة البيان . أما اذاقلت انه روضة من رياض الجنة لانقطاع نظيره فى الحسن ، فان الجنة لتحسده على زيارة السلطان له . وقال السلطان العدل فى

---

(١) مرادى هو مخلص السلطان مراد الرابع .

شعره ان ماءه كوثر ، فما اطيب الماء وما اعذب الشعر . واذا مادعوت له رب العالمين ، فليقل اهل الارض وملائكة السماء معي آمين آمين)

ولاشك ان يحيى افندى لم يطرق فنا لاعهد لشعراء الترك به ، كما انه لم يبتدع فى غزلياته شيئا ، ويقرر معلم ناجى ان شعره لايسلم من التراكيب القديمة والضرورات الشعرية، غير انه برىء من الاسفاف ، لايقلد شاعرا ، ويقلده كثير من الشعراء . وهذا غزل له نسوقه مثالا (انسان عينى ران الى عذار حبيبى ، فعينى من تلك الكوة ترمق روض زهر [1] . ولقد يحين وقت ترفع فيه النرجسة كأسها الذهبية وتشاهد الربيع فى الروض الأريض. القلب فلك ينتظر منك نسيم لطفك ، بعد ان لبث طويلا على ساحل المحنة ، ورأى هوج الرياح تلعب به كل ملعب ياحبيبي ، هو ذا الياسمين قد تسلق الجدران ، لما سمع بمجيئك الى البستان ، فبه شوق الى طلعتك ورؤيتك فى مشيتك . يايحيى ، انما الرجل حق الرجل من لا ينظر الى قدر وان علا ، ولا الى جاه وان سما)

---

(۱) المراد بالعين فى الشطر الثانى انسان العين المذكور فى الصدر الاول ، وكأن العين كوة ينظر منها الى عذار الحبيب

فمثل هذا الغزل يشهد ليحي افندى بأنه على الحظ الأوفى من الشاعرية ، كما ان فيه تلويحا الى سمو رتبته وعزة جانبه . غير ان شأنه هان بعض الهوان فى أوائل عهد السلطان ابراهيم الأول ذلك السلطان الذى سيطر على نفسه وملك زمامه ساحر يقال له جنجى خوجه (١) ، فمشى بالنميمة بينه وبين شيخ الاسلام، وتعاظمه هذا من السلطان وهو الذى قضى عمره الطويل معززا مكرما ، فاخذه مر الأسى واعتل ومات فى الثالثة والتسعين من عمره وكانت وفاته سنة ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣ م) .

* * *

ومن الشعراء الذين عاشوا فى عهد مراد الرابع وابراهيم الأول ، شاعر لم يحظ من عناية المؤرخين الا بقدر ضئيل على

---

(١) هو حسين افندى الملقب بجنجى خوجه ، وجنجى فى التركية بمعنى الساحر او مستخدم الجن . كان دجالا يدعى القدرة على شفاء المرضى بالتعاويذ والتمائم فقربه السلطان ابراهيم الأول وركن اليه وسمت رتبته فاصبح قاضى عسكر . وكان رجل سوء يكيد ويدس وتسبب فى قتل الصدر الاعظم قره مصطفى باشا كما كان خسيسا فاخذ الرشوة وأثرى وابتنى لنفسه قصرا . وساءت عاقبته فسجن وصودر ماله ثم قتل سنة ١٠٥٨ هـ .

ما لدراسته من الأهمية ، لأنه أنشد شعره فى مستهل عصر تحول ادبى كان الشعراء قبله يلزمون انفسهم طرق المعانى الصوفية ، ثم تحرروا من هذا التصوف بعض التحرر ليصفوا انفسهم وما يختلج فيها ، وتحدثوا عما يقع تحت حسهم بعد ان كانوا يهيمون فى كل واد من اودية الخيال والاحلام . هذا الشاعر هو فهيم الذى وفد على مصر مع واليها ايوب باشا يوم زايل استانبول لتسلم ازمة الحكم فيها فلم يفته ان يصحب نديمه الشاعر .

ولم يكن فهيم صاحب حرفة وانما كان يعيش فى كنف العظماء مستدرا رزقه من فيض خاطره . ولم تذكر مصر فى شعر شاعر تركى قبله بهذا التفصيل الذى ذكرت به فى شعره ، فقد كان لبعض من شعراء الترك وفادات على مصر قبل الفتح العثمانى وبعده . غير انهم لم يذكروها فى شعرهم الا ذكرا عابرا وقلما تجاوزوا الاشارة الى العبارة [1] . اما فهيم ، فقد مدح ايوب باشا بقصيدة طويلة استهلها بوصف النيل ومنها (انظر بعين العبرة الى حسن ماصنع الرحمن ، لقد جاش هذا النيل وفاض فكأنه من تخالجه شوق اللقاء . حمدا لله لقد سقطت على المقياس

---

(١) انظر كتابنا من ادب الفرس والترك ص ٢٤٧

نقطة من قلم القدرة ، فكأنها انسان عين غمرها دمع الحنين. ونال من الوصال ماينال العاشق الولهان ، وارتسمت موجاته حلقات حلقات ، ولسان حاله يقول : انا من جن حبا ، وتلك اغلالى واصفادى . ومادام فى قلب النيل للهوى خفقات ، فأى عجب ان ينطلق الى البرارى والصحارى شأن محب ذهب عقله ؟

وإن تكن له هيئة من به جنة ، فان لقلبه صفاء مرآة ينعكس فيها الوجد والوجدان . لقد طغى النيل وفاض كأنه الطوفان ، وهاهى ذى امواجه ترتكض ، ويلوح عليها انها على اسنمة نياق تمضى بها ، وانسابت الحيات العظيمات من ركن خفى الهى وهى تلتوى وتلتوى ، حتى انسلت الى منعطفات المزارع ومجت لعابها . ما اعظمها حكمة واعجبها معجزة ، فان لهذه الحيات لعابا يحيى الأرض بعد موتها . لقد انكشف السر الذى يخرج الحى من الميت ، فتأمل ماء الحياة منبجسا منها . وبدت فى وسط النيل نخلات ما اشبههن بسرب من الحسان يتردن ، وقد ثارت رءوسهن وتفرقت شعورهن . وما رأى الزراع للنيل تيارا حتى نثروا الحب ، فنصبوا بذلك الحب شبا كا لطير الرزق . ولما فاض وكثر ماؤه ، طفح وعاؤه ، فخرج عن طوره وثارت ثائرته وبسط فى البحر لسان القدح ، فهذا شعر يعجبنى لأنه من البلاغة

فى منزلة عالية ، وهو تصوير جميل للنيل زمن الفيضان يتحلى من خيال الشاعر بأحاسن التشبيه . فما اجمل النيل اخا شوق وتبريح يرتجى وصل الحبيب ، والعجب للزراع ينصبون شباكهم لاصطياد طائر الرزق . وفوهم يخرج من وصف النيل ليدخل على مدح ايوب باشا ، غير ان النيل يملك عليه نفسه فسرعان مايعود الى وصفه والتحدث عن الاحتفال بوفائه فيقول (ومضى باليمن والاقبال فشرفت بمقدمه مصر العليا وعز القصر والايوان . وتحلى النيل بالزخارف والزين ، فكأنما تزينت زليخا للقاء بدر كنعان هذا المستوى على عرشه . وأصبح النيل عروسا تمشط المواشط شعرها ، وما أشبه القوارب على صفحته بامشاط والمجاذيف اسنانها . وبدت عروسان فى الوشى كما يبدو ذيل الطاوس ، فهما حوريتان من حور الجنة تتخطران وتنظران ، لتخبرا رضوان بأن فى الدنيا مايشبه الجنان!)

ولاشك فى ان شاعرنا وصاف موفق فى رسم الصورة الشعرية . ويبدو أن هذا الشاعر شديد التأثر بالنيل لأنه كثير الذكر للأمواج والبحار فى شعره .

ولم يشر مؤرخو الادب التركى من اتراك واوربيين الى هذه القصيدة ، إلا باصماجيان الذى قال انها معروفة مشهورة(١)

---

(١) Basmadjian, Essai sur L'Histoire de la Littérature Ottomane P.125.

ومرد ذلك فى الغالب الى انهم لم يطلعوا على ديوان فهيم ، وبمكتبة جامعة فؤاد الاول بالقاهرة مخطوطة منه (١) .

وقد ساءت فى مصر حال فهيم ، لأن جفوة وقعت بينه وبين الوالى فانقطع بينهما كل سبب ، وتعاقبت عليه الايام بالنحوس بعد السعود . غير ان المؤرخين لايذكرون باعثا اثار الشر بين الباشا وشاعره . وسخط فهيم على مصر واهلها ، ويتجلى هذا السخط من شعره فى مظهر وضاح ، فهو الذى يقول برما مغضبا (على عهد الله لادخلت بعد اليوم من باب لمصر ولو قيل لى انه باب الجنة . ولا شربت لها ماء وان امرنى الخضر بأن اشرب منه ماء الحياة ! ولو جعلت شمسا ما اخترت البزوغ فى افقها ، ولو كنت بدرا ما استمددت النور من شمسها . ان اليأس يخرس البلابل فى رياضها ، وللغربان نعيق يرن صداه فى طلولها . لقد رأيت كثيرا غير انى لم أر فيها رجالا ، وماذاك الا لأن عينى غائمة من خمار خطوبها ، وعلى بصرى غشاوة من ترابها . من دخل النار وصف لأهلها ماتخلع قلوبهم رعبا من عذابها . فلأداوم على أكل الخشخاش حتى تأخذنى سنة ولا افيق من غفلتى عنها !)

---

(١) ديوان فهيم ، مخطوطة رقم ١٤٨٨ ترك .

غير ان ظنه السيء بها وبأهلها لم يصدق ، فلما عقد النية على الرحيل عنها اعوزه المال ، فلاذ برجل سمح كريم يقال له معالى بك ، وانتجع سخاءه بالمدح ، فاجزل صلته ثم الحقه بتلك القافلة التى كانت تحمل الخراج فى كل عام من مصر الى استانبول . وقفل فيهم مع القافلة الى وطنه ، بيد انه اصيب بالطاعون فى احدى مدن الاناضول ، فمات غريبا فيها كما عاش غريبا فى مصر . وكان ذلك سنة ١٠٥٤ هـ (١٦٤٥ م .) ومن غزلياته الجميلة قوله فى غلام مولوى راقص (آه منك ايها المولوى الصبيح آه ، فان لعينك الوطفاء من اهدابها خناجر تسفك دمى . ايها الكافر القاسى ، ما كنت اعلم قبل رؤية ذؤابتك الفاتنة ان المنطقة فى وسط المولوى كالزنار عند المجوسى ، واذا ما حركت ذراعيك ، واختلبت القلوب بنظراتك فى رقصاتك ، ففى صميم روحى أسنة من لفتاتك) .

. . .

وكان نابى شاعرا مرموق المكانة عند الترك يضربون المثل ببلاغته ولسنه ، فاذا وصفوا متكلما بذلاقة اللسان والتناهى فى الفصاحة قالوا انه مثل نابى . كان متصرفا فى فنون الشعر الى تمرسه بكثير من فروع الادب ، وهو صاحب ديوان كبير من

الشعر، كما ان له فى النثر رسائل وتاريخا ورحلة وسيرة . ولذكره اهمية فى تاريخ الأدب التركى ، لأنه آخر شاعر من شعراء الترك المتأثرين بشعراء الفرس. ولد فى الرها وقدم استانبول فى زمان السلطان محمد الرابع ، ثم انعقد الود بينه وبين قائد يدعى مصطفى باشا فلزمه واختص به ، ورافقه فى حرب الموره . وبعد موت مصطفى باشا حج نابى البيت ، واتخذ من حلب مستقرا فى عودته وسمت منزلته عند واليها بلطجى محمد باشا الذى اكرمه اعظم اكرام ، فلما انتقل الى استانبول لرئاسة الوزارة ، انتقل نابى معه ليشغل منصبا كبيرا . وعمر طويلا ثم مات سنة ١١٢٤ ﻫ (١٧١٢ م).

وشهرة نابى فى الادب التركى المع من حقيقته، فليس لشعره من الجودة ما لشعر الفحول امثال باقى ونفعى . ويمكن وصف هذا الشاعر فى بعض المواضع بجمود الحس وصمم الشعور . قال ضيا باشا فى خرابات (لقد تعمل نابى وتكلف ،فكأنه تحكم فى الطبيعة واستكره الواقع ، غير ان شعره يخلو خلوا تاما من التعقيد والركاكة ، ويثير كامن الشعور)

وقد انبرى له نامق كمال بك برد منيف فى كتابه تخريب خرابات فقال (لاينكر احد ان لنابى غزليات جميلة ، وابياتا

كثيرة غاية فى الجودة ، ولو قرأت ديوانه من فاتحته الى خاتمته لما قلت ان شعره يخلو خلوا تاما من التعقيد والركاكة) (١)

ويقول آكاه سرى وهو آخر دارس لهذا الشاعر (لا يعتبر الخيال ولا الحس من العناصر القوية فى شعر نابى وان تميز الى جانب هذا بالفكر الخصاب . واذا ما أمعنا النظر ، رأينا ان افكاره لاتنسجم الا فلسفيا ، وما تحدث شاعر من اهل زمانه كما تحدث عن الله والكائنات والقضاء والقدر والرضا والتوكل والقناعة والاخبات وما أشبه)(٢)

اما جب فيرى ان تصرفه فى كثير من فنون الشعر قد ضره ولو ركز جهده وشاعريته فى فن واحد ، لقدر له ان يسمو الى مرتبة الفحول ، وان اضعف ذلك من شهرته بالبلاغة عند سواد الناس (٣)

ونرد على جب بأن نابى هام فى كل واد ، غير انه اجاد فى

---

(١) نامق كمال بك ، تخريب خـــرابات . ص ٧٩ و ٨٠ (قسطنطينيه ١٣٠٤)

(٢) Agah Sirri, Nabi'nin Surnamesi, S. 17 (Istanbul 1944)

(٣) Gibb, AHistory of Ottoman Poetry, V.3. P.327

فن خاص من الشعر هو الشعر التعليمى ، فهو صاحب (خيريه) تلك المنظومة التى اهداها الى ولده ابى الخير ، واجتمعت الاراء على انها اروع ماقرض من شعر . وهى من الأهمية التاريخية والأدبية بمكان عظيم ، لأنها مرآة صافية تظهر فيها أخلاق القوم وعاداتهم وكل مابينهم من اسباب . فنقف منها على الفضائل والرذائل عند الجماعة ، ونميز الخير من الشر فى الأعمال والأقوال لدى الترك فى القرن السابع عشر . وهذا ماجعلها من تلك المنظومات التركية القليلة التى ترجمت الى لغة اوربية ، فترجمها دوكورتاى الى الفرنسية سنة ١٨٥٧ (١) . نظم نابى هذا المثنوى ايام مقامه بحلب كما يقول فى المقدمة ، واهداه الى ولده ولما يبلغ التاسعة من عمره . وهو فى هذه المنظومة سهل العبارة لايحتفل بالمحسنات البديعية كدأبه فى منظوماته الأخرى ، واى حاجة به الى ذلك وهو لايطرق معنى شعريا يتطلب لفظا طليا ، وانما يبذل نصحا ويسوق حكمة ويهدى الى سواء السبيل . والمنظومة فى عدة ابواب للترغيب والترهيب . فمن دعوة الى الاحسان والصبر والسخاء ، الى زجر عن المزاح والبخل والرياء . وقد

---

(١) Pavet de Courteille

أوصى نابى ولده بتعلم الطب والنظر فى الأدب وحسن له أن يقرأ شعر باقى و نفعى . كما ارشده الى المهنة التى تصلح له بعد ان بصره بعلات المهن الاخرى . فحذره من ان يكون باشا او واليا ، لأن هذا المنصب العظيم يتطلب من صاحبه ان يكون من الظالمين والا حبطت أعماله وسقط شأنه . وزهده فى المناصب الشرعية فمن رجال الشرع من خبثت دخلتهم ، ثم حبب اليه ان يكون من كتاب الديوان . كما قبح عليه ان يشتغل بالسحر والنجامة ، ويجرد صدرا كبيرا من الوقت للعب النرد والشطرنج ومن عجب أن ينصح ولده بالتسرى ويحبب إليه الجورجيات خاصة . أما الزوجة الشرعية فعيبها عنده كثرة نفقاتها . وأن الفصل المعنون بمتاعب الباشوية يحوى قطعة تمدنا بقدر كاف من المعلومات عن الحياة فى ذاك الزمان [1] ومنها قوله (اياك والالحاح فى طلب المنصب والجاه ، وحذار ثم حذار من الذلة فى سبيل العزة . فاهل المناصب فى تعب ونصب ، وقصارى مناهم ألا يعزلوا . ان عزة السمو الى المنصب لا تفى بذلة العزل منه . ومن للواصل اليه باغتصاب كل ما انفق للحصول عليه . لا تتجول

(1) شهاب الدين سليمان ـ تاريخ ادبيات عثمانيه ص ١٧٥ .

فى البلاد من أجل الولاية ، ولا تدخل نفسك النار بالطبل والمزمار . لاتطرب لطنطنة الطبول ، فانها أحسن ماتكون وهى على مبعدة منك . الباشوية محنة تبقى بقاء العمر ، ولا حاصل منها إلا الألم والهموم والغموم . فقد يبلغ النجم اسم صاحبها ، ويعلو جاهه العظيم غير أن مصيره الجحيم . ان ظلم هدم الدين ، وإن لم يظلم فليس له من الأمور تمكين . وإذا ما دامت على ذلك حاله ، فلا خير فى ولاية مصر ولا بغداد مع هذا البلاء ، وهو يفنى العمر فى ضجيج وعجيج ولا نصيب له إلا الأسى والشقاء !)

فنى هذه الأبيات يتهكم نابى بالعظماء والولاة ، ويشير إلى هؤلاء الذين يبذلون المال الكثير فى سبيل الحصول على المنصب العظيم، فاذا نالوا مبتغاهم أكلوا السحت ليجمعوا ما قد أنفقوا . ثم يسخر من طبول الولاية ومزاميرها وكل مظاهر عظمتها . ويقرر أن الوالى لابد أن يكون من الظالمين والظالمون فى النار .

وقد أظهر فى شعره ولوعا شديدا بالحكم والمواعظ ومثال ذلك قوله (لا يستقر لهذه الدنيا أمرها ، ولا تصلح أحوالها من غير هياج وارتطام أمواج . فماء البحر إذا سكن ، أصابه الأسن) .

وأخذ الشعراء بأخذه من بعده ، فتضمنت أشعارهم كثيرا

من الحكم والأمثال . ولنابى مثنوى آخر يسمى خير آباد بمعنى موضع الخير ، وهو يسميه باسم ولده أبى الخير كما صنع فى المثنوى المعروف بخيريه . وهذا المثنوى قصة فارسية أخذها عن الشاعر الفارسى فريد الدين العطار (١) وهو فيه معنى بالمحسنات اللفظية وإيراد التراكيب الفارسية ولم يوفق فى هذه المنظومة كما وفق فى خيريه ، ولا يخلو هذا من دلالة على أن أدب المعنى خير من أدب اللفظ . وقد عثر آكاه سرى آخرا لنابى على سورنامه بمعنى كتاب الاحتفال بين مخطوطات جامعة استانبول ، وطبعه سنة ١٩٤٤ ، وقد أضاف بذلك جديدا إلى العلم ، فلا ذكر لهذا المؤلف فى كتب الأدب التركى (٢) وقد نظم نابى هذه المنظومة سنة ١٠٨٦ ﻫ (١٦٧٥ م .) ليصف فيها تلك الاحتفالات العظيمة التى أقامها السلطان مراد الثالث بمدينة أدرنه يوم ختن ولده . وهى تتألف

---

(١) هو الشاعر الايرانى الصوفى فريد الدين العطار وله مثنوى يسمى منطق الطير ، ومنظومتان تعرف الأولى بالهينامه والأخرى بجوهرنامه عدا ديوان القصائد والغزليات ، وكتاب منثور يسمى تذكرة الأولياء . ومات العطار سنة ٦٢٧ ﻫ (١٢٣٠ م) .

(٢) Agah Sirri, Nabi'nin Surnamesi, S. 5 (Istanbul, 1944)

من خمسمائة وسبعة وثمانين بيتا . مدح بها السلطان وصور فيها كل ما رأى وسمع فى تلك الحفلات التى أقيمت خمسة عشر يوما تباعا وكانت مضرب الأمثال فى بهائها ورونقها . ومن قوله (مامن وال ولا حاكم ولا وزير ولا أمير ، إلا دعى إلى هذا الحفل البهيج . وفيه اجتمع شملهم وانتظم جمعهم . ولقد ذهب ذكر هذا الحفل فى البلاد ، ففرح له كل فؤاد . ونالت به أدرنه من الرفعة وسمو الشان ، ما حسدتها عليه جميع البلدان . فكم مقعد مطرز بالذهب ومسند مزركش عجب ! واحتفل المكان بالحضور فكان الهناء والسرور) .

أما منثورات نابى فتحفة الحرمين وهى وصف لرحلة إلى الأقطار الحجازية ، وذيل سيرة ويسى ، وهو تتمة لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، لويسى وتاريخ قمانچه التى استولى عليها الصدر الأعظم كوپريلى زاده حمد باشا سنة ١٠٨٣ هـ . ثم المنشآت وهى رسائله التى جمعها بعد موته صديقه حبشى زادة عبدالرحيم بك .

° ° °

ولقد دب فى الدولة دبيب الضعف وبدت عوامل الفساد والفوضى منذ عهد السلطان مراد الثالث ، ولا يتسع هذا المقام لبسط القول فى ذلك ، وكافينا أن نورد بعضا من قول سفير

انجليزى وهو يتحدث عن الدولة العثمانية سنة ١٦٢٧ . قال (لن يكتب لهذه الدولة طويل دوام ، والله على كل شىء قدير ، غير أنها فى نظر المرء مشفية على نهايتها المحتومة) (١) . أما وجه الاشارة إلى ذلك . فظهور كاتب تركى يدعى قوچى بك برسالة يتناول بالنقد فيها سياسة الدولة . ويعرض لأسباب النهضة والسقوط شارحا مؤرخا ، فهو كاتب سياسى اجتماعى بالمعنى الأخص. وإذا اعتبرنا سنان باشا رائد النثر التركى ، فقوچى بك يتلوه فى الفضل والمنزلة (٢) . وان رأى فيه آكاه سرى رأيا غير هذا فقال انه ليس بشاعر من أصحاب الدواوين ، ولا كاتب شهر بالانشاء فى زمانه (٣) . ويرجع هذا الخلاف فى نظرى إلى أن الأول يرى فيه رأيه الخاص ، أما الثانى فيطلعنا على رأى الغير فيه . وليس قوچى بك بكاتب حسن الترسل منمق العبارة ليعجب معاصريه وهم يطربون للسجع والازدواج وطنين اللفظ الاجوف

---

(١) Von Sax, Geschichte des Machtverfalls der Türkei (Wien 1913). S. 60

(٢) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane, P. 6.

(٣) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimata Kadar, S. 569

فنثره من السهل الممتنع والمعنى فيه على قدر اللفظ ، وقد حاز الاعجاب من بعد . كما عرف علماء الغرب لرسالته قدرها . فترجمت إلى الألمانية والمجرية والروسية (١) وشبه بمونتسكيو كاتب الفرنسيين .

وقوچى بك من أصل ألبانى ، قدم استانبول وهو حدث فتربى فى قصر السلطان وتأدب ، ثم لحق بخدمة السلطان أحمد الأول ومصطفى الأول وعثمان الثانى ومراد الرابع . وقد حظى عند مراد الرابع فاستمع من نصحه وعمل بمشورته ولم يفارقه فى سفر ولا حضر ، وقدم اليه رسالته فى أسباب تدهور الدولة ، وهى تخلو من الملق خلوا تاما ، وان ذلك لواضح الدلالة على اتصال الود بينهما وارتفاع الكلفة . ومن قوله فيها (ليس بخاف على الملك السعيد العادل المجيد ، وهو الحازم التفكير ذو العقل المنير ، أن الديوان السلطانى كان مصدر العدالة ، وأن أجداده الأمجاد قبل السلطان سليمان القانونى ، كانوا لا يتركون صغيرة ولا كبيرة من أمور الدولة وأحوال الرعايا والبرايا وشئون المال إلا أمروا بتقييدها . أما السلطان سليمان فلم تجر عادته بالحضور

---

(١) Babinger, Enzyklopaedie des Islam

فى الديوان . غير انه كان إذا خرج بنفسه للغزو تخبر الاخبار فى طريقه وعرف جلية الأمور . أما فى القسطنطينية المحروسة فكان ينصت إلى مايقال فى الديوان وهو جالس على عرشه خلف (قفص)[1] . وبذلك يقف على الاحوال . أما إذا وجد فى نفسه

---

(١) كان الديوان اداة الحكم الرئيسية عند العثمانيين ،وكان اعضاؤه يعقدون جلساتهم كل صباح فى قصر السلطان ، كما جرت عادة السلاطين بأن يرأسوا الاجتماع بأنفسهم ، ودامت الحال على ذلك الى ايام محمد الفاتح ، غير ان حادثا وقع لهذا السلطان فى الديوان ، جعله يكره الظهور بين المجتمعين . فقد صادف ان دخل الديوان ذات يوم قروى جلف وهو يقول بصوت جهورى ونبرة خشنة (ايكم السلطان ؟ فإن لدى ظلامة اريد ان اتقدم اليه بها) فتأذى محمد الفاتح بجرأة القروى عليه ونصح له الصدر الأعظم بالجلوس وراء حجاب يشبه القفص كى لاتراه العيون ، ومنذئذ كان الصدر الأعظم يرأس الديوان. كما قيل ان السلاطين من بعد كانوا يسمعون ما يدور فى الديوان وهم جلوس فى مقصورة خاصة جدرانها على هيئة القفص . ومما يروى ان السلطان سليمان القانونى لم يحضر جلسات الديوان فى اعوامه الاخيرة بايعاز من الصدر الأعظم رستم باشا الذى كان يفضل غيابه على حضوره ليفعل مايريد من غير حرج . أما خلفاء سليمان فما كانوا يحضرون الا إذا استدعى حضورهم امر على جانب من الاهمية كتوزيع الارزاق على الجند واستقبال سفراء الدول وما أشبه ،

فترة من فرط اشتغاله بتدبير شئون مملكته ، فكان يخرج متصيدا كما يخرج محاربا إلى مصاده فى أدرنه أو يانبولى . وهناك يجد المظلوم سبيله إلى حضرته من غير صاد يصده ، ولا صحيفة يتقدم بها . وهذا ما أحاطه بالأمور علما) .

ونراه فى موضع آخر من رسالته يوضح أسباب السقوط ويعدها بقوله (لا يخفى أن حل السلطان سليمان للديوان ، كان أول سبب للخلل وفساد الأمر . أما السبب الثانى فاختياره السلحدار ابراهيم باشا وهو خادمه الخاص وزيرا أعظم من غير نظر إلى القاعدة . فكان كل سلطان يرفع رتبة خدامه الخواص بإسناد هذا المنصب العظيم اليهم . ولم يكن لهم علم ولا تجربة ، كما اغتروا بجاههم ورضا السلطان عليهم فنكفوا من أن يسألوا أهل الذكر ، وتخبطوا فى جهالتهم وغفلتهم ، فعم الفساد ودب الوهن فى أمور البلاد) .

ويعتبر قوچى بك أستاذا للمؤرخ التركى نعيما الذى يعد أشهر مؤرخى العثمانيين بعد سعد الدين ، وقد تأثر به كل مؤرخ جاء بعده . ولد فى مدينة حلب ثم حصل العلوم واشتغل بالتاريخ والنجامة ، نصحت نبوءته وأنس به كثير من العظماء . ورحل إلى استانبول

وله من العمر ثمان وعشرون سنة. وهناك عين كاتبا بالديوان. وأصل اسمه نعيم أما نعيما فتخلصه . وفى تاريخه وصف لما وقع من حوادث بين سنة ١٠٠٠ إلى ١٠٧٠ هجرية (١٥٩١ إلى ١٦٥٩ م). وهو فيه يدلى برأيه ويصرح بوجهة نظره ، ويمكن القول بأننا لا نملك تاريخا أصدق منه وصفا لزمانه (١) . ولنعيما من جمال العبارة وروعة البيان ما يأخذ بالألباب ، وقلمه أشبه شيء بريشة الرسام، لأنه يهب الحياة كل ما يتناول بالوصف ، وكلامه متسق آخذ بعض برقاب بعض ، وكل جملة فى موضع هو لها لا لغيرها ، فتأخيرها أو تقديمها أو حذفها لا ريب يفسد المعنى (٢) ومن قوله فى وصف العثمانيين وهم يفتحون جزيرة كريت (وفى تلك الأثناء ذاع الخبر بوصول الأعداء ، فأطلقت النيران حتى ظهر أن هذا مكذوب. وفى الغد بين الصلاتين ، نزل المسلمون على التلال بالقرب من الجسر الحجرى إزاء قلعة خانيه ، فإذا بالكفار فى الكروم والبساتين ، يلهون ويقصفون ، وقد لبسوا من صالح ثيابهم وبدوا

---

(١) كوبريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان - يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ص ٣٨٥.

(٢) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littèrature ottoman, P. 130.

كأنهم لا يحسبون لشيء حسابا ، فحمل الجند المنصورون على هؤلاء المقهورين فى ساعة أنسهم وبهجتهم ، فغنموا منهم مالا يدخل تحت حصر ، ووقع فى يدهم مال جزيل وكثير من الأسرى . وجيء بالأسرى من النساء والأطفال وأهل القرى ، فكان من حسن تدبير القائد أن أحسن جزاء الجند وأطلق الأسرى . كما نهى عسكره عن إحراق الديار وقطع الأشجار ، وقتل الأخيذ . وتسامع الناس بذلك من مروءته وأريحيته ، فجاءوا إلى معسكره من كل صوب ، وقدموا الأزواد ومالوا إلى عسكر الإسلام وقالوا إن الجزيرة لهم) . ومات نعيما عام ١١٢٨هـ (١٧١٥م)

° ° °

وبعد مصطفى الثانى تملك أحمد الثالث ، ذلك السلطان المرهف الحس المشبوب العاطفة ، الذى كان موكلا بالحسن يتبعه ويتملاه فى الوجه الصبيح والزهرة المتسقة والشعر الأنيق . فأقام العمائر وشاد أربع مكتبات ، وقرب الشعراء والأدباء ، كما عرف الترك فن الطباعة فى عهده أول ما عرفوه [١] وكان عصره عصر رخاء

---

(١) يرجع الفضل فى انشاء المطبعة التركية الاولى الى رجل مجرى الاصل يدعى ابراهيم متفرقه . وقد وقع فى أسر الترك عام ١٦٩٢ وله=

وصفاه ،فعرف ـ و أصدرمنه ـ بعصرزهر اللاله (١) وقد اشتد ولوع الناس به حتى تنافسوا فى اقتنائه ، فكانت تزرع أنواعه المتباينة فى الرياض ، وأطلقت عليه أسماء شعرية جميلة ، وإذا ما آن أوان تفتحه ، هرع أهل الذوق من أهل استانبول لمشاهدته فى منابته ، كما كان الاتجار فيه حرفة فنية كالاتجار فى الجواهر النفيسة (٢) فأصبحت استانبول مدينة غاية فى الحسن كما قال

= من العمر عشرون سنة، فقدم استانبول واعتنق الاسلام . ثم اشتغل بنسخ الكتب ، وقدم الى الصدر الأعظم ابراهيم باشا كتابا مما نسخ فاعجب به الاعجاب كله . وعرف كثيرا من علية القوم وفى طليعتهم سعيد محمد افندى الذى كان قد شاهد المطابع أثناء مقامه فى باريس فزين لابراهيم ان ينشىء فى استانبول مطبعه. واتصل هذا الخبر بالعلماء والفقهاء فغضبوا وحرموه تحريما غليظا . غير ان الصدر الاعظم كان غزير العقل واسع الافق ، فاستفتى شيخ الاسلام فى المسألة فافتاه واستأذن السلطان فأذن له . وباشر ابراهيم متفرقه عمله فى مطبعته عام ١٧٢٨ . أنظر Ahmet Refik, Ilk Türk Matbaasi, S 8,10 (Istanbul 1929)

(١) لاله فى الفارسية هو اسم الزهرة المعروفة : Tulip فى الانجليزية وقد درسنا هذا العصر تفصيلا فى كتابنا من ادب الفرس والترك .

(٢) Ahmet Refik, Lale Devri, (Istanbul 1932) S.46

الشاعر نديم (تلك هى استانبول التى لم يخلق مثلها فى البلاد حسنا وطيبا ، إن الحجر فيها ليفديه ملك العجم بما وسع . يالها جوهرة غالية بين بحرين ، وإذا ما أردت لها وزنا ، فلن يعادلها فى الميزان إلا شمس الضحى ، كل أرض خضراء فيها روضة فينانة ذات بهجة ، وكل ركن من أركانها مجلس أنس وصفاء ، وأظلم الظلم أن تؤثر عليها الدنيا بأسرها ، ولست موفقا ان شبهت رياضها برياض الجنان) .

وشاعر هذا العصر أحمد نديم الذى اشتغل فى أول أمره بالقضاء ، ثم نادم العظماء وتوصل بكل أسبابه إلى علية القوم ، وكان معوانه على ذلك حديثه الطلى وأدبه العالى وروحه المرحه ، فنال الزلف عند الصدر الأعظم ابراهيم باشا ولم يفارقه فى مصيف ولا مشتى ، ثم قويت بينهما روابط الألفة على المدى ، فجعله خازن كتبه وكان يحشو فاه درا بعد أن ينشده مارق وراق من شعره[1] وهو أصدق شعراء الترك الأقدمين لهجة ، فقد صور بيئته أدق تصوير ، وعبر عن نفسه بصراحة لاعهد لنا بها عند سواه ، أما ذاتيته فلا يزاحمه عليها شاعر تركى . وقد وازن محي الدين

---

(١) عبد الحليم ممدوح ـ تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٤٥ .

بينه وبين فضولى فقال ان فضولى شاعر الإنسانية[1] إلا أنه ليس شاعر عصره كنديم . وللانسانيـة المعذبة المحزونة قلب شديد الخفقان فى شعر فضولى ، أما نديم ففى شعره كل ما فى عصره من لهو وصبوة وشوق ولذاذة وفتنة ومجانة (١) ولم ينظم فى التصوف لأنه ليس بعابد ولا زاهد ولا تعس ولا محروم ، فقد تقلب فى الرغد والنعيم ، وعايش العظماء فى القصور ، فلم يشاهد من الحياة إلا وجها بساما ، وإذا ما أبكى الحبيب عيونا وأحزن قلوبا ، فحبيبه ملء العين والقلب ، ولئن قنع غيره بطيف الخيال ، لقد افتن نديم فى متعة الوصال فقال (بنا إلى البستان يافتنة الحريف وسروة المروج ، فالوقت وقت بهجتنا ونزهتنا . هو ذا البلبـل يناديك (٢) فإن له من ثغرك وردة يهواها ، بنا إلى البستان . ما أطيب أن ننسى لحظات عابرات نسعد فيها قبل أن يأتى الشتاء فتذبل البساتين . ولتكن كأس المدام فى يدك عوضا من زهرة حمراء . ما أشبه هذه الدنيا بجنة المأوى ، فما أكثر الثمار التى تقدم

---

(١) محي الدين يكى ادبيات ، ص ١٠٨ .

(٢) فى شعر الفرس والترك ، ان البلبل يعشق الوردة ولا يصدح إلا بجانبها كأنه يتغزل فيها ويبثها الشكوى .

الينا ! أتحرميننى ثمار حسنك الفتان ، وتضنين بقبلة لا تراها العيون ! تعالى ياحبتى يافتنة الخريف)

وقد أنشد هذا الشعر فى حضرة السلطان أحمد ، ذات أمسية من أماسى الخريف الحزينة ، وللرياح أنين وحنين بين الاشجار العارية فى بستان القصر . فأى عاشق أسعد وأى شاعر أفصح وأى محب للحياة حبه أقوى وأشد ؟ ولا تخلو نفسه من أمل فى البهجة ورغبة فى النعيم وهو اذا كابد الشوق، احس لوعة الوجد وقال (عودى إلى نجدد عهدنا الخالى ! تعالى ان من حاجبيك هلال عيد ، فلنقض معا يوم عيد . ولأجعل منك شمسا للضحى بكأس من عقار . تعالى ان لى من حاجبيك هلال عيد فلنقض معاً يوم عيد)

فالرقة والعذوبة طابع لمثل هذا الشعر الذى لاتجيش به إلا نفس مشرقة مستبشرة ، ونديم يتغنى دوما بفرحة الحياة وسعد الزمان ، وله أغان مما يعرف فى التركية باسم (شرقى) دارت على الألسنة وترددت اصداؤها فى أحياء استانبول وأنحائها ، وهى التعبير الصادق عن حال هذا الزمان وناسه ، والصورة الحية لعصر الزهر ، التى لاتبلى على الأيام جدتها . ومنها هذه الأغنية (تعالى ، لنفرح هذا القلب المحزون ! تعالى ياسروة تتهادي ،

سيرى معى إلى سعد آباد . هاهى ذى القوارب بمجاذيفها الكثيرة على أهبة حملنا ، لنضحك ونمرح ونأخذ من هذه الدنيا نصيبنا . لنشرب ماء تسنيم من عين تفجرت لنا ، ولنشاهد ماء الحياة يمجه التنين . تعالى ياسروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد . وليكن سيرنا ونبدأ عند حافة الحوض ، لنرفع البصر بالإعجاب والعجب إلى قصر الجنان إذا دنونا منه ، لننشد ونترنم بشعر الغزل ، تعالى ياسرة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد . أستأذنى أمك فى الخروج ، وقولى إنك خارجة لأداء صلاة الجمعة ! ان غفلة الدهر عنا نهزة فلنختلسها ياحبتى ، والدهر دهر ظلوم . وإذا وصلنا إلى فرضة البحر مضينا فى طريق يخفينا عن العيون . تعالى ياسروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد . ستكونين معى ، أما ثالثنا فطرب صوته بلبلى رخيم ، وإذا ماشئت فليكن معنا نديم ! وليغب بقية الخلان فى هذا اليوم . تعالى ياسروة تتهادى ، سيرى معى إلى سعد آباد)

ففى هذه الأغنية وصف لمتنزه جميل يسمى سعد آباد نسبة إلى اسم قصر منيف من قصور السلطان احمد الثالث وقد تعلق وصف الشاعر بكل شىء ، فوصف ركوب البحر إليه ، وذكر نافورته الى على هيئة التنين ، وتلك العين التى تفيض من العذب

النمير، أما أسباب اللهو والطرب فحدثنا عنها ولا حرج. ويقول باصماجيان ان شعر نديم غريب عن عصره المتقدم، ويمكن أن ينسب إلى شاعر من المحدثين، ولو كان من أهل عصرنا لكان شاعرا عظيما بيننا (١) اما جب فيقرر أن ترجمة شعره أشبه شيء بإعادة رسم صورة ملونة صغيرة بالحك، ويشك في قدرة شاعر انجليزى له مثل شاعرية نديم على أن يترجم شعره ترجمة دقيقة مع المحافظة على رقة الأصل وموسيقاه (٢) ويذهب بابنجر في الفصل الذى عقده عنه في دائرة المعارف الاسلامية، إلى ان مؤرخى الأدب يختلفون فى الحكم عليه، ولم نجد مصداقا لهذا إلا فى قول فون هامر ان قصائده وغزلياته ليست من الجودة على حظ كبير (٣)، وتشبيه نامق كمال بك لديوانه بصورة الحسناء العارية التى لا يجوز النظر إليها تأملا (٤). وقد نقد جب فون هامر ورماه بضعف ملكة النقد. اما نامق كمال بك، فنرى انه حام

---

(١) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane, P. 134.

(٢) Gibb, A History of ottoman Poetry, V. 4, P 38

(٣) Von Hammer — Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, 4B, S, 311

(٤) ابو الضيا توفيق - نمونه" ادبيات ص ٣٩.

وماورد ، لأن راسم العرايا فنان كراسم القديسين ، وليس للناقد الفني أن ينصب نفسه حكماً إلا على الفن من حيث هو فن مخافة أن يتكلف مالا يحسن . فأدب الرذيلة كأدب الفضيلة يصور النفس الإنسانية في منازعها ، والخير والشر في حياة البشر صنوان متلازمان . وقد ترجم نديم تاريخ منجم باشي عن العربية تحت عنوان صحائف الأخبار ، وسلخ فيه عشر سنين حتى أنجزه سنة ١١٤٢ هـ (١٧٣٠ م) . وأسلوبه النثري متميز بحسن الإيجاز ، وعنايته بالمعنى العام لا اللفظ اللامع ، فنثره في ذلك شبيه بشعره (١) .

وقد ألف كاتب تركي محدث تمثيلية غنائية عن نديم وعصره ، فأصاب صفاته وأورد نماذج من شعره (٢) .

ولما قامت الثورة وقتل الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، كبس الثوار دار شاعره ونديمه وضيقوا الحصار عليها ، واضطر نديم إلى التعلق بالفرار ، فوثب من سطح داره إلى سطح الدار المجاورة

---

(١) هو تاريخ عام يبدأ بخلق آدم وينتهي بسنة ١٦٧٢ . وقد الفه احمد دده بالعربية .

(٢) Musahipzade Celal, Lale Devri, Sarkiili Tarihi Operet (Istanbul 1936).

غير انه سقط قتيلا بين الدارين سنة ١١٤٢ هـ (١٧٣٠ م) .

* * *

وإذا ماذكر الشيخ غالب ، فقد ذكر من أجمع مؤرخو الأدب التركى على انه أوسع الشعراء الأقدمين خيالا وأدقهم تصويرا . فحق له أن يقول مفتخرا بنفسه (أنا من شأوت أسلافى فيما قالوا ، وكان كلامى غير ماعهدوا)

ولد الشيخ غالب فى استانبول ، وانتسب إلى الدراويش المولوية ، ثم رحل إلى مدينة قونيه مهد الطريقة المولوية . ولما عاد إلى استانبول أصبح شيخا من مشايخ هذه الطريقة ، ولذلك عرف بغالب دده ، ودده فى التركية بمعنى الجد أو الشيخ ، وهى لقب للدراويش ، وقد قرض الشعر فى مقتبل عمره ، فكان مخلصه أسعد ثم (غالب) . وهجاه على ذلك شاعر مزاح يدعى سرورى بقوله (لست أدرى أيها المنحوس ، أسعد انت أم غالب ؟ عرف نفسك من أنت والى من تنتسب . وإذا ماقلت فى شعرك انك غالب ، فأنت عند أهل الأدب مغلوب فى الغالب !) .

ولا نعلم عن حياته أكثر من ذلك . أما شعره ، فديوان كبير من القصائد والغزليات وقصة منظومة بعنوان (حسن وعشق)

وهو فى غزلياته ظاهر التأثر بمثنوى شيخه جلال الدين الرومى وشعره فى الغزليات والقصائد جيد لا بأس به ، الا انه فى مستوى شعر غيره من شعراء الدراويش المجيدين ، فلا ينسب إليه فضلا ليس لسواه ، ولا يدل على عبقرية أدبية تميزه عن الشعراء كافة، ومن قوله فى إحدى غزلياته (وصلنا إلى باب الحبيب فما وجدنا من حبيب ، ودخلنا الجنة فما شاهدنا وجهه يا أسفا ! وصعدنا إلى السماء الرابعة نلتمس الشفاء لدائنا فما صادفنا عيسى ليبرىء قلبنا . الا فانظر ماذا صنع الفلك الدوار بنا . ما أصبنا كأسا دهاقا حتى فى حفل جمشيد ! لقد سعينا كالمجنون إلى حرم الكعبة، وانتهت صلواتنا ، ولكن لم تستجب دعواتنا . وامحى هذا القلب وبدا صورة فى المرآة ، فحرت فى أمرى لأننا لم نشاهد صورة الحبيب !).

اما منظومة حسن وعشق فيها نباهة ذكره وعلو قدره ، وفى ذلك يقول ضيا باشا (كأنما جاء هذا الشاعر الوحيد . إلى الدنيا من أجل ذاك الكتاب الفريد) وقد عقب نامق كال بك على ذلك بقوله ان هذا كلام يناقض بعضه بعضا ، فالمفهوم ان حسن وعشق أحسن آثار الشيخ غالب ، وعلى ذلك لا تعد آثاره الأخرى شيئا مذكورا ، فكيف يوصف شاعر بالعظمة لأثر واحد . وما

الحكم على هذا المنطق السقيم الذى ساق إليه ضيق القافية [1] .

ولا يخفى تزمت كمال بك وتحامله على الباشا ، فوصف قصيدة لشاعر بالجودة مثلا ، لايعنى وصف كل اشعـــاره بالرداءة والفسالة ، فبين الحدين مراتب بعضها فوق بعض . والرأى ان هذه المنظومة أروع ماقال ، وان لم تخل من هنات يشبهها عبد الحليم ممدوح بقطع الغمام المتناثرة فى سماء الليلة المقمرة [2] وقد نظمها وهو على رأس الحادية والعشرين من سنيه قبل أن ينظم شعر ديوانه . وان دل ذلك على شىء فإنما يدل على انه كان يعتمد على ملكته ويستوحى قريحته شأن العباقرة الذين أتحفوا الإنسانية بروائعهم فى حداثة سنهم . فثمار الروح والخيال أسبق إلى الوجود من ثمار العقل والتجربة . وكان الشيخ غالب أكثر توفيقا واجادة وهو منطلق على سجيته ، منه وهو متكىء على دربته واداته التامة . وقد ناقض جب كلامه فى كتابيه تاريخ الشعر العثمانى والأدب العثمانى فبينا يقول فى الأول ان الشاعر نظم قصته قبل ديوانه إذا به يقول عكس ذلك فى الثانى [3] اما

---

(١) نامق كمال بك ـ تخريب خرابات ، ص ١٠٧ .

(٢) عبد الحليم ممدوح ـ تاريخ ادبيات عثمانيه ، ص ٦٤ .

(٣) Gibb, Ottoman Literature, P. 243

تلك المنظومة فقصة صوفية رمزية فحواها أن يظهر فى قبيلة بنى المحبة فتى يقال له (عشق) وفتاة يقال لها (حسن) ويشدوان معاً شيئاً من الأدب على (مولانا جنون). ثم يخفق القلبان بالهوى، وينعم الحبيبان بالوصل فى بستان (المعنى)، أما صاحب هذا البستان فيدعى (اللفظ). وينتهى خبر العاشقين إلى شيخ له الحكومة فى القبيلة فيفرق بينهما. الا انهما يتكاتبان ويتشاكيان. ويعصف الأسى والوجد بقلب حسن، فتبدى الذى لم تكن تبدى وترى ظئرها ذلك من أمرها فتسألها عن بثها ولوعتها، فتجيب حسن أو يجيب الشيخ غالب على لسانها بقوله (لا تسألن فراشة عن حالها، واعرف هواها من احتراقها) ثم يطلب عشق يد حسن من أهلها، الا انهم يطلبون إليه الدخول تحت شرط، وشرطهم أن يرحل إلى مدينة (القلب) ويأتيهم منها بحجر الفلاسفة. فيركب عشق لذلك كل متعبة، ويمضى فى طريق موحشة تكتنفها المخاوف. وتتكاءده العقبات، وتخلع المعاطب قلبه رعبا، ويكاد يقع بين أنياب الضياغم فى القفار، ولا ينجو من فتكة المردة والشياطين إلا بأعجوبة الأعاجيب. ثم يجوز بوديان تطمسها ظلمة الليل وتراكم الثلوج كما يعبر بحراً من نار فى زورق من شمع! حتى يوافى مدينة

(القلب) ، فيصدق أمله وينال بغيته لأنه يجد هناك من يهوى .

فغرض هذه القصة صوفى محض ، وفيها تصوير لتلك المشقة التى ينبغى للصوفى أن يتكبدها حتى يصل إلى ماينشد من فناء فى الذات الالهية . والشيخ غالب عظيم التوفيق فى التشبيه والتصوير ، مما أكسب منظومته جمالا شعريا تتفرد به . فمن قوله فى وصف طريق عشق (وضل الطريق فى أرض قفار جرداء ، يغمرها الهول وليل الشتاء . عوذ بالله منها ! انها ملعب للجن يتلاعبون فيه ماشاءوا أن يتلاعبوا . اليأس والهلع فيها متلاحقان ، والثلج والظلام يتساقطان . وامتزجت دياجى الليل بالثلوج ، فكأنما أفرغ الظلام والنور فى قالب . وجمد نور القمر من كلبة البرد ، اما قطرات الندى فقطرات زئبق رجراج . وأصبحت الظلماء غزالا أبيض ، والصحراء مسكا فى كافور . وبدا الظلام فى الثلوج كسواد العين فى بياضها !)

فمثل هذا الوصف الدقيق الذى يخرج الحقيقة من الخيال ويجعل الموهوم ملموسا ، كثير التدوار فى هذه المنظومة . ومن قوله على ذكرى بشاشات من العيش مضت إلى غير رجعة (ياطيب أيام لى مضت ، كان الفؤاد فيها بهيجا ، والأنس والمسرة ملء الروح . ان ذكراها تخطر على بالى ، فرق لى أيها الفلك من

بلبالى ! أنا من كان زينة الأيام . كانت النفس روضة زهر ، وكل كم من أكمامها جنة ! وجاءت النوى بؤسا للنوى فانقضى كل شيء وانطوى . وانى لأجد اليوم فى قلبي لذاذتها ونشوتها . أنا من أسكرته خمر الخيلاء . مارفعت إلى السماء كفا للدعاء . فقد كنت فى نعيم وهناء وجذل وغناء . ولى من حبيبى سروة تماشينى فما أطلعت أحدا على مكنون سرى . انا من حسّده الربيع تحسيدا . أما فنى غموم وهموم ، أنوح ماناح البلبل إذا استهل الربيع . وكأى من نار مضيت فيها ثم وصلت إلى الشط . ثم تهالكت فكأن كأسا هوت فانحطمت . أنا من كان يرشف العتاب شرابا ، واحر قلباه ! لقد انقضى ذاك الزمان ليله ونهاره ، وتصوح الربيع أفنانه وأزهاره ، واختفت بسمات هذا الوجه الصبيح ، وبقيت الروح ظمأى بعد أن ذهب الخمار . أنا من كان ينادم الحبيب على المدام . يا طالما لهوت مع من أهوى ، وكنت فى فرحى ومرحى كذلك الماء الذى يدور ويمور ويرسل الخرير . ولبست الشعلة الحمراء فى مجلس الصهباء[1] وأسكت البلبل الشادى

---

(١) يريد أن يقول انه يلبس الثياب الحمر فى مجلس الشراب ، وفى هذا إشارة إلى (شعلة الكرم) وهو اسم من أسماء الخمر فى الشعر الفارسى .

بإنشادى . أنا من سعدت أيامه (كغالب) وطاب له العيش الخفيض .)

وقد اعتبره شهاب الدين سليمان شاعرا رمزيا كالرمزيين من شعراء الأوربيين ، وغلط هؤلاء النقاد الذين شبهوه بفيكتور هوجو والفرد دوموسيه [1] وتوفى الشيخ غالب فى الثانية والأربعين من عمره القصير سنة ١٢١٠ هـ . (١٧٩٥ م) .

ولو ترجم شعره مترجم له المعية فتزجرالد مثلا ، لأطرب الدنيا كما أطربها عمر الخيام . [2]

* * *

وكانى من هؤلاء الشعراء الذين ذهب لهم فى الترك صيت وذكر ، وحقه على مؤرخ الأدب أن يخص شخصيته وشعره بازدياد بسط وتكثير أمثلة ، لأنه ضحاك صاحب دعابة ، فسيطر الهزل على نفسه وشعره ، وأكسبه ذلك الطابع الخاص الذى يتفرد به . وهو من أهل مدينة توقات بشمال شرق الأناضول ،

---

(١) شهاب الدين سليمان . تاريخ أدبيات عثمانيه ص ٢٣٠

(٢) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P.180 (Lahore 1935)

وانخرط فى سلك دراويش المولويه شابا فأقام بتكيتهم حتى بلغ الثامنة والثلاثين . ولما استدعى حكيم على باشا والى طربزون إلى استانبول ليرأس الوزارة ، مر بمدينة توقات ، فتقدم اليه كانى بمدحة ملكت عليه إعجابه ، واتصلت المودة بين الشاعر والباشا فرحلا إلى استانبول معا . وهناك بهرته الحضارة بروائها وزخرفها ، ورأى الناس يلبسون من فاخر الثياب مالا غاية بعده وينعمون بالطيبات ، وهو الذى عاش فى قلة وحرمان ، كما عرف الرياء والمداجاة والمداهنة من شيم نفوس القوم ، وهو الصريح الضحوك المتهكم ، فسخط على حياته الجديدة وأهلها المتكلفين المنافقين . وجعله الصدر الأعظم كاتبا فى الديوان ، إلا أن كانى كان ملولا سؤوما بطبعه ، فسرعان ما برم بعمله وكره قيود منصبه ، فاستعفى منه يوم استعفى حكيم على باشا من رياسة الوزارة .

وتقلبت الأحوال بكانى ، فقام فى نفسه أن يزايل استانبول إلى بلد آخر ، وشد رحاله إلى بوخارست ، وهناك أصبح الكاتب الخاص لأحد الأمراء ، وكأنما كان من المحال أن يدوم كانى على حال ، فاجتوى بوخارست ، وما سمع بأن يكن محمد باشا أصبح الصدر الأعظم ، وأنه يدعوه إلى المجىء ، حتى انطلق راجعا إلى استانبول . وكان من أصفياء الصدر الأعظم وأهل أنسه منذ

طويل زمان ، فسقط التكلف بينهما كما يسقط بين متحابين متوادين ، غير أن كانى كلمه مرة بما أغضبه وأنساه كل ما كان بينهما من صفاء ، فأمر بقتله ولم يثنه عن عزمه إلا شفاعة خيرى أفندى رئيس الكتاب ، واستبدل بالقل نفيه إلى إحدى الجزر . وساءت حال كانى فى منفاه ، تخلت وفاضه حتى ضاقت يده دون شراء تبغ يدخنه ، فحرم من نارجيلته وكان إذا رأى خرطومها الذى يشبه الأفعى ، تأذت نفسه وتخيله حية تسعى ، كما يقول فى كتاب له إلى أحد خلانه . وهذا كل ماذكر المؤرخون عن حياته بعد أن قالوا انه تاب عن حياة الهزل ، وعاد إلى حياة الجد والزهد التى كان يحياها فى سوالف الأيام .

وكان كانى مزاحا مولعا بإدخال الفكاهة على كل شىء ، ولم تفارقه هذه النزعة حتى فى آخر عهده بالحياة ، فقيل انه أضحك عواده وهو يجود بنفسه فقال (لست متسولا أسأل الفاتحة ، فلا تكتبوا على قبرى إنى أسأل الزائر قراءة الفاتحة لروحى أسوة بغيرى من أصحاب القبور !) وعرف الناس ميله إلى الهزل فكان منهم من يكتب أبياتا من الشعر ويتوجه بها اليه ليتمها قصيدة هزلية تضحك الثكلى . وليس كانى بالشاعر المجيد فشعره لايسلم من عيوب القافية ووعورة اللفظ . بيدأنه فى الهزل نسيج

وحده، ولا يشق غباره أحد من شعراء الترك . وقد شبه براسم الصور الهزلية الذى يحسن رسم الصورة القبيحة ، كما يحسن غيره رسم الصورة الجميلة [1] ومن قوله (هو ذا البدر فى قبة السماء ، فكأن شحاذا يمد يده بالوعاء ، الا إن الفلك خسيس دنىء فهل يبسط درويش يده متكففا ان كان له أباء وكبرياء ؟)

فهو يتخيل البدر وعاء تمتد به يد الفلك الشحاذ ، وهذا وصف جميل وتهكم مرير ، كما أنه واضح الدلالة على أن الرجل يخلق الفكاهة خلقا ، ويجد مايضحك حتى فى شىء لايضحك . ويقول فى نؤوم (هذا النائم لايستيقظ ولو قرعت عند رأسه الطبول ، ياله من غر جهول لايعلم أن عينه النائمة ستبكى دما على الكسل غدا ، يامن ينام كالحمار الكسلان واسمه اسم إنسان ، مر إلى الحقل لتشهد الثور يرعى وهو واقف يقظان)

وكان كاتب حسن الترسل ، وقد اتفقت كلمة النقاد على أن نثره يفضل شعره ، وقد برز فى كتابة الرسائل الهزلية كتلك التى كتبها إلى الصدر الأعظم يكن محمد باشا وقال فيها (إذا ما ابتلى القلب بتباريح الهوى فكان شديد الخفقان ، وشغل العقل

---

(١) محي الدين - يكى أدبيات ص ١٣٤

بمختلف الأفكار فكان دائم الغليان ، أيمكن أن يؤثر فى صاحب مثل هذا القلب والعقل عزل وانفصال، أو لوم ونكال ؟ ياسيدى الباشا على المرء أن يعرف نفسه حق المعرفة قبل أن يتصدى لنصح غيره ولأصارحك بمرامى ، فأنا كأديب متبطل يكفينى من المال ماأقضى به ضروراتى ، لأكون كالباشا غنيا عن غيرى. وأحيا وأنا فارغ القلب من هموم العيش ، وما حاجاتى إلا حجرة فيها خمسة أو عشرة كتب متناثرة الأوراق،وقنينة أو قنينتان من اخمر أرجوانية صافية ، وأقداح أديرها فى الاحايين على خلان الوفاء الذين نزهوا نفوسهم عن النفاق والرياء . ولدى اليوم كل هذا ، أما مايزيد عليه فبين يدى ربى وهو المنعم الكريم ذو الفضل العميم)

ولا يخفى مافى هذا الكلام من جرأة وتطاول ومخاشنة ، وعبارات لاذعة لايوجهها مثل كانى إلى مثل الصدر الأعظم .ومن مضحكاته قوله فى إحدى رسائله (سلامى إلى كل من عندكم من دلال وجمال وبقال ،وفلاح وملاح،ونمام وذمام ، ومفسد وملحد، ورمال ونجام وحجام ، وسمسار وخمار ، وسؤالى عنكم جميعا) .

ونختتم الكلام عن كانى بقول جودت باشا (لقد رأى هزله الخلان ، وسمع بعجيب قصصه سذج الاخوان ، فما عرفوا فضله ولا وضعوه فى منزلته ، وكان بعض الهزالين يلتفون حوله فيقول

قائلهم . لقد وجدت بيتا أو قافية أو مصراعا ، وتلك قافية ضيقة ، فكيف يكون التخميس أو التضمين ، وبذلك هيجوا طبعه ، وجعلوا شعره فى الهزل أكثر منه فى الفنون الأخرى . غير أن لكانى أشعارا لا نظير لها بالفارسية والتركية فى النعت الشريف ، وهى عند أهل النظر موضع اعجاب) [1]

وهذا الرأى فى كانى الذى يخالف غيره من الآراء ، يذكرنا بقول بعضهم عن الشاعر العربى أبى نواس إنه فى طليعة المجيدين ، إلا أن المجون غلب عليه فرغب الناس عن شعره .

ومضى كانى سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢ م) . فأرخ وفاته الشاعر سرورى [2] بقوله (فليكف أهل الظرف عن ضحكهم وليذروا

---

(١) جودت باشا - تاريخ جودت ، بشنجى جلد ص ٢٣٤ (درسعادت ١٣٠٩) .

(٢) هو سرورى المتوفى سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) كان شاعرا هزلا مزاحا ، له ديوان كبير وهزلياته بين دفتى كتاب على حدة . وقد أحبه الناس لظرفه فراجت بضاعته وأقبل أهل الدعابة على شعره إقبالا شديدا ، فكانوا يتفكهون به فى مجالسهم ويجعلونه سلوانتهم وقت الفراغ . وله فى الأدب التركى شهرة بنظم التواريخ ولعل شاعرا تركيا لم يحسن فى هذا الفن كما أحسن سرورى ، فقد كانت له قدرة =

دمع عينهم . لقد مضى معدن اللطافة كانى إلى مأدبة الصمت. كان يضرب بالدفوف وهو بالمدينة يطوف ، فكأنه فى عرس .وكان يرقص كأجمل مايكون الرقص [1] لطائفه ونوادره ما أكثرها، ولو قد دونها كلها ، لخلت دكاكين المداد من مدادها ! كان متبسطا فى كلامه ، أما إذا صمت فإن صمته يخجل أركان الأدب. مارغب يوما فى تلك الجيفة التى يسمونها الدنيا ، فلينل فى العقبى منزلة الاطهار والابرار) .

...

ومن شواعر الترك ، وما أكثر شواعرهم ،فطنت خانم (٢)

= عجيبة على التأريخ بحساب الحرف فيرتجل ارتجالا مايكلف غيره أعظم العناء . وبلغ من ولوعه بهذا النمط من الشعر أن يؤرخ كل حادثة سمع بها ، وقد تجاوز حاضره الى ماضيه فذكر ذكريات الطفولة والصبا . كما نظم تواريخ اسلاطين العثمانيين .

(١) كان فى الفارسية بمعنى المعدن والمنجم وكانى نسبة اليها . وسرورى يشير اليها بقوله معدن اللطافه . أما أن كانى يضرب بالدفوف، ويرقص ، فمبالغة يراد بها أنه كان يسر الناس بهزله ودعابته .

(٢) خانم مؤنث خان بمعنى الحاكم والسيد فى التركية ، ويقال أنها مأخوذة عن Khang فى الصينية . والترك ينطقون الخانم هانم .

وقد نماها أب كريم هو أسعد أفندى الذى كان شيخ الاسلام في عهد السلطان محمود الأول ، كما أسند هذا المنصب العظيم إلى أخيها شريف أفندى فى أيام عبدالحميد الأول . وكان الشيخان شاعرين فتأدبت بأدبهما ووجدت قدوة حسنة فيهما . ولما بلغت سن الشواب وتهيأ لها أن تكون ذات بعل ، زوجها أبوها من يقال له درويش أفندى ، وكان رجلا ساقط الهمة جافى الطبع راكد النسيم ، فأساء عشرتها ونغص عليها عيشها ، ولم يوافق شن طبقة فدام الشقاق وعز الوفاق . وطالت بها الأيام فى هم واكتئاب وشقوة وعذاب ، فكانت تلتمس عن كربتها تنفيسا فى قرض الشعر . وانا لنجد وجه شبه بين ملامح من شخصيتها وملامح من شخصية كانى ، فقد عرفت فطنت تمام بنزعتها إلى الدعابة والفكاهة ، وليس هذا بعجيب من مثلها [1] كما اجتمعت الآراء على أنها أشعر شواعر الترك ، وقبل أن نورد الأمثلة من شعرها ، نروى لها قصتين مع شاعر من أهل عصرها يدعى حشمت . فيقال انها خرجت فى عيد الأضحى لشراء أضحية ، فوقفت عند جامع بايزيد وهى تجيل البصر فى قطيع لشراء كبش

(١) أنظر كتابنا من أدب الفرس والترك ص ١٨٥

من كباشه ، وكان من محض المصادفة أن تكون وقفتها إلى جانب حشمت . فالتفت اليها وسألها عما جاء بها وغرضه أن يجاذبها أطراف الحديث ، فقالت انها انما جاءت لشراء أضحية ، وأحب حشمت أن يداعبها فقال (لأقدم نفسي قربانا) وما كان منها إلا أن بادهته بقولها (انت معيب القرن ولا تحل أضحية هذه صفتها)

أما قصته الأخرى معها ، فمجملها أن حشمت كان ماراً بدارها ذات يوم ، وما أبصرته حتى أمرت جارية لها فأطلت من النافذة وجعلت تسخر منه وهي تشبهه تشبيها مضحكا باللقلق ، ذلك الطائر الطويل العنق لأنه خفيف الشارب واللحية ، فبادلها سخرية بسخرية . وأبلغت الجارية سيدتها ماقال ، فردتها إلى النافذة بكلام نمسك عن ذكره لفحشه . وفي هذا برهان على رغبة شديدة في الهزل ، واعتداد بالنفس يتنامى فيه صاحبه كل تصون واحتشام .

ولها ديوان ينتظم معظم الفنون الشعرية ، ومن قولها : (إذا بسم الحبيب ، فللحياء حمرة في خدود الورود ، وإذا انثنت غدائره ، ثنت الأزهار رءوسها غيرة منها وحسداً لها . لي من فؤادي أضعف الطيور ، ولك من لحاظك نظرة الصقور ، فالفؤاد صيدك وان كان عنقاء تكبر أن تصاد ، إن كان ثغرك كما

لم يتفتح . فليهنك ان الندى دمعى ، وهل تتفتح الأكمام إلا لتساقط الأنداء ؟ إن كنت تأملين أن تموتى غراما يافطنت ، فكونى قبل ذهابك ثرى عند أبواب أحبابك) .

ولشعرها مثل هذه الطلاوة وهى تقول فى الربيع (نثرت سحائب الربيع جوهرا ، وتجلى حسن زهر الروض فياله منظرا ، الآن آن الفرح والمرح والخروج إلى الأرض ذات النزهة . طاب مجلس العشاق فى ظل النخيل الوارف . قم بنا ياصاح ، فقد اخضوضرت البساتين وتفتحت الأزاهير وأقبل الربيع . انظر إلى تلك الورود ، ما أشبهها بالخدود . وزهرات (السنبل) غدائر مسك للحبيب . وهذه السروة على الغدير قده المشيق . فى كل جانب للروح متعة وللقلب مسرة . قم بنا ياصاح ، فقد اخضوضرت البساتين وتفتحت الأزاهير وأقبل الربيع . وتفتقت عن الأزهار أكمامها ، فأشرقت المروج بابتسامها ، وتشادت البلابل على أغصانها وأفعمت كل ناحية بنواحها . قم بنا ياصاح ، فقد اخضوضرت البساتين وتفتحت الأزاهير وأقبل الربيع . قد كفى ماقد مضى ، لاتظلم العشاق ، فهذه الأيام أيام الوفاء والصفاء على شط هذا الماء ، ورشيف كأس تكشف عن القلب الغماء . ونداء فطنت لتنشد الأشعار . قم بنا ياصاح ، فقد اخضوضرت

البساتين وتفتحت الأزاهير وأقبل الربيع).

فهذا شعر أنيق رائق وان عدمنا فيه معنى جديدا وخيالا لاعهد لنا به. ويجرى هذا المجرى قول فطنت (إن للشعر مسكا يزين عذار الحبيب ، وللربيع غمامة تزين الروضة الفينانة ، وهل فى ذلك ريب . أبسط شراع التوكل فى قارب الاخلاص ، حتى تأتى الرياح بما تشتهى فى بحر الآمال)

وإذا مامدحت النبي صلى الله عليه وسلم ، فانما تردد مكررا وتقول معادا . وهذه أبيات فى عدة مواضع من إحدى مدائحها (ما كان خلق العالمين إلا من أجلك ، وكل شيء فى الوجود باسمك . ياحبيب الله ؛ لك حسن يبهر عين الشمس والقمر ، يابداءة العالم وسبب وجوده ، ياصاحب الخلق الكريم الطاهر لولاك ما كانت الجنات ، ومادخلناها لولا البر منك والكرم . ياصاحب المعراج وفخر النبيين ، الناس وقوف ببابك من سوقة وملوك . وهم اليك يبسطون أكف الضراعة والحاجة)

ولم يوف فون هامر هذه الشاعرة حقها فى كتابه ، فما خصها إلا بسطور معدودات ولا ذكر شيئا عن حياتها . أما تسميتها فتنة ، فخطأ أى خطأ (١)

---

(١) Von Hammer-Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, 4, B. S, 505.

وكانت وفاة فطنت خانم سنة ١٢١٥هـ (١٨٠٠ م).

* * *

ولدينا شاعر لم نقف له على ذكر فيما كتب الترك عن تاريخهم الأدبى، على حين جرد له علماء الغرب صدرا كبيرا من عنايتهم لما لدراسته من أهمية أدبية وتاريخية، وهو فاضل بك الأندرونى، المولود فى مدينة صفد بفلسطين، والعربى القح، فنسبه فى قوم من أهل الحجاز. وقد أوطن جده بلاد الشام وكان صعب المراس عزيز الجانب، فغلب على صفد وعكا واقتطعها لنفسه. وأرسل السلطان اليه جيشا، ورأى الرجل أنه مغلوب على أمره لما انفض جنده من حوله، فحاول التعلق بالفرار، إلا أن أحدا من رجاله أرداه قتيلا. واستولى جيش السلطان على عكا. أما فاضل وأخوه فأرسلا الى استانبول. ولم يمتد العمر بأخيه هذا الذى كان يصغره، فمات بعد قليل. وألحق فاضل بمدرسة الاندرون(١)

---

(١) أندرون فى الفارسية بمعنى داخل الشىء، وقد أطلقها الترك على القصر السلطانى، وأسس السلطان محمد الفاتح فى قصره مدرسة عرفت باندرون مكتبى بمعنى مدرسة القصر. أما تلاميذها فكانوا يختارون من أولئك الفتيان الذين يجمعون فى كل عام من البلاد التابعة

فثقف الثقافة التركية الخالصة ، وتمت آلته فى لغة الترك ، وأتيح له أن يخالط الفتيان من كل الأجناس ويرقب من قرب مايدور فى جوسق السلطان إذا دخله السلطان للهو والصبوة ، كما كان يصغى إلى همسة خافتة فى الحريم فيعرف سر الملاح المكنون . ويمكن القول بأنه اكتسب من ذلك أهليته لنظم منظومتيه العجيبتين (زنان نامه) بمعنى كتاب النساء و (خوبان نامه) أى كتاب الغلمان الصباح . . أما كتاب النساء ففريد فى بابه ، وما أشبهه بمتحف يضم خمسا وثلاثين صورة للنساء من مختلف بقاع الأرض ، فبدأ بذكر الهندية واختتم بالأمريكية . ويذهب فون هامر إلى أن فاضل بك قد أخرج كتاب النساء على غرار

= للدولة العثمانية . ومدة تحصيل العلم أربع عشرة سنة ، يدرسون فيها القرآن وعلوم الشرع والعربية والفارسية . ويتعلمون آداب السلوك ، فمن بصق منهم على الأرض أو سعل دون أن يضع منديله على فيه ، أو اتسخت ثيابه ، أخذ بعقوبات تتفاوت فى الشدة ، فمنها التوبيخ ومنها الضرب على القدمين . وكانت المناصب العالية فى الدولة تنتظر المتخرجين فى هذه المدرسة ، ومن ينسب اليها يعرف بالأندرونى . أنظر : أحمد راسم ـ عثمانلى تاريخى ، برنجى جلد ص ٣٣٨ (استانبول ١٣٣٠)

كتابين بالعربيـة يعرف أولها بألف غلام وغلام والثانى ألف جارية وجارية (١) وان كان جب لا يميـل إلى هذا الرأى (٢). وكتاب النساء قليل القيمة الفنية؛ عظيم القيمة التاريخية، فليس شعره بالشعر العالى، أما قراءته فتولد الأفكار وتثير نقطا كثيرة للبحث والنظر.

وفاضل بك يتعصب على بعض الأمم فينسب صفات الذم إلى نسائها، وهو يستحقر اليهود والأرمن، ويمقت الروس مقتا يظهر من عنوان ذلك الفصل الذى عقده عن نسائهم وهو (صفة قبح نساء الروس).

أما نساء مصر فيقول فيهن (ألق سمعك يا يوسف هذا الأوان، يامن أضرمت نارا فى قلب زليخا الزمان. فتلك عادات نساء تزغهن الشيطان. انهن يتزين ويمضين فى الطرقات ذات اليمين وذات الشمال من أجل فلس واحد، كما رسم لهن السلطان الغورى ! أجسامهن السمر جميلة لولا قرح فيها

---

(١) Von Hammer — Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, 4, B. S, 428

(٢) Gibb, AHistory of ottomon Poetry, V, 4 P, 234.

من داء عياء ، يسميه أهل مصر المبارك ، وكل حسناء منه فى بلاء .
فى عيونهن فتور وشهل ، وإذا ما أمعنت البصر عرفت أنه العمى !
نساء الأكابر يركبن الحمر فى الأسواق . بالله كيف أدعو هذه
الجيفة (خانم) وكيف أقول ياروحى لتلك التى لا تستحى ! [1]
عليهن ملاءة منقشة ، وتحتهن حمار فاره ، وقد تحككت أقدامهن
بالأرض ، فبدا من جوارحهن ما يحسن ستره . وعلى يمنتهن
ويسرتهن فلاحون بركبتهن يمسكون ، يجتازون بهن السوق على
هذه الحال ! - غناؤهن يهز القلب طربا وعلى الخصوص نغمة
ياسيدى حسن ، ان غناء مصر لجميل وهو نعمة على أهلها . فإذا
ارتفع الصوت المليح ياليل ، هبط الطائر من سمائه ليستمع !)

هكذا تصور فاضل بك المصرية ، ولا ندرى كيف ترامت
اليه أخبارها فعرف ذلك من أحوالها ، وتحدث بالقبيح عنها
حتى هجاها فى عرضها بأشد من وقع الأسنة . فهل من يقول بمثل
هذا ؟ وقد أعرضت عن أبيات كثيرة فلم أترجمها خزاية من
فحشها ، كما آثرت أن أجانب الدقة فى الترجمة أحيانا على أن أورد
اللفظ القبيح والمعنى العارى الصريح . والمجون غالب على المنظومة

---

(١) جانم فى التركية بمعنى ياروحى

بكيفية تشكك فى صحة الحقائق ، وفى كون فاضل بك جادا فيما يقول . وهذا الذى يميل على المصريات ويثلبهن ، يميل إلى الإيرانيات ويمدحهن فيقول (لا نظير فى الدنيا لرقة الايرانية وملاحتها ، فأية صباحة تلك التى لا يصفها الواصفون ، وأى خد هذا الخد ، وماهذه العين التى لم تشاهد مثلها العيون ، اللوزة عينها السكرى والقوس حاجبها المقرون . مافيهن إلا من تعبت كأس الأنس واللهو وأثملها شوق الصبابة . أما الدلال فسر لا يعلمه غيرهن ، حديثهن معسول وصوتهن جميل ، فيهن الشاعرة وأميرة الكلام ومن تجيد النقش وتبرز فى الخط . لهن سعة إدراك ودقة فراسة . ولا تخلو يدهن من صناعة . غير أن نساء إيران مهجورات فى هذا الزمان . وانى يحق هجر الحور العين ! فلولا وجود الغرباء فى هذه البلاد ، لحسبت أهلها للنفاد !)

فهذا المثال من شعر فاضل بك ، ينهض دليلا على انه انما يرفث فى كلامه ويفصح عما يجب أن يكنى عنه ، بل ولا يتأثم من أن يتكذب ، ليتماجن ويقحم نفسه فى زمرة الظرفاء . وقد وصف حمام النساء وما يجرى فيه فقال (ياعجبا لهذا الحمام ، الذى يتسع لذاك السرب من النساء ، من مطلع الفجر إلى المساء ! يالمواشطه من مواشط ، وللدلاكات فى حمر السراويلات . يالهفى على تلك

الأبدان الغضة البضة ، وذلك البلور الذي يسعى على قدمين. وقد حملن المثابن المزركشة تحت الآباط ، فكيف لا تخفق لهن قلوب العشاق ؟ ما فيهن إلا لبيقة بكل فن ، تبذل في الخدمة طوقها ، وتوفى كل زائرة حقها ، وإذا خلعت يد الدلال القمصان، أضاء الحمام نور الأبدان ..وبدت حمرة الخدود في ماء الأحواض، فكأن قرص الشمس يتوهج في البحر . وجعلن البنان المخضب في الشعور ، فكأن المرجان في البحور . وأسبلن الذوائب السود على الأجساد فما أشبههن بالبدر إذا بزغ في الظلماء .الجسد العريان نقطة من نور ، غير أن بعضه مستور . والأزار رقيق رقيق يستشف ما وراءه. أما الحامل، فيا طول ما يضحكن منها ويفضحنها!)

فهذا الوصف يصور لنا التركيات في حماماتهن تصويرا دقيقا، وفي مكتبة جامعة استانبول نسخة خطية لهذا الكتاب بها صورة للحمام ومن فيه، غير أن الرسم يختلف قليلا عما جاء في الشعر(١) وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية دوكوردمانش(٢) غير أن

(١) أنظر Penzer, The Harem, P,225 (London 1936) وراجع كتابنا من أدب الفرس والترك ص ٢٢٧

(٢) Decourdemanche, Le Livre des Femmes (Paris, 1879)

جب يطعن أشد الطعن فى صحة هذه الترجمة . وشأن هذا الشاعر فى كتاب الغلمان كشأنه فى كتاب النساء ، ولست أدرى بأى ثأر يطلب أهل مصر ؛ فهو الذى يقول فى غلام مصرى (يا من زلال شفته نيل الحياة ، وغمزته القاهرة سيف المهات ! السمرة غالبة على غلمان مصر وإن كان فيهم بيض الوجوه . لهم فى الدلال قدرة فائقة ، أما أغانيهم فمحرقة . ما طبعهم بسليم . وما ظلمهم بالذم فيهم (١) لا صفاء فى مشرب العشاق ، ولا نقاء ببولاق الملاح (٢)

وقد أورد الكاتب الألمانى فرانتز بلاى فى كتابه (قصص غرامية شرقية) ترجمة لما قال فاضل بك فى نساء حلب والحجاز والحبشة ومصر تحت عنوان (النساء) ولست افهم كيف أعتبر ذلك قصة وماهو من القصة فى كثير ولا قليل (٣) .

ولفاضل بك كذلك منظومة بعنوان (چنكى نامه) بمعنى

---

(١) راجع ص ٣٠٥

(٢) بولاق فى التركية بمعنى العين والمنبع ، واسم حى من أحياء القاهرة .

Franz Blei, Liebesgeschichfen des Orients, S 109(٣) (Leipzig 1922)

كتاب الراقص ، وهى تدور على الفتيان الراقصين فى استانبول . فيذكر اسم ثلاثة وأربعين فتى من الغجر يحترفون الرقص ويعرض لكل منهم بالوصف . بعد أن يخلع العذار ويهتك ستر الحياء ، ثم يؤرخ حياة المجون والخلاعة فى عصره وبيئته .

وله كذلك دفتر العشق وهو منظومة فى أحوال الحب ، يقول فاضل بك انها الأولى من نوعها فى الشعر التركى . ويقرر جب أنها ناقصة ، لأن الشاعر لم يف بوعده وشرطه فيها (١)

وهو صاحب ديوان أهم ما فيه مرثية قالها فى السلطان سليم الثالث الذى يسميه الشهيد لأنه مات قتيلا . غير أن هذا الديوان لا يميزه بسمات خاصة كما تميزه كتبه المنظومة الأخرى .

وجملة القول فيه أنه ناظم وليس شاعرا بحق . فى شعره ضعف وسخف وإن كانت دراسته فرضا على مؤرخ الأدب . وقد ساءت أحواله فى أخريات أيامه ، وذلك أنه شكى حين كان رئيسا للكتاب ، ولا نعلم سبب الشكوى ، فنفى إلى جزيرة رودس سنة ١٢١٤ هـ (١٨٠٠م) وهناك كف بصره . ثم صدر العفو عنه ، وعاد إلى استانبول . وكانت وفاته سنة ١٢٢٤ هـ (١٨١٠ م) .

---

(١) Gfbb, AHistory of ottoman Poetry, V, 4. P, 224

وإن فاضل بك ليمثل لنا بيئته الأدبية أحسن تمثيل . ففى أواخر القرن الثامن عشر ، أفرط الترك فى اللذائذ يستمتعون بها فنعموا وأسرفوا فى النعيم ، وسيطرت على شعرائهم نزعة إلى تصوير المتعة تصويرا دقيقا ينطلقون فيه على سجيتهم ، غير آبهين لحدود من التصون يقفون عندها ، ولا قيود من التورع يمكسون بها نزواتهم ، فزهدوا فى ترديد المعانى الصوفية التى تقلب الشعر التركى فيها خمسة قرون ، ويعتبر الشيخ غالب آخر المتصوفين منهم . وظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر مدرسة أدبية لم تنجب عينا من أعيان البيان ، غير أننا لانجد فى عصر من العصور آثارا كآثارها تتيح لنا أن ندرس الناحية الانسانية المحضة للمجتمع التركى (١)

ومن شعراء هذه المدرسة واصف الاندرونى الذى تربى فى القصر ثم شغل منصبا إداريا به . ومرت أيامه فى هدوء وقرار حتى استأثرت به رحمة الله سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٤٥ م) وواصف شاعر شعبى بأجمع معانى الكلمة فقد توخى أن يقول شعرا سهلا بتلك اللغة التى تدور على الألسنة فى استانبول ، فنظم الأغانى التى يسميها الترك (شرق) ولحنها الموسيقيون ، فذهب له بها

(١ Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P180

صيت وذكر . وشعره الأكثر فى هذه الأغانى التى تخلو من رفث قلما يخلو منه شعر معاصريه . يقول ضيا باشا فى خراباته (واصف شاعر لطيف غير أنه ركيك العلم قليل البضاعة ، يقول ما توحى به طبيعته فكلامه غاية فى السلاسة) اما نامق كمال بك فيذهب إلى أن الركاكة أكثر من نصف ديوانه ، وقد أراد أن يفتح فى الشعر بابا جديدا يطابق لغة الكلام ، إلا أنه لم يوفق فى الأفاعيل والتفاعيل ، ولو قد استبدل بالأوزان الفارسية وزن البنان التركى لكان له شأن (١) . وهذا خطأ يحتمل الصواب ، فما جدوى الوزن مع هذه الركة ، وكيف يصح فى الفهم أن يكون الوزن كل هذا الأثر ؟

وإنا نرتضى رأى جب فى واصف ، فهو يقول ان أغانيه قصيرة الأوزان ، وهذا ما يكسبها خفة ورقة وصلاحية للتنغيم . وفى معظمها ألفاظ عذبة الجرس توائم غيرها ولا تنبو عن مواضعها ، وتجعل من كل أغنية طاقة زهر ينفح منها الطيب . وتلك قدرة لهذا الشاعر لا يشركه فيها إلا الأقلون . وان تلاوتها لتثير فى النفس طربا للفظ الأنيق والمعنى الرقيق ، ولكن سرعان ما نفيق من هذه النشوة إذا تجاوزنا القشور إلى اللباب وأرخينا

---

(١) نامق كمال بك ، تخريب خرابات ص ٩٧

إلى هذا الشعر نظرة الناقد ، لأنه ينكشف لنا عن كثير من العيوب كالأغلاط الفنية ، وتنافر الأفكار وضعف الشعور ، أما شهرته الشعبية فبين أقوام قل من العلم حظهم فضعف نقدهم ولم يبصروا الشعر)[1]

ومن اغانيه قوله (من يشاهد ياقوت الخمر فى شفتها ، يصبح اسيرا لشعرها. اخلق بى ان اكون بلبلها . انها زهرة تفتحت[2] لاضريب لها فى نحول خصرها ، ولا نظير فى عذوبة حديثها اما اطوارها فتفوقها فى حسنها ، انها زهرة تفتحت . ما اقل الورود التى تشبه خدها ، فهو يضرب قليلا الى الحمرة الباهتة ، لقد ظهرت قبل ظهور الازاهر فى هذا الصيف ، انها زهرة تفتحت . البلبل للزهرات عبدها ، البلبل من ينوح من اجلها . يالبسمتها التى تساوى الدنيا ! انها زهرة تفتحت . ياواصف ، لقد حدثنى بالأمس بلبل البستان فقال استبشر ، اليك ازف البشرى انها زهرة تفتحت) .

---

(١) Gibb, A History of ottoman Poetry V, 4. P, 180

(٢) فى الاصل التركى (زهرة ساقز المتفتحة) وهى زهرة تنسب الى جزيرة ساقز القريبة من شاطىء الاناضول . ويلوح ان الشاعر انما يذكر حسناء من هذه الجزيرة . وقد سماها بهذا الاسم فى عدة مواضع من شعره . وآثرت ان احذف هذه الكلمة فى الترجمة لثقلها .

ومن اغانيه ايضا قوله (فى خصرك هيف ، يامنقطعة النظير ، انت جديرة بالوصف ، وآية فى الحسن . فى خدك احمرار ، جمالك ازهار ، مالك من شبيه ، وآية فى الحسن . تعالى يامحبوبة الفؤاد وتوأم الروح فانت حقا آية فى الحسن . حديثك طلى ، تخلبين لب الخلى ، ما احراك بالوصف ، انت آية فى الحسن . قوامك فارع وجمالك بارع ، ولقد رأيتك آية فى الحسن)

فهذا شعر خفيف يصلح اتم الصلاحية لأن يغنى ، وعناية صاحبه فيه برنين الالفاظ قبل عنايته بالمعنى العام والعاطفة المتقدة ، وهذا مانصادفه على الدوام فى شعر الاغانى ، ولكن اغانى واصف لاتسلم من اسفاف فى بعض المواضع .

وقال الشعر فى اغراضه المعروفة الأخرى كمدح النبي صلى الله عليه وسلم ومدح السلطان محمود وسليم الثالث وتأريخ الحوادث وله اكثر من قصيدة يؤرخ بها تلك الحرب التى انتشبت بين جيش سليم الثالث وجيش نابليون فى مصر . فمن قوله (انه الملك المنصور الغالب ، صاحب المشرق والمغرب ، له ما لجمشيد من مناقب ، وهو زينة عرش سليمان . هيهات النجاة للعداة من سيف قهره فى حربه ، ولو كان لكل منهم الف روح . فما ظنك بساعده القوى ؟ وأنى كافر الفرنسيين مصر من البحر فى الخفاء

وذخل مياه الاسكندرية فى سفينة الخديعة . وقد اثار هؤلا القوم الفتن وطغوا وبغوا ، وجعلوا يفسدون فى الأرض من وادى الصالحية ، وخدعوا الناس بفرمان كاذب (١) . ومر ذلك بسمع الملك الهمام فانفذ اليهم جيشا عظيما تحت لواء قائده الأعظم . وبلغ هذا الضرغام ساحة الوغى وله ما للأسود من اقدام ، فأذهب ريح الأعداء فى الحملة الأولى . ولما ماجت جنود الاسلام بحرا زاخرا ، حار اهل الطغيان وداروا كأنهم طاحون . لم يبق فى ساحة العريش شبر أرض من غير دماء ، وجرى دم

---

(١) يتحدث الشاعر عن حملة نابليون ، ويذكر ذلك المنشور الذى كتبه يوم ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ على ظهر البارجة اوريان ، وترجمه المستشرقون الى العربية ، ثم انجز طبعه على ظهر البارجة كذلك ، وقد امر بتوزيعه على الناس بعد رسو العمارة الفرنسية . وهو اول منشور له بالعربية الى اهل البلاد . راجع نصه فى تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى بك ج ١ ص ٨٥ . وقد اتفقت انجلترا مع تركيا على محاربة الفرنسيين فى مصر . واعد الترك جيشين الاول بقيادة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا يزحف عن طريق برزخ السويس ، والثانى يبحر من ميناء مرمريس بقيادة حسين قبطان باشا . انظر الجزء الثانى من نفس المرجع ص ٢٣٤ .

الكفار كجرى ماء النيل . ولما رأوا ذلك من بطش المسلمين ، انخلعت قلوبهم رعبا ، وشقوا ثيابهم يأسا من علوها الى سفلها . ثم انطاق الكفرة الى المعسكر السلطانى ، شاكين نادمين معفرين الجبين) وليس هذا بشعر علوى ، بيد اننا لانعدم فيه معلومات تاريخية على جانب من الأهمية . ولهذا الشاعر منظومتان، عنوان الاولى : تخميس باصطلاحات النساء فى النصح على لسان والدة، وعنوان الأخرى : جواب طيب الأثر على لسان ابنتها الجوهرة البهية . وهذا النمط من شعر واصف حقيق بالعناية والدرس ، لأن فيه صورة من عرف المجتمع التركى وتقاليده فى تلك الأيام، ومما يكسبه أهمية لامستزاد عليها ، انه يحدثنا عن نساء العوام ، وأى عنوان أدل على روح الجماعة من نسائها وسواد ناسها؟ وان هاتين المنظومتين تبصران فروقا بين جيلين ، وعقليتين رجعية وتقدمية ، كما تبشران بذلك التحول الذى سنشهد آثاره بعد قصير زمان فى حياة الترك عامة وآدابهم خاصة . يقول واصف على لسان الأم (اسمعى الى نصيحتى يابنيتى ، اصدقى فيما تقولين واعملى مايرضى حماك ، كونى له امة من الاماء . من يزين لك التجوال وتلطيخ الثياب بالطين؟ اياك والتظاهر بالزهادة والعبادة لاتخلعى العذار . وحذار ثم حذار من ان تكونى مكتسبة

الطريق (١) كونى سيدة بالمعنى . لاتغازلى احدا ، واذا ماجالست ضيفا فاقنى حياءك ، والا اكلوك بنظراتهم اكلا وانت حيـة . وحذار ثم حذار من ان تكونى مكنسة الطريق ، كونى سيـدة بالمعنى . لاتتعلقى بكل وسيم قسيم ، ولا تلازميه ملازمة المبولة للرضيع ! لاتتبعى كل من رأته عيناك كما يتبع الكلب صاحبه . وحذار ثم حذار من ان تـكونى مكنسة الطريق ، كونى سيدة بالمعنى . انظرى ، هـذه عاتكة قد اضحت عروسا جعلك الله سعيدة مثلها ، ذودى الرقص والطرب عن تفكيرك ، يامن دخلت الثالثة عشرة من عمرك . وحذار ثم حذار من ان تكونى مكنسة الطريق ، كونى سيدة بالمعنى . لو زوجك ابوك قاضيا ! فزرناك فى دارك على شاطىء البحر ، لاتجلسى على البساط عارية الساق ، وكفى قلبك عن كل رجل ، وسواء رث الهيئة وجميل الهندام . وحذار ثم حذار من أن تكونى مكنسة الطريق ، كونى سيدة بالمعنى . أيليق ان تطلبي الخبز واللحم من جيرتك؟ لو ترامى هذا الخبر الى زوجك ، لضربك الضرب الوجيع . فادخلى المطبخ باسم الله واعملى ، وهيئ للعشاء بضعة الوان من الطعام . وحذار

---

(١) مكنسة الطريق هى الفاجرة المتساقطة على الرجال

ثم حذار من ان تكونى مكنسة الطريق ، كونى سيدة بالمعنى)

اما رد الفتاة على امها فثورة الجيل الجديد على الجيل القديم وفيه كراهية السجين لسجانه والأسير لآسره ، وشوق الى حرية طال الحرمان منها ، وتطلع الى افق تلتمع نجوم سعده ، وارهاص لحياة تركية لاعهد الترك بمثلها فى عصر من العصور . تقول الفتاة (إلا تدع نصحى ، اربطها فى شجرة وافلق بالعصا المحماة رأسها وعينها . واتخذ لنفسى عملا اعمله . وسأستمد العون من صديق ثم امضى فى طريقى . ولأنشد حبيبا لى فى الخامسة عشرة الاعبه ويلاعبنى . لا امتد بى عمرى ان عملت بقولك ايتها العجوز الخرفة . اقضى ليلك مع ابى ، اما انا فلابد لى من احبه ويحبنى . مالى وللمطبخ وما فيه من جهد وكد ، لا لن ازور لذاتى . ولأنشد حبيبا لى الاعبه ويلاعبنى . ماظنينك هذا كأنك عجلة المنسج ، اذهبى ، دونك المنسج ، فانسجى ثوبا واجنى رزقا . لا يفسد السوق الا ابن الحرام (١) فما ضر لو خرجت وبعت كل هذه الصحون والقدور . ولأنشد حبيبا لى فى الخامسة عشرة الاعبه ويلاعبنى . تقول بين الفينة والفينة ، زوجك قادم يا ابنتى ،

---

(١) يقول المثل التركى ان ابن الحرام يفسد السوق اما ابن الحلال فيصلحها ويضرب لمفسد الامر ومصلحه .

لاتكونى كالنائحـــة المستأجرة قبحك الله وذراك هشيما انت وزوجى جميعا ، سأخـــرج من دارى مادامت روحى فى بدنى ولأنشد حبيبا لى الاعبه ويلاعبنى .)

فهذه الفتاة تخاشن امها بما لايقره عرف ولا دين ، وإن كان الشاعر غير جاد فيما يقول ، ولا أدل على ذلك من أن تفحش فى كلام امسكنا عن ذكره ، غير ان الكاتبة التركية خالده اديب تحبذ هذا اللون من الأدب الذى يعبر عن الحقائق اصدق تعبير ويأخـــذها الأسف لانصراف الترك عنه الى ادب من وحى الفرنسيين (١)

ومات واصف عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) .

• • •

ومن شواعر الترك فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ليلى خانم التى تعد تلو فطنت خانم فى المنزلة الأدبية . وقد وصل بين الشاعرتين كرم النسب وحرفة الأدب وحياة زوجية تعسة شقية ، غير ان ليلى لم تكن مظلومة كفطنت وانما كانت ظالمة لخشونة طبعها وشدة كبريائها فسرعان ماضاق زوجها بعشرتها

---

(١) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P184.

فطلقها بعد سبعة أيام من بنائه عليها . وأضحت أكثر سخطا على الناس ورغبة فى الاستخفاف بهم والغض من شأنهم . فما بالت ملامة اللائمين ولا اراجيف المرجفين . وسيطر على نفسها ذلك اليأس الذى يثير سخط المحروم على ماحرم منه ، وقد يدفعه الى الشر بعد ان يقطع كل امل فى الخير . فاستهترت ليلى بكل شىء ، وساءت سيرتها كأقبح ماتسوء السيرة . حتى نظم احد الوراقين بيتا فيها لاكته الألسنة ينهش به عرضها نهش الأفاعى ، ولا سبيل الى ذكره لقبح ماجاء فيه . وقيل انها عرفت شابا صبيحا يصنع الشموع ، وراقتها صباحته فكانت تتردد على دكانه ، اما هو فكان شديد الحياء إذا كلمته لايكلمها ، ولما شاع الأمر نظم جار له شطرة لقنه اياها ليقولها حالما يشاهدها وهى (لاتديمى النظر بالاعجاب الى شمع خدى ، لاتحترقى بنارى !) وما ان سمعت منه ذلك حتى اجازت فقالت (اذا طر شاربك وبلغت مبلغ الرجال ، فأنت لاشك مستعين بنور شمعك على رؤيتى)

وقد شدت الأدب على شاعر من ذوى قرباها يقـال له عزت ملا (١) وذكرت له هذه الصنيعه ، فسمته رئيس الشعراء

(١) عزت ملا شاعر من رجال السلطان محمود الثانى ، غير =

وهي ترثيه ، وقالت انه ولي نعمتها وسبب عزها ورفعتها . ولها ديوان صغير يضم شعرها التقليدي والغنائي ، فهي تستهل بمناجاة الذات الالهية ومدح الرسول الكريم والترحم على آله ، ثم تدخل من ذلك على رثاء الحسين وآل بيته فتطيل وتجيد ايما اجادة فهي التي تقول (لقد اهل المحرم ، ويلاه من يعينني على هذا الشهر، ففيه لا يرقأ دم لعيني ، وان الفلك الغدار ينكأ جراحاتي . فمن لي بدواء لما في القلب من حرقات . وحق لمحب اهل البيت الا يسيغ الماء حزنا كأن السمام في جرعته . ففي مثل هذا اليوم كان ما كان من يزيد السفيه حشو جهنم ، انه خنزير وليس من البشر فهذا الظلم لاعهد به لبني الانسان)

وشعرها في الرثاء ارق من دمعها ، ولها عناية بالجرس

انه شغل نفسه بالسياسة والامور العامة . ففي سنة ١٨٢٣ عزل من يدعى حالت افندي وكان صاحب منصب رفيع في الدولة ونفي الى قونيه ثم قتل . وكان صديقا حميما للشاعر فحزن حزنا شديدا لمصيره، وندد بمن نكبه ، وغضب السلطان عليه فأمر بنفيه الى مدينة كشان بالروم ايلي ، فأقام فيها عاما ونظم منظومته المعروفة بمحنت كشان. وفيها تصوير دقيق لمجتمع الشاعر وذكر لاسباب نفيه ، ووصف جميل لمنفاه . ومات عزت ملا سنة ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) .

والايقاع فهى تنسق الألفاظ وتكررها على نحو رتيب فتذكر بالنائحة الثكلى وهى تندب وديعتها فى الثرى وترفع الصوت بالعويل والنحيب. تقول ليلى فى رثاء ابيها (ان للاشواق نارا تلهب القلب منى . الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق . اواه لاطاقة لى بتباريح الأسى ، الفراق ، آه الفراق . آه الفراق ، لقد ارتحل ابى عن دنياى ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق ، فلنتخذ الناى والدف من نوحنا وصدرنا ، الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق . لقد رفع ابى الى عينه وهو بالنفس يجود ، فهل حزن لقلبي الصديع ؟ لقد اصبح فى التراب ترابا . الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق . الله فى هذا القلب الكليم . الفراق ، آه الفراق ، آه الفراق)

ولها شعر ضاحك مرح تحب فيه الحياة حبا جما يعمى ويصم فتتهالك على لذاتها وتتكشف لنا عن سادرة فى الغى لاتبالى ماتصنع ولا تصيخ الى من انحى عليها باللوماء فتقول (الا هيء لنا مجلسا للأنس ، وليقل القائلون مايقولون . وترشف الصهباء مع الحسناء وليقل القائلون مايقولون . لقد اشبع العاشق الولهان ذوائبها العنبرية لثما وشما فى الليلة الحالمة ، وليقل القائلون مايقولون . وتقيد القلب بقيد من شعرها ، فبالله ما اشوقنى الى ذلك ، وليقل القائلون مايقولون . وليكن وجهى الاسود هذا أبيض يوم

الدين ، اما فى الدنيا فليقل القائلون مايقولون . لافرق فى هذه الدنيا بين مدحى ومذمتى ، فليسعد الأحباب وليأخذوا فرصة اللذات ، وليقل القائلون مايقولون)

وعما يجرى هذا المجرى قول ليلى (اشرب الكأس فى الروض الأريض ، ولعاذل ان يعذل . ولتكن فى دنياك مسرورا محبورا ، ولعاذل ان يعذل . هذا الجافى يبسم كما تبسم الوردة ، وقد رأى ادمعى فى مسيلها فظنها قطر الندى ، ولعاذل أن يعذل. وليكن لك من حضنى مخبأ وموئلا ، ان كنت ترهب لائما ، طب نفسا ولا تخش بأسا ! ولعاذل ان يعذل)

فهذا الشعر اشبه بشعر المجان منه بشعر ربات الخدور ، والجرأة فيه على تصوير النزعات والنزوات تشير بكل وضوح الى تلك الحرية التى استباحها شعراء هذا الزمان لأنفسهم فى التعبير عن الواقع ويقرر جب ان شعرها برمته غنائى ، وهذا رأى لانميل اليه ، وتصويبه ان يقال ان معظم شعرها غنائى،ففى ديوانها كثير من التواريخ كتاريخ جلوس السلطان عبدالمجيد ، وتاريخ ختان الأمراء وتاريخ فتوى مكى زاده افندى ، وتاريخ والى آيدين وغير ذلك . وهذا النمط من الشعر لايعد غنائيا بحال . واستأثرت رحمة الله بليلى خانم سنة ١٢٧٥ هـ (١٨٤٧ م)

ولنا أن نعتبر هذه الشاعره آخر شخصية أدبيـة فى العصر القديم ، بعد أن رأينا منها كيف وصلت بالشعر الى مالم يصل اليه قبل من صراحة التعبير والجرأة على ذكر مايحسن السكوت عنه فأهبطته من سماء الروح الى أرض الجسد ، ومن عالم المثال الى عالم الواقع ، وجعلت منه لسانا كثير العثرات بعد ان كان لسانا يلهج بالتسبيح ويتحدث عن الغيب بما لا يفهم حتى يفهم شدو البلبل السجين وهو يريد الخروج من قفصه المتضايق الى الافق الرحاب . ولقائل ان يقول ان شواعر وشعراء قبلها قدصوروا خطرات النفس وانطقوا الحال ، ونقول ان هذا حق لامرية فيه ، غير انه لا ينسينا حقيقة واضحة هى ان الشعراء كانوا متوفرين على نظم الشعر الصوفى وشعر المناسبات،أما الغنائيون والواقعيون فقلة لا تنقض حكمنا على الكثرة . وديوان ليلى يجمع شعر المدرسة القديمة ويشير الى اتجاه المدرسة الحديثة . وما اشبهه بوقت السحر الذى تمتزج فيه ظلمة البارحة بنور الغد ، فيجمع بين الماضى والمستقبل . وإذا ماذكرنا ان من جاءوا بعدها قالوا مالا ينسب الا الى مدرسة غير مدرستها ، حق لنا ان نعتـبر هذه الشاعرة آخر شخصية ادبية فى العصر الأدبى القديم

العصر الحديث

من عهد السلطان عبد المجيد الى يومنا هذا

أسلفنا ان التجديد لايكون طفرة واحدة، فالمباينة للمألوف والانتقال الفجائى بما تواضع الناس عليه من حال الى حال، قد يرهق المجدد من امره عسرا ويركبه مركبا وعرا، فالناس أعداء ما جهلوا كما يقولون، وبالنفوس حاجة الى بعض الوقت حتى تدرك الجمال فى الجميل وتميز صالحا من طالح. والفكر الانسانى فى حركة مستمرة كحركة الزمن، والتطور سنة الوجود، غير انه أشبه شىء بتلك السلاليم التى يترقى فيها من سفل الى علو، لكن شيئا بعد شىء.

وإذا ماشئنا ان نبين تاريخ الأدب التركى الحديث، وجدنا اننا لانملك حولا عن ذلك المنهج الذى اتخذناه فى تاريخ الأدب التركى القديم، وظهرت لنا بين الأدبين وجوه تقارب واتفاق وتخالف. فهما معقودة أسبابهما بالتاريخ السايسى، وكلاهما تصوير دقيق للروح التركية فى عصره، وكانت بواكير كل منهما

تقليدا وترجمة شأن كل محاولة فى بداءتها ونشأتها ، وان استن الترك المحدثون فى الأدب بغير سنة الترك الأقدمين، لأن الأخلاف اخذوا انفسهم بثقافة الفرنسيين ، اما الأسلاف فلم يأخذوا إلا عن الايرانيين . واذا ماقسمنا الأدب القديم الى دورين بعد النشأة فانا جاعلون للأدب الحديث دورين كذلك بعد نشأته ، ولو ذهبنا نتعرف الأسباب التى مهدت لظهور هذا الأدب الحديث لرجعنا الى عهد السلطان سليم الثالث الذى حكم مابين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٨٠٧ ونصر الرقى والاصلاح بكل ما اتسعت له نفسه من آمال ، كما اتصلت العلاقة على الدوام بين بلاده وبلاد الغرب ومست الحاجة الى أن يأخذ الترك بشىء مما عند الأوربيين من نظم واوضاع. وانشئت بعض المؤسسات العلمية على غرار المؤسسات الأوربية فاتجهت العناية الى مناهجها والكتب التى تقرر فيها ، ومعلوم ان مثل هذه الحال مما يبعث على حركات واتجاهات فكرية وتربوية جديدة . فقد بدأ المشتغلون بالتعليم يخرجون كتبا توائم التطور وتفى بالحاجة ، فكان صنيعهم هذا خطوة اولى تبعتها خطوات . وإذ قبس الترك من الأوربيين بعض علومهم ، فقد لزم ان تتسع لغتهم التركية لادماج بعض الكلمات والمصطلحات الافرنجية فيها ، وظهرت الحاجة الى الترجمة ظهورا

قويا ، فترجمت كتب الرياضيات وعلم وظائف الأعضاء والطبيعيات [١] . وكانت العربية لغة العلوم فى هذا الزمان ، فنحتت منها الفاظ علمية كثيرة كمولد الماء ومولد الحموضة .

وفى هذا الوقت ترجم الى التركية قاموسان ، احدهما عن الفارسية والثانى عن العربية ، فكانا خير معوان لكل تركى مشتغل بالعلوم . اما صاحب هذين القاموسين فعاصم افندى الذى عرف بما صنع وقيل له مترجم عاصم . وان ذكر اسمه ليذكر فورا بحياة الترك الفكرية لأنه اول مبشر بها كما كان السلطان سليم الثالث اول رواد التجديد والاصلاح فى حياتهم السياسية [٢] وقد تعاوره ما تعاور المصلحين والمجددين من الأرزاء والمحن فمات تعسا محروما سنة ١٨١٩ . ترجم عاصم افندى عن الفارسية برهان قاطع [٣] وقدمه الى السلطان سليم

---

(١) Mustafa Nihat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi, S4,5. (Istanbul 1945)

(٢) محي الدين ، يكى ادبيات ، ص ١٣٧

(٣) برهان قاطع قاموس فارسى واسع الشهرة لمحمد حسين التبريزى المتخلص ببرهان. وقد فرغ من تصنيفه سنة ١٦٥٢ وطبعه فى كلكتا Captain Roebuck سنة ١٨١٨ ، وطبع طبعة ثانية =

فبلغ به الاعجاب مبلغه وامر بطبعه ، غير ان شيخ الاسلام عطا افندى ومن يعرف بخواجه منيب كانا يكشحان له بالعداوة لشحناء بينهما وبينه فمنعا عنه خيرات السلطان ، وساءت حاله كثيرا على مر الأيام . ومع ذلك توفر على ترجمة القاموس عن العربية وسلخ فى ذلك خمس سنوات ثم تقدم به الى السلطان محمود الثانى ، غير ان خصميه لم يفلتاه من الكيد ، فما نال شيئا يصلح به حاله . واسلوبه فى قاموسيه يتسم بالوضوح ، ولغته لاتختلف عن اللغة الأدبية فى أيامنا هذه . كما كتب تاريخا يعرف بتاريخ عاصم فى جزءين يتحدث فيه عن حل فرقة الانكشارية وله شرح على الأمالى فى التوحيد لسراج الدين الاوشى يعرف بمرح المعالى فى شرح الامالى واهم ماينبغى الاشارة اليه ، هو ان مترجم عاصم درس اللغة الفرنسية حتى احسنها ، ويعتبر من اول الأتراك الذين درسوها أو أولهم .

ومن علماء هذه الآونة بالمعنى الفنى خوجه اسحق المنحدر

= وثالثة سنة ١٨٣٤ . كما اضاف اليه طابعه زيادات جمعها من عدة معاجم وسماها ملحقات برهان ، ومما يذكر انه تردى فى كثير من الاخطـــاء . أنظر Blochmann, Contributions to Persian Lexicography, P 18 (Calcutta 1862)

من اصل يهودى . كان متضلعا من الفرنسية فاشتغل بالترجمة فى الديوان ، كما درّس اللغة العربية فى مدرسة الهندسة ، ولا غرو فقد كان تعلم العربية فرضا على طلبة المدارس الفنية لأنها لغة العلم الأساسية ، أما التركية فلم تكن قواعد نحوها قد قعّدت بعد[1].

وكان خوجه اسحق مهندسا حربيا مشهودا له بالكفاية فنيط به أن يقيم الاستحكامات على الحدود فى الروم ايلى والأناضول ومضت به الحال قدما فكان المدرس الأول بمدرسة الهندسة وترجم بعض الكتب العسكرية ، كما ابتعث الى المدينة المنورة عام ١٨٢٤ للاشراف على تشييد أبنية بها . ومن كتبه الفنية مجموعة العلوم الرياضية ، ونصب الخيام وأصول الاستحكامات وعكس المرايا فى أخذ الزوايا . وكانت وفاته عام ١٨٣٦ . وكان خوجه اسحق يفيد من الكتب الأجنبية فى تحضير دروسه ، فاخذ عنه تلامذته عبارات كثيرة لا عهد لهم بها فى لغتهم ، كما عرفوا ان كتب الأوربيين خزائن العلم ، وإذا مافهموا لغتها ففاتيحها فى أيديهم ، ولا شك ان لذلك اثره فى إيقاظ الهمم وتنبيه الأذهان إلى خير كثير يمكن أن يصاب منها بجهد يسير

---

(١) Mustafa Nihat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi, S.6.

ونذكر بعد خوجه اسحق بهجت مصطفى . كان طبيبا ادق نظره فى علمه فطارت شهرته ، كما ضرب بسهم فى فروع من العلوم . وقد تهيأ له أن يترجم عن الفرنسية كتابا فى التاريخ الطبيعى ، وأخرج للناس مؤلفات ومترجمات فى الفلسفة والعلم، وفضله لا يجحد فى اطلاع قومه على ثقافات الغرب ولفتهم إلى ضرورة التشبه بالكرام رغبة فى الخير والفلاح ، وكانت وفاته عام ١٨٣٢

هكذا وجهت حركة التجديد فى حياة الترك العقلية بفضل هؤلاء العلماء الذين أناروا للعقول سواء الصراط ، وعلموا الجيل الجديد مالم يعلم الجيل القديم . غير أن بواعث النهضة الحديثة لم تكن تلك الجهود الفردية ليس إلا ، وانما كانت هناك عوامل سياسية واجتماعية أثرت أشد تأثير فى حياة الترك على العموم وأدبهم على الخصوص . فقد كان السلطان محمود الثانى الذى تملك بين ١٨٠٨ و ١٨٣٩ رجل إصلاح بمعنى الكلمة ، لا تقف الصعاب ولا العقاب أمام صرامته وشدة بأسه ، وما ظنك بمن قتل أخاه مصطفى حين زاحمه على العرش وعمل على استئصال شأفته فقتل كذلك ولده . وأغرق فى لجة البوسفور أربع نساء من نسائه الحوامل . وكان الانكشارية فرقة مفسدة فى الجيش

دائمة العصيان فتخلص منهم بالقضاء عليهم وكفى نفسه وبلاده شرورهم [١] ثم أعاد تنظيم الجيش التركى واستقدم له المدربين والمعلمين من أوربا ، واختار النظم الفرنسية . وأراد إصلاح البحرية . فأنشأ لها المدارس ، وأدخل التحسين على مدفعيتها .

---

(١) فى السادس عشر من شهر يونيه سنة ١٨٢٦ دفع الانكشارية راية العصيان وهم محنقون ، فنهبوا قصر الصدر الأعظم معلنين على الحكومة اشد سخطهم لأن مدربا اوربيا ضرب جنديا منهم. والواقع من الأمر انهم كانوا حاقدين على السلطان محمود الثانى الذى أراد اصلاح جيشه ، وكانت الخطة ان يدمج فرقهم فى الجيش التركى ، فاغضبهم الا يكون لهم وجود مستقل ، وهم الذين كتبوا لبلادهم صحائف مجد بدمائهم . فرأى السلطان ان يقضى عليهم قضاء مبرما ، وامر بتقتيلهم ، فهلك منهم اكثر من اربعين الفا بعد ان حصدتهم نيران المدافع وهم يكرون أو يفرون . واليك مايقول اسعد افندى مؤرخ الدولة العثمانية فى الانكشاريه (ان الوصف المفصل لشرور تلك الفئة الطاغية الباغية ليذهل اولى الالباب ، ولى قلم يعاف القبيح ويكره الخوض فى ذلك ، ولكنى ذكرت ان اخذهم بالعقاب واستئصال شأفتهم مما يعود بالخير والنفع على الأمة المحمدية ، وان التخلص من جبروتهم وتسلطهم سيكون حديث احفادنا ونعمة =

وقد اتخذ الزى الأورنى وأقام الحفلات على الطريقة الاوربية، كما أمر باصدار جريدة بالتركية والفرنسية (١) وجاء بعده ولده عبدالمجيد (١٨٢٩ - ١٨٦١) فمنح بلاده مرسوما فى الثالث من نوفمبر سنة ١٨٣٩ يعرف بخط شريف كلخانه، نسبة إلى كلخانه بمعنى بيت الورد وهو اسم جوسق من جواسقه، وعزز بثان فى الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٥٦ وهذا يشبه ما عند الفرنسيين ويدل على أن السلطان ينقل النظم السياسية عنهم. وتعرف بمجموعة المراسيم الاصلاحية (بالتنظيمات) وقدجاء فيها أنه لايجوز سجن أى شخص قبل محاكمته محاكمة قانونية، وأن جميع رعايا الدولة التركية مسلمين وغير مسلمين سواء أمام القانون، وبذلك وقف الغالب مع المغلوب والسيد مع المسود على قدم المساواة (٢) وقد ظهر للترك أدب فى هذا العهد سموه أدب

= يشكرون الله عليها، فأردت ان اشعر المسلمين بافضال سلطانهم الذى ارمى اساس سعادتهم بقطع دابر الانكشاريه ونزع دوحتهم من اصلها). انظر Assad Effendi, Précis Historique De La Destruction Du Corps Des Janissaires Par Le Sultan Mahmoud En 1826, Traduit Par Caussin De Perceval, P, 209 (Paris MDcccxxxiii)

(١) Moniteur Ottoman

(٢) Cornelia Di Marzio, La Turchia di Kemal, P17 (Milano McMxxvi)

التنظيمات ويمكن تحديد زمانه على التقريب بتلك الفترة الواقعة بين عام ١٨٣٩ الذى أصدر فيه السلطان عبد المجيد أول مرسوم للإصلاح وعام ١٨٧٦ الذى منح فيه الترك أول دستور. ومما يجدر ذكره أن الأفكار فى هذه الفترة قد خرجت من عزلة العصور الوسطى وتبدلت أحوال السياسة، وتفتحت عيون الكتاب على الدنيا، وكانت كثرتهم الكاثرة تعرف لغة أجنبية هى الفرنسية فى الأغلب. وقد رحل بعضهم إلى أوربا بمحض رغبتهم، أو مبعوثين من حكومتهم، أو فارين لأسباب سياسية، فكان الواحد من هؤلاء البلغاء يقول الشعر أو يكتب التاريخ ويناقش المسائل السياسية والاجتماعية ويصف أسفاره ويترجم الكتب الأجنبية. وكانت اللغة التركية لا تزال فى صورتها التقليدية القديمة، وان أخذت تتجه الى البساطة، كما أضحت المواد الأدبية أكثر جدة. وصدرت الجرائد، وانتشرت المجلات الأدبية والفنية وفتحت المدارس الخاصة والحكومية أبوابها(١).

ولا يعزبن عن البال ان اتخاذ الفرنسية لغة للثقافة من أهم سمات الحياة العقلية فى هذا الزمن، وان ذلك الصنيع ليذكرنا

---

(١) Rossi, La Nuova Turchia, P123 (Firenze 1939).

باتخاذ الترك لغة الفرس أداة لهذا الغرض فى الزمن الماضى .
ولا غرو فقد عرف الترك الفرنسيين منذ قديم ، ومعظم ما عرفوا عن أوربا انما عرفوه عن فرنسا ، وكانوا يسمون الأوربى فرنسيا ، ولما عوّل بعض العلماء والأدباء على دراسة لغة أوربية فى فجر هذه النهضة الحديثة ، لم يدرسوا إلا اللغة الفرنسية . وكانت جمهرة الغربيين فى استانبول من الفرنسيين ، ولغتهم أكثر اللغات الأجنبية دورانا على الألسنة وترددا فى المسامع . وفى أيام السلطان عبد المجيد الذى كان على معرفة بهذه اللغة ، قدم استانبول عدد جم من الفرنسيين واتخذوها مستقرا لهم ، كما اعتنق بعضهم الاسلام وعاشروا الترك وصاحبوهم ، فكان لذلك أثره فى نشر تلك اللغة . أما أدباء عهد التنظيمات وشعراؤه فكلهم دارس للفرنسية وكلهم متأثر بآدابها (١) وواقع الأمر أن أفكار بعض كتاب الفرنسيين الحرة ومؤلفاتهم السياسية مما حببهم الى الترك ، هم يكشفون عن أنفسهم العبودية ويتنسمون الحرية . وإن الآية لتنعكس تماما فى نظرتهم إلى الألمان ، فقد ألقت الصحافة الفرنسية

---

(١) اسماعيل حبيب ، تورك تجدد ادبياتى تاريخى ، ص ٦٩، ٧٠ (استانبول ١٣٤٠)

والانجليزية فى روعهم أن ألمانيا معقل الاستبداد والحكم الفردى فرغبوا عن الأخذ بطرف من ثقافتها (١)

ويعتبر عاكف باشا أول رائد من رواد الأدب التركى فى عهد التنظيمات ، وقد تحفظنا فاعتبرناه رائدا ولم نعتبره مؤسسا، فمن المؤرخين من يطوى ذكره طيا ، ويرى آكاه سرى أن ينسب إلى المدرسة القديمة، ولا يعده مبشرا بالأدب الجديد (٢) وهذا منه رأى لا نميل اليه ، ويكفى أن يكون قد عاش فى عهد التنظيمات وجادت قريحته بشعر ونثر يختلفان ولو بعض اختلاف عما نعهده فى العصور القديمة ، ليعتبر أول رواد المدرسة الحديثة .

ولد عاكف باشا فى إحدى مدن الاناضول ، ولما بلغ السادسة عشرة من عمره رافق أباه فى رحلته إلى الحجاز لقضاء مناسك الحج فعرف « بحاجى » . وأصاب من الثقافة الشرقية ما يصيب الفتيان فى زمانه . وقدم استانبول عام ١٨١٣ ، وكان عمه رئيس الكتاب ، وهذا المنصب يشبه منصب وزير الخارجية فى زماننا،

---

(١) Hachtmann, Europaïsche Kultureinflüsse in der Türkei, S6,10 (Berlin 1918)

(٢) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimat Edebiyati, S 18,19 (Istanbul 1934)

وألحق ابن أخيه بوظيفة كاتب فى الديوان . وكان عاكف كبير الفطنة وثابا إلى العلا ، فنال منصب عمه بعد أعوام قلال ، وغير لقب رئيس الكتاب وأصبح ناظر الخارجية ، فإذا به وزير الخارجية ، أو أول وزير لها . غير أنه عزل بعد شهور لدس أدهم برتو باشا وكيده ، فقد كان بين هذين العظيمين منافسة ومضاغنة ، وتمنى كل منهما العثار لخصمه وتربص به الدوائر . ولعزله قصة ، فقد صادف أن كان تاجر انجليزى يدعى تشرتشل يصيد السمانى فى استانبول ، وطاشت احدى رصاصاته عن هدفها فجرحت غلاما وهو يطعم حملا ، فأغضب ذلك الناس ، وساقوا الانجليزى سوقا عنيفا الى القاضى ، وأمر القاضى بسجنه ، وأنهى الخبر إلى السفير الانجليزى فطلب اطلاق سراح السجين ، غير أن الباشا رفض هذا الطلب فكانت مماحكة بين السفير والوزير أعقبت قطع العلاقات بينهما . والعجب أن يكون لأدهم برتو باشا يد فى هذا ، فقد أوعز الى من ترجم لكل منهما كلام صاحبه ، أن يفترى على عاكف باشا وينسب اليه من القول ما يثير الشر ويغضب السفير . وما زال أدهم باشا بالسلطان حتى أقنعه بضرورة عزل وزير خارجيته فعزله . غير أن السلطان عرف جلية الأمر فيما بعد فأسند الى عاكف باشا نظارة الملكية التى عرفت بعد بالداخلية ،

فأضحى أول وزير الداخلية كما كان أول وزير للخارجية . ولم يلبث فى هذا المنصب الرفيع طويلا ، فقد قدم رشيد باشا سفير تركيا فى لندن ليتولى وزارة الخارجية وكان بين عاكف ورشيد شر وجفوة ، فصرح وزير الخارجية الجديد بأن عاكف باشا قليل الصلاحية لمنصبه الخطير ، فأفكاره شرقية رجعية تتعارض مع النهضة التركية الحديثة . وعزل كما عزل من قبل . واشتد النزاع والتخاصم بين الوزير الحالى والوزير السابق ، فنفى عاكف باشا إلى أدرنه ، ثم اختار الاقامة فى بروسه . ومن شعره فى وصف شقوته وجده العاثر (ان طالعى فى صفاد من المجرة ، فلاتصور لاستقامته ولا أمل فى رجعته . رباه إن حظى فى دنياى منحسة متعسة ، فأنا فى صبح وطنى أذكر مساء غربتى . أأنا للقضاء مرآة ، فلا يظهر فىّ إلا الآلام والمحن !)

وحج البيت عام ١٨٤٧ ، ومر بمصر فى عودته ويقال انه حظى من محمد على باشا باكرام عظيم ، غير أنه مرض بالاسكندرية وكانت وفاته فيها عام ١٨٤٨ ودفن بجوار النبى دانيال (١)

وهو شاعر كاتب ، أما شعره فشبيه شعر المدرسة القديمة فى

---

(٢) عاكف ، عاكف باشا ص ٨ (استانبول ١٢٩٠)

المعنى والغرض ، غير أن ديوانه الصغير ينطوى على قصيدة تعرف بقصيدة العدم ، ويمكن تمييزها من قصائد العصر القديم بأنها تتناول معنى واحدا . وغرضا واحدا ، وهذا مالا نصادفه إلا نادرا فى قصائد الأقدمين التى كانت تضم عدة فنون شعرية فى وحدة مختلفة العناصر ، كالغزل والفخر والمدح . ويبدو فيها حزينا مستيئسا متشائما يكره الحياة أشد الكراهية ويتمنى أن يحل العدم محل الوجود فكأن كل ماقد كان لم يك كان . ومن قوله « ان الشوق إلى صهباء العدم ، لينفخ فى الانسان من روح الحياة ، فياعجبا ، أفى قارورتها جوهر الأرواح ! من ينظر بعين الامعان إلى وجود القدم فهو واجد أن صحراءه كسوح الجنان . كلا ثم كلا ، أنى يجوز تشبيهها بالجنة ، فان الراحة فى مأوى العدم نعمة أخرى وإذا كانت فيها نعم لاتحصى ، فأى حاجة إلى تناول نعم العدم (١) . ماقدر له أن يكون فهو كائن ، وما قدر له العدم فهو معدوم ، فتمن العدم تكن فى راحة »

ويمضى فى هذه الفلسفة الغامضة القائمة إلى أن يفرغ من تلك

---

(١) يريد ليقول ان نعم الجنـــة كثمارها وخمرتها ، قد تكلف متناولها عناء قطفها أو اساغتها ، اما نعم العدم فلا عناء فيها !

القصيدة التى نعدم فيها الجمال الشعرى وان كنا لا نعدم الجدة والطرافة والخروج عن مألوف الاقدمين ، لان صاحبها حبسها على خاطر واحد وجهد أن يولد من لاشىء أشياء .

ولعل كف باشا مرثية من رقائق الاشعار بكى بها حفيدته ، وهى تختلف عن المراثى القديمة بأنها تجرى دموعا وتستعر لوعة، وتثير فى قلب سامعها ما ثار فى قلب صاحبها من مربر الأسى ، وهذا مالا نعهده فى شعر الرثاء عند الشعراء المتقدمين . يقول الجد الحزين متفجعا على وديعته فى الثرى (بنيتى الجميلة ، لا نسيان لك على مر الأيام والشهور والأعوام ، لقد جرعتنى المر من فرقتك. وان لك لثغات حلوة وكلمات عذبة لا تزال تتردد فى قلبى . لا سبيل اليوم إلى قبلة من غضارة جسمك ! ويلاه ماصنع القبر بحسنك ؟ وإذا ذكرت ثغرك الجميل بوردة البستان ، وددت أن تحترق الورود من حر أنفاسى)

وهو يرسم لنا صورة تجرح الفؤاد بقوله (ما الذى حل بجسمك الغض البض فغيره ، وهل سالت على الجبين عيناك السوداوان ، وتفرق فى التراب شعرك الجميل الذى طالما نعمت به ضما وشما ؟ هل عرف الفلك كيف يصب نقمته على ، وهل اذبل الردى ورد خديك .. واها ليد فى لين القطن وبياضه كنت

اثمها ، هل اصبحت فى التراب ترابا ؟)

فهذه المرثية وقصيدة العدم كل ما فى ديوانه من جديد يجعله شاعرا مجددا . أما نثره فسهل ممتنع لا أثر فيه لسجع ولا ازدواج والفكر يسيطر عليه أتم سيطرة . وله رسالة بعنوان (تبصره) يتناول فيها بالوصف المؤامرات السياسية وما عرف عن عظماء عصره من فساد الضمير وضعف الوازع الخلق ، كما تحدث عن ذلك الشر الذى وقع بينه وبين أدهم پرتو باشا . ومن قوله فيها (ألا لعنة الله على تلك الأمانى الكاذبة ، وسحقا للصيت البعيد الذى ينصب صاحبه غرضا للملاوم ، مادام ذلك يتحصل بافساد المروءة والدين ، وهدر الحمية واضاعة الوطنيـة . نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا)

وقد عابها كمال بك بأنها لا تشبه رسالة رسمية ولا مقالة أدبية ، غير ان هذا لا يغض من قيمتها كأثر يتميز برصانة اللغة وقوة الاقناع ، وقدرة صاحبه على جمع الدلائل [1]

• • •

ويذكر بعده أدهم پرتو باشا ، على انه يتلوه فى المرتبة كمجدد

---

(١) شهاب الدين سليمان . تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٢٨٠

ووجه الشبه بينهما ان كليهما تولى الوزارة ، وتمرس بمسائل السياسة ، فكان بذلك فى شغل عن الانتاج الأدبى ، ولولا اعباء منصبه لكان مكثرا لا مقلا . ويختلف ادهم عن عاكف فى انه كان على علم بالفرنسية ، فترجم من آدابها الى التركية ، وهو أول من اطلع الترك على هذه الآداب ، وقد الممنا بطرف من سيرته وما وقع بينه وبين عاكف باشا ، ونضيف الى ذلك ان السلطان فطن الى دسائسه ومكائده فأمر بنفيه الى ادرنه عام ١٠٢٧ . ويقال ان حاكم هذه المدينة دعاه الى الغداء ثم أطلعه على امر السلطان بقتله ، فتلقى ذلك وهو ربيط الجأش ، وأظهر ايمان المؤمن المحتسب ودعا بالسم فتجرعه ، واجهز عليه اربعة رجال بحبل . وكان مقتله عام ١٨٢٧

وديوانه مطبـــوع فى بولاق سنة ١٢٥٣ وفى استانبول سنة ١٢٥٦ . وقد اجرى شعره فى اغراض القدماء ، وهذا مما لا يعنينا فى شيء ، اما مايسترعى اهتمامنا فتلك المنظومة التى ترجمها عن الشاعر الفرنسى فيكتور هوجو تحت عنوان (طفل نائم) وهى تتألف من قطع تحوى كل منها ثمانيـة اشطر . وهذا منه تجديد فى الشعر التركى من الناحية العروضية ، وهو اول من ادخل هذا النمط من شعر الغرب فى شعر الترك . غير انه يبدو

متكلفا فى هذه المنظومة ، وتلك نتيجة مألوفة للترجمة نظما . ومن قول ادهم پرتو باشا (طفل من سلالة الملائكة ، حديث عهد بالولاد ، على مهد من العزة والرفعة ، الا يستغرق فى نومه المعتاد وله من حضن امه مهد لراحته . انه فى راحة من عالم العناء ، ولا خبر لديه عما يجرى ، واذا ما أغمض العين عن هذا الكون فانه ينظر الى العالم العلوى ، ان لأغانى الأم التى تهدهده بها نغمات مطربات ، كأنها انهار لها رشاش وخرير ، وكل ترجيع فيها بحار تمور وتفور . وقد اجل ابوه هذا الملك كل اجلال ، واخته قرينة اليمن والاقبال . اما امه فتمد جناحيها كالأطيار ، ولكل ريشة فيهما ألحان اغنية)

فهذا من الشعر الفرنسى العالى ، ولا احسبه الا غريب الوقع على الذوق التركى ، ويبدو ان الفاظه ليست على قدر معانيه . وقد ترجم منظومة اخرى عن الفرنسية لروسو بعنوان (بقاء الروح وكان فى ذلك اكثر توفيقا منه فى (طفل نائم) ومن قوله (الحياة حلم ملتبس مختلط ، لقد كان مولدنا لمماتنا فوا أسفا . هكذا نمضى بجهالتنا وغفلتنا ، الى قاع لجة الموت بحسرتنا ، بعد بلايا ورزايا تداولتنا ، والدنيا تمحونا وتطوى ذكرانا طيا . واذا نظرنا الى هذا البناء ، بحثنا عن اسه ، أهو هواء ؟ وبودنا ان نعلم فورا

ما الخالق وما الخلق وما سر ايجاد هذا الوجود)

وهذه المنظومة تخلو من ذلك التعسف الذى اظهره ادهم باشا فى ترجمة المنظومة الأولى . اما مؤلفاته فكتاب اطلاق الأفكار فى عقد الابكار وفيه يفند آراء الأوربيين فى تعدد الزوجات . واشترك مع غيره فى ترجمة تاريخ للصليبيين ، وعنوان هذا الكتاب (الأمر العجيب فى تاريخ اهل الصليب) كما ترجم مقالا عن البقاء الشخصى والنوعى لجان جاك روسو . وله كتاب النباح ، وهو يرد فيه على مقالات نشرها شناسى افندى فى جريدة تصوير افكار متحدثا عن وجوب التخلص من كلاب استانبول الكثيرة . وقد مزج ادهم باشا فى هذا الكتاب الهزل بالجد .

وعلى ذلك ، يرجع فضل التجديد فى الأدب التركى الى عاكف باشا وادهم پرتو باشا ، فقد جدد الأول فى معنى الشعر ، اما الثانى فجدد فى وزنه واطلع قومه على ادب جديد بما ترجم من منظوم ومنثور

* * *

اما شيخ المجددين بحق ، فشناسى افندى . والفرق بين بينه وبين الوزيرين المجددين . فكلاهما من رجال الدولة واهل الحول والطول ، وادبهما لهما لا لغيرهما ، بمعنى انهما لم ينتظرا أن يأخذ

عنهما آخذ ولا ان يقتدى بهما مقتد . اما شناسى فقد ادرك نه حرفة الادب وكرس كل جهده ليجدد ويؤسس مدرسة أدبية تنحو بالأدب التركى نحوا جديدا ، فكان المعلم الأول ، واساطين النهضة الادبية الحديثة من البلغاء تلامذته وخريجوه . وهذا فضل له أى فضل .

ولد شناسى عام ١٨٢٤ وأخذ من كل علم بطرف بعد مقتل ابيه اليوزباشى الذى خلفه يتيما فى الثانية من عمره . قيل انه حفظ القاموس التركى عن ظهر قلب ، ثم درس الفرنسية على رشاد بك وهو فرنسى من هؤلاء الفرنسيين الذين رقت للاسلام قلوبهم فى عهد السلطان عبد المجيد ، وقد حبب اليه ان يرحل الى اوربا فى طلب العلم ، فكان ذلك حلما لم يفق منه الفتى . وشاء الله ان يحظى شناسى بشرف المثول بين يدى السلطان ، فيعجب مولاه بما يلوح عليه من آيات الفطنة ويرى الخير فى ايفاده الى اوربا ليعود منها الى بلاده بما يعين على رقيها ونهضتها . وصدقت آمال شناسى فرحل الى باريس ولما يبلغ العشرين ، وكان مشرق النفس عظيم الامل فى غد سعيد جديد ، ففى احدى رسائله الى امه يقول (لشد ما يشوقنى ان اكون فداء دينى ودولتى ووطنى وملتى) (١)

---

(١) اسماعيل حبيب ، تورك تجدد ادبياتى تاريخى ص ١٠٨

ودرس العلوم المالية ، الا ان هذه الدراسة لم تصرفه عن الآداب وحرثها ، فوصل اسبابه بأسباب كثير من علماء الفرنسيين وفى طليعتهم المستشرق الشهير دوساسى الذى عرّفه بالشاعر لامارتين فداوم على حضور مجلسه الادبى (١) كما خالط رنان وهو من هو فى رجاحة عقله ودقة فكره . وكان منهوما بالعلوم والآداب ، فلما نال بعض ما تمنى بعد ان قضى فى باريس اربعة من الاعوام ، رجع الى استانبول . وقام فى نفسه ان يعود الى منصبه فى وزارة المعارف ، غير انه رأى فى الاشتغال بالصحافة خير وسيلة لنشر افكاره النيرة ، فاصدر جريدة (تصوير افكار) مرتين فى كل اسبوع وقد وصله السلطان عبد العزيز بخمسمائة جنيه اظهارا لتقديره ورضاه ، الا ان شناسى استعفى من قبول هذا المال وكتب اليه يقول (لاحاجة بى الى شراء شيء له هذه القيمة !) وقد ادى بها اجل الخدمات للنهضة الحديثة فى كل نواحيها ، لانه كتب فى الادب والعلم والفن والاجتماع . وهو سهل العبارة قصير الجمل ، وقد سما نثره باللغة التركية واساليبها (٢)

---

(١) Mahmud Kemal Inal, SonAsirTürk Sairleri,S 1837 Cüz 10 (Istanbul 1940)

(٢) Murat Uraz, Sair ve Ediplerin Hayati , S 62 (Istanbul)

وجاء فى مقال له عن استانبول (انما مدينتنا عاصمة ، ولن تكون الا رأسا لدولة . من ملكها فهو مقتدر على ان يحكم الدنيا. انها دار ملك ، وقد اصبحت فى ايامنا هذه حجلة لعروسين هما العقل الاسيوى الشيخ والفكر الاوربى البكر. واذا ماعرض شاعر لوصف جمال طبيعتها ، افما كان يصطنع مثل هذا الخيال؟ انها واقعة على ساحل البحر تجاه آسيا ، فهى تمتلك البحار. وليس لها من نظير تحت الافلاك اللهم الا صورتها فى صفحة مياه شديدة الموجان . وقد طارت فى الآفاق شهرتها فسحرت السامعين ، ومحال الا يعشقوها بآذانهم ، ويرغبوا فى رؤيتها بعيونهم ، ولا جناح علينا ان نسميها حسرة الأمم ، وان مدينة لها هذه الشهرة لجديرة بكل تحصين وتطهير وتزيين وتنوير)

فهذا كلام لايعاب ، لأن صاحبه يعرض الحقائق والآراء ثم يزينها بشىء من جمال الخيال ليكون قوله آخذ بالقلب وأوقع فى النفس ، وله جانبان ، جانب المنطق وجانب العاطفة ، ولا يطغى أحدهما على الآخر ، وهذا سر اتساقه واتزانه وجودته . وليس من المبالغة فى شىء أن يقول پاول هورن ان جريدة تصوير أفكار قد عينت أسلوب النثر الحديث ووضحت معالمه (١) وقد

---

(١) Paul Horn, Geschichte der türkischen Moderne, S 10 (Leipzig 1902)

شبه مسلكه الأدبي بقاعدة هيكل عظيم من الصم الصلاب تأنقت يد المهارة في نحته وصقله وبهت كل من شاهده لعظمته ومهابته. ونثره خلي من كل عيب ولا عهد للترك بمثله (١)

وما شناسي أفندي بشاعر عظيم، فليس له ماللفنان من رهافة الحس واتساع الخيال واتقاد العاطفة، وهذا طبعي من أمره، لأن الصحفي مثله وقاف عند الحقائق، يخاطب العقول ولا يناجي العواطف إلا بالقدر الذي يسمح له بتحسين الكلام. والصحفي ناقد قبل كل شيء فكيف يهيم في الأخيلة والرؤى؟ بيد أن شعره على أعظم جانب من الأهمية التاريخية، لأنه ترجم شعرا لشعراء من الفرنسيين فأطلع الأتراك على ماليس لهم به علم. ولما نشر (منتخبات) سنة ١٨٥٩، كان ذلك حدثا مذكورا في تاريخ الأدب التركي أعجب به المتأدبون وابتهجوا، لأنهم رأوا لغتهم تتسع لمثل ما طالع بعضهم في الفرنسية. وهو أول من أدخل على الشعر والنثر ألفاظا لم تجر للترك من قبل على قلم ولا لسان، كقانون وحرية ووطن ودولة. فقد كان الترك معتزين باسلامهم لا بقوميتهم، فإذا ماخرجوا للقتال فقد تحرك جيش الاسلام

---

(١) Mahmud Kemal Inal, Son Asir Türk Sairleri, Cüz 10,S 1842 (Istanbul 1940)

للجهاد ، أما سلاطينهم فكانوا مستعلين متسلطين، اشارتهم حكم وطاعتهم غنم ، ومن ثم ضعف الوعى القومى عند الترك ، وفشلوا عن كل حق لهم فى الحرية والعدالة (١) وكأن شناسى قد أحيا فى النفوس آمالا ، وحرك فى العقول أفكارا .

ولنا أن نقسم شعره إلى ثلاثة أنواع ، شعر يضرب فيه على قالب القدماء من شعراء الترك ، وشعر يتناول فيه معنى جديدا ، ثم هذا الشعر الذى ترجمه عن شعراء الفرنسيين . أما شعره التقليدى ، فنضرب عنه صفحا ، لأننا انما نريد أن نتصور شناسى مبتدعا مبتكرا من جهة ، ولأن معظم هذا الشعر معتسف عن جادة البلاغة لايثبت على السبك من جهة أخرى . ومن معانيه المبتكرة قوله تحت عنوان حكاية التناسخ (فيلسوف مغمور خامل الذكر ، خال نفسه فيثاغورس العصر ، فاعتقد تناسخ الأرواح ، واعتمد على تفسخ الأشباه . وقال كل ذى ذنب يبصبص ، ستكون له يوما صورة آدمى . وسمع عاقل ذلك من كلام هذا الثور ! فألجمه كأنما حشا فاه علفا بقوله ، كيف لا نؤمن بهذا المذهب أيها الانسان ، وأنت على ذلك دليل وبرهان !)

---

(١) راجع كتابنا من ادب الفرس والترك ص ١٤

فشناسى يتحدث عن نظرية داروين التى عرفها فى دراساته الأجنبية ، والظاهر من كلامه أنه يسخر منها ويزرى على صاحبها، ومهما يكن من أمره ، فقد ضمن الشعر التركى رأيا لعالم من علماء الغرب ، وهذا كل مايستحق الذكر . وله مايسميه (عرض محبت) وهذا عنوان لانعهده عند شاعر قبله ، واسم لا نصادفه فى اللغة التركية وهو ترجمة لما يعرف عند الفرنسيين : Declaration أى الاعتراف بالحب ، ومن قوله فى ذلك (هام الفؤاد بحسناء لاتتفتح العين على مثلها فى الملاح ، وإن قلبى ليحسد عينى ! ما أجمل نهدين يزينان صدرها ، كأنهما زهرتان فى غصن رطيب . وإذا ماضممت هذا الصدر بلهفة إلى صدرى ، فلا تحسبن ذلك يشفى لوعتى ويطفىء حرقتى . ان هذا القوام أبهى من الياسمين وأرق ، وإذا ماضممته كاللبلاب [1] تأود لعناقى . ولقد انصرفت نفسى عن الملائكة وحور الجنان ، منذ خفق قلبى لذات الحسن الفتان . وإذا ماأسكر الهوى عينيها الناعستين ، فانهما تفيقان من سقوط دمعتى على وجنتيها . ألا تذوب كبدى لفتكات هذا الطرف المخمور ؟ وإن لفظها المعسول ليثير فى القلب شوقا وحنينا .

(١) من اسماء اللبلاب عند العرب عاشق الشجر .

وورّد خدها الخجل من حسنها ، فاستتر وجهها بشعرها . لقد عصف الوجد بجوانحى ، وأنا أحن الى هذه "الغدائر . فهل كان هذا شأن المجنون مع ليلاه ؟ سأحفر قبرى بيدى قبل أن أموت حبا ، واكتب على صفائحه بدماء عينى)

فشناسى فى هذا الشعر لايورد من الألفاظ الفارسية إلا قليلا لايذكر ، ويقول أو يقول ناشر ديوانه ان البيت الأول والسابع من هذا الشعر بالتركية الخالصة ، أى التى تخلو من الألفاظ العربية والفارسية (١) ، وحبه انسانى لا صوفى ، أما تلك المعانى والأخيلة التى توارد عليها القدماء ، فقد تجافى عنها ، وهذا منه خلق وتجديد .

كما تأثر الشاعر الفرنسى لافونتين صاحب تلك القصص المشهورة التى يجرى فيها القول الحكيم على ألسنة الحيوان ، فنظم قصصا من هذا النوع بالتركية وكان أول شاعر أدخل قصص الحيوان على شعر الترك . وله حكاية الحمار مع الثعلب التى يقول فيها (خرج حمار من كرمة ، وعليه حمل من عنب ينقله إلى البلدة فظهر له ثعلب جوعان تشتهى كبده مثل هذا العنب الطازج الناضج ،

---

(١) ديوان شناسى ، ص ٤٣ (قسطنطينيه ١٣٠٣)

واقترب منه فدفعه الحمار عنه برفسة خفيفة ، ولكن سرعان ماعاد الصفاء بينهما . قال الثعلب : أى بأس فى اقترابى منك أيها الأسد المصور ، فأنا أريد رؤيتك لشدة اعجابى بحسنك . أدام الله على مولاى ظل اللطف والكرم ، ان الزهر لينبت فى كل موضع وطئه بقدمه ، وإن لذيله ريحا كريح المسك الأذفر ، وأود شمه ان كان سيدى لايضرب أنفى . ان عينيك الناطقتين لتدلان على علمك وعرفانك ، والكلام الموزون المقفى يطيب فى فمك . فنهق الحمار من فرط السرور ، وكأنه وجد قشرة بطيخة او حسكة خضراء ! ـ ومضى الثعلب فى هذا الكلام العذب حتى ساقه إلى رأس بئر ، وقال هذا مكان جميل فيه علف ، ولكنه ضيق الباب فما العمل ، لايمكن الدخول بالحمل . وهنا أتن كثيرة لا نظير لها فى حسنها ، لو رأيت واحدة منها لهمت بها . ونظر الحمار فى مرآة الماء ورأى صورة وجهه فتحلب ريقه ـ وقال الثعلب : اطرح الحمل هنا واهبط ؛ وأنا تابعك كخادمك . ونزل الحمار فورثه الثعلب وترحم عليه !)

فهذه القصة من قصص الحيوان تذكرنا بكتاب الحمار لشيخى ، بيد أن الفرق واضح بين الشاعرين ، فشيخى انما روى ما جرى له مع أعدائه وشبههم بالحيوانات ذهابا منه إلى الهجاء والسخرية ،

أما شناسى فيؤلف قصصا من نسج خياله ليشرح حكمة ويسوق مثلا ، وهذا كل مايريد ، كما أنه يجرى على منهاج الشاعر الفرنسى لافونتين المبرز فى هذا الفن ، ومن ثم فلا وجه لاعتبار شيخى أسبق إلى هذا اللون الأدبى من شناسى بعد أن حددنا الفرق بينهما.

أما ما ترجم عن الفرنسية من أشعار فضمنها كتابا بعنوان (ترجمة منظومة) . وفيه قصيدة الذكرى للامارتين وقصة الذئب والحمل للافونتين ، وقدر من اندروماك واستر واتالى من تمثيليات راسين ، وبعض قطع لجابر وفلون . وقد نشر المترجمات مع أصولها ، واضطرته قيود الوزن والقافية الى اضافات اشار اليها ، وان هذه الاشارة منه دليل على دقة نظره فى الألفاظ والمعانى (١) .

وإذا تجاوزنا كتابته وشعره ، وجدناه مؤلفا مسرحيا كذلك ، فهو صاحب (زواج الشاعر) وهى تمثيلية هزلية ، تعد الأولى من نوعها فى أدب الترك ، وقد نقد بها حال المرأة المسلمة فى عهده ، وعرف المستشرق المجرى فامبرى قيمتها فترجمها إلى الألمانية عام ١٨٧٦ ، وجعلها ضمن كتاب له بعنوان (صور من عادات الشرق) (٢)

---

(١) Mustafa Nihat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi S 21.

(٢) Vambéry, Sittenbilder aus dem Morgenlande (Berlin 1876)

وتدور قصتها على شاعر يسمى مشتاق بك يريد أن يتزوج قمرى خانم التى يهواها. ولقمرى خانم أخت دميمة عانس تكبرها. وإذ كانت التقاليد لا تجيز أن تتزوج الصغرى قبل الكبرى، أراد أهل الفتاتين أن يخدعوا مشتاق بك ليلة العرس ويزفوا اليه الاخت الدميمة. ويفطن مشتاق بك الى تلك الحيلة، ويحاول التمسك بحقه غير أن اهل العروس يتضافرون عليه فيضعف عنهم. ثم ينقذ موقفه رفيق من رفاقه يقال له حكمت بك بعد أن يرشو القائم بعقد الزواج. وقد ظهرت هذه التمثيلية أول ما ظهرت عام ١٨٥٩

وله كتاب الامثال، وقد قال فى مقدمته (الامثال حكم تجرى على ألسنة العوام، فهى تصور ماهية أفكار الشعب. والامثال العثمانية فى جملتها غزيرة المعانى، ولذلك رتبتها على حروف الهجاء بعد أن طرحت منها ما خشن تعبيره، وأدرجتها فى هذه المجموعة، كما أوردت بعض ما يقابلها فى العربية والفارسية والفرنسية مع ترجمتها، او مع أبيات تركية تتضمن امثالا، وذيلتها بعبارات منثورة كذلك فى مقام الاستدلال (١)

---

(١) شناسى، ضروب امثال عثمانيه، ص ١ (قسطنطينيه ١٢٨٧)

فمن يريد ان يعرف روح الشعب وعقليته من امثاله ، لابد ان يكون قد الم بأصول البحث الادبي على المنهج الاقوم ، وهذا اتجاه دراسي جديد على عصره . ومات شناسي في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٨٧١ ، بعد ان ارسى اساس التجديد ، ورسم لابناء الجيل المقبل من البلغاء منهاجا يجرون عليه .

ooo

وبعد شناسي افندي يذكر ضيا باشا ، ذلك الوزير الذي كان لحركة التجديد سهمة من جهوده الادبية والعلمية . والناظر في شعره يجده قديما في مبناه ، فكل اشعاره على غرار ما قال القدماء شكلا وجرسا ، الا ان شعر الباشا جديد في معناه ، فقد ترنم بالمعاني العصرية بعد ان حبسها في اطار قديم ، ولذلك سهل شعره في افهام القراء من كل الطبقات . ولا نعرف بين المجددين مجددا قد انتقل من القديم الى الحديث بيسر وهدوء كما صنع ضيا باشا (١)

وكتاب (اميل) للكاتب الفرنسي جان جاك روسو ، مما ترجم ضيا باشا عن الفرنسية ، وقد صدره بمقدمة عن التعليم

---

(١) اسماعيل حبيب ، تورك تجدد ادبياتي تاريخي ص ١٢٣

والتربية فى تركيا ، وتحدث خلالها عن طفولته وتربيته ، واذا عرضنا نتفا منها فقد عرفنا كثيرا عن حياته ، ولا يفوتنا ان نشير الى تأثره فيها بروسو فى اعترافاته . يقول ضيا باشا (فى ذهابى الى المدرسة والاياب منها ، كان يرافقنى عبد لنا فى السابعة عشرة او الثامنة عشرة من عمره يدعى عمر ، كما كان يقضى لمن فى الدار حاجتهم من السوق . وقد طبع العبد على السرقة فى بلاده ، فكان اذا حل موسم الكراز والعنب ، مضى معى الى الكروم ، فسرق ماوصلت اليه يده من الثمار واكلنا معا . وكنت فى السادسة او السابعة من عمرى ان صدق حدسى . وذهبنا ذات يوم الى كرمة تسمى (ذات الحوض) وكانت للقبطان الاسبق داود خليل باشا وقد احاطها سور من اشجار شائكة ، فلم يجد العبد منفذا للدخول وان تمكن بعد لأى من ان يفرج عن منفذ ضيق بين اشجار السور بعصا فى يده . وقال لى : هذا المنفذ لايتسع لى ، انت صغير فادخل واقطف العنب القريب منك ثم ناولى اياه لنأكله معا ، فقلت حسنا واندفعت الى الداخل وجعلت اقطف العنب واتفق ان قدم الباشا للصيد ، ومن عجائب المصادفة ان يقع هدفه فى الموضع الذى اغرت عليه ، فرآنى وكان له قواس يدعى احمد بك طالما ارتعدت فرائصى من رؤية شاربه العظيم ، وكان مع الباشا

فى ذلك اليوم . فاشار الىّ وارسله ليعودنى اليه . وبينما انا فى شغل عما يدور حولى بقطف العنب ومناولته للعبد من فرجة السور ، إذ بآت يأتى فجأة من ورائى ، فيضمنى اليه ويمضى بى الى الباشا ، فما فزعت وما علمت باى كلام أمنى . وقدم الباشا الى اطباقا من العنب كانت امامه وكلفنى بالأكل ، فاذهب لطفه عنى الروع والفزع وجعلت آكل من غير تكلف . ثم سألنى عن اسم ابى وموقع دارنا فاجبته ، ولما اراد ان يعرف الدافع لى على السرقة ، خبرته خبر العبد معى ولم اقل الا حقا، فسر كثيرا لصدقى ووضع فى يدى نقودا عظيمة القيمة ، ثم كلف احمد بك بايصالى الى دارى)(١) ودارت الأيام فالحقه ابوه بمدرسة فى استانبول، الا ان اباه كان ضئيل الحظ من العلم ، فحذره من تعلم اللغة الفارسية بعبارة مسجوعة يتفكه الترك بها وهى (من درس الفارسية ضاع نصف دينه !)(٢) كما عهد الى من يدعى اسماعيل آغا ان يؤدبه ويقوم على تربيته وكان اسماعيل آغا مشغوفا بالشعر

---

(١) Ismail Hikmet, Ziya Pasa, Hayati Ve Eserleri, S6,7 (Istanbul 193?)

(٢) لا يخفى ان هذا رأى جهال العوام الذين كانوا يعتبرون الفارسية لغة التصوف والبدع التى ما انزل الله بها من سلطان

والأدب ، فحبب الى الفتى ان يتعلم الفارسية اسوة بكل اديب تركى .
ونعود الى تلك المقدمه التى حدثنا فيها عن نفسه ليقول لنا: (كان مؤذن شديد الولوع بالشعر على ضعف كتابته التى لم تـكن تفهم الا بعد جهد لـكثرة الاخطاء الاملائية فيها . وقد علقت بحفظه ابيات من شعر عاشق عمر وجوهرى [1] فكان ينشدها فى مناسبة وفى غير مناسبة، كما فاضت قريحته بما يشبه القطع والغزليات. وما انس لا انس ليلة جلست فيها قبالته لطحن (البلغور) [2]. فلما جاء دورى فى تحريك الطاحونة وحركتها ، رأيت عينيه تهملان ، لقد كان يبكى. وقلت له فى ذلك ، فرد على بقوله . انت لا تزال طفلا فلن تفهم وعاودته بالمسألة ، فلم يجد عن الاجابة ندحة وقال : اتعلم مايقول لسان هذه الطاحونة ؟ وكنت لم أسمع للطاحونة كلاما بعد، فاخذتنى الدهشة وحملقت فى وجهه قائلا : بالله الا ما خبرتنى كيف تتكلم الطاحونة . فتنفس من كبد حرى وقال : نعم انها تتكلم، وهى افصح منا لسانا واغزر عقلا ، غير اننا فى حاجة الى آذان تسمعها ، فلسان حالها يقول : أيها الغافلون الناظرون الى، افتحوا

(١) شاعران متجولان من شعراء العوام

(٢) البلغور فى التركية هو مانسمية البرغل

عيونكم فأنا مثال لهذه الدنيا ، فالحبوب التى تضعونها فى أشبه شىء بأهل دنياكم ، وانا اسحقها بين حجرين بدورانى ، حتى إذا ماوصلت الى مرتبة الكمال لتصبح (بلغور) دفعتها الى الخارج ثم اصنع ماصنعت بها مع مايلقى فى من حبوب . وهكذا الدنيا تطحن من وردها من الانام بصرف الزمان بين أرضها وسمائها حتى إذا كمل الواحد منهم ونال ماقدر له . دفعته الى القبر) (١)

ويمضى ضيا باشا فى سرد قصته مع مؤدبه اسماعيل آغا ، فيقول ان تشبيه الطاحونة بالدنيا قد احثه على دراسة الفارسية ورغبه فى ان يكون شاعرا من الشعراء . ولما آنس فى الفتى هذا الشوق المتقد ، عرفه الشعر ماهو ، وتمنى له ان يكون من قالته كما اوصاه أن يقول فى النعت النبوى تبركا ، ويجعل الرديف (يارسول الله) ونجتزىء بهذا القدر من خبره مع مؤدبه ، بعد ان عرفنا الكثير عن حال التربية والتعليم فى ذاك الزمان ، واطلعنا على راموزين من نثر ضيا باشا ، وهو سهل ممتنع لا أثر فيه لسجع ولا بديع ، وأشبه بخبر يرويه متكلم منه بسيرة يجرى بها قلم كاتب من أعيان البيان .

---

(١) Ismail Hikmet, Ziya Pasa, Hayati Ve Eserleri, S 11,12.

واسند اليه منصب كاتب فى الباب العالى وله من العمر سبع عشرة سنة ولبث فى منصبه هذا احد عشر عاما ، فظهر من آيات الفطنة ما أثار عجبا واعجابا ، وحبز الشعر وديجه ، فارتفع فوق الأقران درجات . الا انه كان حريصا على قضاء لبانات الشباب فركب هواه وغلا فى جهالته وشرب من المدامة بالكبير وبالصغير ، وفى سنة ١٨٥٤ جعله الصدر الأعظم رشيد باشا من خواص كتاب السلطان عبد المجيد . فاقصر عن باطله ولوى عنانه . وأصبح له من الوقار ما يليق بمنصبه الجليل فى القصر السلطانى ثم وجد مس الحاجة الى أن يكون ذا حظ من لغة أجنبية ، فدرس الفرنسية وشحذ لها كل عزمه حتى تأتى له بعد ستة أشهر من دراستها أن يقتدر على ترجمة كتاب منها بعنوان تاريخ الأندلس لفيادرو . ومن شعره فى الدعوة إلى دراسة لغات اوربا قوله

(إذا أردت أن تحيط علما بالدنيا ، فلابد من تعلم لغة اوربا . لقد برز القوم فى الفنون ، فلا تحجم عن الدرس والتحصيل . انت حقيق أن تلم بعلم تلك البلاد ، فدع عنك جنون التعصب . لن يكون الشاعر شاعرا الا بذلك ، ولن يكفر الانسان باللسان ! ابذل فى التحصيل الهمة ان كنت ذا حمية . واكثر من ترجمتك لتنفع بها أهل وطنك)

فهذا الشعر يصور الحياة الثقافية عند الترك فى زمان التحول من عهد قديم الى عهد حديث ، ويدل على ان النهضة انما قامت على لغات الغرب وعلومه وفنونه ، كما يبين لنا موقف الرجعيين والتقدميين من التمدن الأوربى الذى قدر له أن يحل محل التمدن الآسيوى . وقد حظى عند السلطان عبد العزيز وأراد أن يصحبه فى رحلته الى أوربا ، غير ان الصدر الأعظم عالى باشا كان رجل سوء ، فثبط السلطان عن ذلك لحقد يملأ نفسه على ضيا . وزايل القصر ليقبل على حياة الجهاد السياسى . وفى سنة ١٨٦٥ تألفت جمعية العثمانيين الجدد ، كما يقول الأتراك ، أو جمعية تركيا الفتاة كما يسميها الأوربيون ، وقد اتخذت لها مبدءا هو العمل على الظفر بالدستور والحد من تسلط السلاطين ، فوجد مجالا فيها وسرعان ما تبوأ مكانه بين رؤسائها . وعمل الصدر الأعظم عالى باشا على وأد هذه الجمعية وهى فى مهدها فرأى ان يفرق أعضاءها ايدى سبا ، ونفى كثيرا منهم . واسندت الى ضيا باشا ولاية جزيرة قبرس ، الا انه رفض الرحيل الى الجزيرة لما عرف ان النية مبيتة على دس السم له . واتفق فى هذا الوقت أن سخط الأمير المصرى مصطفى فاضل باشا على الحكومة التركية لأنها حرمته حقه فى وراثة عرش مصر ، وأراد أن يهاجم الصدر

الأعظم وحكومته فى الصحف أثناء مقامه فى اوربا ، ورأى أن يكل هذه الحملة الى كتاب من الأتراك يتعصبون على عالى باشا. فدعا ضيا باشا ونامق كمال بك الى اللحاق به فى فرنسا . ورحلا الى الأمير لخدمة قضيته ، بعد أن عاهدهما على امدادهما بحاجتهما من المال ، ولـكن سرعان ما انفض الشر الذى كان بين الأمير والباب العالى ، فاستغنى عن صاحبيه واخلف ما كان من وعد. ورحل ضيا باشا وكمال بك الى لندرة ، واشتغلا بالصحافة فاصدرا جريدتى المخبر والحرية . ولم يعد ضيا باشا الى استانبول الا بعد موت غريمه الصدر الأعظم . ومنح رتبة الوزير فى عهد عبدالحميد وارسل الى سورية واليا عليها والغرض ابعاده عن استانبول. ثم صغرت رتبته فعين حاكما لاطنه وتوفى بها فى مارس من عام ١٨٨٠ وقد اسلفنا انه ترجم اميل وتاريخ الأندلس ، ونضيف الى ذلك تاريخ محاكم التفتيش ، وتلماك لفنلون ، وتارتوف لمولبير التى جعل عنوانها «عاقبة الرياء» وترجمها نظما بشعر مرسل

أما كتاب خرابات الذى أشرنا اليه اكثر من مرة فيقع فى ثلاثة مجلدات. ويمكن تقسيمه الى قسمين، المقدمة والمنتخبات. والمقدمة فى خمس وعشرين صفحة ، وقد تناول فيها توحيد البارى والمناجاة ، ثم النعت النبوى ، ثم سبب ترتيب خرابات

ثم احوال شعراء الترك ، واحوال الشعر وشروطه ، واحوال شعراء ايران . وتحدث بعد ذلك عن احوال شعراء العرب ، واما فاتحة هذه المقدمة المنظومة فالتحدث بالنعمة وطلب المعذرة.

اما قسم المنتخبات فمن شعر شعراء الفرس والعرب ، والترك الجغتائيين والعثمانيين من الاقدمين والمحدثين. وقد ارخ ضيا باشا فى المقدمة شعر العرب والفرس والترك ، ويعتبر ماقاله عن شعراء الترك أقدم تاريخ للأدب التركى(١) . وقد نقد نامق كمال بك هذا الكتاب او نقضه بكتابين هما تخريب خرابات والتعقيب على خرابات . ولا يفوتنا ان نقول ان نامق كمال بك قد مزج النقد بما فى نفسه من حقد وسخط ، لأنه كان يضاغنه ويشاحنه ، وهذا مايغض من قيمة هذا النقد ، فجميل العدو غير جميل ، ومن طلب عيبا وجده .

ويذهب اسماعيل حبيب الى ان ضيا باشا لم يوفق تمام التوفيق فى انتخاب كل ماانتخب من شعر ، ويقول ان قيمة هذا المؤلف ترجع الى مقدمته المنظومة (٢)

Ismail Hikmet, Ziya Pasa, Hayati Ve Eserleri,S96(١)

(٢) اسماعيل حبيب . تورك تجدد ادبياتى تاريخى ص ١٤١

ولضيا باشا كذلك رسالة صغيرة يسميها «رؤيا» ، وقد كتبها اثناء مقامه فى لندره وضمنها آراءه السياسية . واذا ما نظرنا فى شعره ، رأينا ان اشهر ما نظم (ترجيع بند) ذاع امره ولم يبق من المتأدبين الا من حفظه ، يقول فيه ضيا باشا (هذا الفلك طاحونة بالبلاء تدور ، اما الانام فحبها المطحون . هى الدنيا شيطان مارد يأكل من اعقب . ياعجبا لهذا الدهر من مستقر ، من امعن النظر فى الكائنات . رأى احلاما او اخيلة او خرافات . كل ما فى الدنيا الى منتهى ، فالأشتية بعد الصيوف ، والربيع يتبعه الخريف . علم اليقين امر محال ، فكل ماصدق الانسان واعتقد ، فى حكم العقل بمشتبه مستعجم . اى حاجة الى كل هذا القراع والنزاع ، وحاجة المرء كسرة من خبز . لاترس يحتمى به تحت هذه القبة الزرقاء ، وكل ذرة فى الكون هدف لسهام القضاء . سبحان من تحيرت فى صنعه العقول ، سبحان من بقدرته يعجز الفحول)

وهذا الترجيع طويل ، ولعل اظهر ما فيه تشبيه الفلك بالطاحونة الذى عرفه ضيا باشا من مؤدبه فى سوالف الايام . ولا شك ان دوران هذا الشعر على الفناء والبقاء والقدر والقضاء مما قربه الى الفهوم وحسن وقعه فى النفوس ، فهذه المعانى تشغل

كل قلب وتحير كل لب ، والناس سواء فى تذوقها والطرب لها، وهذا ماجعل لرباعيات الخيام مثلا تلك السيرورة العظيمة .

وله منظومة تسمى « ظفرنامه » اى كتاب الظفر ، وقد نظمها اثناء مقامه فى باريس . فطالع الترك بلون من الهجاء لاعهد لهم به ، لأنه هجاء بالمعنى الذى يفهمه الاوربى . والمنظومة من ديباجتها الى نهايتها ، تهكم مرير وتهزؤ مثير ، ومديح يراد به المذمة . وهى قديمة شكلا وقالبا ولكنها جديدة معنى وغاية ، وتعتبر اروع واظرف واصدق مثال للآداب العثمانية فى جميع عصورها (١) وقد احتذى الباشا على طريقة الفرنسيين . ولم ينهج سبيل الهجائين من الاتراك كسرورى ونفعى . فالفرق واضح بين ظفرنامه وسهام القضاء مثلا التى حفل فيها من الفحش والهجر ماينبو عنه الذوق ويمجه السمع .

وضيا باشا يهجو بظفرنامه الخصوم السياسيين لجمعية تركيا الفتاة الذين كانوا كذلك خصومه الشخصيين ، وليس بخاف ان اولهم الصدر الاعظم عالى باشا . اما الغرض الظاهرى منها ، فتمجيد تلك الحملة التى اراد بها الصدر الاعظم اخماد الفتنة التى

---

(١) Jsmail Hikmet, Ziya Pasa, Hayati Ve Eserleri, S89.

قامت فى جزيرة كريت عام ١٨٦٧ . وهى اقسام ثلاثة ، ظفرنامه الاصلية وهى قصيدة ، وتخميسها ثم شرحها المنثور . وقد اجرى قسمها الاول على لسان فاضل باشا الذى نظم قصيدة يوم فر انصار الاصلاح من استانبول ، ويقال ان الصدر الاعظم اعجب بهذا الصنيع فولى فاضل باشا ازميد . اما القسم الثانى فينسبه الى خيرى افندى وهو من رجال الصدر الاعظم ، ثم يتخيل حسنى باشا صاحب الجزء المنثور ، وكان حسنى باشا رئيس الشرطة ومن أشد الناس عداوة لضيا باشا ، ومن قوله فى ظفرنامه (حبذا النصر ، ياله من نصر للملوك عظيم ، ونعما بالفتح ، ياله من فتح مبين رفعت له اعلام البشائر فكان ميمون الطائر . احر برستم وزال ان يرفعا الصوت قائلين ، بارك الله بارك الله ، ماهذه الكوكبة وما كل هذا العز والاقبال ! (١) كفى بالتاريخ شاهدا ، كم حروب هاجت ، وان اهل الأرض وملائكة السماء ليشهدون بأنهم لم يعهدوا نصرا بهذا الجلال منذ دارت الأفلاك - إذا كتب ، عجبت الدنيا كل العجب ، وإذا صنع شيئا بهت الناس طرا ، وحق لهم ان يعجبوا ويبهتوا ، لقد ترنم بتمجيد أعماله

---

(١) زال من ابطال الاساطير الفارسية وهو ابو رستم

ممتاز وفؤاد (١)، كما دل على فضله التقويم والجريدة(٢) لا حجاب بينه وبين سلطان الزمان، وما ضره الا يذكر اسمه على المنابر، فحكمه ماض فى كل مكان، وما السلطان الا اسم على طرف اللسان! وهو على عرش الحكومة آمر ناه)

وله (شرقى) يدل دلالة واضحة على تأثره بالشعر الفرنسى فهو يقول فيه (المساء يظلنا والشمس تمضى الآن من هنا، والراعى فى الوادى ينفخ المزمار حزينا حزينا، انت غض بض حماك من خلقك، الى القطيع لئلا يفرسك الذئب. تعال ياحملى الصغير آه لاتفارق من يحبك ايها العزيز. لقد جعل الله عبدا لك منى، فأنا حقيق بأن اعتفر العين والجبين فى تراب مررت عليه، صمم اذنك عن اراجيف العدا واستمع لى. الى القطيع لئلا يفرسك الذئب. تعال ياحملى الصغير، آه لاتفارق من يحبك أيها العزيز الضباب يحيط بالجبال من كل جانب، فرؤية العدو غير ممكنة. لقد نصب الصياد حبالته فلا سبيل الى الحبيب، وعديم الوفاء

---

(١) ممتاز افندى وفؤاد باشا من رجال الدولة فى هذا الوقت.

(٢) تقويم الوقائع صحيفة الدولة الرسمية، وجريدة الحوادث جريدة كانت تصدر فى استانبول

لاينادم على صهباء ! . الى القطيع لئلا يفرسك الذئب ، تعال ياحملى الصغير ، آه لاتفارق من يحبك ايها العزيز)

• • •

وعلى ذكر ضيا باشا يذكر رفيق جهاده نامق كمال بك الذى ساهمه التجديد والاحياء فى كل نواحى الحياة التركية من سياسية واجتماعية وأدبية . فقد جمعت بينهما جمعية العثمانيين الجدد التى قامت منهما على اهم دعامتين من دعائمها ، وتناولا حركة التنظيمات بمعظم ماخطت يراعتهما فى الوطن والغربة (١) وقدعمرت حياة نامق كمال بكثير من الأحداث والأعمال ، واتصلت الأسباب بينه وبين شخصيات متباينة ، منها المعمم والمطربش والمقبع ، وجالس الأمراء فى القصور كما ساكن القتلة فى السجون ، وأضاق فى اوربا حتى رأى ان يبيع ساعته ، وأوسع فى استانبول حتى ادرت عليه جريدته ثلثمائة دينار كل يوم ، وان فى وجه الانسان شبها من وجوه تحيط به ، وما حياته الا ماوقع له مع ما قدوقع لغيره (٢) ومن ثم كانت أهمية دراسة ذلك الرجل الذى يعتبر

---

(١) Ihsan Svngu, Tanzimat Ve Jeni Osmanlilar S 1 (Istanbul 1940)

(٢) Mithat Cemal Kuntay, Namik Kemal, S5 (Istanbul 1944)

أعظم قادة الفكر عند الترك ، فقد اتخذ من الأدب منثوره ومنظومه وسيلة تمكن بها ان يعلم قومه الوطنية ويبصرهم بحق لهم وواجب عليهم ، فأنار العقول وهز القلوب ، وكان لمبادئه وتعاليمه فى نفوس النشء من الأثر مالايمحى على طول الزمان . وقد جعل الشباب ، نحو ربع قرن فى عهد عبدالحميد ، يطالعون ويتفهمون مؤلفاته سرا وعلانية ، معرضين بذلك مناصبهم وحيواتهم للضياع ، فكانت السفينة تتلو الأخرى متجهة الى طرابلس أو اليمن ليعمر المنفى بمئات من اولئك الكماليين وجمهرتهم فتيان حدثان من تلاميذ المدارس (١) اما هو فمات منفيا فى جزيرة ساقز عام ١٨٨٨ .

ولد نامق كمال سنة ١٨٤٠ لأسرة عريقة فى الحسب منها الوزير الخطير والقائد المظفر والشاعر المفلق فورث عظمة العظماء وفضل الفضلاء وحصل العلوم على المنهج التقليدى القديم فكان حديد الفهم سريع الفطنة وشغف بالأدب ، وصاغ الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ثم عرف شناسى ودرس الفرنسية ومنذ ذلك الحين ، جعل يقترب من الجديد ويبتعد عن القديم ،

---

(١) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P 194.

واتصل الود بينه وبين شناسى شيخ المجددين ، وتوسم فى خريجه خيرا كثيرا ، فناط به ان يحرر معه فى جريدته (تصوير أفكار) ولما رحل شناسى الى اوربا سنة ١٨٦٥ استعهد من نامق كمال ان يقوم بأمر الجريدة ، وكان أمينا على الوديعة ، فأحسن الادارة وأتقن العمل . وبعد عامين لبى دعوة الأمير مصطفى فاضل ، فسافر الى باريس مع ضيا باشا ثم زايلاها الى لندره واصدرا جريدة (حريت) وعاد الى استانبول سنة ١٨٧١ فأصدر (عبرت) وعالج الكتابة فى كل موضوع يمس ناحية من نواحى الحياة التركية أعوزها الاصلاح . ففى عهد التنظيمات ساءت الحالة الاقتصادية سوءا شديدا ، وكان ذلك من أهم الموضوعات التى تناولتها أقلام العثمانيين الجدد وقتلتها بحثا (١) . ومما جرى به قلم نامق كمال فى جريدة حريت قوله (للثروة فى هذه الدنيا ثلاثة مصادر اولها الزراعة وما تنتجه من هبات الطبيعة . وان وطننا فى موقع جغرافى يجعله أهم نقطة بين قارات ثلاث ، وكان قديما للعالم كمخزن الميرة ، ومما يؤسف له جد الأسف ، ان تكون أرضنا طيبة زكية تخرج أحسن النبات وأوفر المحصول ، ولا نجد اليوم لقمة نتبلغ بها)

(١) Ihsan Sungu, Tanzimat Ve Jeni Osmanlilar, s 49

فنامق كمال يطرق هذا الموضوع الحيوى ويأتيه من بابه بنثر لا يعتبر فنيا لأنه سهل العبارة واضح المعنى وهو لغة الصحافة فى أكمل صورها . ومن قوله فى الوطنية (يحب الانسان وطنه بشعور هو عين الشعور الذى يحب به الرضيع مهده . والطفل ملعبه ، والشاب مكانا يرزق فيه ، والشيخ ركن فراغه وراحته ، والولد والدته . والوالد عياله . وليس هذا الشعور ميلا طبعيا لا وجه له ولا سبب ، فالانسان انما يحب وطنه لأن حياته وهى أغلى وأعز النعم تبدأ بتنسم هواء الوطن . وانما يحب الانسان وطنه لأن نظره وهو أكرم هبات الطبيعة يقع على أرض الوطن أول ما يقع ، وانما يحب الانسان وطنه لأن مادة جسمه جزء من وطنه . وانما يحب الانسان وطنه لأنه اذا تلفت حوله رأى فى كل ركن من اركانه ذكرى حزينة لعمره الماضى وكأنها قد تجسدت . وانما يحب الانسان وطنه لانه تلك المقبرة الساكنة لاجداده الذين كانوا سبب وجوده ، ومدرج اولاده حين تحتويهم الدنيا . وانما يحب الانسان وطنه لما بينه وبين مواطنيه من وحدة اللغة وتبادل المنفعة والالفة والمؤانسة ، وما ينبنى على ذلك من قرابة القلوب واخوة الافكار)

وقد يكون تكرير بعض الالفاظ والعبارات غريبا او مملولا

الا ان نامق كمال تشعرنا بهذا الكلام انه يقف من قومه موقف من يسمعهم مالم يسمعوا ويعلمهم مالم يعلموا ! ، لانه انما يشرح لهم معانى الوطن والوطنية والحقوق والحرية ، وما كان ابعدها عن اذهان اهل هذا الزمان .

وقد جاء فى وصفه لمدينة لندرة قوله (وأوجدوا عالما سعيدا بعقلهم وعلمهم وسعيهم ولو قايسنا بين عالمهم هذا وبين كل ما أحيط بآلاف المبالغات . وصورته اخيلة شعراء الفرس فى الهند والصين من قلاع الجوهر ، وقصور الذهب ، ومبرقش البساتين ، لما كانت الى جانبه شيئا مذكورا . نعم ، نحن لى يقين من انه ليس فى الامكان جعل استانبول كلندرة فى بضع سنوات ولا الروم ايلى كفرنسا . ولكن بما ان الاوربيين قد وصلوا الى هذه الحال من رقى فى بحر قرنين من الزمان ، كما أوجدوا بأنفسهم اسباب نهضتهم ، على حين وجدناها نحن تامة حاضرة ، فإذا ماشمرنا عن ساعد الجد . فهل من ريب فى اننا واصلون الى درجة من الرقى تضارع اسمى ماوصلت اليه بلاد العالم المتحضر بعد قرنين ؟ وهل القرنان الا كلمح البصر فى عمر الجماعات ؟) فهذه دعوة صريحة الى حياة حديثة اساسها العلم والعمل لا تلك الاحلام التى ترفع الى السماء قبابا من هواء وتنبت الزهر فى القفار

وتخرج النار من البحار . ثم يضرب المثل القريب ويحكم المنطق السليم ولا يقول الا حقا .

ووصف احد الكتاب جريدة (عبرت) وسلطانها على الشعب فقال ان الاتراك كانوا من غفلتهم فى سبات عميق، وقد ايقظتهم هذه الجريدة بما يشبه الرعد القاصف ، وكأنما كانت شمس المعرفة وراء حجاب صفيق من سحاب مركوم ، فمزقته (عبرت) كأنها ريح صرصر عاتية (١)

وبعد ان قرأناه صحفيا ومصلحا اجتماعيا ،نجده كذلك مؤلفا مسرحيا ، وهو ابو المسرح التركى كما يقولون . فنى اواخر عهد عبد العزيز المظلم ، والنفوس متحركة منبعثة فى جميع ارجاء البلقان ، اخرج نامق كمال للناس مسرحيته (سلستره) او (الوطن) عام ١٨٧٢ ، تلك المسرحية التى يمجد فيها ذياد الترك عن قلعة سلستره وهم يحاربون الروس عام ١٨٥٤ . وقد حدث الترك بها للمرة الأولى عن وطن لهم مستقل عن السلطان (٢) ولما شاهد الناس هذه المسرحية تحركت أعماق نفوسهم وطربوا لها كأشد

---

(١) رشاد ، كمال ص ٤ (استانبول ١٣٢٦)

(٢) Brockelmann.History of the Islamic Peoples, P390 (London 1949)

مايكون الطرب ، فارتفعت بالهتاف اصواتهم وهم يقولون يحيا كال ويحيا الوطن وتظاهروا وتجمهروا فى شوارع استانبول المظلمة وفى أيديهم المصابيح . فلما كان الغد القى القبض على نامق كال ونفى الى جزيرة قبرس . ولم ينفك الأتراك عن ذكر هذه المسرحية والاعجاب بها حتى بعد ظفرهم بالدستور عام ١٩٠٨ .

وتدور قصة هذه المسرحية على ضابط متطوع يدعى اسلام بك يخوض غمار حرب سلستره ، وتتبعه صاحبته زكيه خانم مستخفية فى ثياب الجند ، لأن اسلام بك خطب جنده قائلا : من أحبنى تبعنى . وقد خفيت شخصية زكيه حتى على من يهواها . ويجرح اسلام بك فلا يأسو جراحه الا من تبادله الغرام . وينتهى الأمر بالتعارف والزواج .

وهى من أربعة فصول ، واليك نهاية الفصل الأول :

متطوع : نحن هنا جميعا .

اسلام بك : أيها الرفاق ، لقد التففتم حول لوائى ، وانى بذلك لمزهو فخور ، وان كنت لا أدرى أراضون أنتم عنى أم غير راضين . أنا ذاهب الى القتال ، وقد عقدت العزم على أن أموت . أنا لا أنال على ذلك أجرا ، وعلى الراغب فى الأجر أن يخرج من زمرتنا ، ولا أمل لى فى غنيمة وعلى طالبها أن ينسحب ،

وقد وطدت عزمى على الأين واللغوب فعلى طالب الراحة ألا يتبعنى . ولا خشية لى من سيوف مجردة ولا سهام مسددة، فأولى بمن يخشاها أن يقبع مع أهل بيته . أتفهمون كلماتى، وتملكون أن تطردوا خشية الموت من قلوبكم ؟ أفى مكنتكم أن تحتبروا صدوركم قلاعا تحمى بلادكم ، أتذهبون لملاقاة الردى ؟ سنبذل أنفسنا عن وطننا والله حافظنا ، أما اذا لم يحفظنا فتلك حكمته وله الأمر من قبل ومن بعد ، الكم فى أنفسكم عظيم الثقة ؟

أيها الرفاق إنا الى شاطىء الطونة متجهون . الطونة حياتنا ، وإذا فقدناه فقدنا الوطن ، فما استطاع أحد أن يعيش فيه ، وقد يستطيع البعض ، كلا كلا ! ان هذا المستطيع لن يكون فى عداد الرجال ، فلا يمكن لرجل أن يعيش وهو يرى أمه تحت الأقدام . والرجل لن يعيش وهو يشاهد ولى نعمته تحت أقدام المهانة دون أن يحرك ساكنا ، الا ان يكون أحقر من كلب . أيها الاخوان ليس الانسان بأحقر من كلب .

ان الله يأمرنا بمحبة الوطن ، الطونه معناه الوطن فاذا ذهب أحدهما لحق به الآخر . وستجدون عظام آبائكم وأجدادكم أينما سرتم وتوجهتم على شاطئه ، واذا رأيتم السكدرة فى مائه ، فهذا الغرين ذوب أجساد من ناخوا عنه من أبطال أماجد . لقد عبر

الترك الطورانه يوم عرفوا برنين اسمهم ، لقد عبروه دفعات ، إلا انهم لم يستولوا عليه ، ومادام لهم وجود فى هذا الوجود فلن يغلبوا عليه . أأنتم على أتم الأهبة للموت من أجله ؟ أتقسمون بربكم على انكم ستتبعوننى ؟

المتطوعون - يميننا لانحنث فيها .

اسلام بك - من أحبنى تبعنى .

وهذا قدر من الفصل الثانى الذى يبدى فريقا من المتطوعين وهم جلوس فى جانب من قلعة سلستره ، وزكيه فى ثياب الرجال.

متطوع - الزموا الصمت الزموا الصمت .

متطوع آخر - ما الخبر ؟

المتطوع الأول - أما تسمع الموسيق ؟

المتطوع الثانى - علام هذه الجلبة ، الجيش قادم .

المتطوع الأول - كأنها نغمات حربية

زكيه - مادامت النغمات حربية فلنترنم بنشيد حربى .

الجماعة - لنترنم بأنشودة (الوطن شاغلنا عن أنفسنا واقباله مناط آمالنا ، ولنا من اشلائنا حصن يحمى حدودنا ، نحن العثمانيين زينتنا كفن ملطخ بالدماء ، والموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين رايتنا حسام دام ، ولا خوف من الموت

فى سهلنا ولا جبلنا . فالأسد رابضة فى كل ركن من بلادنا، الموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والأجساد لننال أعظم الأمجاد . ان للعثمانيين اسما يلقى الرعب فى كل القلوب ، ولأجدادنا مهابة تعرفها الدنيا بأسرها . لا تحسبن دماءنا تغيرت فدماؤنا هى دماؤنا ، والموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والأجساد لننال أعظم الأمجاد . ولهذه المدافع أن تقصف وتبعث بالنيران فى كل الأنحاء ولتفتح الجنان أبوابها للشهداء . ماذا أصبنا من حياتنا لنهرب من موتنا ! الموت فى الهيجاء أعز مالنا من رجاء ، نحن العثمانيين نبذل الأرواح والأجساد لننال أعظم الأمجاد)

ومن مسرحياته (كلنهال) وهو اسم بمعنى شجيرة الورد . وهى قصة حاكم من الحكام يقال له قبلان باشا كان ظلوما غليظ القلب وبلغ من قسوته أن يقتل أباه ، كما كان له ابن عم يسمى مختار بك وابنة عم تسمى عصمت . ويريد الباشا أن يأهل ابنة عمه ، غير أنها كانت محبة لابن عمها مختار بك . ويعلم الباشا بذلك فيغضب ويقسر الفتاة على الزواج بعد أن يسجن مختار بك . ثم يقتل الباشا كما تقتل كلنهال مربية عصمت . وبذلك تتحقق آمال مختار بك وعصمت . والمسرحية من خمسة فصول ، وهى أفضل

مسرحيات نامق كمال من الناحية الفنية (١) وقد أراد المؤلف أن يشبه قبلان باشا فى ظلمه وغدره بالسلطان عبدالعزيز.

وله (عاكف بك) وهى مسرحية من خمسة فصول كتبها فى سجنه بجزيرة قبرس تحدثنا عن ضابط بحرى يسمى عاكف بك، يخرج الى ميدان القتال بعد أن يترك زوجته (دلربا). وكانت دلربا غانية من الغوانى عرفها عاكف بك وتزوجها بعد أن عرفها كثير من الرجال. واتصلت الزوجة بمن يدعى أسعد بك أثناء غيبة زوجها. وسمعت بمقتل عاكف، فارتضت أن تتخذ أسعد بك زوجا. ولما سمع سليمان قبطان وهو والد عاكف بك بمصرع ولده ذهب الى دلربا وعرض عليها أن تقيم معه الا انها اهانته وتجهمته. ويظهر عاكف بك فجأة، ويقف على أمر زوجته فيطلقها. ثم لا يستطيع كظم غيظه فيقتحم دار اسعد بك ليلة الزفاف ويتقاتل الرجلان حتى يقتلا. ويبلغ ذلك سليمان قبطان فيقتل دلربا.

وكتب (زواللى چوجوق) اى الولد المسكين ليعالج بها مشكلة الزواج فى تركيا.

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimat Edebiyati, S 215

ونامق كمال قصاص كذلك ، فهو صاحب (انتباه) أو (قصة على بك) التى ظهرت سنة ١٨٧٤ وهى تصور لنا شابا ثريا متبطلا فى حياة تركية أصيلة من كل ناحية ، وهو ظاهر التأثر بالكاتب الفرنسى دوماس فى (غادة الكاميليا) أما (جزمى) فيحدثنا فيها عن أمير من أمراء القرم يؤسر فى ايران ويتعشق اخت الشاه .

اما كتاباته فمنها (اوراق پريشان) بمعنى الاوراق المتفرقة ، وهى مجموعة من فصول قصار عقدها عن تاريخ العثمانيين وصلاح الدين الأيوبى والسلطان سليم الاول [١] وهو يعالج كتابه التراجم على الطريقة الاوربية ، ويقول فى مقدمة هذا الكتاب انه لم يراع نظاما فى ترتيبه ففيه تاريخ ومعلومات سياسية وغير ذلك .

وله (مدافعه) التى دحض بها تخرصات الكاتب الفرنسى ارنست رنان الذى ذهب إلى أن الاسلام دين يتعارض مع المدنية الحديثة . وفى الرابع عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٩ ،

---

(١) هذه الفصول فى النسخة التى بين يدى من هذا الكتاب ، وهى مطبوعة فى استانبول سنة ١٢٨٨ . وقد أضاف منتزل اليها فصلين اولهما عن السلطان محمد الفاتح والثانى عن الامير نوروز . ولعله يملك من هذا الكتاب طبعة مزيدة انظر Menzel, Die türkische Literatur, S 300

رأى نامق كمال رؤيا عجيبة، وقص علينا ما رأى فى رسالة يسميها (رؤيا) فقال بعد ديباجة يصف الطبيعة بها أجمل وصف ، انه شاهد حسناء كأملح ما انت مشاهد حسناء تنفرج عنها السحائب فعرف فيها (الحرية) ثم وجه الخطاب الى مواطنيه وهو يحدثهم عن الحرية والوطنية والعدل والظلم . وكانت هذه الرؤيا لشباب الترك نور أمل فى ظلمة الجور واليأس . وترجم نامق كمال عن الفرنسية لروسو وكوندورسه وهوجو ولامارتين و مونتسكيو.

وبعد أن تحدثنا عن منثوره ، نتحدث عن منظومه ، فشعره أقل جودة من نثره وهو ينحو فيه نحو القدماء ، وإن طرق من المعانى مالم يطرقوا . وله ديوان ومجموعة من شعر الوطنية بعنوان (واويلا) وظفر نامه . ومن أشهر ماقال تلك القصيدة المعروفة بقصيدة الحرية التى يقول فيها (لما رأينا لهذا العصر أحكاما منحرفة عن جادة الحق وشرعة العدل ، آثرنا أن نبق على عزتنا فضينا عن باب الحكومة موفورين . من عرف معنى الانسانية بادر الى الانسان معينا مسعفا ، والمروءة كل المروءة ان تأخذ بيد المظلوم . وإذا ماحقرت الأمة وهان شأنها فما ذلك بضائرها شيئا فى شرفها ، وهل الجوهر فى التراب الا جوهر ؟ وإذا ما كانت مادة جسمك من تراب وطنك ، فأى بأس فى أن

يصبح ترابا فى سبيله من هول الجور والمحن . ولا يعين الظالم على ظلمه الا فسل دنىء ! ولا يسر الا الكلب ان يخدم صيادا لا رحمة له ولا نصفه . فى اتحاد القلوب بقاء اسباب النصر ، وفى اختلاف الآراء وتنافر الاهواء عفاء آثار الرحمة والعدالة . ان هذا العالم يدور بقوة عظيمة وعزم متين ، وانه ليتزلزل من اهل الثبات ! نحن اصحاب الهمم العالية والكد والجد ، وحسبنا اننا خلقنا هذه الدولة الكبرى من تلك العشيرة الصغرى . نحن اصحاب النفوس الأبية ، وإذا ماجد جدنا ، فتراب القبر اهون من تراب الذل عندنا . ولا نبالى بنار الهول ما دامت فى سبيل حريتنا ، ايفر انسان من ميدان الشرف والحمية خوفا على روح ! وإذا ما كان حبل الجلاد تنين الحين والعدم ، فلا شك انه يفضل قيد الاسر الف مرة . لله انت ايتها الحرية ما اجمل طلعتك ! سنظل أسرى هواك وان انطلقنا من كل قيد ، يا ساحرة القلوب وخالبة الالباب ، بالله لاتسترى هذا الجمال عنا ، وليبق حسنك ملء اعيننا الى ابد الآبدين)

فهذا مثال رائع من شعر الوطنية الذى يخاطب العقل والروح معا ولا يصدر الا عن رجل تمرس بالسياسة وحنكته التجربة فأحاط بكل شىء علما . ولا ريب فى ان هذه القصيدة لون جديد

من الشعر لم يعرفه الترك فى عصورهم الادبيـة المتقدمة ، وهى تفيدنا فى تأريخ عصر الشاعر وتصور نظام حكمه وحالة مجتمعه. ولنامق كمال نشيد وطني يقول فيه (هاهو ذا العدو امامنا شاكى السلاح ، فهبوا ايها الشجعان لنجدة الاوطان ، وتقدموا ثم تقدموا فالنصر معقود اللواء لنا ، وهبوا ايها الشجعان لنجدة الاوطان . ان مجد الوطن ورفعته فى ملاعبتكم للأسنة ، وبها وقاء البلاد والعباد ، وانى يكون لكم بالله خذلان الوطن ! فهبوا ايها الشجعان لنجدة الأوطان . الوطن امنا جميعا ، وقد رغمتنا رأما وتحدبت علينا ، ان العدو يوجه الى صدرها الطعنات والضربات ونحن فى عافية ! فهبوا أيها الشجعان لنجدة الأوطان . الجرح شارة الجدارة على صدور الرجال ، أما الموت فأعلى درجة يبلغها الجندى ، وظهر الارض كبطنها سواء بسواء ، فهبوا ايها الشجعان لنجدة الأوطان)

فهذا نشيد يلهب النفوس حماسة ويحرك الهمم ، وهو فى مسرحية الوطن . وقد علق عليه سليمان شوكت بقوله ان لغته تعتبر قديمة نسبيا (١) وهذا مالا يظهر الا فى بعض الالفاظ . وصدقت خالده

---

(١) سليمان شوكت ، يكى كوزه ل يازيلر ص ٦١ برنجى جلد (استانبول ١٩٢٨)

اديب وهى تقول (لم يبلغ احد ممن وقفوا جهودهم الأدبية على القضية الوطنية فى عهد التنظيمات مابلغ كمال) (١)

فمارأى الادباء ومؤرخى الأدب التركى فى عبقرية نامق كمال؟

إذا استعرضنا آراء الاتراك فيه رأينا أن منهم من يتنقصه ومنهم من يصرح بما له وماعليه. اما الاوربيون فيذكرونه بكل جميل ولا يغادرون صفة للمدح الا وصفوه بها.

فيقول شهاب الدين سليمان ان تمثيلياته ليست شيئا، وقصصه لا أثر فيها لقدرة ولا براعة، اما شعره فقديمه لا يفضل شعر نفعى وجديده فى مستوى شعر حامد، ولم يستطع أن يبذ هذين الشاعرين. ونثره مظلم، ودويه دوى طبل اجوف، وفيه أثر التكلف (٢) وقد خفف عنه الوطأة قليلا فى كتابه تاريخ الآداب العثمانية فقال انه كفنان وشاعر وقصاص بين المجيد وغير المجيد، اما نقده فلا قيمة له، وليس بالقصاص العظيم، فقصتاه جزمى وقصة على بك، يمكن اعتبارهما اى شيء آخر خارج عن القصص، وما اشبههما فى الخيال البدائى برسالتين مطولتين مثلا. وتمثيلياته

---

(١) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P194

(٢) اسماعيل حبيب، تورك تجدد ادبياتى تاريخى ص ١٤٧

لا تتوفر فيها شروط التمثيليات ، واشعاره بين بين . اما ما رفع منزلته فعشق الوطنية والحرية . ومع ذلك فنامق كمال صاحب قلم ولسان ، وله قدرة على الاقناع والمنافحة عن الرأى[1] ويرى مراد اوراز انه لم يكن فنانا عظيما ولا شاعرا عبقريا وان كان اعظم شعراء الوطنية[2] اما عند مصطفى نهاد اوزون فشعره اقسام ثلاثة ، شعر قديم شكلا وروحا ، وشعر قديم شكلا جديد روحا ومثاله قصيدة الحرية ، ثم شعر جديد فى شكله وروحه ومثاله (واويلا) ثم يقول انه اراد ان يدخل على الشعر التركى روحا جديدة ، وليس مجددا بالمعنى[3] وفى رأى محي الدين ان هذه الاحكام لا تخلو من افراط أو تفريط ، ومن الخطأ ابين الخطأ ان يقتصر على النظر الى جانبه الأدبى ، فقد كان الرجل مجددا وصاحب مبادىء قبل ان يكون اديبا ، وهو لذلك شخصية تستحق تقدير وتوقير الاجيال المقبلة ، اما من ناحية الادب الخالصة فعظيم كذلك ، لأنه من اعظم المجددين فى اللغة ، ولا

---

(١) شهاب الدين سليمان ، تاريخ ادبيات عثمانيه ص ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٧ .

(٢) Murat Uraz, Sair Ve Ediplerin Hayati, s 64

(٣) Mustafa Nihat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi, S 35,36

نظير اليوم لنثره الرصين الجيد(١) وبعد ان عرفنا آراء الترك فيه، نفسح المجال لعلماء الغرب فإن منهم من ينقض معظم هذه الآراء نقضا . يقول منتزل انه من اعظم المؤلفين الذين عرفتهم تركيا وهو خالق القصة التي يسيغها الذوق التركي(٢) ويذهب ولز الى انه اكبر أو من اكبر ادباء الترك المحدثين ، وقصصه تكاد تضاهي في الجودة قصص والترسكوت والكساندر دوماس(٣) ويتابع العالم الأرمني باصماجيان المستشرق الانجليزي جب على ان نامق كمال اعظم عبقرية تركية عرفها الترك في اكبر الظن ، لأن اللغة التي خلفها لمن جاء بعده من اجيال ، من روائع الفن والذوق ، كما انه عرف كيف يملك على القارىء نفسه بجمال الاسلوب وموسيقى اللفظ (٤)

وانا اميل الى رأي محي الدين في نامق كمال ، واصرح بأن شعره في الوطنية يعجبني ، اما فضله على القصة المسرح فلا يجحد ، لأنه البشير والرائد والسابق ، ولولا ~~اد ~~لما ارتفع

(١) محي الدين ، يكي ادبيات ص ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٢ .

(٢) Menzel, Die türkische Literatur, S 297,298

(٣) Wells, The Literature of the Turks, P 148

(٤) Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane P,193,194

الصرح ، ولا شك ان الرجل عبقرى بتعدد نواحيه وما كان له في قومه من عظيم التأثير . وان غرض الاديب الاول هو ان يكون لعمله الأدبي اثر في النفوس ، وان ذلك ليذكرنا بأن مسرحية (الوطن) مثلا قد هزت قلوب الترك وحركت عقولهم، اما مسرحية (زواج الشاعر) لشناسي فلم يكن لها شيء من هذا . وخطأ ان نقيس ادبا في دور النشأة بذلك المقياس الذى نقيس به أدبا في دور الكمال .

• • •

ولئن كان الأدب وسيلة لنشر الأفكار والمبادىء عند نامق كمال ، لقد كان الأدب للأدب والفن للفن عند عبد الحق حامد ذلك الشاعر الغنـــائى الرقيق ، والقصاص والمؤلف المسرحى العظيم ، الذى يعتبره البعض أعظم شعراء الترك طرا ، والمع فنان في نات . وبلغ من تمجيد أحد مؤرخى الأدب التركى له ان يجعل له من رفيع المنزلة وبعد الصيت ما لا يجعل للسلطان، فيقول ان أهل العصور المقبلة سوف ينسبون السلطان عبد الحميد الى عصر عبد الحق حامد ، ولن ينسبوا عبد الحق حامد الى عصر عبد الحميد ! وقد حمل القلم ستين سنة أو تزيد ، فالكتابة عن

حياته وآثاره تعتبر تاريخا لحركة التجديد فى الأدب التركى (١)
ولد عبد الحق حامد فى استانبول عام ١٨٥٢ لرجل من أهل العلم والفضل هو المؤرخ المعروف خير الله افندى (٢) وشرع فى تلقى علوم أهل زمانه وله من العمر خمس أو ست سنوات . ورحل مع أخيـــه الى باريس ، فأقام بها عاما ثم عاد الى استانبول ، واستأنف تحصيل العلم فى احدى المدارس الأجنبية ، وعين ابوه سفيرا لتركيا بطهران ، فصحب ولده الى بلاد الأدب الرفيع والشعر العالى ، واستقر الفتى بها اربعة اعوام تأتى له أثناءها أن يحيط بلغة الفرس وأدبهم ، حتى مات خير الله افنـدى فرجع عبد الحق الى استانبول ليشغل عدة مناصب ، ثم اسند اليه منصب

Ibrahim Necmi, Abdülhak Hamit Ve Eserleri,S5 (١)
(Istanbul 1932)

(٢) كان خير الله افندى من رجال عبد المجيد وعبد العزيز ، وهو عالم ومؤرخ وسياسى ، درس الطب اول ما درس ، ثم اصبح رئيسا لأطباء السلطان محمود وناظرا لمكتب الفنون الطبية ، كما رأس الجمعية العلمية وتولى وزارة المعارف وتوجه الى طهران سفيرا لتركيا . الف فى الطب والزراعة والجغرافيا ، وله تاريخ للدولة العثمانية من اثنين وثلاثين جزءا لم يتمه وقال شعرا . وكانت وفاته بطهران سنة ١٨٦٥ .

السكرتير الثانى فى السفارة التركية بباريس وكانت سنه خمسة وعشرين عاما . وانتقل بعد مدة الى بمباى ومنها الى لندره. وكان سفيرا فى بروكسل عام ١٩٠٨ ثم تقاعد عن العمل ومات سنة ١٩٣٧

وعبد الحق حامد شاعر موهوب يمتاز بحرية الفكرة وسموها وهو الذى خلق الشعر التركى الجديث خلقا وقد عرف كيف يحافظ على روحه القومية فى ذلك الوسط الأجنبى الذى أحاط به ، وان قصد قصد الأوربيين وطبع على غرارهم . كان هادىء النفس لين الجانب يرغب فى الاتفاق بعد الملاينة ،ويكره العنف والمخاشنة ، وقد رماه نامق كمال مرة بالجبن .الا انه كان يسعى الى هدم صرح الظلم والاستبداد كنامق كمال وان اختلفا فى المذهب وما يوصل من طريق ، وكان رأيه ان الخير لابد آت فى النهاية وهذا ما علا بقدره عند الصديق والعدو (١) وهو الذى هيأ الأدب التركى للتجديد على نطاق واسع ، فان شعراء التنظيمات قبله انما جددوا الشعر فى روحه لا فى صورته . وهذا شناسى يمدح رشيد باشا بافكار جديدة أفرغت فى قالب قديم يعرف بالقصيدة ، وترنم نامق كمال بوطنيته المتقدة فى القصائد والغزليات

---

(١) Menzel, Die türkische Literatur, ss 301,302.

كما ان جميع منظومات ضيا باشا المشهورة من بحور قديمة. وإن كل ما ادخلوه على النظم ليس تجديدا بالمعنى الصحيح ، وانما هو نوع من الاصلاح ، وهذا فضل لهم لا يجحد ، لأنه أول مرحلة من مراحل التجديد فى الشعر التركى (١) وقد كتب رشاد نورى مقدمة لاحدى منظوماته فشبهه فيها بهوميروس وفرجيل (٢) والفكر عنصر أساسى فى شعره إلا انه غير مجرد ، فان اطارا من العواطف والأخيلة يحيط به من كل جانب . وقد غير عبد الحق حامد فى القوافى ، وعنى بالايقاع فى الأوزان ، كما أحيا ذلك الوزن التركى الأصيل المعروف بالوزن الهجائى أو حساب البنان . وخرج بالشعر من تلك الدائرة الضيقة التى كانت تدور فيها معانيه واغراضه ، وافسح المجال لكل ماجاشت به نفسه ، كما قال فى كثير من فنونه النادرة والجديدة كشعر الرعاة والشعر التعليمى والشعر التمثيلى . وقبل ان ندير الحديث على تراثه الادبى نذكر حادثا وقع له فأثر فى نفسه وشعره اشد التأثير وامكن اعتباره حدا فاصلا بين عهدين مختلفين من حياته الروحية والأدبية،

---

(١) Mustafa Nihat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi, S 37

(٢) عبد الحق حامد ، بالادن برسس ص ٧ استانبول ١٣٢٧

فبينما كان قنصلا فى الهند . اعتلت زوجه فاطمه خانم وثقلت عليها العلة ، ورأى ان يرحل بها الى استانبول . وتأذت صحة المسكينة بركوب البحر فساءت حالها ، ولما القت السفينة مرساتها فى بيروت كانت المريضة قد بلغت من الاعياء مبلغا عظيما يعجزها عن تحمل أيسر مشقة ، فجعلها عبد الحق حامد خاتمة المطاف . وفى هذه المدينة كان آخر العهـــد بفاطمة . وعلى ذلك نقسم آثاره الادبية الى اقسام ثلاثة ، ماقاله قبل فاجعة بيروت ، وماقاله وهو متأثر بها ، ثم ماجادت به قريحته بعدها ، وان الفرق لواضح بين كل قسم من هذه الاقسام . فى اول عهد عبدالحق حامد بالشعر والأدب كان شديد التأثر بالثقافة الشرقية والفرنسية . فأخذ إخذ نامق كمال ورجائى زاده اكرم ، وكورناى وهوجو ، وكان شعره فى هذه الفترة اشبه شىء بالنهر الطامى إذا تدفقت امواهه وخرت امواجه ، ثم فجع الشاعر فى زوجتـــه ، فران الأسى على قلبه وشعره ، فاستيأس وشكا وبكى وذم دنيا لاتدوم على حال . اما فى الفترة الثالثة من حيـاته الأدبية ، فهو متأثر بالأدب الانجليزى وفى شعره تأمل صوفى ونزعة الى الهدوء الروحى (١) وقد ألف كثيرا ، ولمؤلفاته ستة وثلاثون عنوانا ،

---

(١) Ibrahim Necmi, Abdülhak Hamit Ve Eserleri, S47,48

ويحسن تقسيمها الى ثلاثة اقسام ، فالقسم الأول منها مجموعات تحتوى على اشعار مثل (صحرا) و (ديوانه لكلرم باخود بلده) بمعنى صبوانى أو البلدة وهى باريس ، و (بونلر اودر) اى هؤلاء هو ، و (الهام وطن) . اما القسم الثانى فمنظومات مثل (مقبر) اى المقبرةو (اولو) اى الميت و (حجله) و (بالادن بر سس) بمعنى صوت من فوق ، و (والده م) بمعنى والدتى . اما القسم الثالث من مؤلفاته فقصص ، ومنها قصـــص منظومة مثل (برسفيله نك حسبحالى) بمعنى قصة بائسه ، و (غرام) و (يبانجى دوستلر) بمعنى الاصدقاء الغرباء . وله مسرحيات منثورة مثل (طارق) و (دخترهندو) بمعنى الفتاة الهندية . وقد مزج الشعر بالنثر فى بعضها كابن موسى وزينب وفنتن ، كما نظم بعضها فى الاوزان المعروفة كمسرحية اشبر ، وتزر أى القيصر ويعنى به عبد الرحمن الثالث الاندلسى . اما الوزن الهجائى فاستخدمه فى نسترن ، وجنون عشق . هذا عدا مانشر فى الصحف من مقالات ومنظومات .

وصحرا هى المجموعة الاولى من شعر عبد الحق حامد. وتضم منظومات تنقسم الى مقطوعات . وتعتبر الاشعار التركية الاولى التى طوعت لقواعد العروض الافرنجى ، ويشاهد فيها ذلك النوع

من الشعر المعروف فى الآداب الاوربية بشعر الرعاه ، وبسبب منها حمل عليه انصار القديم حملة غاية فى الشدة . وقد وصف الشاعر حياة الفطرة فى الحقول والبرارى وما للبداوة من حسن لايضاهيه حسن ، ثم تحدث عن حياة المدينة وبهرجها ، وقايس بين الحياتين حتى آثر الاولى على الثانية . وآكاه سرى يقف من ذلك موقف المتعجب المتشكك ، لأنه يعرف تلك الحياة التى حيها الشاعر واعجب بزحمتها . ويستنتج من ذلك ان يكون غير جاد فيما قال ، الا انه سرعان مايرجح صدق عبد الحق حامد فى حسه وشاعريته ، ثم يقول: ومن يدرى اى يوم لاغب عبوس من ايام المدينة حبب اليه حياة الصحراء (١)

ومن قوله فيها (ولقد يغمر السكون هذه الجواء ، فما اعجب واغرب ذكاء ! اذا جنحت الى مغربها ، ارخت ظلمة الليل سترا على وجه الوجود . ويهدأ الهدوء فكأن السكرى أخذ كل شيء . وهذا الثلج الذى تربى فى كنف الزمان يبدو على وجه الليل الاسمر . وقد يحيى هذه المهدنة فى الاحايين نغم للمزمار ، فكأنه يغنى للطبيعة كما تهدن ام صبيها)

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimat Edebiyati, S 120

اما (صبوانى او البلدة) فحديثه عن حياته فى باريس التى قضى بها ثلاثة اعوام من زهرة عمره ، وقد غير الشاعر فى قوافى الشعر التركى وتصرف فى قواعد عروضه ، واستعمل الوزن الهجائى بكيفية لاعهد للترك بها . ثم وصف عدة اماكن فى باريس وذكر بعض من عرف . ومن قوله فى الممثلة الفرنسية المشهورة ساره برنار (انها تعرض الفن فى الملهى الفرنسى [1] فتميت النظارة تارة وتحييهم اخرى . كل ماجرى على لسانها من اقوال حكم وامثال ، ليست فى الوضاءة غاية ولا آية ، وان بدت للعيان من الحسان . واذا ماجاء دور الدمامة فهى دميمة تخرج عن عاداتها . اما اذا طلبت الحسن فالحسن لها . هذه احوالها فى صورها ، اما فى فنها فحبذا هى . اذا مضت خلت ساحة الملهى ممن فيها ، واذا اتت ازدحمت نواحيها)

فهذا وصف ساذج نعدم فيه الجمال الشعرى ، الا انه نغمة جديدة فى الشعر التركى الذى عبر به عبد الحق حامد عما وقع تحت حسه واثر فى نفسه . وها هو ذا يوجه الكلام الى احدى الملاح فيقول (لك علم بافكارى واطلاع على اسرارى

---

(١) Théatre Francais

ياحبتى من غير إخبارى . وإذا أخرجتنى عن طورى وسببت ألمى ، وجدت الدواء لدائى وبرحائى . كل نشوة لى أحسها منك، أقلى أنت ! أخيالى أنت ! من انت ؟ تتحدثين عن احوالى ، والظن انك سوف تعلمين مايقع لى ، وجدير بى ان أكرر قولى بأنى ان كنت احببتك فمن روحى ياحبتى ، وما عرفت أى ملك من الملائكة انت . كل نشوة لى احسها منك ، أقلى انت! اخيالى انت ! من انت ؟ انت كل علة للذائى ، ومنك كل لذة لعلاقى . ان كانت لى روح فأنت راحتها ، او نفس فأنت عزتها ، ولولاك لما كان للحياة شيء من قيمتها . كل نشوة لى احسها منك . اقلبي انت ! أخيالى انت ! من أنت ؟)

فهذا غزل لم يترنم بمثله شاعر تركى من قبل ،لاهجرفيه ولا دموع ولا نار بين الضلوع ، ولا ذكر فيه لغصن قد ولا ورد خد وهو فى معناه وروحه مثال للشعرالفرنسى العالى .

وقد نظم (بونلراودر) اى هؤلاء هو ، اثناء مقامه فى بمباى وهى مجموعة من منظومات قصار ومن عناوينها زهرة الهندية وليلة يأس والحجر المنحرق والوطن فى الغربة والخميلة الضيقة . وكان تجديده فى معانيها اكثر من تجديده فى اشكالها . وهذه المجموعة الشعرية تنطوى على ذكرياته عن الهند . وكان حزينا

قلقا على زوجته العليلة فسرى هذا الحزن فى شعره .

اما الهام وطن فمجموعة من الشعر الحماسى جمعها حين قامت الحرب العالمية الأولى وضمنها ماقال من شعر الوطنية . ولمادهاه مادهاه من الموت الفجوع ، الذى اخترم زوجته الحبيبة أنضر ما تكون شبابا ، فاضت نفسه بمنظومته الجميلة الحزينة (مقبر) والواقع الذى لايتداخله الشك انها من اروع ماقال أو أروع ماقال . وقدمها بمقدمة منثورة تحت عنوان (كلمات متفرقات) يذكر فيها ان منظومته تخلو من شاعريته خلوا تاما ، والمطلع عليها لايجد الا شكاة يحسبها شعرا ، وهى شكاة عجز الانسانية وضعفها (١) وقد اورد بعد المقدمة سطورا نقشت على قبر زوجته وهاهى ذى (آه ايها الزائر ، لاحول ولا قوة للأنام شيبا وشبابا أمام فتكة الحمام ، وإن اسرارا الهية لتكمن فى تراب المقابر ، والقبر الذى ترى مثوى لفاطمة خانم زوجة عبد الحق حامد الحبيبة اليه الأثيرة لديه . وكانت ـ يرحمها الله ـ يتيمة لأمرة پيرى زاده ، وقد خامرها السل فمضت فى ربيع العمر ، وفى ارض غريبة . ولهذا الصدى روح ساكنة تطلب اليك قراءة

(١) Abdülhak Hamid, Makber, S ٩ (Istanbul 1944)

الفاتحة . الثلاثاء ، بيروت ، فى ٦ رجب ١٣٠٢ . (١) والشاعر فى هذه المنظومة منطلق على سجيته بأوفى معانى الكلمة ، وادل دليل على ذلك انه يثب من معنى الى آخر فيذكر فاطمه فى موضع ويبكى ويتوجع فى موضع ، ثم يتفكر فى صرف الزمن وسر الموت والحياة ويكاد يتفلسف لولا حكم قلبه لعقله وتغلب وجدانه على فكره . واضطراب شعره فى كثير من المعانى كاضطراب نفسه الحزينة وعقله الذى اذهله هول المصاب ، وقد صاغ شعره انور صياغة ، فما قال شيئا يدق عن الفهم (اواه ! لم تبق لى دار ولم يبق الزمان على حبيبى ، نخفق القلب بيكائى ونحيبى ، كانت ملء عينى وبين يدى ، ثم ارتحلت عنى الى الآباد بعد قدومها الى من الآزال . وانطلقت انا الطيتى ، وتخلفت هى لتكون نهبا للبلى فى ركن لحد ، ولم يبق لى من انيس الروح ، ويلاه ، الا هذا القبر فى بيروت . بالله اين انشد هذه الجميلة ومن اسأل عن هذه المسكينة ؟ رحماك يارب هلا دللتنى وارشدتنى ؟ من القى بى فى البلاء والشقاء يارب ؟ يريدوننى على نسيان الحبيب الغادى ،

---

(١) يقول منتزل ان زوجة الشاعر ماتت فى ازمير ولا صحة لهذا . انظر Menzel, Die türkische Literatur, S 303

ويقولون انه زايل عالم الفناء الى عالم الخلود والبقاء. كيف يتسع لتلك الحقيقة خيالى ، وانى تشاهد ذلك عيناى !)

واذا هام فى الأحلام واخذته برحاء الشوق اليائس ، ظن الخيال حقيقة فقال (هيا انهضى من لحدك يا فاطمه ولنجدد العهد القديم ، جودى على ببنت شفة ولا تكتميني سرا ، وان القلب والله فى شوق الى حديث منك . اطلعينى بسمة الورود من ثغرك واتحفينى بدواء للفؤاد من عندك ، ولتتم أيام حياتى بنظرة لك ساحرة أو ضحكة فاتنة) وترقأ مدامعه وتهدأ اشجانه هونا ما فتخمد العاطفة ويستيقظ العقل ثم يحل التفكير المتزن محل ذلك الهذاء الذى يشبه انين المتألم . ويقف الشاعر امام طلسم مغلق مبهم لاقدرة على حله لعقل بشر ولا يتعلق به وصف الواصفين فيقول (يارب ليت شعرى فانى لست ادرى ما يكون هذا النعش الخشبي ، اليس حقيقا ان تذهل منه العقول ، وكيف يمكن أو يسوغ ان تتولى عجوز شمطاء تكفين جسد له هذا الرواء وذاك البهاء !)

وتلك معجزة العقل الذى لا يفهم كيف يموت من كفاه ما عاش بعد ان يموت من لم يعش ما كفاه . وتتجلى هذه اليقظة العقلية فى منظومته الاخرى (اولو) التى تعتبر تتمة لمقبر ، وقد

حللها الفيلسوف الشاعر رضا توفيق ، واشار الى افكار فيها تتعلق بمذاهب فلسفية معروفة ، وان كان عبد الحق حامد قد اراد التعبير عن آرائه قبل ان يريد ان يكون متفلسفا (١) وهى من عشر مقطوعات ، وكل مقطوعة من عشرة ابيات وهو يذكر زوجته التى اودعها رمال بيروت بعد كل مقطوعة ، ومن قوله (حرام والله الا يحيط القلب بشيء من ذلك علما ، مادامت للمرء عيون لا تشاهد إلا الحقائق فى هذا الوجود . نحن لا نملك الا اشتياقنا الى الوقوف على السر ولكن هيهات ! فلن يبلغ العقل من ذلك شيئا . الموت موقظنا من رقدة الغفلة ، وان كان لايخرجنا عن ظلمة الحيرة !)

فهو متزن التفكير يحكم العقل ويجهد ان يعلم وان كان العلم مراما مستحيلا وامرا لامطمع فيه ولاسبيل اليه . ويطرد شعره على هذا النسق التأملى حتى يشكل الامر على القارىء فيكاد ينسى انه تجاه مرثية ، لولا ان تذكر فاطمة بين الفينة والفينة كما فى قول الشاعر (فى الموت حارت البابنا ، ولولا الموت ما كان الوجود ، بالله كيف الام على البكاء والشكوى إذا ذكر القلب من اهوى وما آلت اليه حالها ، فقد اودعتها رمال بيروت ، وكانت وردية

(١) Ibrahim Necmi,, Abdülhak Hamit, S 64

الثغر فذبلت وريقاته وانتثرت منه اللآلىء)

وهو بهاتين المنظومتين يصور موقف الانسان امام الموت اصدق تصوير ، لأنه يتفجع ويتوجع ثم تمر الايام على الجرح فيندمل وعلى النار فتحجبها اكفان الرماد ، وإذا به يتفكر ويتذكر .

ولعبد الحق حامد رأى فى الحزن عجيب ، فهو يرى ان القلوب قلب يتسع للحزن والفرح جميعا ، وقلب لا يكن الا أحدهما . وقلب لا تمحو احزانه كل ما فى الحياة من متعة ومسرة ، وآخر يأسى وسرعان ما يطرح عنه أساه . ثم يتحدث عن نفسه فيقول ان الافراح تزيد اتراحه ، فهو يطلب السرور ليلتذ الألم ثم يعجز عن تعليل ذلك وتفسيره [1] ولعل هذا الشعور كان الباعث له على الزواج اكثر من مرة . وله منظومة تسمى (حجله) وقد قال فى مقدمتها ان فى مقبر رزيئة وقعت ، اما حجله فلا وجود فيها لمسرة حدثت ، فالأولى خيال والثانية حقيقة ، وبينهما من الفرق ما بين خرافة وتاريخ [2] وهو يتخيل فيها زيجة جديدة وان عاودته ذكرى فاطمة فيقول (يامن سعادة قلبي ببسمة منها ،

---

(1) Abdülhak Hamid, Makber, S 9.

(٢) عبد الحق حامد حجله ، ص ٨ (استانبول ١٣٠٣)

ليت شعرى أمن الملائكة انت ام من حور الجنان ! وإذا ما زرت قبرى بجسمك الجميل ، فما مرامك من احيائى ؟ هل الجنة تحت سقفك ؟ كأن كلامى فى ليلى شعر شاعر !)

اما فى (بالادن برسس) او صوت من فوق ، فكأن روحا ارتفعت الى العالم العلوى ثم وجهت الخطاب الى دنيانا ، فازدرت قدرها وتهاونت خطرها . والمنظومة من الوزن الهجائى الا ان الشاعر قفاها ولم يقطعها فكانت اشبه بالنثر منها بالشعر (١)

وفى (والده م) اى والدتى يحدثنا عبد الحق عن امه الشركسية فيصور لنا بلاد الشركس بجبالها الشوامخ ووديانها المخضوضرة ويصف ديارها المتضائلة تحت الثلوج المتراكمة ، ثم يقول ان امه كانت فتاة تمرح فى ملاعبها ، واتى النخاس فاختطفها وباعها جارية . وقد اصاب صفاتها وهى عجوز وهن عظمها وكف بصرها . وكان نشر هذه المنظومة ١٩١٢ بعد حرب البلقان ، فأضاف اليها مقطوعات يصف بها فواجع الحرب واهوالها . وانطلق من قيود القافية حتى انه فكر فى النظم بلا قافية ٢) اما

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimat Edebiati, S 124

(٢) Ibrahim Necmi, Abdülhak Hamit, S 69

قصصه فنذكر منها اول ما نذكر (برسفيله نك حسبحالى) اى قصة بائسة ، وهى مزيج من الشعر والنثر ، وقد سرد فيها قصة حزينة لاحدى البغايا ميمها سمت فيكتور هوجو فى قصة فانتين فى كتابه « البائسون »

ويحدثنا فى (يبانجى دوستلر) اى الاصدقاء الغرباء عن شيخ انجليزى خمير يهوى فتاة من فتيات المراقص وقد استخدم ستة اوزان شعرية فيها كما استطاع ان يخلص لغته التركية من الالفاظ العربية والفارسية .

ومن مسرحياته التى اكسبته الصيت البعيد (دختر هندو) اى الفتاة الهندية التى صور بها ظلم الانجليز فى الهند ، وتدور القصة على ضابط انجليزى يغرر بفتاة هندية ، ثم يهجرها ليأهل زوجة حاكم الهند العام وهى من بنات جنسه ، ثم يخلف الضابط الحاكم فى منصبه . ويتزوج الفتاة هندى شيخ لايعمر طويلا ، ويأمر الحاكم باحراق الميت مع زوجته ، ولكن الزوجة تعلن على الملأ ان الحاكم كان زوجا لها ، وان الشيخ لم يمسها ، فتطلب الاحتراق مع الحاكم الانجليزى زوجها الحقيق على جارى عادة اهل الهند. ويقف القوم على حقيقة الامر فيثور كمين ضغنهم ويتنمرون للحاكم الغشوم . وهى ذات خمسة فصول وثمانية مشاهد .

وقد اعتمد فى تأليف (طارق او فتح الاندلس) على تاريخ الاندلس لضيا باشا [1]، وتعتبر هذه المسرحية من اجود مسرحياته التاريخية لمطابقتها لجميع الاصول القصصية والتمثيلية . وفى مشهدها الثالث يناجى طارق نفسه بقوله (هاأنت ذا يا طارق فى خزائن الملوك ! من اين قدمت واين استقر بك المقام ثم الى اين ؟ لقد خرجت من الشام ووافيت طليطلة وستسمى الفاتح فى الغد القريب ، فانتقلت من الكوخ الى خزائن القصور ، ولسوف تمضى الى القبور ! ماهذا الذى يلمع بين يديك ؟ انها تيجان ملوك هوت من علوها . فى هذه المدينة كان عرش، وفى تلك القاعة كان تاج، والتيجان التى كان الملوك يعتزون بها فى يدك الآن ، وهى خمسة وعشرون شاهدا وخمسة وعشرون برهانا على العز والسلطان. ومع كل ذلك فلست ايها الغالب المنصور الاصاحب قبر من القبور . لاتتأس باصحاب هذه التيجان . لقد كانوا من اهل الغرور والغفلة ، فلم يذكروا قدرة ذى الجلال وعجز الانسان ، ولم يتفكروا فى صرف الزمان . لقد عسف رودريق الناس فلم يبق فى نفوسهم الا الضغينة والحسيكة ، وتزاور الفضلاء والعقلاء عن مجلسه ، فاذا امور دولته بين يدى قوم لا رأى لهم ولاحزم

---

(١) راجع ص ٤٠٠

واحاط به كل منافق ومداهن . وما خطر يوما على بال رودريق ان دولة حاكمها ظالم ومحكومها جاهل لابد ان تدول وتصبح غنيمة لغيرها) .

فعبد الحق حامد يتحدث عن اصول الحكم وسياسة الملك ، ولعله يشير من طرف خفي الى دولة الترك . وقد ملكت عليه التمثيليات نفسه وهو متأثر بها في قصصه التي جعلها شبه تمثيلية . وكان يمكن ان يكون عبد الحق حامد شخصية ادبية عالمية لو انه وجد من يترجمه (١) .

° ° °

ومن اهل الادب وارباب القلم ، رجائي زاده محمود اكرم بك الذي وكل اليه نامق كمال امر جريدة تصوير افكار حين رحل الى اوربا مع ضيا باشا ، فكانت له سهمة في حركة التجديد . وقد اشتغل بتدريس الادب فعرف بالاستاذ اكرم . وكان شديد الاعجاب بكمال فروج تعاليمه بين تلاميذه ولقنهم مبادىء الوطنية وهو صاحب كتاب (تعليم ادبيات) الذي يعتبر اول كتاب تركي في اصول الادب (٢) الا انه لايعد زعيم وطنية كنامق كمال ولا

---

(١) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey P, 150

(٢) Murat Uraz, Sair ve Ediplerin Hayati, S 53

فنانا موهوبا كعبد الحق حامد . ويقول پاول هورن انه اعظم شاعر غنائى فى العهد الحديث (١) اما ادباء الترك فيعتبرونه اكثر الشعراء دقة حس .

ولد رجائى زاده محمود اكرم سنة ١٨٤٧ لأب متأدب من اهل الفضل هو رجائى افندى ، وقد اورد نماذج من ادب ابيه مستشهدا بها فى كتابه (تعليم ادبيات)

واظهر اكرم فى طفولته من دقة الحس عجائب ، لانه كان سريع التأثر شديده من ادنى المؤثرات ، فاذا حان وقت نومه وانحنت مربيته على مهده ثم جعلت تهدئه لينام بأغانيها الشركسية الحزينة ، جذب فضل اللحاف ليستر به وجهه ، وطفق يبكى ماشاء الله ان يبكى (٢) واظهر الفتى شغفا بالادب ملك عليه نفسه بقدر ما اظهر من كراهية للرياضيات ، والحقه ابوه بالمدرسة الحربية الا انه رغب عن مواصلة الدراسة فيها ، وكان قصارى امله ان يغادرها . ومن شعره فى ايام الصبا قوله عند انتهاء عطلة العيد (ارتفعى يازفراتى وابلغى الفلك العالى ، اغمرى الدنيا

---

(١) Paul Horn, Geschichte der türkischen Moderne 37

(٢) على اكرم ، رجائى زاده محمود اكرم بك ص ١٠ (استانبول ١٣٣٩)

بالظلام ، واطلق النيران فى الكواكب . واحزن ايها القلب فليس الوقت وقت سرور ، ولتكن غرضا لسهام الاقدار . فهاهو ذا العيد قد اقبل ثم ادبر ، وحان وقت الذهاب الى المدرسة !)

ورأى ابوه ذلك من حاله ، فكره ان يكلفه ضد طباعه ، وسرعان ما اخرجه من المدرسة الحربية والحقه بوظيفة فى وزارة الخارجية . وتتلمذ لابيه فى العربية والفارسية كما درس الفرنسية.

اما شعره فيمكن تقسيمه من حيث التبعية للمدارس الأدبية الى أقسام ثلاثة . شعره فى اول عهده بالنظم ، وهو غزليات يحتذى فيها على طريقة القدماء ، وشعر يذهب فيه مذهب كمال وعبدالحق حامد ، ثم شعر كشعر مدرسة ادبية تسمى (ثروت فنون) او (ادبيات جديدة) وسنتحدث عن خصائصها . وقد اورد فى منظوماته الفاظا مهجورة ولجأ الى الزحاف والامالة ، ولا يتميز شعره بخصب الفكر ولا اتساع الخيال ، وان تميز تميزا ظاهرا برقة الحس ، فقد كان لموت اولاده الثلاثة برايه واجدو نثر اداشد الأثر فى نفسه الحزينة الشكلى التى فاضت بالشعر المؤثر الحزين[1] وهو كذلك وصاف للطبيعة يصور محاسنها فيحسن التصوير ، وفى

---

(١) Mustafa Nihat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi, S 41,42

شعره رنة للأسى تتردد وتشاؤم شديد يجلل الحياة بالسواد.
واشعاره فى مجموعات هى (نغمهٔ سحر) التى ترنم بها وهو فى السادسة عشرة من عمره و (يادكار شباب) بمعنى تذكار الشباب وقد اتبع فيهما طريقة القدماء ، و (زمزمه) التى سيطرت عليها روح شناسى وكمال ، وكانت مثالا يحتذيه الجيل الجديد (١) ،وهى من اقسام او اجزاء ثلاثة ، ثم (تفكر) التى يمزج فيها الشعر بالنثر وهو يتحدث عن ولده المفتقد نثراد .

اما زمزمته ، فاجمل مافيها تلك المرثية التى بكى فيها ابنته پيرايه تحت عنوان (تحسر) وقدم لها بمقدمة منثورة غاية فى الرقة والروعة فقال (لقد فارقت پيرايه ابنتى هذه الدنيا ساعة وردتها ، فكان ثراها فى ركن مقبرة بالقرب من (كوچوك صو) وما اذكر لأى شغل شاغل فاتنى ان اضع علامة على ترابها فكانت المسكينة كمن لا أهل له ولا قرابة ، ولست ادرى ماالذى صرفنى عن الزيارة فما زرتها ، وفى الثانى والعشرين من شهر يونيه الماضى ، انسقت الى المقبرة بقوة خفية فدخلتها ، وكنت وحيدا فى مكان قفر وظل وارف . وقام فى نفسى ان اجلس بجوار قبر فلذة كبدى

---

(١) Menzel, Die türkische Literatur, 2 S 304

متفكرا ساعة او ساعتين . واطاع عقلى قلبي . ووجدت رغبة شديدة فى البكاء ، فذكرت ان موضع قبرها كان بنشز من الارض على يمنة الداخل، ويلاه القد ادرت بصرى فى المقبرة فما اخذت عيني شيئا من ذلك .وجلست مستيئسا منكسرا تحت سروة ، وتمثلت البنت فى شقوتها يتيمة حزينة ، اما ابوها فى جفائه فتمثل لى جلادا بغيضا . ورأيتها فى دمعها الشاكى كما رأيته ملطخا بالدماء . وكانت ملكا سماويا وكان شيطانا عتيا .

وعصفت الريح فحركت من الاشجار اغصانا ، واسفت التراب اسفاء يزيد الاسى ، فجعل قلبي يترنم بتلك المرثية)

ومنها قوله (ويلاه ! ان پيرايه فى بطن هذه الارض ،وان ظلمتها انطوى على نورها . لم اقدم هذا المكان منذ خمسة عشر عاما . فوالله ما ادرى اين كان قبرها . ذكريني ايتها المقبرة بالبكاء والنواح ، وبالله مرحمة ايتها الاشجار والاحجار ، هلا اخبرتنى الخبر ، لقد تركت ابنتى فى كنفك من غير اثر لها يدل عليها . تكلمى يابنيتي لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، اين مقر جثمانك الطهور فى هذه الارض . ان روحى لتراك شجيرة نضيرة كأنها شجيرة ورد دفنت تحت الثلوج ، وقد حجب البياض كل جوارحها ، فاغرورقت عيني وحزنت نظرتى ، وان هذا

الجمال الذاهب ليبعث فى الروح امل الوصال ، آه ياپيرايه لو كنت غير هذا الخيال ! تكلمى يابنيتى لأروى بالدموع ترابك ، وافصحى ، اين مقر جثمانك الطهور فى هذه الارض ؟)

فى هذا الشعر حدب وحنان ورقة وتعطف ، وصاحبه لايفكر ولا يتخيل بقدر مايحس ، وقد احسن اكرم رثاء الابناء أيما احسان ، ولا عجب فقد صوح الردى زهراته ولم يبق فى قلبه الا الشوك الجارح وهل يعرف الاسى الا من يكابده ولا المصابة الا من يعانيها . وهى من آثار اكرم العظيم الخالدة ، وغاية فى الروعة بالنسبة الى زمانها وستظل غاية فى الروعة على مر الزمان ، فلا وجود لمثلها عند الترك بعد اشعار باقى ويحيى بك المشهورة . ولا يمكن القول بأن فجيعة اكرم فى ابنته كانت السبب فى اجادته ، الم يحتسب ولده شاعر قبله ، فلماذا انفرد اكرم بهذه الاجادة؟ فرثية عاكف باشا كانت تعد فى زمانها شيئا عجبا لسلاستها وصدق عاطفتها ، الا انها ضئيلة الاهمية من الناحية الشعرية . اما مرثية پيرايه ففيها قلب جريح يبكى ويبكيك والباعث على نظمها قصة جميلة (١)

---

(١) على اكرم ، رجائى زاده محمود اكرم بك ، ص ٣٨ (استانبول ١٣٣٩)

وهو رهف الحس مشبوب العاطفة حتى اذا رثى صغيرة من من بنات الأباعد، وان البكى يبعث البكى كما يقولون. فلما احتسب صديق له يدعى مدحت بك ابنته (فاخره) قال اكرم (انت يا فاخرة فى النصف بعد الرابعة من عمرك، فأنى يجوز لتلك الارض ان تستحل ضم جسدك، خبرينى هل انت يا فلذة الكبد وحدك، فليس من يؤنسك فى لحدك! ما الذى اسكت بلبلك وكان ناطقا، واذبل ورد ثغرك وكان ناضرا، ان لذكراك حزنا فى فؤادى. واذا خطرت كلما تك ببالى جرت مدامعى)

فما اشبه هذه المرثية بمرثية عاكف باشا التى بكى بها حفيدته، لأنها متسمة مثلها بالبساطة والرقة وتلك العذوبة المرة.

وله وصف جميل للمقبرة فى القسم الثانى من زمزمته، واول ما يلاحظ على هذا الوصف انه لا ينسى فيه تصوير ما يحس وهو يصور ما يشاهد، فنفسه الصافية مرآة مجلوة تبدو فيها كل صورة تواجهها. يقول اكرم (ايها الزائر المعتبر تامل جمال هذه المقبرة. الا تروقك عزلتها وتعجبك فى بساطتها؟ هذه الارض الحزينة الا يزينها هذا هذا المرمر الذى يبدو فوقها! ان شجيرة ترتفع من وسطها فما اجمل المنظر! وهذه المروج التى تحيط بها، الا تخلب اللب بموجانها؟ ومما يزدها حسنا على حسنها، تلك السروة الفينانة

القائمة امامها ، انها تصدو هج الشمس وتسوى بين الظلال والانوار فانظر ، ولعلك لم تشاهد مكانا كهذا يغمره الحزن وهو بهيج . أليس للمقبرة رواء وللشجيرة والسروة بهاء ، لقد كانت اجمل منها ، ويلاه تلك الفتاة المسكينة الراقدة تحتها !)

فشاعرنا يتغزل فى الجمال الذابل الحزين ، ويذكر بما على وجه الارض ، من غابت عنه فى جوفها . وقد حدثنا كذلك عن ولده امجد فى (تفكر) ورثاه نثرا فقال (أنت يا أمجد تعلم وربك يعلم انى لم آل المستطاع فى مداواتك . فما كان اخوك نشراد اعز علىّ منك . يالك من مسكين ! منذ ثمانية عشر عاما منيتنى اعذب التمنيات ، وافعمت قلبي بتلك الاحاسيس الحـــلوة . لقد بذلت الطوق لاستنقاذك ، بيد ان جهدى ذهب ادراج الرياح . وقرر الأسون ان لا دواء لدائك ، انهم قوم لا يفقهون ، وطالما قصروا عن وصف دواء فيه الشفاء . لقد جرى دمع هذه العيون جريا بعد جرى من اجلك ، ووجعت هذه القلوب من جرائك ، ودلهت تلك العقول لفقدك . اما اليوم فقد انقضى كل هذا ولم يبق منه شيء . ويلاه انه الدليل على عجز البشر ! فلاطاقة لنا بالبكاء الى ابد الآبدين . لاقدرة لعق لى ولا لقلبى على تحمل آلامك ثمانية عشر عاما !)

فهو يذكر ولده المفتقد بعد طول زمان ويعز عليه ان ينساه ثم يتفكر فينسب السلوان الى ضعف الانسان وهذا منه رنة فى الشعور مابعدها رقة .

واذا تجاوزنا بكاه على ولديه فى شعره ونثره ، ألفيناه فى القسم الثالث من زمزته يقول (الا تنكشف هذه الغمة يارب ، وينقضى هذا الانكسار يارب ، اما من نهاية للهم والتبريح ؟ انا القنوط الملول المحزون يارب ، انا من كابد كبادا يارب . اليس لهذا الفلك ثبات على حال يارب . اكل امرىء يشقى بألم لاخلاص له منه ، والناس طرا تعساء ، والا فمن السعيد يارب ؟ الا يتسع البستان لجناحى هذا الهزار ، اليس له فى كل نخلة مأوى ، انى لأضحك والقلب يبكى . اهذا الهزار النوّاح اتعس منى حالا وانكد عيشا !)

اما إن هذا شعر الشؤم والحزن واليأس . واكرم حتى فى وصفه لجمال الطبيعة البسام لاينفك عن تلك الكآبة التى تغشى نفسه فهو الذى يقول (هوذا الخريف قد مضى والربيع قدوافى ، وارتفع الضحى بعد انقشاع الدياجى ، فبدت البسمات فى وجه هذه الارض . اهذا النسيم روح تسرى ؟ انه لايداعب جسما الا أحياه . والصبا ، اتهب من جنان الخلد ؟ انها تبعث الصفاء فى كل

روح تنسمتها . ان الحياة تفور وتمور ، فلا عجب ان تقول روح الموتى ، ان الساعة قد انت !)

فالحياة تذكره بالموت ، وما كاد يبسم حتى تجهم وتقطب ، وما اعجب ان يقول فى شعر له انه ينعم بالألم ويدعو الله ان يديم عليه نعمته . وله كتاب (تقدير الحان) الذى يتناول فيه بالنقد مجموعة من الشعر لمنملى طاهر افندى . فيعرض رأيه فى الشعر واتجاهات الادب، وهو كمدرس للآداب ، لايطلق الحكم الا عن علم وروية كأن يقول ان غاية الآداب هى تربية الافكار وتصفية الوجدان وتهذيب الخلق وتنوير الاذهان مافى ذلك ريب . غير ان الشاعر لايقول شعرا يلقى به على الناس فى الاخلاق درسا . فله ان يقول فى الشوق والمحبة ومحاسن الطبيعة ، ويعبر عما يعتلج فى قلبه ويجول فى خياله بتعبير جميل وصورة جذابة، اما ان وجب عليه التمسك بشيء فهو مجانبة التعرض للاخلاق العامة ، وعدم الخروج عن الحدود (١)

وله دراسة ادبية بعنوان (قدمادن برقاچ شاعر) بمعنى بضعة شعراء من القدماء ، تدل على علو كعبه واتساع باعه فى علم

---

(١) رجائى زاده محمود اكرم ، تقدير الحان ص ١٨ (درسعادت ١٣٠١)

الادب . فاكرم شيخ النقاد العثمانيين غير مدافع ، واول من قعد القواعد للادب فى تركيا . واذا ماتصدى لتحليل مؤلفات غيره، ورسم صورة لصفاته الادباء ، تجلت قدرته كشاعر وناقد عظيم فهو الذى كشف للترك عن سر عظمة كمال وحامد ، والشباب التركى المثقف المتأدب اروع آثاره الادبية (١)

كما ترجم عن الفرنسية وجمع ماترجم فى مجموعة سماها (ناچيز) اى التافه ، عدا (اتلا) التى نقلها الى التركية عن الكاتب الفرنسى شاتو بريان .

وهو صاحب (آرابا سوادسى) اى غرام العربة وهى قصة يصور فيها حياة لهو صاخبة يحياها شاب متفرنج يدعى بهروز بك فنراه ضئيل الحظ من العلم لانه لم يلتحق بمدرسة وانما تلقى قدرا من العلوم على مدرسين فى منزله ، وكان مشغوفا بالفرنسية حريصا على التحدث بها ، فاستغنى عن مدرس العربية والفارسية ،واستبقى المسيو بيير مدرس الفرنسية وزاد راتبه الشهرى ، وكان شديد الولوع بركوب عربته والتباهى بروائها حين خروجه للنزهة ، وبينما كان ذات يوم فى بعض الطريق ، شاهد فتاة شغفته حبا .

---

(١) Edmond · Fazy et Abdul - Halim Memdouh, Anthologie d'amour turc, P 187 (Paris MCMV)

لجمل يخرج كل يوم بعربته رجاء ان يراها ، وقد ظنها كريمة النسب فاطلق العنان لفكره وخياله . ونماها له من يدعى كاشف بك وهو صديق كذوب لبهروز بك. فيأخذ الاسى منه كل مأخذ ، الا انه يقابل الفتاة فى احدى ليالى رمضان ، ويعلم فى النهاية انها ليست من كرم المحتد فى شيء .

وهذه القصة على بساطة موضوعها وقلة شخصياتها ، تعد افضل قصصه ونحن نعدم فيها ذلك التكلف الذى نشاهده فى غيرها (١) وكانت وفاة رجائى زاده محمود اكرم بك سنة ١٩٠٣

• • •

وبعد ان مضى بلغاء الترك بنهضتهم الادبية قدما ، ظهر من يدعى معلم ناجى، لتتأخر بها اخرا . يقول محي الدين ان للتجديد طريقا فتحها كمال وعبد الحق حامد بحماسة وحمية ، الا انها لم تستقم وانعرجت ، ووقف معلم ناجى فى منعرجها . واذا نظرنا حق النظر فى روحه الشعرية عرفنا انه رجعى من انصار القديم، وهو رجل وصولى تبوأ مركزا حسنا فى ايام السلطان عبدالحميد،

---

(١) Agah Sirri, Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimat Edebiyati S 323

فتأتى له ان يتنعم بالطيبات فى دنيا كل مافيها الى فناء . ولم يفته فى مؤلفاته ان يرضى انصار القديم ، فقرع صيته الاسماع وعظمت منزلته ولكن عند من لايبصرون الادب ولا حظ لهم من علم ولا فن [1]. ويقول شهاب الدين سليمان انه عرف كيف يجمع حوله شيعة من الشباب بعد اصطناع الدهاء والحيلة فكان لذلك اثر مشئوم فى الادب التركى صد مذهب حامد عن التكامل عدة اعوام ، وليس ناجى بشاعر ولا فنان ، او هو شاعر العوام الذين لايتذوقون الفن الا فى ابسط صوره ويمكن اعتباره مؤسس ومجدد ادب العوام [2] وقد اسرف هذان الاديبان فى الغض منه والزراية عليه ، فللرجل الحق فى اختيار مذهبه الادبى وان تنافى مع روح العصر ، ولا حق لغيره فى فرض رأيه على الناس كافة ، اما خلقه فلا شأن لنا به فى هذا المقام واغتمازه لايسوغ . فما لاريب فيه انه كان كاتبا شاعرا اديبا ، وقد استشهد جب برأيه فى مواضع من كتابه تاريخ الشعر العثمانى . وذكر انه ناقد بصير واليك مايقول عنه اسماعيل حقى بك فى كتاب له بعنوان « معلم

---

(١) محي الدين ، يكى ادبيات ص ٢٠٠ .

(٢) شهاب الدين سليمان ، تاريخ ادبيات عثمانية ٣٤٨ .

ناجى، ظهر عام ١٣١١ (عما يجب الاعتراف به ، اننا لانجد اليوم شاعرا له ما كان للمرحوم من قدرة ادبية ، اللهم الا اذا استثنينا شاعرا اوشاعرين ، ولا نعرف اثرا ادبيا كآثاره من حيث توليد الافكار فى الذهن ، واظهار القدرة على النقد ، وسعة الاطلاع ، ولا جدال فى قوة شاعريته ، وقد تعرض فى حياته للغمز واللمز بحق وبغير حق . وكان بين المتعصبين له والمتعصبين عليه من لم يقرأ له بيتا من الشعر كما وجد من المعجبين به من عرف قدره واستطاع التميز بين الجيد والردىء . وناجى اقدر الشعراء على الطريقة الادبية القديمة ، ومن محاسن شعره ان الخيال فيه شرقى بحت ، وكل صوره وافكاره لاتخرج عن الشرق)

اما فائق رشاد فيقول (معلم ناجى مدرس ادب وبلاغة أكثر منه شاعرا كبيرا ، وقد ادى اجل الخدمات لتجديد لغتنا بعد كمال واكرم وحامد . ونثره من السهل الممتنع الذى يستعسر تقليده على كل من ظن انه يستطيع الاتيان بمثله ، ولا أثر فيه للتكلف ، وجمله تربطها المعانى لا الألفاظ ، ولا وجود لحشو ولا روابط غير مألوفة فيه ، وهو يؤدى المعنى العام بما قل من لفظ ، ولم يسلم أثر أدبى لأعظم أديب من ادبائنا من عدة اغلاط ، اما ناجى فلا نقع عنده على غلطة ولا عبارة نابية

عن موضعها)[1]

وبالموازنة بين هذه الآراء ، يتوضح لنا ان الرجل كان صاحب مدرسة ادبية هي في رأى أنصار الجديد عقبة لا ترتق يرتد عنها المصلحون وهم حسرى ، أما المنصفون فيذكرون ماله وما عليه ولا يجحدون افضاله . عاصر ناجي رجائي زاده اكرم ، وقد كان الأول في اوج مجده الادبي على حين كان الثاني يعلل النفس بالآمال يرقبها ، فاعجب اكرم بناجي وساق امثلة من شعره في كتاب (تعليم ادبيات) على انها مثال الجودة ، كما خمس غزلا جميلا من غزلياته . غير ان الصفاء لم يدم بين الاديبين ، وبهت اكرم بغيضه واغتابه في مجالسه ، فتقارصا بعد ان تقارظا ، وتهاترا على صفحات الجرائد ، ولما ألف اكرم رسالة (تقدير الحان) [2] وضمنها آراءه في الشعر والأدب ، ذكر فيها معلم ناجي بما يكرهه ، فاستشاط عليه ناجي واخرج (دمدمه) عام ١٨٨٦ لينقض بها (زمزمه) .

ولم تطل ايام معلم ناجي فقضى في الخمسين من عمره سنة ١٨٩٢

---

(١) Mahmud Kemal Inal, Son Asir Türk Sairleri, S1040,1041 Cüz 6

(٢) انظر ص ٤٥٢

اما كرام فبقيت حزازة نفسه كما هي ، فبينما كان اكرم وحامد يتسايران ذات يوم شاهدا صورة لمعلم ناجي بواجهة احدى المكتبات ، فقال حامد (ناجي المسكين !) فكره اكرم من حامد ان يترحم عليه وجعل يأكل لحمه ميتا ! غير ان هذه المماحكة بين الاديبين كانت حدثا عابرا لم ينل حركة التجديد بضر يذكر[1]

وقد اشتغل ناجي بالتدريس في مطلع حياته ثم قرض الشعر ، واختاره والي وارنه سعيد باشا كاتبا خاصا ، ورحل مع الباشا الى ساقز ويكيشهر وديار بكر وارضروم . ولما عين سفيرا في برلين ، طلب الى ناجي ان يصاحبه ، الا انه استعفى من ذلك وآثر البقاء في استانبول ، واشتغل بالصحافة فحرر القسم الادبي بجريدة (ترجمان حقيقت) ثم انتقل منها الى جريدة (سعادت) وذاعت شهرته بما نشر من منظوم ومنثور ، فدعي الى تدريس الادب في اكثر من مدرسة ثم اصطنعه القصر السلطاني مؤرخا رسميا للدولة .

كان ناجي غزير العلم بالعربية والفارسية محيطا بآدابهما ، كما درس الفرنسية اسوة بالبلغاء من اهل زمانه ، الا انه لم يتأثر

---

(١) Paul Horn, Geschichte der türkischen Moderne, S42

فى أدبه بأدبها ، وان ترجم من شعر الفرنسيين ونثرهم نظما ونثرا ، والترجمة هى كل ما افاد ناجى من علمه بالفرنسية واطلاعه على آدابها ، وقد ضمن ما ترجم نظما بمجموعة من الشعر له بعنوان (آتشپاره) بمعنى الشرارة اما مترجماته المنشورة ففى كتاب (مترجم) وجمع خلاصة ما القى على تلاميذه من دروس الادب فى مجموعة سماها (مجموعه ٔ معلم) . وله (عثمانلى شاعر لرى) الذى عرض فيه بالنقد والتحليل لبعض شعراء العثمانيين وهو دراسة ادبية لا غبار عليها . وقد افدنا منها فى كتابنا هذا ، كما ترجم بسبعمائة من اعلام الاسلام فى (اسامى) . وله (خرده فروش) بمعنى المتجر فى السلع الصغيرة ، ويقول فى مقدمته ان اشعارا فارسية عاقت بحفظه من كتب مختلفة ، فقيدها فى اوراق متناثرة ، والانسان يعجب بالأثر الادبى الجميل ثم تنصرف عنه نفسه الى اثر جميل آخر . الا انه نظر فيها وجمعها (١) وذيل كل نص من نصوصها بايضاح يترجمها فيه ، وافصاح للاشارة الى المناسبة التى قيل بسبب منها . ثم تساءل عما إذا كان قد وفق فى اختيار عنوانها . والكتاب قسمان ، قسم أول وفيه الاشعار الفارسية ،

---

(١) معلم ناجى ، خرده فروش ، ص٣ و٤ (استانبول ١٣٠٢)

وفى القسم الثانى أشعار وحكم عربية .

ومن غزل له قوله (ماهذا النواح بالقرب من تلك الخربة ، لقد احزن نفسى وهى منكسرة . أما المجتاز باحدى خربات الوطن ، وقد ذرتنى النكباء ورقة فى الفضاء ، وتطلعت الى الخريف فى ربيع عمرى . وإذا كان للقلب مستقر وودع هذا الوجود ، فقد وجد الغريب مكانا له فى ديار العدم . لا قدرة لى على قرار بعد أن لعبت بعطفى الشمول . ان لتلك السفرة نورا يا ناجى ، وسيحترق القلب فى نارها الى يوم الحشر)

فهذه النغمة الحزينة والحنين الى المجهول ، والشكاة الباكية ، وذكر (التخلص) فى البيت الاخير ، تذكر بالقدماء من شعراء الأتراك ، وتدل على ان الشاعر يعيش بروحه فى عصر قديم من عصور الأدب التركى .

ومن وصفه لدجلة (لقد ارتحلت وفارقت الاوطان ، فبالله لا تسأل عن الفراق ماهو ! ثم وافيت بغداد ، فيالها من سفرة لانسيان لها . الشوق القديم والحسرات والحرقات ، تبعث على الشكايات . الفكر فى شغل بالهوى ، والقلب فيه نار الجوى . وبالنفس من الوطن خيالات وذكريات . أما الشفة فلا تنبس ، وأما القلم فصادح . وإذا مرت الريح صفحا بهذا الماء ، تكسرت

الامواج على سطح دجلة ، أما إذا أرادت أن تحول بينها وبين المضى فى طريقها ، فإن جيشا من الامواج يحمل على الصخور . ان الفؤاد يعتلج لرؤية السيول والانهار وهى تجرى حيث يطيب لها ان تجرى . ومناى ان تجرى الامواه فى الانهار . فما اجملها وهى تترنح سكرا ! انا نهر ينضح ، وما اكثر الوديان التى تدفقت منها . وهذا الانين من فرقة البحر . انا اكثر منك يادجلة فيضانا ونضخانا . ياعجبا ! آثار اى عصر هذه الآثار ، وما تلك الخرائب على الضفاف ؟ لقد انطبعت فى خيالى ، فالخرائب فى قلبى ههنا وههنا . وما اطيبها رغبة واعذبه خيالا ، إذا حييت الآمال فى الكوخ الخرب والقصر العامر !)

وهذا المثال من شعره دال كذلك على تأثره الشديد بالشعر التركى القديم ، فأى بحر يئن من فرقته ؟ ان شاعرنا يتصوف ويعجب ببلاغة القدم . ومناجاته لدجلة نعدم فيها الخيال والعاطفة فحظها من الشاعرية حظ ضئيل . ومن اشهر ماقال معلم ناجى ، منظومة له بعنوان (الحمل) يقول فيها (ليت شعرى ما الذى احزن هذا الحمل ، ان انينه يكوى القلب كيا . انه يعدو وينوح فما باله ؟ هل عدم اللبن والرفيق ؟ أيها الحمل الرضيع ، من أى شىء شكواك وماسبب اساك وبلواك . لقد نلت من امك نصيبك ،

أليس لك من جانبها وسادة تتوسدها ؟ لعلك منقطع عن قطيعك، فلهذه الفرقة حزنك . الا ينظر الراعى الى من تخلف عن قطيعه. لعلك قد اصبحت ايها المسكين من غير رفيق . اهذا الجرى لاطائل فيه ؟ وهل للأمل من وجود فى ملالتك ووحشتك. اتمحي الام الآمال ، اما لهذا التدليل الرقيق من نهاية ؟ لولاك ياخيال الامل لما امتد بى عمرى ،فلتبقى آلاف الاعوام ياشجرة الامانى!)

وهذا الشعر أيضا متوسط الجودة ، فأخيلته ساذجة تذكر بشعر الاطفال ، وتكرير الاستفهام مملول ، ولا جمال فى ذكر الامل بعد الحمل ، ثم اى شجرة هذه التى يدعو لها بالبقاء آلاف السنين ! ومعلم ناجى عمدة فى اللغة التركية وصاحب قاموس ، واذا نظم اخرج الكلام متخير الالفاظ فى عبارة جيدة وسبك محكم ، فهو ناظم وليس بشاعر ومن حضنة العلم وليس بالفنان العبقرى .

ودعا الى اصلاح اللغة التركية وتخليصها من الالفاظ الفارسية والعربية ، على حين اورد فى شعره خصوصا كثيرا من الالفاظ الفارسية والعربية ! فى مؤلف له بعنوان (انتقاد) ينافح عن رأيه ويعرض وجهة نظره فيقول (إذا كان العرب لم يستعملوا كلمة «تنقيد» فهل من الحتم الا نستعملها ! هذا .الا يصح فى فهمى.

لم يظهر العرب من التشدد فى مراعاة قواعد لغتهم ما نظهر ، فما بالنا ! انما مثلنا فى ذلك كمثل صاحب المال إذا رضى والدلال لايرضى . لايسوغ ان نكتب ونحن نرسف فى قيود هذا الاسر ، وما دمنا اصحاب لغة فمن حقنا التصرف فيها . ونريد لنقول ان لغتنا ليست فى حاجة الى اتباع قواعد واساليب غيرها من اللغات فلغة العثمانيين لغة قائمة برأسها ، ولايتنافى ذلك مع وجود الفاظ من لغات اخرى بها ، فقد استعانت كل لغة بغيرها ، فلنستعن بلغات غيرنا ولكن على ان نطبع مانستعير من الفاظ بطابع ذوقنا الخاص . فهل تعلم العربية والفارسية امر لاغنية عنه لكل من يتصدى للكتابة بالتركية ؟ اللهم لا . فالعلم بالتركية وحدها كاف للكتابة الصحيحة . وان وجبت الاحاطة بقواعد العربية والفارسية اثناء الدراسة)

فعلم ناجى يبدو فى هذه الطور لغويا اوتى فصل الخطاب ، يذكر عن لغته مالايذكره الا الراسخون فى العلم ، ويطالع قومه بمنهج جديد لاعهد لهم به من قبل .

ويذكر فى سبب تأليفه لكتاب (دمدمه) ان الاديب والشاعر الشهير اكرم بك ، وهو من أعضاء مجلس شورى الدولة ، وصاحب (التعليم والزمزمه) قد بلغت به الجرأة ان ينشر رسالة

بعنوان (تقدير ألحان) فكانت الباعث له على الدمدمه، وقال ان اكرم بك عرض فيها به، على طريقته الخاصة، فكان حتما ان يرد عليه، ثم يأخذه الاسف لأنه يجد نفسه مضطرا الى ذلك اضطرارا من غير رغبة فيه. ويطلب العذر، الا انه يكره لنفسه سكوت العاجز وله قلم مازال فى يده (١)

ooo

ويعرف عهد ناجى وشيعته فى تاريخ الادب التركى بالفترة الادبية، لأنه سكون حال عن ظهور اتجاه ادبى جديد غير ان هذه الفترة لم تطل، فسرعان ما ألفت جماعة بشرت بما يعرف بـ (ادبيات جديدة) وهى فى واقع الأمر تكمل مذهب عبدالحق حامد الادبى. وهنا نقف وقفة عند الحالة السياسية لنتبين اثرها فى الحالة الادبية. فقد كان الامل ان يبشر دستور عام ١٨٧٦ بعهد جديد يعم الترك بالخيرات والبركات، بيد انه لم يكن ذا أثر فى الحياة الثقافية، وذلك لأن السلطان عبد الحميد الغاه بعد عام ليحكم حكم ظلم ويخمد كل حركة حرة، فكتاب الترك من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٩٠٨ لم يجدوا مجالا لاثارة المسائل، وقنعوا

---

(١) معلم ناجى، دمدمه ص ٣ (استانبول ١٣٠٣)

بالتوفر على دراسة الآداب الأجنبية فتلوا تلو أسلافهم وادخلوا على الشعر التركى صيغا شعرية جديدة ، وان لم ينجحوا نجاحا تاما فى تأميم الأدب التركى (١)

وقد عرف عبد الحميد كيف يقوض أدب التنظيمات وهو أدب الافكار والمثل ، فاختفت المؤلفات ، كما امحت من القاموس بضعة ألفاظ كدستور وحرية ووطن . وكانت قراءة صحيفة من أدب التنظيمات أو التفوه بلفظ من تلك الالفاظ جريمة ضد سلامة الدولة عقوبتها النفى الى الأبد . وانحصرت مهمة الصحافة فى نشر المنشورات الرسمية ، وشددت الرقابة فلم يظهر سطر فى صحيفة الا بعد قتله فحصا ودرسا ، اما الاخبار اليومية فلم تخرج عن اخبار الترقيات وذلك المدح الذى يكال للسلطان كيلا ، أو ماقد يسمح الرقيب بنشره (٢) ولم يحل ذلك دون ظهور مدرسة الاداب الجديدة التى يتميز بلغاؤها من بلغاء مدرسة التنظيمات تميزا واضحا . فقد شعروا بوطأة القمع والاضطهاد على عقولهم وارواحهم فتحولت افكارهم الى عقد

---

(١) Rossi, La Nuova Turchia, P 124

(٢) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, 198

نفسية يمكن تقسيمها الى عداء للدين يتوهمون فيه الاسلام دينا يثبط المسلم عن التقدم السياسى والاجتماعى ، وكراهية للماضى لأن الناس رأوا فيه خصمهم يقف بين الشرق والغرب ، ثم تهافت صبيانى على الأخذ بحضارة اوربا(١) اما عداؤهم للدين الاسلامى فضلالة لا ضلالة بعدها ، واباء للحق وهو أقرب اليهم من شعاع الشمس ، فحضارة الاسلام أعظم حضارات الدنيا ، وان كان للترك حضارة بحق فهى الاسلامية ، اما ان يستوخموا حكم سلطانهم الظلوم وفى ظنهم انه يعمل بتعاليم الاسلام فخطأ وجهل ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم ، وقد اهلك الله القرون لما ظلموا . ولاشك ان تهالكم على مدنية الغرب قد اذهلهم عن مدنية الاسلام ولبس عليهم حقيقة الدين الحنيف . وظهرت مجلة تسمى (ثروت فنون) سنة ١٨٨٩ وهى مجلة أدبية رأس تحريرها توفيق فكرت بك أعظم شعراء هذا العهد ، فكانت لسان تلك الجماعة التى عرفت آدابها بالآداب الجديدة ، ومن مؤرخى الأدب التركى من يسمى أدب هذه الجماعة باسم مجلتها فيقول (ثروت فنون ادبياتى) .

وقد اراد ادباء التنظيمات ان تكون لغة الأدب لغة الشعب

---

(١) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P199

الواضحة التى لاتخالطها شبهة ، فيقول ضيا باشا فى (شعر وانشا) ان شعرنا هو الشعر الشعبى ، فلنستلزم ان يكون انشاؤنا بلسان اهل القرى وعوام اهل استانبول) اما ادباء (الآداب الجديدة) فما انصرفت لهم عناية الى تبسيط لغتهم ، واخذوا انفسهم بتقليد ما رأوا فى أدب الفرنسيين من صور أدبية ، وارادوا تحسين كلامهم فزينوه بالعبارات المنمقة والالفاظ الرنانة. واستعملوا كثيرا من الكلمات العربية والفارسية ، ولذلك استعجمت مذاهبهم وعميت مسالكهم الا على الخاصة . وكان تقليدهم الدقيق للغربيين كتقليد اسلافهم للفرس من قبل .

وقد نبغ من هذه المدرسة الادبية الجديدة قصاص يقال له خالد ضيا بك فبرز تبريزا عظيما فى القصة القصيرة يصور بها بيئته التركية اصدق تصوير . وجمع هذه القصص فى مجموعتين عنوان الأولى (بريازك تاريخى) اى تاريخ صيف ، وتعرف الاخرى بـ(صوانغون دمت) بمعنى الطاقة الذابلة . كما عالج كتابة القصة الطويلة فله (عشق ممنوع) و (مائى وسياه) أى الأزرق والأسود و (قيريق حياتلر) بمعنى الحيوات المحطمة . وتناول الشعر ، وهو صاحب قصة منظومة تسمى ليلة الزفاف ، ويذهب ادمون فازى وعبدالحليم ممدوح الى أنها مثال لروحانيته وعبقريته

كما يقولان ان المدرسة الاوربية لم تشرف بأديب تركى كما شرفت بخالد ضيا بك [1] وهو يشبه بالفونس دوديه احيانا وبپول بورجيه احيانا اخرى .

ولد سنة ١٦٨٩ ، ودرس مدة فى استانبول ثم رحل الى ازمير وفيها اتم دراسته . وشغل نفسه بالصحافة الأدبية ، فكتب اول ما كتب فى جريدة (خدمت) واصدر مع احد رفاقه جريدة تسمى (نوروز) . وعاد الى استانبول فحرر مع توفيق فكرت بك فى (ثروت فنون) وذاع صيته كأحسن قصاص يؤلف قصصه على المنهج الفنى الأقوم ويعرضها بالأسلوب الأجمل . وحياته هادئة فيما يظهر ، لأن المترجمين به لم يذكروا ما يستحق الذكر من احداثها ، ومات فى السابع والعشرين من مارس سنة ١٩٤٥ . وهذه قصة له بعنوان (آلتين نينه) بمعنى الجدة الذهبية .

(من آلتين نينه ؟ انا لا اعرفها حق المعرفة ، كانت ضيفة بدارنا على الدوام ، اما من اين أتت وكيف اتت ثم اضحت من افراد اسرتنا ، فهذا مالا علم لى به . من اى اصل تنحدر وما

---

(١) Edmond Fazy et Abdul - Halim Memdouh, Anthologie de L'amour turc, P 169

الرابطة التى تربطها بنا ، كيف فاتنى ان احيط بذلك علما ، ومما لا ريب فيه ان طفلا من اطفال الاسرة لم يجد وجها لمثل هذا السؤال . اقدعرفناها على تلك الهيئة التى بدت لنا فيها ، وتقبلناها كما عرفناها . لم تكن من قرابتنا على كل حال. كانت تقدم من عشاق (١) بين حين وآخر الى دارنا بازمير ، وتتلبث طويلا عند كل فرد من افراد الأسرة ، ثم تجد الرغبة فى المضى فتمضى ، مظهرة بعض الكبرياء ، مما يقنعنى بأنها ليست من هناك . ومهما يكن من امرها ، فقد كان لها فى الدار قدر ومنزلة . ومكانها من مائدة الاسرة مرموق . وكان من عادة جدى وجدتى رفع صوتهما بالأمر ، الا اننا كنا نشعر بهدوء الحال إذا وجها الخطاب اليها . وطالما شاهدنا الاعمام والاخوال برءوسهن البيض ، والخالات والعمات اللاتى وهن العظم منهن ، يسعون الى حجرتها لتقبيل يدها فى ايام الاعياد . وكانت تتدخل جديا فى شئون الدار ، وكثيرا ما الجأتنا نحن اطفال الدار الى الرجوع الى وساطتها ، ولم تخل نفوسنا من اثر تلك الجلالة المحيطة بها . كنا ثلة من ثمانية أو عشرة اطفال وفينا بنين وبنات لانعرف

---

(١) مدينة بالقرب من كوتاهيه .

ما بيننا من أواصر القرابة ، فالاعمام وابناء الاعمام والخالات والاخوة يختلطون واعمارهم متفاوتة ، وكان عددنا يتضاعف إذا انضم الينا اطفال من الخارج ، ولا يتسع فناء الدار الرخامى ولا سطحها ولا حديقتها لصولاتنا وجولاتنا . وكثيرا ما كان يشق ضجيجنا اجواز الفضاء ، فينبعث من الداخل صوت حديد فيه الوعيد (يا اطفال !) اما مايميز اعمارنا ومراتبنا فقول صغارنا لكبارنا (اغا بك وآبلا) وبذلك كان حل عقد القرابة فى عقولنا .

وكان إذا انتشب الشجار واحتدم العراك وارتفعت الجلبة ثم انبعث نداء (يا إطفال !) وقال قائلنا (ان آلتين نينه قادمة) انخفضت القبضات المرفوعة واغلقت الافواه المرغية المزبدة ، وثبتت الايدى فى الجانبين بعد ان هيئت للخمش والتخديش ، وصفف الشعر المنفوش ، وسكتنا جميعا كأن على رءوسنا الطير ، ووقفنا صفا فى جانب . وهذا الصوت المنبعث من الداخل ، صوت جدتنا الكبرى ، كان يتدخل برفق إذا دعت الضرورة ثم ينسى كل شىء بعد دقيقة ، وهو على الدوام الى العفو أميل . وعرفنا ذلك بالتجربة ، فلم نأبه له كثيرا . اما خيال رؤيتها فلم يكن كذلك لأن احتمال مجيئها كان كافيا لجمودنا فى أماكننا . ولا اعلم لذلك سببا . فلم يكن لها حق تأديبنا ، وما

طالبت يوما به ، ولكن لست ادرى اى شفقة آسرة تملك النفوس وتخمد ثائرتها ، كانت لوقارها الباسم ونظرته القاسية المؤدبة للمسيء ، أو لمخاطبتها للمظلوم بكلام لين فيه العزاء والصبر ، أو لذلك المنديل الذى تمسح به اذنا دامية ، أو لاناملها وهى تمس الرءوس لتصفيف الشعور ، لقدكانت نار الشر تخبو ، ودموع العين ترقأ ، والوجوه تهتل بعد طول تعبيس .

كنا نلتف جميعا حولها لنشرع فى شرح دعوانا بلسان واحد ، ويدفع صغارنا كبارنا للاقتراب منها ، ويحاول الكبار المحافظة على حقهم فى الكلام بكم افواه الصغار ، فنتلاغط لمعرفة الظالم والمظلوم ، اما هى فلا تسكت احدا وتصغى الى كل متكلم منا ، وهى تداعب هذا بلمس ذقنه ، وتجمش خد ذاك ، كما تظهر للواحد منا قميصه المنفتق ، وتمسك بزر الآخر المتدلى ، وتصغى ويطول منها الاصغاء ، فكلنا عندها صاحب حق ، ولا تدع احدا منا دون ان تلتفت اليه . كانت تحبنا جميعا ، وان يدها التى تمسح بها شعورنا لتسقط غيث العفو على رءوسنا ، وبذلك ينتهى العراك ويسكن العجيج والضجيج وتتصافى القلوب . وقد احاطت باسمها التجلة واقترن بالحرمة ، فكان يذكر بكل جميل وهو يجرى على لسان أهل الدار من سادة وسيدات واطفال

وخدام . واتفق يوما ان اشتجر الاطفال فيم الهرج والمرج ، وكانت العاقبة وخيمة ، فقد تحطمت نارجيلة الجد البلورية الثمينة ، وانحصرت الشبهة فى اشدنا رعونة وطيشا . يالهامن فتاة مسكينة انى لأمسك عن ذكر اسمها اكرامالذكراها ، ولقبها الذى عرفت به بيننا هو (آتش)[1] والجد هو الذى لقبها بهذا اللقب ولم نجد خيرا منه ولا أدل على طباعها . اما آلتين نينه فلم تكن تناديها الا باسمها الأصلى كراهة ان تجرح شعورها وتحزن نفسها، فاسترعى ذلك انتباهنا وتبينا انها تعاملها بما لا تعامل به أحدا منا وتكلؤها بالبر والرحمة بيد ان جريرتها كانت من الوضوح، وكان ذنبها من العظامة بحيث استحالت حمايتها امام كسارة النارجيلة المنتثرةههنا وههنا فى الفناء الرخامى . وغلب الانفعال آلتين نينه ، فخرجت قليلا عن صبرها ، وأمسكت الفتاة من كتفها وجذبتها نحوها ، فانتظرنا حدوث شىء ! لقدعجبنا كيف تلطم آلتين نينه احدا ولأول مرة ! وكتمنا أنفاسنا مترقبين ، كلا لم تكن لطمة ، وانما انحنت قليلا وقذفت فى وجه الفتاة هذا القول بلهجة شديدة

---

(١) آتش بمعنى النار .

– سيستجوبك جدك هذا المساء !

هذا هو الخطب العظيم فى تلك اللحظة . واستحت آتش من جرح كبريائها فأملصت كتفها من يد آلتين نينه بانتفاضة شريرة وانتفخت كهرة غضبى ، وانفجرت فى وجه آلتين نينه الذابل الشاحب بقولها : اسكتى يا باقير نينه (١) !

وجمدنا مشدوهين ، ونظرنا بعضنا الى بعضنا ، وكأن قنبلة دوى انفجارها بيننا . اما آلتين نينه فما نبست ببنت شفة ، ولم تزد على أن حدجت آتش بنظرة شديدة ، ومضت تمشى الهوينى وفى يدها مسبحة تحرك حباتها العنبرية ، وامتد العمر بها بعد هذا الحادث اكثر من عام ، الا أنها لم تكلم آتش بحرف ، وكانوا إذا مضوا بالفتاة اليها رجاء الصفح عنها ، ابت ان تبسط يدها .

وشاع فى الدار أن آلتين نينه عليلة ، وبعد أسبوع قيل انها هامة اليوم أو غد . وحظروا على الأطفال دخول غرفتها ؛ ثم انقضت ايامها . وكانت وصاتها ان يشترى بساط لجامع الخاتونية بكل ما خلفت من مال . وظهر لها صندوق فتحه جدى ، فإذا

---

(١) باقير نينه بمعنى الجدة النحاسية وقد ارادت الفتاة شتم من تسمى الذهبية .

فيه اربعة اكياس ، وعلى كل كيس كلمة : للفقراء ، للبنات ، للخدم ، للأطفال .

وأمر جدى الأطفال بالمجيء ، وبعد أن عرف الحضور والغياب ، اخرج من الكيس اوراقا كتب على كل منها اسم طفل منا ، وانطوت على شيء صغير له ، فنادانا باسمائنا ووزع الانصباء . وتحلقنا ، ووقفنا ونحن لا نجد فى انفسنا شجاعة نفض بها الغلاف عن هدية آلتين نينه . وخرجت من الكيس آخر ورقة ، فقال الجد (آتش .. هذا لك ، انظرى ، لقد سميتك آلتين نينه آتش لأول مرة !) ونظر الينا جميعا ثم قال (فضوا الغلف لنرى ما خلفت لكم آلتين نينه) ومزقنا ما بأيدينا من اوراق بأنامل مرتعشة ، فاذا فى داخل كل منها قطعة ذهبية ثمنها خمسة جنيهات ، ففتحنا عيوننا عن بريق باسم ، الا آتش فقد ضمت قبضتها محاولة اخفاء مافى يدها . قال جدى : افتحى يدك ليظهر مافيها وبسطت آتش كفها ، فإذا قرش نحاسى قديم !)

فهذه قصة قصيرة ساذجة لاتخرج عن كونها احدى ذكريات الطفولة ، وقد أجاد كاتبها التحليل والتصوير ولم يقل إلا حقا ، لأن كلامه من وحى الواقع لا من نسج الخيال ، وفى مثل هذه القصة تتسع منادح النظر لعلماء النفس والتربية الذين ينسبون

سلوك الانسان وطباعه فى كبره الى حوادث وقعت له فى صغره. ومن يدرى اى اثر تركته رؤية القرش النحاسى فى نفسية الفتاة، فظل هذا الاثر متحكما فى ميولها وتصرفاتها لما ان بلغت مبلغ النساء. وفى نظرى ان القصة الواقعية تفضل الخيالية، لأن مطالعها مقتنع بصحة حقائقها، وعليه فهو متعظ مستفيد، أما صاحب القصة الموضوعة فيخدع القارىء بالإيهام، وقد لا يوفق إذا تمادى فى المبالغة، لأن القارىء لا يحملها على محمل الجد، ويعتبرها وسيلة لتزجية الفراغ. وهذا ما يذكرنا بفن كتابة القصة عند الروس. فقد كان اتجاه كتابها من عام ١٨٤١ الى عام ١٩٠٤ الى القصة التى تصور واقع الحياة تصويرا صادقا، وهذا من اسباب تبريزهم فى التأليف القصصى.

والمشاهد ان خالد ضيا بك لا يكاد يصور بقصصه إلا بيئة واحدة هى بيئة تلك الطبقة الراقية من الاتراك الذين استناروا بثقافة الغرب. وقصصه من الروائع لأنها ليست مجرد تقليد لنماذج اجنبية، وانما هى وصف للحقائق وملامح المجتمع.(١) أما ألمع شخصية فى هذه المدرسة الأدبية فالشاعر توفيق

---

(١) Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P 199

فكرت بك الذى كان ذا رأى فى السياسة ومذهب فى الشعر ، ونزعة انسانية رحيمة اوقفته موقف المدافع عن كل حق مهضوم، والثائر فى وجه كل ظالم غشوم . والفكر اغلب عليه من العاطفة، ولعله اكثر شعراء الترك انصرافا عن المدرسة الآسيوية القديمة. واخذا بتعاليم المدرسة الاوربية الحديثة .

كان مولده فى استانبول عام ١٨٦٧ ، واظهر فى طفولته ميلا الى الأدب والرسم وتحسين الخط ، ويروى انه كتب يوما على ورقة (رسام توفيق) ثم ثبتها فى زجاج نافذته من الداخل، ولما نظر إلى ما كتب من الخارج وجد الكتابة مقلوبة فضاق بذلك وحزنت نفسه ، ويستنتج رضا توفيق من هذا الحادث على سذاجته ،ان الفتى يتميز بذوق فنى تجلى فى تلك القدرة التصويرية التى اصبحت سمة من سمات شعره (١) ودرس فى المدارس كالفتيان من اهل زمانه ، الا انه كان يعتمد اكثر ما يعتمد على مجهوده الخاص فى دراسته وثقافته ، وجاش الشعر فى خاطره فنشر ما نظم وهو طالب علم ، وانتهى عهد التعلم وجاء عهد العمل، فعمل توفيق فكرت فى وزارة الخارجية ، ثم اشتغل بالتدريس

---

(١) Riza Tevfik, Tevfik Fikret, Hayati, San' ati, Sahsiyeti S 8 (Istanbul 1945)

فدرس الانشاء والادب فى اكثر من مدرسة ، الا ان مدرسى المدارس الحكومية فى عهده كانوا فئة مغبونة لأن وزارة المعارف كانت تخفض رواتبهم على ضآلتها ، فاستعفى من عمله ، وحرر القسم الأدبى بصحيفة (ثروت فنون) . ولما احتجبت سنة ١٩٠١ وتعطل عن العمل وجد مس الحاجة الى الدروس الخصوصية ، ثم عاد الى التدريس ولكن فى مدرسة أجنبية . واختاره الله لجواره سنة ١٩١٣ .

وليس توفيق فكرت بشاعر مكثر ، غير اننا لا نعرف شاعرا من شعراء عصره نظم شعرا حسيا كشعره ، وهو يفضل معاصريه حتى فى اضعف نواحيه . ولا شك ان ذلك مقياس دقيق لعظمته (١) وقد عاش فى عهد عبد الحميد أو عهد انحلال الامبراطورية العثمانية ، وان يكن نامق كمال وضيا باشا من مظاهر حركة الاصلاح المعروفة بالتنظيمات ، فان توفيق فكرت مظهر ادبى وفكرى لذلك الاصلاح الذى عرفه الترك بعد ان ظفروا بالدستور عام ١٩٠٨ (٢) وحقيقة الأمر ان الدولة العلية

---

(١) Faruk Nafiz, Tevfik Fikret, Hayati Ve Eserleri, S 7 (Istanbul 1937)

(٢) Sabiha Sertel, Tevfik Fikret, Ideolojisi Ve Felsefesi, S 14 (Istanbul 1946)

وراجع كتابنا من أدب الفرس والترك ص ٩٩ .

لبثت مئات السنين من غير ان يكون لها المظهر الكامل للحكومة، فقد عارضت حقوق الافراد حق الحكومة ولم يقف الحكام عند حدود الشرع ، فاخذ البرىء بأقسى العقاب على حين ترك المسىء ليعيث فى الأرض ، كما فسدت الضمائر وضعف فى النفوس الوازع الدينى والخلق ، فرأى توفيق فكرت ان لا اصلاح للحال إلا بالقضاء على السلطنة ، وبلغ من جرأته ان يهاجم "السلطان فى شعره ، فلما القيت عليه قنبلة وهو ذاهب الى المسجد لاداء فريضة الجمعة ، وانفجرت القنبلة امام عربته دون ان تصيبه ، قال شعرا فى هذه المناسبة مصورا به ماحدث ومعبرا عن أفرحه الشديد للاقدام على مثل هذا العمل الذى يتوسم الخير فى عاقبته ، فهو الذى يقول للجانى (ايها الصياد الشريف ! لم تنصب الشبكة عبثا ، ورميت فما أصميت يا أسفى !)[1]

---

(١) كان عبد الحميد فى أوائل حكمه يظهر لشعبه ، ثم احتجب واوجس قلبه فزعا يوم اقتحم قصر جراغان بعض رجال مراد الخامس، محاولين استنقاذ سلطانهم المخلوع من محبسه . فزايل العاصمة نهائيا واعتزل عن الناس فى يلدز بعد ان غلق الأبواب واوقف الحجاب . وقد وسوست الاوهام فى صدره خشية اعتداء يقع عليه . فكان إذا

فقد كان امله ان يهلك السلطان لتأمن البلاد شره وينكشف عن الناس ظلمه ، وهو ينطق بلسان ذرب عن قلوب كسيرة لاتملك الا ان تنطوى على ألمها وتشكو الى الله بثها . وله قصيدة طويلة بعنوان (سيس) اى الضباب يصف بها كذلك عهد عبدالحميد ، وهى صورة لمدينة استانبول فى نكد عيشها وانحلال

= نوى الخروج لأمر هام ، جدا جدا، وقامت حركة الشرطة ورجال الامن على قدم وساق قبل يوم خروجه بشهر ، ففتشوا كل دار تقع فى طريق السلطان ، وتحروا عن سكانها ثم حظروهم ان يطلوا على موكبه . كما امروا التجار باغلاق متاجرهم ، اما الصيادلة فكان لزاما عليهم أن يبعدوا من صيدلياتهم كل المواد الملتهبة والمفرقعة . وكان العمال يرصفون الطرق ومعهم المهندسون ومهمتهم فحص انابيب المياه والغاز للتأكد من خلوها من الالغام . وكان السلطان يكره ركوب العربات المغلقة لصعوبة الخروج منها وقت الخطر ، كما كان غطاء عربته الجلدى مصفحا بطبقة من الصلب . ومن مستطرف مايروى ان مجهولا القى شيئا ملفوفا فى عربة السلطان ذات مرة ، فطارت نفسه شعاعا ، وظنه قنبلة تنفجر بعد لحظات ، الا ان رجلين من رجاله الشجعان وجدا طفـــلا فى القماط ، وورقة يشكو ابوه فيها الفقر ! ففرح السلطان بعد ان ايقن بالهلاك ، وامر بتربية الطفل فى القصر ،
راجع Dorys, Abdul - Hamid Intime, P 184 (Paris 1903)

خلقها . وتوفيق فكرت يرنو اليها فى صبح من تلك الاصباح التى تغمرها بغبش الضباب فيشاهد الأضداد المتنافرة ، والصراع الدائم بين الهدى والضلال والعقل والهوى ويقول (احاط الدخان بآفاقك ولم ينكشف عنها . فكانت ظلمة بيضاء تتراكب وتتزايد على المدى حتى محت كل شبح تحتها ، وجعلت من الكائنات هياكل مغبرة ، وارتد البصر حسيرا عن أغوارها فانخلعت القلوب رعبا . ولكن هل يجديك هذا الستر الصفيق نفعا يا مجمع المظالم لاتحسبي ان أمرا من أمورك يخفى وان جهدت ان تخفيه. كأن يد الخيانة قد القت الذعاف فى أسك يوم بنيت ، فان رجس الرياء يموج فى كل ذرة من ذراتك . لا أثر لنقاء ولاصفاء بك . وما منية المتمنى من اهلك الا ان ينعم بتلك الشرور والآثام . احتجبي ايتها النكراء ، احتجبي ايتها المدينة ، احتجبي وارقدى يا فاجرة الدهر ، ولتكن رقدتك إلى آخر الدهر !)

ولم يتأت للشاعر ان ينشر هذه القصيدة التى يغايظ بها عبدالحميد ويغالظه فى عهده ، فنسخت وتناقلتها الأيدى فى خفية ، وكانت سببا من اسباب ثلت عرش السلطان . وهو شديد السخط على استانبول ومن فيها والزمان وأهله ، وقد بعثه هذا السخط على ان يشيح عن الماضى والحاضر ، ويتطلع الى مستقبل بعيد

يفعمه باسعد الآمال وله قصيدة بعنوان (فردا) أى الغد يوجه الخطاب فيها الى الجيل الجديد ناصحا مرشدا فيقول (هوذا يومكم الصاخب يتكشف عن غد جديد سعيد ، وما غدكم يا شباب إلا لكم ، فانتم طلعة الامل البهيج إذا ارتسم فى سماء لا يرنقها الغمام. وان صدرا خفاقا يتفتح للقياكم ، فإليه حثوا خطاكم ، يا فجر حياة مشرق البسمات . وكل عين ترعاكم فانتم معقد الرجاء . وعلى جباهكم نجوم تأتلق ، لا بل شموس تتوهج ، فأشرقوا فى الآفاق حتى ينطفىء امامكم هذا الماضى الذى أضرمه الزمان عليكم نارا ، ولتخمد كل جذوة فى ذاك الجحيم الى أبد الآبدين . فما وطنكم إلا جنة عرضها السموات والأرض . ارأيتكم تلك الحسناء الرائقة الحس ، اشاهدتم خضرة الزمرد فى لحظها ورقة اللؤلؤ فى رقتها ودلها ؟ اتعرفون يا شباب من هى ؟ انها وطنكم. وكم عين تجرح وجهها الصبيح بالنظر الحاد ، فمن منكم بالله يرتضى هذا ، ويستطيع عليه صبرا . وكيف تسمحون ليد الغريب ، وان لم تكن دنسة ولا نجسة ، ان تمتد الى لحية بيضاء الوقار ، أوجبهة شماء للعز والنخوة ! وانى يحل للسفهاء والحمق ان يرجموا قبوركم . كلا ، ان لتلك اللحى والجباه حرمة وقداسة ، وما كرامتها الا من كرامة الوطن . ويسمو وطننا الى العلاء ان رفعته

كواهلنا ، وظاهرتنا حميتنا ، وانتم يا شباب ذخرنا ورجيتنا . وكل الفضل فيكم ولكم . ولكن اذكروا ولا تنسوا ان الزمان يتعقبنا بخطى وحية خفية . وقد قلت ايها الشباب ان المستقبل لكم ، وفى الحق انه وديعة بين يديكم وليس لكم ، وستسألون عنها وتحاسبون حسابا عسيرا عليها ، وقد تكون الشكوى منكم لا اليكم . وانتم اليوم تنظرون الى الماضى بعين يقظى فلا خفاء ولا شبهة ، وقد يأتى الغد فيحيطكم بشبهات وشبهات ، وانتم سلالة الحسب والنسب ، فكونوا من ذلك على ذكر بين حين وحين . واعلموا أن عصركم عصر نار ونور ، وبعد البروق ليل يحلولك . وان سموات العز والرفعة قد فتحت لكم ، فارتفعوا ، وان من لا يرتفع ، لا محالة ينهبط . ومثله مثل الأطيار . فاعملوا ، ولتتقد منكم النفوس غيرة وحمية . وعليكم ان تحتكموا الى عقولكم ، وابحثوا تجدوا . وامرعوا فى سعيكم وارفعوا اصواتكم . وقد مضى زمان الاستئسار والاستسلام ، وأتى زمان العمل والأمل)

فهذا الشعر أشبه شيء بنشيد حماسى يلهب النفوس ويثير العواطف ، ويدفع دفعا الى العمل كل كسلان وكل .

اما اشد غضبة غضبها على الماضى والحاضر ، فنفثها سموما فى اطول منظوماته وتسمى (تاريخ قديم) وبدا رقيق الدين زائغ

العقيدة حائر الايمان ، يشك فى الحقائق ، معتقد ان هذا الشك درجة من درجات المعرفة ، ويسخط ويعبس ، ولا يجرى له إلا الطائر الأشأم وتذهب صبيحة سرتل الى ان مرض السكر الذى كان يضويه هو السبب فى هذه الحالة النفسية[١] فهو يتمثل شبحا يملأ القلوب رعبا بأنياب عصل تقطر دما ، يطيل مدة الليل ليعبث فيه ، وينسأ طلوع صبح يرقبه العالمون . ومن قوله (نريد صبحا لهؤلاء الذين طالت رقدتهم فى الليالى السود . ايها الشبح الذى ينسل فى الظلمات ، كأنك امسكت اشياء ملطخة بالدماء !) .

وأول ما يشاهد هو أنه شاعر معنى لا شاعر لفظ ، فلا عناية له بتنميق العبارة . ومعانيه من الغزارة بحيث تضيق عنها الاوزان والقوافى ، وجمله طويلة قلما يتسع البيت الواحد للواحدة منها . وهذا منه خروج عن مألوف شعراء الترك والفرس والعرب الذين جرت عادتهم بأن يجعلوا كل بيت مستقلا بمعناه واذكر ان نقاد الأدب من العرب كانوا يعيبون تقسيم المعنى على اكثر من بيت ، وهم فى هذا الرأى على صواب ، فإن الكثير

---

(١) Sabiha Sertel, Tevfik Fikret, Ideolojisi Ve Felsefesi, S 126

من شعر توفيق فكرت لايشف ظاهره عن باطنه ولا يتجاوب أوله وآخره لدوران المعنى الواحد فى عدة ابيات . فمن قوله تحت عنوان (معك)، (تعالى ، لنسر معا فى هذا الطريق الظليل ، ولنمض حثيثا فى ظلمته المخضوضرة الى آخر دهرنا . تعالى ، ان لهذا المكان المقدس أفياء ينفح منها عطر الالهام ، فلنبق فيه إلى آخر دهرنا . هذا الطريق المنير ، ما اجمل هذا الطريق الذى انفتح لنا وهو مستتر فى صدر الوحشة . تعالى ان هذا الروض الاريض ملىء بالحياة والبهجة ، فلنقض فيه سحابة يومنا ، اما عشنا الخرب فلن يشهد عودتنا اليه . ولكن ماهذه الهوة فى نهاية هذا الطريق الجميل ! أليس حراما ان تكون سوح الآمال كطريقنا . وأخوف ما اخاف هو ان يفضى طريق السعادة على الدوام الى مثل هذا الخراب، نعم، ماهذه الهوة فى نهاية هذا الطريق الجميل!)

فهذا الشاعر لايكف عن التفكير الحزين وهو مع الحبيب فى الروضة المعطار ، ولا يتخيل طريقا جميلا من غير هوة للعدم يتردى فيها من ينعم بالسير فيه . فما أشبهه بذلك البلبل الذى لا يرتفع له صوت الا بالنواح .

وقال فى دميمة (ان فى وجهها المنتفخ غضونا تنبسط بصفو مريب . وإذا بسم ثغرها ، بدا ضجر نفسها من استحقار فى

نظرة عينها . انها لا تملك اى سبب آخر لذلتها ، نعم انها كالناس، غير ان عيونهم تقتحمها وينفرون منها. آه من الدمامة ، لا راحة معها ! وإذا ما احست بضعتها ، ثارت نفسها واعتلج قلبها ، واصبح نهبا لأقسى الهموم والغموم ، فنفثت حقدها الكمين فى وجه الخليقة الحسن) .

فهذه الصورة الشعرية الجميلة تشهد لتوفيق فكرت ببراعته فى التصوير وقدرته على تفهم خبايا النفوس ، كما تدل على انه يتلقى الحياة بعقله اكثر مما يتلقاها بحسه . وهذا الكلام لا يقتدر عليه إلا من تمرس بأدب الاوربيين . وقد ضمن اشعاره بمجموعة سماها (رباب شكسته) اى القيثارة المحطمة ، واظهر ما يميزها انها شعر بالتركية يحسن فيه صاحبه تقليد الفرنسيين وان لم يفته ان يصور بيئته بالألوان الزاهية ، ولا شك انه بذلك قد حطم قيثارة الشعر القديمة أو أضاف اليها أوتارا جديدة .

وله مجموعة شعرية صغيرة هى (خلوقك دفترى) اى دفتر خلوق ، وفيها يبذل النصح لولده خلوق ، فيدعوه الى المحامد وينهاه عن المقابح ويناجيه ولكن بشعر عال . وفى عام ١٨٩٤ تزلزلت الأرض فهلك من اهل استانبول خلق كثير . واتفق ان وقعت هذه الفاجعة بعد مولد خلوق بمدة غير مديدة ، فزلزلت

مهده ، وكانت اول تجربة قاسية احس بها الوليد فى دنيا دخلها بالأمس القريب . فتحركت الشاعرية فى قلب ابيه الذى قال (ذبلت الوجوه حزناوهلعا ، واصبحت الديار ومن فيها كالفراش المبثوث ، اما من قدر له البقاء منهم فعاجز ذليل . وقد أحنى الخشوع والانكسار رءوسا كانت مرفوعة ، حتى رءوس المآذن نكست فى الأرض . وان مثل هذه الصدمة لتوقظ الناس من غفلتهم . ولكن ، أكل هذا العذاب المهين لتنبيه الغافلين ، لله ما أقساه درساً !)

ثم يلتفت الى ولده فيقول (انت ضيف أيام سود ، ولن تكون ايامك سياحة سهلة سعيدة تفعم الفؤاد سرورا . وفى حياة هى تيه محنة وبلاء ، لتلك السياحة السعيدة خيال يطوف بالنفوس ليس إلا . وما نهاية السير الحثيث الى السراب البعيد إلا عناء يذهب هباء منثورا ، ومن كد حق الكد ، كسب الحياة ، ولا بد أن تخسر قليلا لتكسب كثيرا . وان من جاهد فى طلب المعانى ليخطو خطوات يثقلها الخوف وإن كانت مجيدة مشرفة . وماذاك إلا لأن الزلازل من خلفه والزلازل بين يديه)

ومن شعره التعليمى منظومة (فى خلوقك دفترى) بعنوان (دونك باشى) اى رأس الجمل وهى سهلة العبارة لأنه يخاطب

بها الصغار لحكمة فيها ويقول (يحكى ان جملا هيكلا كان له رأس. وأى جمل بلا رأس ! انما هو مثل ضرب فاستمعوا له. وقد حمل هذا الرأس الفاسد الخاوى اطراف النهار ، شتاء وصيفا ، فى الوعر والسهل والجبل والبرية والدوية ، فرزحه حمل رأسه. فإلى من يشكو هذا الجسم الضخم مايكابد من أوجاع. وصادف غرابا فأفضى اليه بأمره ، قال الغراب لقد وهبك الله رأسا فاصبر على مقدور القضاء. فتعجب السنام وتحرك الذنب ، لا نقل الله العقل من رأس الى ذنب ! واصاخ الناس لشكوى هذا الجمل ثم ملوا طولها ، فأين يذهب ومن يستمع له ؟ ومضى الجمل المسكين فى سكون لأنه لم يجد ملتفتا إليه ، فدس رأسه فى حفرة ثم تمطى وهو يقول : الى الجحيم ايتها الجيفة ! وسوف يقطع الرأس الظالم فى يوم من الايام)

ولم يكن توفيق فكرت معلما ولا شاعرا وحسب ، وانما كان مربيا عظيما كذلك. ولا نعرف شاعرا تركيا فكر ونظم للجيل الجديد كمافكر ونظم. فقد وقف جهدا عظيما على الاخلاق والتربية والتلقين والتهذيب ويعتبر (خلوقك دفترى) أول وأروع كتب التربية .(١)

---

(١) ساطع ، فكرت وتربية (معلم) ص٤٢٨ (استانبول١٣٢٣)

ومن كبار الكتاب ومذكوريهم عمر سيف الدين ، الذى أتقن القصة القصيرة ايما اتقان وكان رائق الديباجة جيد السبك حسن التحبير ، درس فى المدرسة الحربية ، ولما تخرج ضابطا اشتغل بتدريس الفنون العسكرية . كما خاض الغمرات فى حرب البلقان . وعرف بقوة النفس وشدة البأس قبل ان يرتفع عن سن الحداثة فعرف بين لداته بـ (دلى عمر) أى عمر المجنون . كان آية من آيات الله على قلة استذكاره ، لا يعرف الحزن ماهو ، فما انهملت عينه بعبرة . لا ينظر إلا الى الجانب المشرق الضاحك من الحياة . وكان ملولا قريب الرضا من الغضب ، وفيه ماينسب الى العباقرة من شذوذ (١) وقد تضلع من الفرنسية حتى نشرت مقالاته إحدى الصحف الباريسية . وقال شعرا ، غير أن قصصه من الأهمية بمكان لأنه صور فيها حياة الترك واستعان على اختيار موضوعاته وأشخاصه بتاريخ قومه وتقاليدهم التى ورثها بعضهم عن بعض قدما . وهذه قصة له تسمى (پنبه اينجيلى قافتان) اى القباء ذو اللؤلؤ الوردى . وفيها يتجلى روح عمر سيف الدين واتجاهه الفكرى ، كما انها صورة حية لتركى قح هو

---

(١) Mahmud Kemal Inal, Son Asir Türk Sairleri, Ş 1309 Cüz 7

أحسن مثال لأبناء جلدته .

وكان الديوان ذو القبة الشماء اعمق سكونا واقل نورا من ذى قبل . وقد طاب فيه النسيم وتسربت أضواء الربيع اليه زاهية ، ثم امتزجت بخضرة الجدران فارتدت عنها وهى داكنة . وتربع الوزراء على حشايا الحرير ، وللخمول والذهول أثر عليهم ، فغرقت نواظرهم فيما امتد أمامهم من تهاويل البسط وأصباغها . أما الصدر الاعظم ، فقبض على لحيته البيضاء بيد نحيلة ، واستغرق فى تفكير مظلم ، وغاصت عيناه الذابلتان فى أبعد الاغوار ثم قال

نحن فى مسيس الحاجة الى رجل عظيم الجرأة شديد البأس أيها السادة الوزراء . وما دمنا نريد أن يكون رسولا لنا ، فليكن من رباطة الجأش وثبات الجنان بحيث لا يهاب الموت ولا يسكت بحال على ما يمس بالسوء كرامة الوطن ورغبتنا منه ألا يكسر من زهوه ، ولا يغضى على القذى .

ــ هذا هو الحق الذى لا ريب فيه .

واعتدل الصدر الاعظم فى جلسته ، ودعم يده بركبته ، وأدار بصره مليا فى كل وزير على حدة

ــ عليكم ان تطلبوا مثل هذا الرجل ، فأنا لا اذكر هذه

الصفات لأحد ممن اعرف ، ففكروا علكم ان تهتدوا إليه .

واهتزت فجأة قلنسوة على يمنة الصدر الاعظم بعد أن كان لها سكون حجر من أحجار القبور . ثم استدارت إلى اليسار شيئا فشيئا .

— اعرف رجلا يصلح لهذه المهمة اسم الصلاحية ، كان أبوه من رفاق ، إلا أنه لايقبل وظائف الدولة .

— ومن هو ؟

— محسن لمي .

— أين مقره وما صناعته ؟

— هو ميسور الحال ، يزجي الوقت بالمطالعة ، بيد أنه شديد النفار من صحبة العظماء ، شديد الزهد فى المجد والجاه .

— عجبا ولم ؟!

— انه جسور ، جسور لايخشى فى الحق لومة لائم . ولا يرهب الردى ، وقد خاض حروبا كثيرة ، وللسيوف جراحات ما زال أثرها ظاهرا فى وجهه .

— ألا يصلح ليكون رسولنا ؟

— لست ادرى .

— سر إليه وأوقفه على جلية الأمر .

- والله ما اعلم يا سيدى ، أيقبل شرف المثول بين يديك ام يأبى الحضور .

- كيف يأبى الحضور .

- قد لايجيء ، انه لا يأبه لشيء فى الدنيا ، فالأمير والحقير عنده سواء .

- أليس محبا لوطنه ؟

- وهل فى ذلك ريب !

- مادام الأمر كذلك ، فنحن انما نطلبه لخدمة الوطن لا لخدمتنا .

- تفضل بالتجربة ياسيدى .

وانفذ اليه الصدر الاعظم نائبه فى المساء ، بعد أن كتب يؤيد ضرورة المجيء لأمر وطنى على اعظم جانب من الأهمية .

وفى حجرة صغيرة ضئيلة النور ، لها من قماش الهند الصفيق أستار مسدولة ، كان الصدر الاعظم فى الصباح الباكر يطالع أوراقا تركها له كاتبه . فاخبر بمقدم محسن چلبى .

- ادخلوه على هنا .

وبعد هنيهة اجتاز الباب المحلى بالصدف رجل ربعة مفتول الشارب ، قد برقت أسرة وجهه ، والتمعت عيناه النجلاوان تحت

حاجبين اسودين مقرونين . وانتظر منه الصدر الاعظم مايعهد من سجود العبيد وخضوعهم وخنوعهم ، ولما رأى من الرجل ما ليس فى الحسبان ، ثبت مشدوها فى مجلسه على أريكة يا طالما قبل الزوار حافتها ، واحتبس عليه القول . فلم يذكر أنه رأى رجلا بارز الصدر مرفوع الرأس مثله ، وهو الذى ألف رؤية الوزراء منحنى الظهور مطأطئ الرءوس فى حضرته ، قال محسن چلبي بصوت هادىء :

— لقد طلبت حضورى ، فماذا انت قائل ياسيدى ؟

— سأقول شيئا .

— تفضل بالكلام

— تفضل بالجلوس هنا يابنى

وجلس محسن چلبى فى المكان المشار اليه من غير ما خجل ولا وجل . وقال الصدر الاعظم فى نفسه وهو يمسك بأوراقه المطوية ، أى رجل هذا ، لعله مجنون .

والواقع من الأمر أنه كان رجلا تام العقل صائب الرأى ، له من المال مايكفيه سؤال الكريم واللئيم ، يستغل ضيعة عظيمة خلف غابة (بحا مليجه) ويبيع ألبان ماشيتها ، فيحيا حياة الشرفاء ، ولا يسترضى أحدا ولا يقبل المن من أحد . يرفق بالفقراء والضعفاء والغرباء ، ولا يأكل إلا مع ضيف يواكله ، وهو

تق نق إلا انه لا يعرف التعصب فى الدين . وقلبه عامر بالايمان وحب الوطن . يفهم معنى كرامة الوطن وقداسته حق الفهم . وشعاره الوحيد ألا يسجد إلا لله ولا يصبح عبدا لعبد من عباد الله وقد عرف بين الناس بالعلم والكرامة . وكان شاعرا وإن لم ينظم قصيدة قط ، ولم يقرأ قصائد المدح . وقد ذرّف على الأربعين من عمره . حاد عن كل طريق تؤدى إلى المجد والرفعة . فهذه الطرق التى يحف بها الذهب وينثر فيها الزهر ، ويذكر حسنها بحسن الجنة ، لن تفضى فى رأيه الا الى مواطىء الاقدام حيث يتخذ الانسان محرابا له من طرف ثوب متسخ يقبله ! وللانسانية عنده منزلة لا تسامى ، فالانسان خليفة الله فى أرضه. وقد كرمه الرحمن وخلقه فى أحسن تقويم فهو بذلك اكرم المخلوقات ، ولا يليق الرياء إلا بكلب يلعق قدم صاحبه . وكان شديد النفور من هؤلاء الذين يحرصون كل الحرص على التصعيد فى قمم الجاه ، وهؤلاء المتسلين كالأفاعى من بروج الهوان . ومن ثم كان أنسه بالوحدة ورغبته عن معاشرة الناس . وفى زمان الحروب . كان ينهد الى الميدان لقيادة فرقة من الغرباء . وقد ادهش تبسطه وحريته فى جلسته الصدر الاعظم ، وان لم يغضب

— نريد انفاذك رسولا الى تبريز يابنى .

ـ انا ؟

ـ نعم

ـ لأننا لا نجد أحدا سواك

ـ لم التحق قط بوظيفة من وظائف الدولة .

ـ ولماذا ؟

فوقف محسن چلبي وقد ارتسمت على وجهه بسمة ضئيلة .

. . لأن لى عنقا لا أحنيه امام احد ، ولا اقبل يدا ولا طرف ثوب ، فى حين ان اهل الحل والعقد جميعا يحنون الرقاب تذللا وتزلفا ، ويقبلون اليد والقدم خضوعا واستخذاء ، ولا كرامة ولا خلاق لمن فى كنفهم من عبيد وندماء وأتباع . وإذا ما رأوا رجلا حرا عزيز النفس له وازع من ضميره ، سعوا للقضاء عليه ، وإلا فلماذا طعن احمد باشا ياسيدى ؟

ـ . . .

تحرق الصدر الاعظم عليه الأرم ، وبرقت عيناه ، وضغط على مافى يده من أوراق ، إلا انه تمالك نفسه فلم يحتد . وكان إذا احتدار تجف منه خداه ؛ ولم تمر بسمعه مثل تلك اللهجة الخشنة التى يخاطبه بها محسن چلبي حتى من زملائه ايام كان وزيرا وحاكما. وقال فى نفسه : اهذا الرجل مجنون ؟ وان لم يكن مجنونا أليس

هذا منه قحة وسوء أدب وخروجا على العرف والتقاليد ؟ واشتد بريق عينه ، وتمنى لو ضرب عنقه ، وكاد يرفع صوته بنداء الحجاب . وسمع صوتا من اعماق نفسه فجأة وكأنما يأتي من مكان مجهول يقول : انت لا تصبر على ان يقال لك بعبارة صريحة انك وصلت الى ما وصلت اليه من رفعة وعظمة بطريق الرياء والمداجاة ، وان هذا الماثل ليس انسانا ، ولكنه كلب يلعق الاقدام وسعتري ينحنى تحت الذل والصغار . ووضع الأوراق التى فى يده جانبا ، وأدام النظر الى محسن جلبي الذى كانت له هيئة ابطال الشاهنامه ، بما فى وسط جبهته العالية من أثر لضربة سيف ، وخديه اللذين تجرى فيهما حمرة الدم ، وعنقه الغليظ الابيض ، وأنفه الكبير المعقوف ، ثم هذه العمامة الصغيرة . وعرف فيه الصدر الاعظم أحسن من تناط به تلك المهمة ، فهو يأبى الضيم ولا يرهب الحمام . وحرك قلنسوته قليلا .

– سنبعثك رسولا منا الى تبريز .

– ولماذا لا تبعث أحدا من رجالك وهم كثير ؟

– أتعلم من هو الشاه اسماعيل الخبيث . (١)

---

(١) هو الشاه اسماعيل الصفوى المتوفى سنة ١٥٢٤ الذى يعتبر =

— نعم اعلم

— أتحب وطنك .

— نعم احبه

فاعتدل الصدر الأعظم فى جلسته وأسند ظهره .

— حسنا ، هذا الخبيث لايعرف للسفراء حقا ولا حرمة ،

= المؤسس الحقيقى للدولة الصفوية فى ايران . كان منه نسل الامام جعفر الصادق . فعول على ان يجعل المذهب الشيعى مذهبا رسميا لدولته ويمحو المذهب السنى محوا تاما وما علم ائمة الشيعة بذلك من عزمه حتى اشفقوا من جرأته ، وفضلوا ان تبث الدعوة الشيعية فى الناس رويدا رويدا ، الا انه ابى هذا الرأى وهدد بالقتل كل من عصاه . وأمر المؤذنين فقالوا اشهد ان عليا ولى الله . وحى على خير العمل . وقد اشتد العداء بين الايرانيين والاتراك منذ عهد السلطان بايزيد الثانى حين ثار الشيعة فى آسيا الصغرى فأخذ على ايديهم واثخن القتل فيهم هو وولده سليم ، وهلك منهم عشرة آلاف انسان . كما عقد السلطان سليم الديوان وقرر ان الشاه اسماعيل يفرق كلمة المسلمين ويفسد الدين ، فاستفتى فى قتاله وقاتله . وقد استحكم هذا العداء المذهبى بين تركيا وايران دهرا طويلا . وان هذه القصة الخيالية لتشير اليه .

والمنافسة على اشدها بيننا وبينه، وهو يريد ان ينال من سفيرنا مالم يستطع ان ينال منا فى حومة الوغى ، وقد يحكم بالتعذيب والقتل، لأنه لايخاف الله ، وان كل اهانة توجه الى رسولنا انما توجه الى دولتنا . فلزام على رجلنا ألا يخشى الموت ، وليدفع شره بالشر ويرد سهمه الى عنقه ، وأنت محب لوطنك ، فهل تقبل هذه التضحية فى سبيله .

- نعم ياسيدى ولكن بشرط واحد .

- وما هو ؟

- ما دمت اقوم بهذه المهمة على سبيل التضحية ، فلا أجر على تضحية . ونيل الأجر على مثل هذه الخدمة الوطنية لايخرج عن كونه ربحا شخصيا لا أكثر ولا أقل . لا أطلب أجرا ولا أريد منصبا ، هذا شرطى .

- ولكن كيف ذلك يابنى ؟ لقد كان رسول الشاه اسماعيل يلبس فاخر الثياب ويركب فاره الجياد ، ومن خلفه الخدم والحشم ، فلابد أن يكون رسولنا أعظم منه أبهة وأجل موكبا ، ولا غنية لك عن بضعة آلاف من خزانة الدولة .

فسكت محسن چلبى ، ونظر إلى الامام ، ثم رفع رأسه .

- كلا ، انا لا أقبل من خزانة الدولة دانقا واحدا ،

وسأنفق على ثيابي وجيادي وغلماني من صلب مالي ، و سألبس شيئا لم يره الشاه اسماعيل قط .

— وما هو ؟

— قباء من الحرير الهندي المزركش والمحلى باللؤلؤ الوردي.

— ومن أين لك هذا المال الوفير يابني ؟!

وكان حقيقا بالصدر الاعظم أن يعجب ، فلم يبق في استانبول إلا من سمع عن هذا القباء الثمين منذ شهر ، وقد أوضح له محسن جلبي تلك الكيفية التي يتمكن بها من شرائه .

— سأرهن ضيعتي وداري ، واستسلف التجار عشرة آلاف دينار ، فانفق الفين على الجياد والغلمان وابتاع القباء بالباقي من المبلغ .

— وماذا تصنع بالقباء بعد عودتك ؟ انه مظهر من مظاهر العظمة والترف ليس إلا . ستخسر مالك وتصبح فقيرا معدما .

— كلا ، ان التاجر الذي ابتعت منه القباء سيشتريه بسبعة آلاف دينار بعد ستة أشهر ، وسأفك الرهن بها ، أما إذا عجزت عن أداء ديوني فلتكن حلاتي فداء للوطن ، انهب الوطن شيئا ، فانه يهبنا كل شيء .

— ....

وحاول الصدر الاعظم ان يستبقيه ليأكل معه فأبى ، ولما خرج شيعه إلى البهو .

وفى غضون ستة أشهر كان محسن جلبي قد رهن ضيعته وداره وبستانه وحلائبـــه ، واقترض المال من التجار ، وهيأ الجياد والغلمان ، وكانوا غاية الغايات فى العظمة . وترك زوجته الشابة مع ولديه فى دار أحد أقربائه بعد أن أعطاها نفقة ستة أشهر . ثم حمل الرسالة ومضى . فطار صيته فى أرجاء الاناضول ، وتحدث الناس عن جمال قبائه وجلال موكبه حتى وصل خبره الى ديار الشاه اسماعيل . ودخل محسن جلبي قلعة تبريز ذات يوم بفخامة وعظمة ، فاعجب الناس برسول استانبول ، وتحدثت المدينة والمجالس والقصر عن القباء حديثا ذا شجون . أما الشاه اسماعيل فلم يكن يعلم شيئا عن اللؤلؤ الوردى ، وان كان قد سمع عنه فى الأمثال والقصص . وكأنما أحس فى نفسه بشيء من ذلك الرسول الذى تدل هيئته على الثراء والترف ، فوطد عزمه على أن يستحقره ويمتهنه . وكان قد أمر الجلادين بالوقوف خلف عرشه قبل السماح للرسول بالدخول عليه ، كما أمر برفع ما أمام عرشه من حشايا الديباج وبسط الحرير ، وكان الوزراء على يمنته والقواد على يسرته .

ودخل محسن جلبي من الباب العظيم ثابت الخطى مرفوع الرأس منتفخ الصدر، واخرج الرسالة من حضنه فقبلها ووضعها على رأسه ثم مد بها يده الى الشاه الذى كان غارقا فى طيات من الحرير ذى الألوان فكأنه على عرشه الذهبي نسر عجيب. وامتقع وجه الشاه لأن الرسول لم يقبل قدمه وحملقت عيناه، وتناول الرسالة. وتلفت محسن جلبي فلم يجد شيئا يجلس عليه، فابتسم وقال فى نفسه، لعلهم يريدون منى ان أقف إجلالا، وفكر فى الرد على هذه الاهانة فخلع القباء وفرشه أمام العرش. فذهل الحاضرون وبدت الحيرة فى عيونهم، ثم تربع على القباء الثمين وقال بصوت جهورى.

-- تلك رسالة من دولة الترك العظمى التى لم تستعبد منذ خلق الله الدنيا، وما وقف رسول الترك اجلالا امام حاكم اجنبي، وليس فى الدنيا من يدانى الترك فى حسبهم ونسبهم.

وكان محسن جلبي يصبح بتركيته الجافة، والشاه يكاد ينشق غيظا، فرجفت يده بتلك الرسالة التى لم يفتحها، وشهر الجلادون سيوفهم وعيل صبر الحاضرين فتمتم بعضهم متذمرا، وما ان أتم الرجل كلامه حتى قام من غير استئذان واتجه الى الباب فورا، اما الشاه فجمد فى مجلسه كأنه حجر، بعد ان ذاب غروره فى

(چالديران) (١) تحت نظرات محسن چلبي النارية ! وبينما كان محسن چلبي يهم بالانصراف قال الشاه لندمائه ، وقد بلغت منهم الحيرة مابلغت منه .

ـ اعطوه قباءه هذا

فبادر أحد القواد الى القباء المفروش امام العرش ولحق بالرسول التركى

ـ خذ هذا فقد نسيته .

فوقف محسن چلبي والتفت الى الباب الذى خرج منه وقال بصوت مرتفع يسمعه الشاه :

---

(١) معركة وقعت عام ١٥١٤ بين الفرس بقيادة الشاه اسماعيل الصفوى وبين الترك بقيادة السلطان سليم الاول وقد كسفت الشمس قبلها بيومين فاستدل المنجمون بذلك على سعد سليم ونحس اسماعيل، لأن الشمس وهى رمز ايران ، كسفت امام الهلال وهو رمز تركيا، وكادت الدائرة تدور على الترك فى أول الامر لطول سفرهم وقلة ازوادهم ، الا ان مدافعهم عصفت بالفرس عصفا ، وجرح الشاه اسماعيل جراحا مثخنة ، وكاد يقع فى الاسر لولا ان استنقذه احد رجاله . وكا نصرا عظيما للترك تغنى به من يدعى خوجه اصفهانى فى مدحتين قدمهما الى السلطان سليم . وكانت احداهما بالفارسية الدارجة والاخرى بالجغتائية .

- كلا ، انا لاانسى ، ولكنى تركته لكم ، لأنكم لاتملكون شيئا فى قصركم لتجلسوا عليه رسول دولة عظمى .

وعاد محسن جلبي الى بلاده خالى الوفاض ، ولما وافى مدينة اسكدرا قال لغلمانه .

- يابنى لقد وهبتكم هذه الجياد بما عليها من لجم وسروج ، وطابت لكم نفسى بهذه الثياب المزركشة والخناجر المرصعة ، فسامحونى سامحكم الله .

وتنفس الصعداء ، وقبل ان يدخل بيته ركب البحر الى قصر الصدر الأعظم ، وهناك أوقفه على كل ماحدث .

- أريد شراء قبائك يا بنى فأين هو ؟

- لم احضره

- هل بعته فى بلاد العجم ؟

- كلا لم أبعه .

- هل سرق منك !

- كلا .

- ماذا صنعت اذن ؟ !

- لم أصنع شيئا

- ....

والح الصدر الأعظم عبثا فى السؤال عن القباء . فلم يكن محسن جلبى من الخفة بحيث يفخر بما صنع . ولم يذكر عن القباء شيئا فى الغد لمن أراد ان يبتاعه منه بسبعة آلاف دينار . ولم يعلم احد شيئا عن مصير القباء فى استانبول التى تحن شوقا الى سماع خبره . أما فى قصر تبريز ، فقد سحب عليه ذيل النسيان وطمست قصته ظلمات التاريخ . واما محسن جلبى الذى كان ثريا فى يوم من الايام ، فقد عجز عن فكاك ضيعته وما يملك من الرهن ، وان استطاع بيع سرج نفيس تبقى له ، واشترى بثمنه بستانا صغيرا كان يزرعه ويجنى ثماره وينفق على داره وعياله . وقد شوهد وهو يبيع الخضر فى سوق اسكدار الى اخريات ايامه . وعاش فقيرا يغص بمرارة الحرمان ، غير انه كان موفور الكرامة مرفوع الهامة ، أمينا على سر تضحيته فى سبيل الوطن)

هذه قصة القباء بعد ان طرحت منها بعض الجمل للايجاز ، وتصرفت تصرفا يسيرا فى ترجمة عبارات تنبو عن الذوق العربى وهى مثال رائع لفن عمر سيف الدين القصصى الذى يطامنا منه على اللفظ المنضد والمعنى المرصف . وقد قال شعرا ، إلا ان منثوره يبهر فى الجودة موزونه ، وقد عوجل الى رحمة ربه فى السادسة والثلاثين من عمره سنة ١٩٢٠ .

وفى ذلك العهد المظلم عهد عبد الحميد ، مست الحاجة الى رأب الصدع ولم الشعث واصلاح الحال التى افسدها الحكم الجائر والسياسة العمياء الخرقاء ، فظهر اتجاه فكرى وطنى لاحياء الحضارة التركية التورانية بقتلها بحثا ودرسا ، والاستعانة بها فى خلق روح جديدة وحماسة عارمة واعجاب بالمجد التليد تذكر فى الترك بأنه سليل الأكارم الذى كان عزيز الجانب فى الغابر على ضعف شأنه فى الحاضر ، وتحبب اليه عزة الامس ، بقدر ماتبغض اليه ذلة اليوم ، فيأبى العبودية بعد السيادة ، ويعمل لنيل الحق بالثورة على الظلم . واطلع الترك على ماقام به العلماء المستشرقون من بحوث أرخوا فيها ماكان لأسلافهم من حضارات مشرقات . وقد ترجم نجيب عاصم كتابا فرنسيا لكاهان بعنوان (مقدمة لتاريخ آسيا) وهو كتاب مشهور الف عام ١٨٩٦ وتحدث فيه صاحبه عن الحضارات التركية القديمة فى أواسط آسيا ، فكان لهذه الترجمة أثر فى نشأة الوطنية الثقافية (١) ، وان هذه النزعة لتظهر بوضوح فى شعر لمحمد امين بك (١٨٦٨ - ١٩٤٤) قاله ابان تلك الحرب التى قامت بين الترك واليونان (انا تركى ، فالجنس

---

(١) Rossi, La Nuova Turchia, P127

جنس مجيد ، والدين خير الدين ، والنفس تلهبها نار الحمية ، والانسان عبد للاوطان ، ولا استكانة لسليل الترك فلأمض لطيتي. لا أحيد عن كتاب محمد ، ولا أمكن عدوى من دخول وطنى . لا لن يخرب بيت الله (١) فلأمض لطيتي . هذه البقاع فيها مستقر لأجدادي ، وهذا الجانب من الأرض داري وبلادي . ان وطنى فى كنف ربى ، الوطن لا يجد من يذود عنه ، فلأمض لطيتي . الله شهيد على وفائى ، لحب وطنى يملأ نفسى ، ولا شيء سواه فى عينى ، لن ينال العدو منالا من بلادى ، فلأمض لطيتي . بالقميص الابيض امسح عبرتى ، وبالحجر الاسود اسنن شفرتى ، ولوطنى اطلب كل عز ورفعة ، لا بقاء للانسان فى الدنيا فلأمض لطيتي)

أما من زعم على هذه الحركة القومية الفكرية فضيا كوك آلپ ، وهو من أهل ديار بكر ، تلك المدينة التى حكمها العرب والفرس زمنا طويلا ، ثم دخلت فى حوزة الترك فى القرن السادس عشر فكانت مركزا للحضارة التركية بين الفرس والعرب . وقد سكنتها عناصر غير تركية ضاقت بحكم الترك ذرعا . فثارت قبائل الكرد على الحكومة المركزية ، وأراد الأرمن ان يطرحوا نير السلطان.

---

(١) يريد بلاد الترك .

وفى هذه البيئة الغضى ولد هذا الزعيم ، والمشاهد ان المبادىء الثورية توجد فى الاقاليم الواقعة على الحدود (١) وقد التحق بالمدرسة الحربية ، الا أنه اظهر شغفا عظيما بالأدب ، وصرف كل عنايته فى مطالعة كتبه ، كما آنس منه مدرس التاريخ ميلا خاصا الى الأفكار الحرة ، أما العلوم الأخرى التى تتطلب استظهارا واستذكارا ، فلم يكن فيها من المجيدين ، وشأنه فى ذلك شأن معظم النبغاء الذين لاتظهر ألمعيتهم الافى نواح محدودة . ودرس الفرنسية كضرورة ثقافية لا غنية لمثله عنها ، كما قرأ العربية والفارسية ، وكان شديد الاعجاب بالغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) لبعد شأوه من سلامة المنطق واتساع الافق . وكان فى ديار بكر جماعة من أهل الرأى والعقيدة ، أمرهم السلطان عبد الحميد بمغادرة استانبول لمبادئهم الثورية ، فوصل ضيا كوك آلپ اسبابه باسبابهم وتشبه بهم ، وصادف ان قدم هذه المدينة طبيب كردى يدعى عبد الله جودت ، وهو رجل رقيق الدين ثورى المذهب يعتنق مذاهب فلاسفة الغرب ، فقد ألف جمعية سرية كانت نواة

---

(١) Uriel Hyde, Foundations of Turkish Nationalism, P21 (London 1950)

للجمعية المعروفة بجمعية الاتحاد والترقى (١) وسرعان ماتمكنت الألفة بين ضيا كرك آلب وعبد الله جودت ، وجمعت بينهما وحدة الهوى ، فانخرط ضيا فى تلك الجمعية السرية كالفته صاحبه الطبيب الى مسائل السياسة ودراسة الجماعات . وكان ضيا شاعرا فقال شعرا فى هذه الآونة أى عام ١٨٩٥ يدعو به الناس إلى الثورة على الحكم الظالم . وقام فى نفسه ان يرحل الى استانبول ليتابع الدراسة ويتمرس بحياة السياسة فيها . إلا أن أسرته أبت عليه ذلك . وحاولوا إرغامه على الزواج . فأخذ الأسى واليأس من الفتى كل مأخذ ، وآثر الموت على الحياة فاطلق الرصاص على رأسه ، والعجب ألا يصاب فى مقتل ، وداواه صديقه عبد الله

---

(١) هى جمعية من صفوة القوم تألفت فى مدينة سلانيك ، وقد جرت العادة باجتماع كل خمسة من أعضائها للتشاور فيما حزب من الامور ، كما كان من حق كل عضو ان يختار خمسة من الاعضاء الجدد ولم يكن لهذه الجمعية رئيس ولا سجلات . وكانت اصلا تفرعت عنه جمعيات متفرقة فى ارجاء تركيا . كما ضمت كثيرا من الموظفين ورجال الجيش على الخصوص . وانعقدت الصلات بينها وبين جمعية العثمانيين الجدد التى كانت قد تألفت من قبل فى باريس وسويسرا . اما غرض هذه الجمعية الرئيسى ، فاسقاط السلطان عبد الحميد ، والظفر بالدستور والحكم النيابى .

جودت ، وان تعذر استخراج الرصاصة من جمجمته . واستطاع أن يرحل فى النهاية مع اخيه الى استانبول . وهناك اشرق الأمل فى نفسه فواصل الدرس والتحصيل ، بيد أن نشاطه السياسى لم يخف على جواسيس عبد الحميد فسجن عاما ثم أبعد عن العاصمة وارغم على البقاء فى ديار بكر . وجمع حوله نخبة من الشباب ، فلقنهم تعاليمه واصدر جريدة تسمى (دجله) وفى سنة ١٩٠٩ دعته جمعية الاتحاد والترقى إلى سلانيك . ولما انتقلت إلى استانبول ، انتقل ضيا معها واشتغل بتدريس الفلسفة وعلم الاجتماع بجامعة استانبول . ولما اعلنت هدنة الحرب العالمية الأولى نفى الى جزيرة مالطه مع رفاقه من اعضاء جمعية الاتحاد والترقى وعاد من منفاه ثم مات فى الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٢٤ بعد أن امتد به العمر ليشهد الغاء السلطنة والخلافة.

ولم يكن عظيم العناية بالفلسفة ، وانما كان شغفه بالسياسة والاجتماع ، وفى رأيه ان اشتغال الترك بالتفكير النظرى سابق لأوانه ، فإن أمة تعيش فى نضال حرب لايخمد اواره ، وقد ساءت حالتها الاقتصادية الى حد لاغاية بعده ، لايجد ابناؤها من الفراغ ما يتسع للاشتغال بهذا الترف العقلى الذى يعدمون فيه كل فائدة

عملية (١) وجاء فى مقال له قوله (كان غرض الفلسفة أول امس هو الجمع بين العلوم ، فكانت كالمنطق العام ، وبالأمس هامت فى ما وراء الطبيعة ، واتخذت شكل علم الجمال ، أما اليوم فقد ارتدت إلى أفقها الخاص ، وبدأت تقدر القيم السياسية والاخلاقية التى توجه حياتنا الاجتماعية ، وتخلق قيما جديدة قد تسمو بالانسانية. ففلسفة اليوم هى علم الاخلاق العام ، ولا تكتشف ولا تحلل وانما وسيلتها الخلق والتقدير)

فهو ذلك المصلح الرشيد الذى حسن تقديره واصاب نظره ، ولم يختر من الوسائل إلا التى تصل به الى غاية ينشدها ، فلا يشغله ورم الظاهر عن خواء الباطن ، وضيا كوك آلپ مفكر عملى ووطنى غيور يريد الخير لوطنه من أقرب طريق . وقد تحدث كثيرا عن الأمة والمجتمع . لأنه يؤمن بالجماعات ولا يؤمن بالأفراد ، ويريد من الفرد أن يفنى فى الجماعة ، فيقول فى إحدى قصائده (التعدد فى الاجساد ، أما القلوب ففيها الاتحاد ، الوجود للمجتمع ولا وجود للافراد . لا إله الا الله)

فقد تكلف الشطط وهو يشبه فناء الفرد فى الجماعة بفناء

Uriel Hyde, Foundations of Turkish Nationalim, P43.(١

الصوفى فى الذات الالهية ، ومهما يكن من شىء فالمبالغة لاتفهم إلا على أنها مبالغة وهذا مايستملح فى الشعر والأدب . والمجتمع عنده مصدر المثل العليا والتشريع الخلق القويم ، وان يكن الفرد محبا لذاته ، فان المجتمع لايسعى إلا الى تحقيق مصلحة افراده ، وفى قصيدة له بعنوان (وفا) يظهر الفرق بين الفرد والأمة بقوله (نحن الاتراك ، خلية نحل مهذبة مدبرة فى السلم ، ونسور كواسر فى الجبال إذا تحدرت عليها دماء المحاربين ، نحن كافرادلا نطوى القلوب على ضغينة وان كنا لا ننسى لبلادنا ثأرا . لا كيان لنا كأفراد ، أما كأمة فنحن نملأ سمع الزمان . نحن اهل الدعة والسكون فى بلادنا ، وأهل البطش والنجدة على حدودنا . الواحد منا قانع راض ، وفينا حرص وطماح للاعلاء من شأن الوطن . وميولنا متباينة كأفراد وأمة ، فلنا صبر واخبات ، وبأس وعرامة ، وما اوسع البون بين حلمنا ولينا ، وبين صولتنا وشدتنا . اما فيما يمس شرفنا فالفرد والأمة سواء ، وكلنا فى العهد أهل وفاء ، ان الوفاء مقدس والاثرة رياء)

فهذه موازنة صحيحة بين نفسية الفرد والجماعة ، اراد أن يشير بها إلى هوان شأن الفرد وحده ، وعلو قدره إذا انضم الى قومه . وكأنما يشبهه بقطرة الماء منفصلة عن بحرها وذرة الغبار

منقطعة عن جبلها ، ثم ينظر الى الوفاء كواجب واجب على الفرد والجماعة . ولا يرتضى ان يكون الدين والجنس وحدهما أساسا للقومية ، فيقول ان وطننا ليس تركيا ولا التركستان ، وانما هو منطقة خالدة واسعة ، انه توران . وله كتاب يسمى (توركجيلك اساسلرى) بمعنى أسس القومية التركية . وهو من قسمين نظرى وعملى ، والأول تاريخى يتحدث فيه عن الترك واقوامهم ونظمهم الاجتماعية ومدنيتهم بوجه عام ، اما الثانى فيضع فيه منهجا لاحياء القومية التركية . ويقول ضيا كوك آلب ان العناية بالترك والتركيات قد ظهرت فى أوربا قبل ظهورها فى تركيا . ولذلك مرحلتان متتاليتان : ففى المرحلة الأولى اعجب الاوربيون بالفنون التركية الجميلة ، فزينوا متاحفهم وقصورهم بالطنافس التركية والمنسوجات المزركشة ، وما تأنقت فيه يد المهارة من رسوم ونقوش وأوان جميلة ، وتنافس المتنافسون فى اقتناء هذه النفائس التركية وبذلوا المال الجزيل فى شرائها ، كما رسم الرسامون الاوربيون صورا للترك والحياة التركية ، وذكر الكتاب والشعراء بلاد الترك وأهلها فى شعرهم ونثرهم ، وهذا مايعرف عند الفرنسيين ب Turquerie اما فى المرحلة الثانية فتوفر علماء الغرب على دراسة تاريخ الترك ومدنيتهم فى شتى نواحيها ، فاخرجوا للناس كتبا يثبتون

فيها بما لا يقبل الشك ان للترك سابقة فى المجد ومشاركة فى كل مظاهر الحضارة (١) وهذا ما يسمى Turcologie . وكان رأيه تخليص اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية ، فاورد فى شعره ونثره الفاظا تركية اصيلة قليلة الدوران فى الشعر التركى ، ولم يقنع بذلك بل جاء بكلمات غريبة انتقاها من لهجات تركية فى قلب آسيا ، ولا غرو فقد كان الرجل فخورا بتركيته التورانيه لا العثمانيه ؛ ومما لا ريب فيه ان التعصب لمبدأ معين يسوق حتما الى التعصب على المبادىء الاخرى . وله قصيدة تسمى وطن يقول فيها (بلد ، يؤذن المؤذن بالتركية فى مسجده ، ويفقه القروى ما يقول فى صلاته . بلد ، فى مدرسته يرتل القرآن بلغة الترك ليعلم الكبير والصغير ما احل الله وما حرم . هو ذا وطنك يافتى الترك . بلد ، لا مطمع فيه لبلد آخر ، تؤلف بين اهله وحدة الفكر واللغة والعادة . وعند حدوده يهب ابناؤه الروح عن طيب نفس . هو ذا وطنك يافتى الترك ، بلد ، تنفق أمواله فى أسواقه ، ولا يوجه الحركة العلمية والفنية الا الترك ، وكل حرفة تحمى الاخرى ، وللترك المصانع والبواخر والقطر . هو ذا وطنك يافتى الترك)

---

(١) ضيا كوك آلب، توركجيلك اساسلرى، ص ٥ (آنقره ١٣٣٩)

هكذا يريد ضيا كوك آلب احياء القومية التركية والاعلاء من شأن وطنه، وهو كباحث اجتماعي لا يركن دائما إلى ذلك المنهج الاستقرائي الذى يعتبر الوسيلة الصحيحة الوحيدة لبحث المسائل الاجتماعية، كما يبنى الرأى على الاستنتاج والاستدلال من غير نظر إلى الحقائق التاريخيه والإقتصادية والاحصائية، وبذلك يختلف اختلافا واضحا عن الاوربيين من علماء الاجتماع، يجره هذا فى الاحايين إلى مجرد اللعب بالألفاظ. وله ولوع بذكر المصطلحات المتقابلة، يحل بها معضلات المجتمع. وفى وهمه ان ايراد صيغة من الصيغ كاف لكشف الغامض وشرح وجهة النظر، ومما يلوح عليه انه يطرح النظرية ثم يلتمس البراهين لدعمها، وفى النهاية نراه يجهل كثيرا من الحقائق التى تعتبر حجة عليه لا له، ويضطر إلى مسخ حقائق غيرها لتاييد مايذهب اليه. اما تفكيره النظرى المطلق فكان موضع تجريح رفاقه.(١)

واعرف له مجموعتين من الشعر تسمى الاولى (يكى حيات) بمعنى الحياة الجديدة والأخرى (قزل الما) اى التفاحة الحمراء. وقد ضمن المجموعة الأولى شعره الذى نظمه لاصلاح المجتمع،

Uriel Hyde, Foundations of Turkish Nationalism, (١) P 156.

وهو آراء وخواطر نعدم فيها الخيال والوجدان والجمال الأدبي، واى فن فى شعر عن الدولة والأسرة والدين والعلم والقوم والمدنية. فهذه المعانى انتاج عقل لافيض خاطر، وصاحبها شاعر بالوزن والقافية لا بالروح والعاطفة. وله منظومة مشهورة فى (قزل الما) يقول المستشرق الايطالى روسى انها تعبير غنائى لذلك الميل الذى سيطر على الوطنية التركية من عام ١٩١٢ الى عام ١٩١٨ (١).

وقد صادفت آراء ضيا كوك آلب وتعاليمه هوى فى نفوس بعض المثقفين فاخرجوا مجلة (كادرو) أى الاطار، وتبارت الأقلام واعلنت الآراء فى الاصلاح الاجتماعى والاحياء القومى. وشطوا كثيرا، فزعموا ان اعرق مدنيات العالم فى القدم هى المدنية التركية، وان الترك اول جنس بشرى ظهر على وجه الأرض، وما يجرى هذا المجرى من مبالغات يعوزها الدليل ولا تصح فى الافهام.

• • •

والى جانب هذه النزعة القومية المتطرفة ظهرت نزعة اسلامية رشيدة أمل اصحابها اصلاح الحال بالرجوع الى تعاليم الاسلام

---

(١) Rossi, La Nuova Turchia, P129

والتمسك بعروته الوثقى ، ففي القرآن نور يهدي في الظلمات وصلاح الدين والدنيا ، ولن تقوم قائمة للمسلمين عامة ولا للترك خاصة ، الا اذا أقاموا الدين ووقفوا عند الحدود ، ومما يذكر ان انصار هذا الرأى لايميلون الى القومية التركية لان الاسلام لايفضل جنسا على جنس فالعرب والعجم سواء فى ظل منارته السامقة ، وهم يريدون وحدة اسلامية تجمع شمل المسلمين وتؤلف بين قلوبهم ولايحلمون بالتورانية ولا العثمانية كغيرهم ، وفى ذلك يقول شاعرهم محمدعاكف بك مخاطبا الالبانيين (اى قومية كانت للاسلام ؟ القومية ما القومية ! لو التففتم حول دينكم بقوة واعتصمتم به. البانيا ماهى ، الها محل فى الشريعة السمحاء ؟ ان دفع قومكم الى الأمام لن يعد الا كفرا . اى فضل لعربى على تركى أو للاز (١) على شركسى ، واى فرق بين كردى وعجمى وصينى؟ هل كان للعناصر وجود فى بلاد الاسلام ، انى يكون هذا ! ان النبي يلعن فكرة القومية)

وفى رأى محمد عاكف ان للمسلم عالمه الخاص به، وكل مافى

---

(١) لاز اسم قبيلة من اصل جورجى تسكن اقليما فى الركن الجنوبى الشرقى من البحر الاسود ، والمراد هنا الفرد من هذه القبيلة .

الخارج غريب عن تقاليده وروحه معاد له . ثم يقر بأن كل العلوم والفنون من هذا العالم المتحضر ، الا ان الذاهبين اليه لايعودون الى وطنهم بهذا الخير ، بل بكل الشرور ، ثم يقول ان الأخذ بالمدنية الاوربية هو السبب فى هذا الانحلال الخلقى والشقاق العائلى والتقليد الأعمى للغربيين ، فلا خلاص من هذا الشر المستطير الا باحترام التقاليد وتقويم الخلق واصلاح المؤسسات الدينية على الخصوص . فشخصية محمد عاكف شخصية أدبية اسلامية لها مايميزها ،ومن ثم وجب ان نخصها بما تستحقه من دراسة . ولد فى استانبول سنة ١٨٧٣ لأب يشتغل بالتدريس فى جامع الفاتح ، فأدبه ابوه ولقنه العربية وعلوم الشرع ،ونشأ الفتى نشأة دينية قويمة وعمر قلبه بالتقوى منذ نعومة اظفاره . ومات عنه ابوه وهو فى الخامسة عشرة من عمره . فدخل المدرسة الاعدادية ، وتوضح فيه أثر أبيه لأنه توفر على دراسة العربية والفارسية وظل وفيا لكل تلك التعاليم الدينية التى احيط بها علما فى حداثة سنه ، ثم انتقل الى المدرسة العالية ليدرس البيطرة، فنضج تفكيره ورق شعوره واظهر الولوع بالأدب والشعر ، وجرى على مألوف الشعراء فى اول عهدهم بنظم القريض فتطلع الى شاعر يحتذيه مثالا ، وكان هذا الشاعر معلم ناجى . ومن قول

محمد عاكف فى صباه (يابلبل العرفان ، يافتيق اللسان، لك أنغام تحير الوجدان .ان هذا الغناء صفوة النفس، فهو محرم فى حريم الروح . إن العوالم كلها تحت قدمى ، ويصل الى اللاهوت خيالى . والآباد تضيق عن أشواقى ، ففكرى يفسح فى الفضاء)

فهذا شعر صوفى من ذلك النمط القديم الذى أجاد فيه معلم ناجى ، وقد تتلمذ عاكف لناجى فى المدرسة ، الا انه لم يقلده فى شعره الحديث الطراز ، ولكنه قلده فى غزلياته، ولما درس بجامعة استانبول ، كان أول درس له (توحيد) لمعلم ناجى ، فأملاه على الطلبة ، واستغرق شرحه لهم كل الوقت المحدد للدرس ، وهذا دليل على اعجابه بمعلم ناجى [١] ثم درس الفرنسية وأخذ بطرف من آدابها . وملك عليه الأدب الفارسى نفسه فترجم كثيرا من الشعر الفارسى ونشره فى مجلة (ثروت فنون) وكان سعدى الشيرازى أحب شعراء الفرس اليه ، فقبس من معانيه ، ونظم القصيدة الطويلة أحيانا وهى تفسير بيت لسعدى .

ومحمد عاكف متأثر فى شعر الرثاء بعبد الحق حامد ، فهو يقول فى مرثية له (أيها النور الذى مضى ليلحق بأصله ، انت من

(١) Fevziye Tansel, Mehmed Akif, Hayati ve Eserleri, S 10 (Istanbul 1945)

يتمثل لى بكل سبيل وان غاب تحت أستار الظلال ، فلا يبتعد عنى طرفة عين . يامن يعمر قلبي بذكراه ، ان بيننا عالما غير هذا العالم ، انت تنعم فى سمائك ، وانا المعذب فى أرضى . كل نغمة شكوى ونواح فى مسامعى . فانفاس هذا الناى الصدوح شكوى ونواح ، وخرير ذاك الغدير شكوى ونواح ، وزفيف الرياح شكوى ونواح ، وزفرات ذكراك شكوى ونواح ، وانت تملأ السموات بالبسمات) فهذا الرثاء شديد الشبه برثاء عبد الحق حامد لزوجته فاطمه خانم فى (مقبر) . وقد أحسن عاكف فهم شعر حامد وتذوقه حتى استطاع أن ينقده نقد الخبير البصير ، ولولا ذلك لما تشرب فى روحه ولا تأثر به .

وإذا تجاوزناه فى عهد التكوين ، ونظرنا اليه فى عهد الكمال وجدنا الترك يسمونه شاعر الاسلام ، فهو من هؤلاء الذين دعوا إلى الوحدة الاسلامية ، ومريد للشيخين محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ، وقد ترجم الى التركية تلك الرسالة التى رد بها ردا منيفا على هانوتو ذلك الوزير الفرنسى الذى انتقد الدين الحنيف [1] كما ترجم عن الأستاذ الامام تفسير سورة

---

(١) فى عام ١٩٠٠ نشر المسيو هانوتو وزير الخارجية الفرنسية =

العصر . ومما يدل دلالة قاطعة على نظره الى الشعوب الاسلامية كوحدة لا انفصال بين عناصرها . تتبعه الأحداث التى تقع فى كل قطر اسلامى ، وشعوره بوقعها على حسه الأدبى، ففى الجزء الأول من ديوان (صفحات) قصيدة من براعات محمد عاكف يتحدث فيها عن مظفر الدين شاه فيقول (لايغرنك ماتسمع من أصوات تنادي بك مظفرا ، انها جميعا أصوات الخونة . واعلم علم اليقين انها زفرات تصعدها قلوب المظلومين. سيأتى ذلك اليوم الذى تلقى بك فيه لعنة الاله من عليائك . لك قصر منيف من ظلم تحسبه محكما منيعا . الا فاعلم ان القصور لن تكون موئلا

= مقالا فى جورنال دوبارى بعنوان (مواجهة الاسلام والمسألة الاسلامية) . وقد ترجم هذا المقال وظهر فى المؤيد ، أما الغرض الذى كان يسعى اليه هانوتو ، فتعريف الحكومة الفرنسية والشعب الفرنسى ، تلك الفروق التى تميز المسلمين من غيرهم فى المستعمرات الفرنسية ، ودعوتها الى تحديد موقفها من رعايا المسلمين . ووازن هانوتو بين الاديان والحضارات ، وعرض لفكرة الألوهية فى الاسلام والمسيحية ثم أدعى ان الاسلام يدعو أهله الى التوكل والتواكل ، ففند الامام محمد عبده آراءه . والكلام فى ذلك يطول فراجع :

Charles Adams, Islam and Modernism in Egypt, 186 (London 1933)

لمن عدم الأمان . وان ايوانك هذا الذى خرب البلاد سوف يهوى من سمائه ، وتسويه بالتراب هدما قدرة القادر وهيبته . كيف لايخرب ذلك الذى جعل من ايران مقبرة ! نعم لقد جعلت من ايران مقبرة ، ومزقت ثوب الآمال فكان اكفانا) (١)

وهو إذا تحدث عن الشرق ، لايتغنى بمجده الغابر بقدر مايأسف ويتلهف على حاله فى الحاضر ، وهذا منه صدق واخلاص ورغبة اكيدة فى الاصلاح الذى لايتأتى القيام به على الوجه الأكمل قبل معرفة كل ناحية تمس الحاجة الى رم رثها وسد ثغرها فشاعرنا يذكر الحقائق عارية ماان يواريها ، ويصارح القوم

---

(١) هو مظفر الدين شاه القاجارى المتوفى سنة ١٩٠٧ كان ظلوما متلافا فاستسلف من الروس مالا جزيلا منحهم حق السيطرة على جمارك الدولة ، حتى يتوفوا من ايران مالهم عليها ، فساء ذلك الشعب الايرانى الذى أعلن العصيان ورفع لواء الثورة بعد ان ضاقت فى وجهه سبل العيش لاحتكار شركة انجليزية انتاج التبغ الايرانى وتجارته ، وأراد مظفر الدين شاه ان يطيب خاطر الساخطين ، فأصدر بيانا يعدهم فيه بعزل رئيس الجمارك البلجيكى فرضوا عن ذلك بعض الرضى ، ثم عادوا الى الثورة مطالبين بالدستور والحكم النيابى ومازالوا بمظفر الدين شاه حتى ظفروا منه بطلبتهم .

بالحق وان كرهه اهل الرياء والنفاق ، ويقول فى قصيدة طويلة تسمى الشرق (يقولون قد طوفت فى الشرق شرقا وغربا فماذا رأيت ؟ رأيت بلادا عمها الخراب ، وأسرا تفرقت أيدى سبا ، والناس فوضى لا سراة لهم . رأيت الجسور وقد تهشمت والقنوات وقد انسدت والطرق وقد اقفرت . وتلك الوجوه المتجعدة ، والجباه التى جففها الكسل ، والأذرع التى لا تعرف العمل . رأيت الظهور المنحية والرقاب النحيلة ، ودماء لا تغلى حماسة . وشاهدت الرأس الذى لا يفكر والقلب الذى لا يحس والوجدان الصدىء . وعرفت الجور والأسر والتسلط والتحكم والرياء والتذلل والنقائص والمقابح . المواقد باردة ضربت عليها العنكبوت نسيجها ، اما النار فتحرق الاشجار ، الأئمة لا يؤتم بهم ، الوجوه كالحة متسخة والرءوس لا تسجد . والاخ يقتل اخاه فى الدين باسم الغزو . لا عمل فى النهار ، ولا غد للمساء ! ان مضيت مضيت وانا ابكى ، وان تلبثت تلبثت وانا ابكى . وما وجدت فى الارض رجلا يضحك ، ولا نورا فى السماء يبسم . وللمتألمين عويل يأتى من الأعماق . والآفاق طوق احمر فى عنق الاسلام المنحنى !)

فهو المسلم المحب لاخوته فى الدين والباكى بعين غزيرة على سوء حالهم وهوان شأن بلادهم ، والكثير من شعره شرح لآية

كريمة أو حديث شريف يتخذ منها عنوانا لقصائده، فيهدى المسلمين بعد ان يهتدى بنور الاسلام. وكانت مصر من تلك البلاد الاسلامية التى جعلها موضعا لعنايته فقد زارها فى أواخر سنة ١٩١٢ ومكث بها شهرين وجعل يشتو بها من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٢٥، ثم اتخذها مستقرا له ولم يعد الى استانبول الا سنة ١٩٣٦ وهى السنة التى كانت وفاته فيها. كما طبع بمصر الجزء السابع من ديوانه (صفحات) وشغل نفسه طوال هذه الأعوام بتدريس الفارسية والتركية بجامعة فؤاد الأول فى القاهرة. وقد وصل أسبابه بأسباب الامير عباس حليم باشا فاتصلت بينهما اواصر المودة، ووجد الشاعر من الامير تكرمة وتقديرا. اما الباعث له على الرحيل الى مصر فضيق بالمقام فى تركيا ويأس خيم على نفسه فأراد ان يسيح فى الارض ملتمسا تفرجا لهمه، كما وجد فى السياحة جهادا يذكره بقوله تعالى (والذين جاهدوا لنهدينهم سبلنا) وقد اشار الى ذلك فى رسالة له فقال (كلا، اليأس حس مشئوم انكد، فلنباعد بينه وبين قلب عامر بالايمان، واذ ما خذل التوفيق انسانا ومات فى سبيل امل يحققه فإن موته حياة اخرى. قيل لنملة تسعى، الى اين ؟ قالت الى الحج، قيل كيف تخرجين الى الحج على ضعف سوقك ؟ فقالت ان حالى

ضعف بدنى وبين بلوغ بيت الله ، فليكن فى السبيل اليه موتى)

وكره محمد عاكف ان يقيم فى القاهرة ، وذكر سبب ذلك فى رسالة له بتاريخ ٠ مارس سنة ١٩٢٦ فقال هبط مصر يونان ويهود وأرمن وطليان وروس ، وبهم جميعا من جهد الفاقة مالا يخفى ، ثم اصبحوا اليوم من اهل الثراء والحول والطول . امامن جاء مصر من بلادنا فإن بعضهم على حال نعوذ بالله منها ! وانى لأحسب ان اعتكافى بمدينة حلوان يعيننى على تحقيق رغبتى فى عدم رؤيتهم حتى لاتذهب نفسى حسرات !)(١)

وفى الجزء الخامس من ديوانه قصيدة اهداها الى الامير عباس حليم باشا وسماها (فى الاقصر) ومن قوله (النسيم راكد وشدة القيظ لاتكاد تحتمل ، اما الشمس فى الطفل، وقد انحدرت انحدارا وئيدا من ربوة كثيرة شجراتها هو ذا الوادى المخضوضر يحتضن النيل ، وموجاته الزمردية تمتد امام ناظرى الى مالانهاية، وهى تفور وتمور كأنها سراب الحياة . فما هذا القد الفارع البض وامتداده المديد الذى تعانقه الشمس من سمائها بعد ان عبرته من شرق الى غرب . وكان على يسرتى نخلة وحيدة أويت الى

---

(١) Fevziye Tansel, Mehmed Akif, Hayati ve Eserleri, S124

ظلالها المتفرقة المتخرقة . ما أجمل أن يمتد البصر من هذا المكان الى الفضاء، وقد ارتفعت الدور على الشطين كالأجنحة . واذا تأملت صدره البديع ، حلق الخيال بك كل محلق فى عالم غير هذا العالم. ويبسم الوادى القديم وتبسم أمواهه ورغبتها ان تثب منه وتخرج عنه)

هكذا يصف محمد عاكف جمال الاصيل والنيل ليخلص منه الى ذكر ماتعمر به الاقصر من خرائب ، فيناجيها ويناجى مصر واهلها فيها (تلك الهياكل التى ملأت منها العين صبحا وجست خلالها ، هى حرص ضعيف عنيف لهذا الانسان على ان يكون من الخالدين ! لقد اراد ان يرفع له فى الفضاء ظلا ضئيلا ،فاتخذ من كل صخرة حجر قبر لألف حياة ! اما هذه الاصنام ، فقد اقام منها اشباحا مخيفة اولئك الذين كانت الارض تسجد عند اقدامهم ، والعروش تهتز لتعبيس فى وجوههم . غير ان الزمان مد يد الكبرياء الى هؤلاء الطغاة البغاة ، فلم يبق منهم الا أنف مجدوع او ساعد مكسور . وامتلأ الرحب بأشلاء من انقاض لتكون عبرة لمعتبر ، فما على الوجوه مهابة ولا فى الجباه غرور ، ومحا البلى كل اثر للملامح والسمات !)

فعاكف بك لايكتفى بجعل شعره صورة لما تشاهد عينه ،

واكنه يذكر الفناء والبقاء ويعجب لغرور هذا الانسان الذى يعتو ويستكبر ويحلم بالخلود، فيدركه الموت ويجدع منه ذلك الأنف الذى طالماشمخ به . وان هذا التفكير ليذكرنا على الفور بنزعته الدينية التأملية ، فهو انما يرى الظالمين فى غمرات الموت وينظر كيف كان عاقبتهم، ثم ترق لجبال النيل والأصيل شاعريته فيقول(والآن اوشكت الشمس ان تنطفيء ، فارتعشت منها الاشعة فى الافق ، وركز وميضها الاخير فى ماء النيل عمودا نورانيا هاجت له الامواج وماجت . ثم اتخذت من الجبل ستارا لها يحجبها ،ومضت لتجتلى حسنها على آفاق اخر. وسكب المغرب روحه المعذبة وهو حزين حزين ، وهبط الغسق على الارض رويدا رويدا ، وتربد وجه النيل فهو مصفر ، اما عمود النور فهو داكن محمر)

اما اخريات اعوامه فى مصر فكانت اعوام يأس واسى ، فقد رأى الفجيعة فى حاميه وصديقه الاعز الاكرم الامير عباس حليم باشا ،وجزع عليه جزعا شديدا ونكد عيشه بعده،وتحدث عن همه وبلواه فى كتاب له الى كريمة الامير فقال انه سئم تكاليف الحياة واختار الاعتزال عن شئونها بعد ان نفض يده من كل

خير فيها (١) وعاج يوما بدار الامير ليقف وقفة ويسكب دمعة على ايام غر وليال بيض وبشاشات من العيش فقال فى شعر جميل حزين (انت قصر (كاشن) نعم! ولكن القلوب كسيرة موجعة . لقد وقفت لماض لى فيك احيي ذكراه ، لا لفرحة ولا نشوة . ليت شعرى فانى لست ادرى ، افى عتمة صدرك بقية من نور الحبيب !)

وعاد الى استانبول عام ١٩٢٦ وفيها ثقلت عليه العلة ونزلت به صرعة الموت . فتقدمت جنازته حشود من علية القوم وطلبة الجامعة الذين وقفوا على قبره وانشدوا (نشيد الاستقلال) وهو من اروع منظوماته ، فكانت احسن تحية اسعدت روحه فى عليين . وهذان هما البيتان الأولان منه (افرخ روعك ، ان هذا العلم الاحمر السابح فى الشفق لن ينطفىء حتى ينطفىء آخر موقد فى وطنى ، انه نجم امتى وسيتألق ، انه لى ، انه لأمتى ليس إلا)

اما المعانى التى تقلب فيها شعره ، فيمكن تقسيمها الى قسمين، ما قال قبل عام ١٩٠٨ وما قال بعده . ففى اول مرة قال فى الغزل والحكمة وتناول الموضوعات الدينية ، ثم وجه اهتمامه الى الاجتماعيات وعرضها فى سياق قصصى . واستمد هذه القصص

Fevziye Tansel, Mehmed Akif, Hayati ve Eserleri, S142 (١)

عما وقع له فى حياته ، ومن التاريخ الاسلامى ، فقويت حجته واحسن ضرب المثل . وهو مشرق الديباجة رصين العبارة وله ولوع بايراد التراكيب الفارسية والعربية . وقال عن نفسه انه شاعر واقعى موضوعى ، لاوجود فى شعره لذلك الخيال العالى ، فاذا رأى حجرا سماه حجرا ، ولم يقل انه حجر سماوى ، واذا رأى خشبا سماه خشبا ولم يقل انه عرش[1] وهو لايغير الاشياء بالخيال لينقلها الى ماوراء الطبيعة ، ولكنه يصورها كما يشاهدها ، وهذاهو موضع الاعجاب من شعره ، إن كان فى شعره موضع للاعجاب[2]

° ° °

اما آخر شخصية فى هذه المدرسة الادبية الحديثة ، فحسين سيرت بك . وهو شاعر لطيف التخيل سهل الشريعة مفتتن بالطبيعة يتغنى بمحاسنها ، ولا يستطيع نزوعا عن ذكرها فى شعره لأنها عنده مصدر الهام ، وتقول الآنسة فروزان ايشمان انه من اشد شعراء ثروت فنون تعلقا بالخيال ، وكأنما قدم هذه الدنيا

---

(١) يريد الاشارة الى ذلك التشابه بين (تخته) و (تخت) فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى.

(٢) Fevziye Tansel, Mehmed Akif, Hayati ve Eserleri, S194

ليراها حلما وخيالا (١)

ولد حسين سيرت سنة ١٨٧٢ وكان يسمى محمد الله فى اول الامر إلا ان توفيق فكرت كره هذا الاسم الذى يذكر بأسماء المشايخ واقترح ان يسمى حسين سيرت . كان يقرأ نامق كمال فى صباه بعيدا عن اعين الرقباء وتتلمذ لرجائى زاده محمود اكرم بك فرق قلبه للشعر وعالج النظم وهو فى حدود الثالثة عشرة من عمره، كما شغل نفسه بمسائل السياسة بدافع من شاعريته ، ودرس الفرنسية ، فتهيأ له ان يجد عملا فى وزارة الخارجية عام ١٨٩٥ . وكان اشتغاله بالسياسة وبالا عليه ، فقد نفى وهو فى ريق شبابه وهرب الى مصر واوربا ، ومرت عليه الاعوام بعد الاعوام وهو نازح الدار وفى نفسه حر شوق الى الاهل والوطن. فصقل الالم وجدانه وظهر فى شعره ظهور الوجه الحزين فى المرآة الصافية ، ومن قوله (مضت الشهور ، لا بل تصرمت الأعوام ، وقد احلولكت آفاق ، واصفرت اوراق الامل فى شجرته

---

(١) Füruzan Isman, Hüseyin Siret, Hayati, Eserleri ve Sahsiyeti, S 6 (Ankara 1950)

وقد تفضل سيرت بك فأعارنى هذه الرسالة غير المطبوعة لأعتمد عليها فى الكتابة عنه ، فله منى الشكر والدعاء .

بقلبي . ولنور القمر يجيء في بعض الليالى للسؤال عنى ، والوحدة بالقرب منى تنتظرنى وحيدا منفردا . يالها ليلة خائنة ترشق قلبي بخنجرها الاسود)

وهو الذى يقول فى الفراق (لقد انفصل اليوم طريقانا ، فسيمضى كل منا فى طريق على حدة . لابد ان نرحل كهذه الشمس. هبط الظلام ووقب الليل ، فما الذى اذبل وجهك وكان كزهرة فى ضياء القمر ! وكأن الوداع يبكى فى صوتك الرقيق ، وكأنى بريح الخريف تزف فى انفاسك . وفى المساء انحدرنا الى سحيق الاعماق وبرح الخفاء ، وتقرر ان تعيش من غيرى . فإذا مابقى حبنا يتيما يكابد الحسرات ، وانفصل روحانا المتصلان ، ورأيت تابوتى محمولا على اكتاف واهية فان تجد خلفه دمعة ولا زهرة ولن تسمع صوتا حزينا عند قبرى. ما أشبه حياتى بظل غمامة باكية ! إن الليالى تئن كالناى فى رأس سروة، ولا بد من فاتحة تكتب على حجر قبرى البالى. وهذا القمر الذى احبه يسكب عليه قطرة من نور . لقد مضت الليالى الخاوية بأكدارها وحسراتها. وقدمت الى كأس من لهب، فاحترقت، ومازلت احترق فى كل ليلة بنار الهجران!)

فهذا شعر له قاله عام ١٩٤٢ وهو فى السبعين من عمره ، وذكر به ماضيه وما عصف بقلبه من لوعة الفراق . ثم نظر

نظرة الوداع الى دنيا صحبها طويلا حتى مل صحبتها وبكى على عمر له ضاع فيها. وان سيرت بك لشبيه بتوفيق فكرت بك، فكلاهما عابس يائس ملتاع، إلا ان سيرت بك يوازن بينه وبين توفيق فكرت بقوله ان بعض الادباء يذهبون الى انه مقلد لفكرت او متأثر به، وهذا خطأ صراح، فان فكرت شاعر موضوعي، اما هو فشاعر ذاتي يترنم بخوالج نفسه. وفكرت يصور العالم الخارجي الذي يقع تحت حسه أجمل تصوير وأدقه، فهو فنان لاضريب له في الأدب التركي، كما انه رسام ماهر أجال ريشته في لوحات بديعة، واشعاره مما يعرف عند الأوربيين بالروائع الصغيرة، ويقر سيرت بأنه جهد أن يصل إلى هذه الدرجة من الكمال إلا انه لم يصل، ثم يقول ان وجه الشبه الوحيد بينه وبين فكرت أنه كاد يبلغ مبالغه في بعض أشعاره (١)

وكان حسين سيرت معجبا بمعظم شعراء الفرنسيين، أما أحب شعراء الترك اليه ففضولي البغدادي، وقال انه حاول ان يدخل على شعره رنة الأسى أعجب بها في شعر فضولي، ولا يدري

(١) Füruzan Isman, Hüseyin Siret, Hayati, Eserleri Ve Sahsiyeti, S 31

الى أى حد كان توفيقه في ذلك ، الا انه يقطع بأن رجائى زاده أكرم قد أحسن فى ذلك كل الاحسان فأكسب شعره روعة وجمالا ، وبلغ من حبه لفضولى ان يقول فى شعر له مزهوا بنفسه : انا سلطان الألم كفضولى . ويقول احمد هاشم [1] عن سيرت بك انه شاعر قوى الشاعرية ، غير ان الضعف باد على تلك اللغة التى ينظم بها ، فهو عجمى اللسان ، ونثره أفضل من شعره ، لأنه يمتاز فيه بقدرته على تحكيم المنطق والاتيان بأفكار جديدة لاعهد للناس بها . أما قول احمد هاشم ان حسين سيرت عجمى اللسان فالغرض منه انه يستعمل الكثير من الألفاظ والتراكيب الفارسية . والحق انه يشبه فى ذلك غيره من شعراء

---

(١) شاعر مقل رقيق ولد سنة ١٨٨٥ وقضى سنة ١٩٣٣ . كان قوى الشاعرية على نقص فى الاداة ، فلقد وقع فى اخطاء العروض ولم يسلم شعره من ضعف فى بعض المواضع ، غير انه مع ذلك فنان موهوب ، يستقى من نبع الهامه فيأتى بالرقيق الانيق وشعره فى مجموعتين الاولى « كول ساعتلرى » اى ساعات البحيرة ، والاخرى « پياله » بمعنى الكأس . ونثره خير من شعره لسلاسته وسلامته. راجع Serif Hulusi, Ahmet Hasim, Hayati ve Secme Siirleri (Istanbul 1947)

مدرسته الأدبية كتوفيق فكرت مثلا . ومهما يكن من شيء فإن ايراد الألفاظ الفارسية الكثيرة فى الشعر التركى مما تتأذى به نفوس هؤلاء المجددين الذين يريدون شعرا قوميا فى لغة يومية لا أثر بها لألفاظ أجنبية .

ويقول محمود كمال اينال ان كل شيء يفقد جماله على مر الأيام بحكم الطبيعة ، ثم يعجب لشعر سيرت فى شيخوخته لأنه ظل محتفظا باشراق الديباجة ورقة الحس ، وازداد حسنا على حسن . وتابعته على ذلك فروزان ايشمان (١) وهذا حسبان غير جائز ، فلا دليل على ان الشعراء فى شبابهم أشعر منهم فى شيخوختهم ، واذا ذكرنا ان الشاب اشد ميلا من الشيخ الى شعر الغزل، فليس من الحتم أن يكون المتغزل أرق قلبا ولا أجمل شعرا من المتأمل او الحالم أو الباكى على لياليه المواضى .

ومن شعر سيرت بك فى الطبيعة قوله (القمر بين السحاب المنفتق يهيم فى الأحلام والأوهام ، والديباج المزركش يستر البحر هنا وهنا . وقد اعتلت النسمات ، ونامت الارض والسماء ومراوح الطبيعة فى كل جانب ، وبدت النجوم فى وجه الافاق الحالم كأنها دموع حسرة تذرفها العين قطرة قطرة . انها

---

(١) Mahmud Kemal Inal, Son Asir Türk Sairleri, S1726

تتألق تحت نقاب رقيق ، وتنفر من النظر اليها فتختفى عن العيون .
وصفحة الماء اللامعة المجلوة ، تسكن نأمتها ولا يبدو شراع عليها . ولا يسمع لليل زمزمة ولا همهمة !)

فهذا المثال من الشعر يدل على ان الآمى يملأ نفسه ويتجاوزها الى ماتشاهد عيناه ، فهو يرى فى النجوم قطرات دمع على حين رآها غيره من الشعراء خفقات قلب عاشق أو ومضات أمل ضاحك فى ليل يأس حالك . ومن غزل قاله فى مارس سنة ١٩٣٧
(لم استوف تلك الآلام التى قدر لى ان اكابدها حتى ولا فى الغربة ! لاتحسبن هذه النار منطفئة حتى ولا فى آخر الدهر . إن نشوة حسنك لتضحك فى شتى ألوان الأزاهير ، وفيضك يتجلى حتى فى فيض الطبيعة . انى عاشق لحسن ازلى ، وانا محترق بناره حتى فى الجنة ، ان فاتتنى مشاهدة وجهه . لقد سحرتنى ليالى الهم والغم والهجران ، فأنا أنشده حتى فى ليلة الوصال . لو رأيته طيفا فى المنام ، ما صحوت حتى قيام الساعة ، وزهدت من أجله حتى فى النعيم المقيم !)

وسيرت بك ينحو فى هذا الغزل نحو القدماء ، ويمزج الحقيقة بالخيال ، مستمدا من تعبير الصوفية قداسة وروحانية .

ومن بدائعه قوله فى البلبل (السكون ساكن فى كل رجا

من الارجاء ، وغابة خضراء انا فيها ذلك الضيف المستوحش الوحيد . هذا الصمت الملىء بالأنغام يشبه الطائر النائم ، وفى مطارح بصرى بحيرة من الاحلام . أى مأتم لحبيب يلقى ظل الأسى على هذا المرج البهيج . للربيع نفحات تحملها النسمات ، فتعطر خيالى الساهم الحالم . وبينما كنت اتفكر وانا حزين بين الاشجار، إذسمعت نواحا للبلبل ينسكب فى روحى ، وكأنه توجع الوداع فى ليلة الأحزان . وقد اخذت القشعريرة جسم الطبيعه فى تلك اللحظة . واخذ الهلال يفتح كوة الافق رويدا رويدا ، ثم اطل ينظر من بين الاشجار وهو يهيم فى الخيال)

هذا ماعندى فى حسين سيرت بك ، ومن أسف ان تنقطع وسيلتى الى الاطلاع على معظم آثاره الأدبية ، فما قرأت له الا (ليسال كريزان) اى الليالى الهاربة . وله (باغ بوزومى) أى جنى العنب و (قارغه لر) بمعنى الغربان .

• • •

وبحسين سيرت بك ، نختتم الحديث عن الأدب التركى فى العصر الحديث ، ولعله آخر شعراء العهد الماضى الذين امتد بهم عمرهم المبارك إلى اليوم ، فكأننا بذلك قدأرخنا الأدب الى يومنا هذا ، وذلك حسبنا ، وان كنا لاندعى الاحاطة بكل شيء . فلاشك

فى ظهور اتجاهات أدبية أخرى لا علم لنا بها ولا خبر عندنا عنها فالزمن فى حركة مستمرة تتطور لها العقول على الدوام. ولكن لابد من ذكر الكليات قبل الجزئيات ، وتقديم الأصول على الفروع (١)

---

(١) ولقد يكون من المفيد ان نعرض بكلمة لاستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية على أنه مظهر من مظاهر ذلك التجديد الذى شمل نواحى الحياة الادبية والثقافية بفضل مدرسة ثروت فنون . اما الغرض الرئيسى من ذلك فالتشبه بالغرب ، وقد اختمرت الفكرة فى رءوس المثقفين والعوام على السواء . واول من طرحها على بساط البحث وشغل بها الصحافة ، حسين جاهد وهو كاتب وصحفى من رفاق توفيق فكرت ، وقد واجهت هذه الفكرة معارضة شديدة من جانب بعض المفكرين ، فاشفق أنصار الحضارة الاسلامية من انفصال الترك عن العالم الاسلامى ، وتعذر كتابة القرآن بهذه الحروف . اما انصار القومية التورانية ، فكرهوا ان تتصدع الوحدة الثقافية التركية ، فإن ثلاثين مليونا من الاتراك الذين يعيشون فى روسيا يستعملون الحروف العربية . كما أظهروا الخشية على ضياع تراث الترك الثقافى ، فمن المحال ان تنقل مؤلفات ستة قرون من حروفها العربية الى الحروف اللاتينية ، وبدأت أولى محاولات تغيير الكتابة ، بكتابة =

= ابتدعها اسماعيل حقى ، كما اقترح انور باشا كتابة حديثة لتيسير قراءة الحروف العربية ، الا ان هاتين المحاولتين لم تصادفا نجاحا ولا ذيوعا . وقد انعقـــد مؤتمر من الشعوب التركية فى مدينة باكو عام ١٩٢٦ ووافق على ان تحل الحروف اللاتينيـة محل العربية ، فاستعملت رسميا عام ١٩٢٨ . وهذه الحروف الجديدة تكفل النطق الصحيح بلهجة واحدة هى لهجة استانبول ، وليس لها تلك الفائدة الجزيلة التى كان الاتراك يحلمون بها . فلا غنية لمتأدب تركى عن معرفة القراءة بالحروف العربية ليطلع على التراث الادبى القديم وليس فى الامكان نقل جميع الكتب القديمة من حروفها العربية الى الحروف اللاتينية . وعما يذكران هذه الكتابة الحديثة توقع القارىء فى اللبس احيانا امام الالفاظ العربية والفارسية وما اكثرها فى اللغة التركية .

الأدب الشعبي

ليس شيء أدل على شيء من أدب الشعب على نفسية الشعب وعقليته . تلك حقيقة لا مرية فيها ، الا ان ادباء الترك قد ذهلوا عنها ، فرأوا أن الأدب هو ما كان سائرا على النهج الفصيح ، وانه ان خرج على الطريقة المتوارثة والمعانى والأغراض المعروفة لا يكون أدبا . اما أول من اثار اهتماما بالأدب الشعبي من ادباء الأتراك ، فحمد امين بك ومن لف لفه . ومرجع الفضل فى الدراسات التركية الشعبية الى عالمين اوربيين هما قونوش المجرى وياكوب الألمانى ، فتتلمذ لهم فى مؤلفاتهم ادباء الترك من الأجيال الخالفة بعد أن عرفوا للدراسات الأدبية الشعبية قيمتها وجدواها.

وفى هذا الصدد يقول قونوش انه كان يجوس ذات يوم فى طرقات مدينة بشت ، فعاج بدكان للحلوى وفيه قابل تاجرا تركيا مطربشا ، وأخذا بأطراف الأحاديث بينهما ، وقد سر التاجر عليه بالتركية وجريانها على لسانه الحاضر ، كما طرب قونوش لطلاوة حديثه الذى حبب اليه اعتياد التحدث بالتركية . ودارت

الأيام فقرأ صدرا صالحا من أدب الترك الا انه لم يكن شديد الاعجاب بما يقرأ من أدب وتاريخ ، وتبين له ان اللغة التى يقرؤها لا تشبه لغة الحديث كثيرا . ففى الجملة المؤلفة من ثلاثين كلمة مثلا وجد عشرين كلمة عربية ، وسبع كلمات فارسية ، ولم يجد من التركية الا ثلاث كلمات ، فانصرفت نفسه عن هذا الخلط والمزاج.

وبينما كان يقرأ على استاذه صحيفة من تاريخ نعيما دار بينهما الحوار الآتى :

— ما السبب فى ان لغة العثمانيين ليست اللغة التركية ؟ انى لأعجب للشعب التركى ، هل بلغ من سعة العلم هذا الحد الذى يستطيع معه ان يعرف العربية والفارسية ؟!

— اعلم يابنى ان للعثمانيين لغتين ، احداهما لغة المتعلمين والسادة وهى مركبة من ثلاث لغات كما قلت ، والاخرى لغة الشعب اى غير المتعلمين ، وتتميز لغة الشعب بقصر جملها وقلة الالفاظ العربية والفارسية فيها ، ولا يعزبن عن بالك ان لغة العوام الغليظة الخشنة لا اعتبار لها ولا قيمة عند الترك .

— عجبا ولماذا ؟

— لأنها لغة الشعب التركية الخالصة التى خلت من الألفاظ الفارسية والعربية .

ـ كيف تـكون اللغة غليظة خشنة ياسيدى ؟ فقد يوصف الانسان بالغلظة، ولا يصح فى الفهم أن تجرى هذه الصفة على اللغة .

ـ فى رأى العثمانيين انك إذا كتبت بالتركية (كيجه كوندوز) بدلا من (روزوشب) بالفارسية أو ليلا ونهارا بالعربية فأنت جاف العبارة غليظها

ـ فى رأيي ان تلك العبارة التركية ارق واجمل من العبارتين السالف ذكرهما .

ـ أنت على صواب ، الا ان أرباب القلم من اهل استانبول ليسوا على هذا الرأى ، وعندهم ان التعبير العربى والاضافة الفارسية اجمل واوقع فى النفس وادخل فى لغة الأدب .

ـ اليس للأمة التركية ادب شعبى ؟

ـ لها قليل من هذا الأدب فيما اعلم .

ـ ولـكن ألا تعتبر مجموعة امثال احمد وفيق باشا، ولطائف نصر الدين خوجه المشهورة والمترجمة الى لغات الغرب من الأدب الشعبى ؟

ـ نعم ، هذا كل مالدى الترك من ادب شعبى ، ولا علم لى بشىء غيره .

ـ لا أظن ان أمة من الأمم لاتملك ادبا شعبيا، ولوكانت

مسلمة أو مسيحية أو وثنية . فأدب الشعب هو تفكيره وابتسامته وحسرة روحه ، وأنين ألمه ، وزهرة سعادته . الا يتفكر الشعب التركى ، الا يرفع القروى آهاته وزفراته الى السماء ، الا ينفح الطيب من زهرة زاهية أرجة فى بستانه، أليس لبلابله صداح عذب يشجيه . كلا كلا، لا اصدق ان الترك لا يعرفون الأدب الشعبي.

— قد تكون على حق ، وقد اكون مخطئا فى زعمى، وأرى من الخير ان ترحل الى بلاد الترك ، وهناك تبحث عن الآداب التركية وتفحص، والله اسأل أن يسددك [1]

فيؤخذ من هذا الحوار أن هناك فرقا واضحا بين لغة العوام ولغة الخواص وبالتالى بين أدب يتأنق المتأدبون فى اختيار عباراته المنضودة ، وأدب للعامة هو التعبير الساذج عن الأفراح والأتراح الذى لا يتكلفونه حتى يتكلفوا البسمات والعبرات . وهذا الأدب العامى لا يحظى بشيء من عناية العلماء والأدباء ، فقد رأينا أحد الجهابذة الأعلام المشتغلين بالتركيات يشك فى وجوده ويجهله جهالة تكاد تكون تامة .

---

(١) قونوش ، تورك خلق ادبياتى ص ١٥ و ١٦ و ١٧ (استانبول ١٩٢٥)

ولنبدأ بذكر الأمثال التي يسميها الترك (اتالرسوزى) بمعنى كلمة الآباء أو الأسلاف ، ولها عندهم حرمة ومنزلة ، فقد جاء فى كتاب تاريخى تركى قديم هو (اوغوزنامه) ان للامثال بين الناس سيرورة تكاد تشبه سيرورة آيات القرآن الكريم . وهذه مبالغة تدل دلالة أكيدة على تعلقهم بها ورغبتهم فى تناقلها . كما جاء فى بعض الأمثال (ما استحق ان يكون له اب من لا يتعظ بالأمثال) وفضلا عما تتضمنه من حكم فانها تشير الى كثير من حقائق التاريخ وطباع الشعوب . وقد مر بنا أكثر من مرة ان العثمانيين ينظرون الى التركى فى قلب آسيا نظرتهم الى جلف فدم لا حظ له من رقة اهل الحضر . فقد جاء فى امثالهم قولهم (لا يخضوضر العشب فى موضع مر به جواد التركى) و (لا تغضب التركى ، فلابد من طويل زمان حتى يسكت عنه الغضب) و (لقد نصبوا التركى أميرا فقتل أباه ، وكان ذلك أول ما صنع) و (قد يصبح التركى من العلماء ، الا انه لن يكون انسانا) فهذه أمثال تشير الى الفظاظة والغلظة ، وتصور الجفاء والعنجهية فى أقصى الغايات .

ومن أمثالهم أيضا (لا عمل للتركى إلا امتطاء صهوة فرسه ، وفى ظنه انه أمير) و (المدينة سجن للتركى) وفى هذين المثلين زراية على الترك من سكان البرارى وتهكم بتلك الحياة البدائية التى انقطع

العثمانيون عنها ونسوها نسيانا تاما بعد أن نزحوا الى الغرب وأخذوا بحضارة الفرس الاسلامية فرقت طباعهم واتسعت مداركهم ، وعرفوا الخصب والنعيم بعد الجدب والشظف . ومن قولهم فى الحكم وسياسة الملك (تفسد السمكة من رأسها) و (قد يكون الأمراء من الظالمين ، ولا كذب فى هذا) و (القوالون بالحق يطردون من تسع مدن) و (لا يمس الرسول بالأذى) فهذه الأمثال تدل على ان الرعية لا تفسد الا بعد فساد راعيها ، وان العصمة ليست للأمراء ، وقولة الحق تؤذى نفوس أهل الباطل والحاكم الجائر عدو لقائلها . اما الرسول فانما يصدع بما يؤمر ويحرم قتله . وقد جمع احمد وفيق باشا الأمثال التركية فى مجموعة سماها (اتالر سوزى) [1] . ولشناسى افندى كتاب فى

---

(١) هو احمد وفيق باشا الاديب اللغوى المؤرخ ورجل الدولة. ولد سنة ١٨٢٠ وتبوأ أعلى المناصب، فعمل فى السلك السياسى . وكان السكرتير الاول فى السفارة التركية بباريس وبطرسبرج ووزيرا مفوضا بطهران ، ثم تولى وزارة الاوقاف . ورأس الوزارة وكانت ولاية بروسه آخر ما اسند اليه من رفيع المناصب . ومات عام ١٨٩٠. وقد ترجم لموليير عن الفرنسية . وألف « فذلكة » تاريخ عثمانى ، وهو تاريخ للعثمانيين الى عهد السلطان عبد العزيز . وله « لهجه » عثمانى » وهو معجم تركى قيم .

الأمثال العثمانية سالف ذكره (١) أما علماء الأوربيين الذين عنوا بالأمثال التركية فمنهم البارون شلشتا الذى جمع قدرامن الأمثال وأوردها بنصها التركى مع ترجمة لها بالألمانية والفرنسية تحت عنوان (أمثال عثمانيه) الا انه تحفظ فقال ان بعضها عربى وبعضها الاخر من أصل تركى شرقى ، ولكنها دارت على السنة العثمانيين منذ القدم فاعتبرت عثمانية (٢) ولدمتريادس بمجموعة اخرى تسمى (ضروب أمثال عثمانيه وفرانسويه) جاء فيها بالنصوص التركية مع ترجمتها الى الفرنسية (٣) والمجموعة الثالثة لديفيس وهى تحتوى على أكثر من اربعمائة مثل مع ترجمتها الى الانجليزية (٤)

وبعد الأمثال نذكر تلك الأغانى التى تتغنى بها الأمهات ايهدن بها أطفالهن ، ويسميها الترك (نى) . وهى كالأمثال لايعرف

---

(١) راجع ص ٣٩٤

(٢) O. Freih V. Schlechta Wssehrd, Osmanische Sprichwörter, S4 (Wien 1865)

(٣) ديمتريادس ، ضروب امثال عثمانيه وفرانسويه (قسطنطينيه ١٣٠٥)

(٤) Davis, Osmanli Proverbs and Quaint Sayings (London 1898)

قائلها ولا تاريخها ، ولا يفوتنا ان نقول ان بعض شعراء الترك قد نظموا أغانى من هذا القبيل فى لغة ادبية كضيا كوك آلب فى (قزل الما) تحت عنوان (حرم الشهيد) ومن قوله (نم ياولدى العزيز ، فأمامك ايام لليقظة ، وان الأمس ليتطلع الى العدو يرعاه لقد استشهد ابوك وفى آثاره بجدو سؤدد فتتبع آثاره ، ننى ، واطلب حثيثا يوم الانتقام ، ننى . نم ياولدى العزيز ، ان البرق يخطف ، وجاء ابوك الشهيد وهو يرمقنا . الدم الاحمر دافق من جرحه . انتظر حتى أضمد هذا الجرح ، ننى ، لاتبك ، البكاء لى انا ، ننى)

وان النظرة العجلى فى هذه الأغنية لكافية حق الكفاية للاقتناع بأنها من الشعر العالى الذى قد لاتفهمه الأم ولا طفلها ، وانما اراد الشاعر أن يقول فى معنى عن له فتخيل اما تغنى لطفلها . ومثل هذه الاغنية ليست من الشعر الشعبي فى كثير ولا قليل ، ومن مجانبة الصواب ادخالها فى هذا الصدد . اما وجه ذكرها هنا فللموازنة بينها وبين تلك الاغانى الساذجة التى تترنم بها الام التركية لتسكن طفلها . ويقول انور بهنان شاپليو ، ان قونوش لم يتنبه الى تلك الحقيقة فى كتاب له عن هذه الاغانى فتردى فى الخطأ (١)

---

(١) Enver Behnan Sapelyo, Halk Ninnileri, S 44 (Istanbul 1938)

واليك احدى هذه الاغانى الشعبية (ولدى الصغير ، نى . ولدى الصغير الصغير ، نى . لقد وضعت الحمص فى الوعاء ، وافعمته حتى كاد يطفح ، ولو لم يكن لى ولد لقتلت نفسى . اصيدك ايها الغراب ، وانزع منك جناحك ، لأصنع منه المراوح ، ثم ابيعها للصغار . ولو لم يكن لى ولد لقتلت نفسى) .

فما اعظم البون بين اغنية ضيا كوك آلپ وهذه الاغنية التى تخاطب الطفل على قدر عقله وتصور له مايجول فى خياله المحدود بعبارة سهلة لالبس فيها تصلح اتم الصلاحية للترتيل والتنغيم ولا تحتوى على لفظ واحد غير تركى . وهذه اغنية اخرى (اذا قلت نى طلع النهار نى ، وجاء الربيع وتفتحت الأزهار ، لاأقول لولدى انت زهرة ، ان الزهرة قصير عمرها ، نى)

ومن القصص الشعبي قصة الطفل الحجرى ، ومضمونها ان رجلا وامرأة كانا متحابين فى حياة زوجية سعيدة ، ولكن عقم الزوجة كدّر عيشها وساء زوجها ، فاخبرها برغبته فى تزوج اخرى ، فاغضت على القذى وطوت نفسها على الاسى واستسلمت للقضاء ثم قالت له : ماانت صانع فاصنع ، انت وما تشاء . فهجرها الزوج ولا ذنب لها . ودارت الايام فضاقت بوحدتها ووحشتها ، ثم التمست لكربتها التنفيس ، وذهبت الى رجل صناع

اليد فنحت لها من الحجر كهيئة الطفل ، وعادت به الى دارها فرحة مستبشرة فقمطته واضجعته فى المهد . واصبح من عادتها ان تجلس كل ليلة عند رأس مهد هذا الطفل الحجرى ، فتحرك المهد وتغنى للطفل حتى مطلع الشمس ثم تبكى بكاء مرا . ودعت الله ، خالق الوجود من العدم وواهب الروح للذئاب والاطيار، بقولها : هبنى ولدا لأكون له اما ، وارضعه بلبانى واغنى له على مهده ، واقمطه بقماط احمر ، واذا بكى سكنته فنام ، واضمه الى صدرى واسهر على تربيته ، لقد هجرنى زوجى ، وانا اليوم وحدى فهبنى انيسا لروحى ، وانفخ فيه من روحك ، لاربيه واغنى له . وطفقت تتغنى بهذه الأغنية (الطفل الحجرى ينظر الى من مهده ، تنى ، ولبنى الدافىء يدفق له ، تنى ، ستستعر النار فى موقدى باذن ربى ، تنى ، وهبك المولى روحا ، تنى)

ومضت فى الغناء ، فرحمها الرحمن واستجاب دعاءها فكان لطفلها الحجرى روح ، وبزغت الشمس فنثرت عليه ذهبها وهو يستهل ويختلج ذراعيه وساقيه . فضمته الى صدرها وارضعته ، وسبحت بحمد ربها . ثم انطلقت الى زوجها وخبرته ما كان ، فحمد الله على نعمائه . وعاد الى دارها مع زوجته الثانية ، ونعم عيشه وعيش زوجتيه (١) .

---

(١) Enver Behnan Sapelyo, Halk Ninnileri, s 100,101

وقد جرت الاغانى على لسان هذه الام ومنها (ان فى السماء عمالك ، وقلبي يحترق، ننى . حماك ملاخنكار ساكن قونيه، ننى[١] اولياء الله فى هذه الدنيا كثير، وهم جميعا اولياء عندنا ، ننى، حماك حيدر اسد الله ننى [٢] النجول يطيب فى وجه السماء ننى . لقد حيرنى حسنك ، ننى. حماك حاجى بايرام الساكن فى انقره ننى[٣] ان أخالى يمر من هذا الطريق ، وقد استندنا معا الى حجر ننى ، حماك حاجى بكتاش الساكن فى قير شهر ننى [٤] . اما اناتنى مرادى واما قبضت روحى ، ننى . لاأريد هذه العافية ، ننى ، لو كان لى ولد فأرسلته الى من يعلمه القراءة والهجاء ، ننى. لو علقت هذا العلم الاحمر الاخضر ، واظهرته لعمك وخالك ، ننى ، اما انلتنى مرادى واما قبضت روحى ، ننى ، انا لا أريد هذه العافية ننى)

فهذه الاغانى التى تجرى على لسانها من كلام العوام الذى نعدم فيه كل اثر للصنعة والفن ، ونتصور به عقلية تلك الأم

---

(١) هو مولانا جلال الدين الرومى وقبره فى قونيه .

(٢) هو على كرم الله وجهه .

(٣) راجع ص ٧٦ .

(٤) راجع ص ٥٢ .

الساذجة التى تدعو الاولياء ان يحموا وليدها ، وتحلم به وهو فى المكتب يتأدب . وهى تفيد الباحث اللغوى لما تتضمنه من لهجات . والباحث الاجتماعى لما تشير اليه من عادات ،أما مؤرخ الادب ،فهى عنده جزء لايتجزأ من ادب الشعب ، وقدتكون موضع استدلال ونظر ، فيذهب انور بهنان شاپليو إلى انهذه الاغانى تتميز بقدر من الشاعرية والرقة لانصادفه فى اغانى الامم الأخرى ، ومن ثم فهى من اقوى الادلة على استعداد فطرى للشعر عند التركيات (١).

ومن شعر العوام تلك المنظومات التى تسمى (توركو) وبعضها يتألف من اسئلة واجوبة ، وهذه منظومة حشيت ظرفا تدور على حوار بين ام وبنتها (ـ بنيتى بنيتى ، بنيتى ياذات الكف الخضيب ، ان صيرفيا يطلب يدك ، اتحبين ان ازوجه بك ؟ ـ اماه لارغبة لى فيه ، الصيرفى كثير المال ، وبعده يكلفنى ـ بنيتى بنيتى ، بنيتى ياذات الكف الخضيب ، ان بقالا يطلب يدك ، اتحبين ان ازوجه بك ؟ ـ اماه لارغبة لى فيه ، البقال كثير الفاكهة ، وبأكلها يكلفنى . ـ بنيتى بنيتى ، بنيتى ياذات الكف الخضيب ، ان قصابا يطلب يدك ، اتحبين ان ازوجه بك ؟ ـ اماه

---

(١) Enver Behnan Sapelyo, Halk Ninnileri, S15

لارغبة لى فيه ، القصاب كثير اللحم ، وبتشريحه يكلفني . - بنيتي بنيتي ، بنيتي ياذات الكف الخضيب ، ان حلاجا يطلب يدك ، اتحبين ان ازوجه بك ؟ - اماه لارغبة لى فيه ، الحلاج كثير القطن ، وبندفه يكلفني - بنيتي بنيتي ، بنيتي ياذات الكف الخضيب ، ان حائكا يطلب يدك ، اتحبين ان ازوجه بك ؟ - اماه لارغبة لى فيه ، الحائك كثير الثياب ، وبحوكها يكلفني . - بنيتي بنيتي ، بنيتي ياذات الكف الخضيب ، ان سكيرا يطلب يدك ، اتحبين ان ازوجه بك ؟ - اماه : السكير لا عمل له ، فاذا تزوجني ، لم يكلفني بعمل !) فهذا الشعر من اضاحيك الكلام ، ولن يكون الا تعبيرا ساذجا عن الفرح والمرح . واليك منظومة اخرى تختلف عن الاولى بوقوع الحوار فيها بين أب وابنته (ابتاع لك قلنسوة يابنيتي ، كلا يا أبت ، كلا كلا . ابتاع لك حذاء يابنيتي ، كلا ياأبت ، كلا كلا ، اقدمك الى زوج يابنيتي . أبي العزيز ، العزيز العزيز . ابتاع لك جوربا يابنيتي ، كلا ياأبت ، كلا كلا . ابتاع لك ساعة يابنيتي ، كلا يا أبت ، كلا كلا . اقدمك الى زوج يابنيتي ، ابي العزيز ، العزيز العزيز . ابتاع لك خاتما يابنيتي ، كلا يا أبت ، كلا كلا . ابتاع لك قرطا يابنيتي ، كلا ياأبت ، كلا كلا . ازوج كاتبا بك يابنيتي ، ابي العزيز ، العزيز العزيز . ابتاع لك سوارا

يابنيتى ، كلا يا أبت ، كلا كلا . ازوج شابا وسيما بك يابنيتى ، ما أطيب هذا واحبه الى نفسى !)

ومن شعر العوام مايقال له (مانى) وهى منظومات من بيتين يقولهما القائل على البديهة فى مناسبة من المناسبات ليجد من يطارحه مثلها . وتسمى هذه المطارحه (مانى آتمق) بمعنى طرح المانى . ونسوق الامثلة لذلك بما جاء به قونوش فى كتابه عن الادب الشعبي عند الترك ، فقد ذكر انه ركب قاربا للنزهة فازدحمت القوارب على صفحة الماء ، ورأى منها ما يحمل الرجال ، وما يحمل النساء ، واصغى الى تلك المطارحات الشعرية (١) فاذا قائل يقول (انظر الى البدر ، انظر الى النجم ، وانظر الى فتاة على السطح . البدر لى والنجم لى ، وفتاة السطح لى) فرد عليه صوت من قارب آخر (هذه القادمة بنت من ؟ انها قرمزية القباء ، وقد تفتحت وردة فى جبينها ، فظننتها كوكب السحر) قال ثالث (لايحصد الزرع قبل ان يستحصد ، ولا يشرب الماء الكدر يقولون كف قلبك عن الحبيب ، والحبيب عذب جميل !) ثم قال رابع (فى الرياض الحان ، والزهر يتفتح لمقدم الصيف ،

---

(١) قونوش ، تورك خلق ادبياتى ، ص ٥٦ .

لا اسمي حبيبي زهرة ، فان الازهار قصيرة الاعمار)

وصادف ان سقط منديله فى الماء ، وما رأت ذلك احدى الفتيات حتى قالت (منديلى الأخضر ، لقد وجدت الآن أليفا لى ، فليبق عندك منديلى ، ولتمسح به الدماع)

فمثل هذه المطارحة لايقتدر عليها إلا طلق البديهة الذى يضع لسانه حيث شاء ، ولاريب فى انها تدل على سلامة الملكة ومضاء السليقة . ومن الشعر العامى مايسميه الترك (دستان) وهى كلمة فارسية بمعنى قصة او اغنية والدستان يدور على قصة فى الغالب ويتغنى به هؤلاء الشعراء المتجولون الذين يتغنون بالاشعار وهم يعزفون على القيثارة ، ويشاهدون بكثرة فى المشارب خصوصا تلك المشارب الكائنة بحى من احياء استانبول يعرف بسوق الدجاج . ومن ادباء الترك من ينسب هذه الاشعار الى ادب الصعاليك او الرعاع (كلخن بك ادبياتى)[1] ويقول طاهر النجو ان جميع الامثلة التى نملكها من المانى والدستان لاتحوى هذا

---

(١) كلخن بمعنى حجرة موقد الحمام فى الفارسية ، وإذا ما نسب البك أو السيد إلى موقد الحمام فالمراد انه صعلوك يأوى إلى حجرة موقد الحمام لانه لايملك دارا .

القدر الكبير الذى كنا ننتظره من الفاظ الرعاع ، فلغتها لغة الكتابة وصيغتها تقليدية ، والدستان بخاصة غزير المعنى فإن (نصيحت دستانى) مثلا متأثر بفلسفة الزهد ، والادب القديم واضح الاثر فى شعر هؤلاء الشعراء المعروفين بالعشاق وان بدا فى صورة غير مصقولة [١] وسنورد هنا (دستان) نشره المستشرق الالمانى ليتمان وهو مناظرة بين متزوج وعزب [٢]
(لقد فكرت فى صفات المتزوجين والعزاب ، ثم صغت هذا الدستان واسألهم جميعا ان يضربوا عنى صفحا جميلا ، فأنا من بينت لهم فى نظم بديع . وعتب المتزوج على العزب بادى بدء وقال له مابالك ؟ افصح ، فكرهنيهة ياخرب الدار ، ايضع انسان نفسه فى مثل هذا الموضع ! قال العزب ،ماهذه اللائمة التى تغلظها على ، ان كانت العزبة عندك ذنبا فجاهرنى ، ولكن هذه الدنيا لاتثبت على حال ، وكل فى طريق يمضى . قال المتزوج ، انما تمضى فى طريق ذى عوج ، وهذا منك خروج عن طاعة الله . وإذا

---

(١) Tahir Alangu, Calgili Kulhanbey Edebiyati Ve Nümuneleri, S11 (Istanbul 1943)

(٢) Enno Littmann, Ein türkisches Streitgedicht über die Ehe.(AVolume of Oriental Studies,(Cambridge1922)

ماشئت ان تكون للاجلال والاكرام اهلا ، فدع عنك هذه العزبة وتأهل مثلى . قال العزب : اقطع عنى غرب لسانك والزم حدك ، ولا تحسبن الناس جميعا بلهاء مثلك . فكل من لايسعى الى سلك هذا الطريق ، لايسلم لحظة من الشر والبلاء. قال المتزوج اتظن ان عزبتك تنجيك من المحنة والشقاء ؟ اما انا ففى مكنتى تزجية الوقت مع الاهل والولد . قال العزب : الزوجة تطلب خبزا وملحا ، وفى المثل: يريد كل شيء مبرءا من كل عيب . فإذا اخطأت واعطيتها مائة ، طلبت مائتين ، ومعظم النساء على هذه الحال. قال المتزوج : هذا هراء من القول وهذاء ، فاعتمد على صديق صدوق ، وابحث عمن تقنع بالقليل ، وسيعطيك ربك ماقسم لك. قال العزب: كلامك ياهذا لا وزن له عندى . انا لا اضع الغل بيدى فى عنق ، ولا اجعل من الدنيا سجنا لى . قال المتزوج : هذا غلط وشطط ، لن تكون دارك سجنا ، فإذا وجدت من توائمك ، اصبحت دارك جنة. قال العزب : انا أميز الخبيث من الطيب. لا أرمض بالزواج نفسى ، وبغيتى ان امضى حرا طليقا حيث شئت ، واقيم حيث يطيب لى المقام . قال المتزوج : لو كنت تعرف تلك اللذاذة ، لفضلت النعيم على الجحيم ، فانتقضت على حكمك وانثنيت عن عزمك ، وتزوجت قبل الغد . قال العزب : تلك اللذاذة لادوام

لها أكثر من اشهر ستة ، فإذا انقضت اشهر العسل ، تغيرت الحال فجأة وحلت الاتراح محل الافراح . قال المتزوج : صدقت وقلت صوابا ، ولكن الله بكل شيء عليم ، ولذلك فهو يهبك غلاما زكيا ويسعدك ويسعد صاحبتك . قال العزب لاطاقة لى بهذه المشقة ، فللطفل صياح ونواح الى الصباح ، ولأمه كذلك ولولة وعويل ، فذد عن نفسك هذا البلاء . قال المتزوج : ان يكن ذلك متعبة ، فانه امر الله ولا يسعنا الا الاذعان له . الانسان يكبر على المدى ، وسيصبح هذا الطفل شابا فتيا . قال العزب : ولكن العمر ليس بشيء ، فإن الواحد يصبح اثنين وثلاثة ، وتعييلهم صعب عسير . ان الانسان ليعجز عن فتح عينه من ثقل نفقتهم ! . قال المتزوج : كلامك مغلوط ، ان رزقهم على ربهم ، والعزبة اشد بلاء من ذلك ، فقد يسلم العزب روحه وهو وحيد . قال العزب : وأى شأن لى مع الزوجة ، ولى فى كل يوم من النساء خمس او عشر ، فأنا أقضى صباحى حيث قضيت مسائى ، هذا مرتع لهوى وملعب صبواتى ! . قال المتزوج : لا بقاء لهذه الحال ، فقد تشق عليك العلة يوما ، وتجد ان مسكنك الأخير نزل او موقد حمام ! قال العزب : هذا القول لا اكترث له ، لا انتف ريش طائر غريب عنى ، ولا اضع رأسى تحت سجل

الزواج ، لئلا افسد حالى وانغص عيشى . قال المتزوج : لقد قالوا خيرا وشرا ، ومعظم ماقالوا مين وبهتان ، قالوا ان أنثى الطائر هى التى تعتش ، ففكر مليا فى هذا المثل واجره على لسانك . قال العزب : اغرب عن وجهى ايها المخبول ، المرأة سبب البلايا والرزايا ، ان تحكم العقل لاتستثن من النساء واحدة . قال المتزوج: افقه ماتقول ياجيفة منتنة ! لا تأخذهن بذنب واحدة ، فإن منهن من يفضلن الملائكة . قال العزب : اسمع ياشديد الغباء : اتنكر أن فيهن الخرقاء والبلهاء التى يهرب الشيطان لا الملك من شرها وكيدها ، وقد اعجل عن ان ينتعل ! قال المتزوج : اخلص لله نيتك ، لاتخف ولاتحزن ، وليكن على ربك تكلانك ، وابحث عمن رضعت لبنا حلالا تجدها ، ولاتخش الندم على هذا الصنيع. قال العزب : ان المرأة تنفذ كل رغبة لها . ولها كلام لين يرقق قلبك ، فتقول ودمعها يجرى فى كل شهر : لاتوبلى . كن منصفا واجبنى ، الروح طاقة باحتمال ذلك . قال المتزوج ، هذا صحيح فى حقيقة الأمر ، ولكن علينا ان نعرف السبب ، فالرجل يضر المرأة ويفسدها وهذا ما اتفقت عليه كلمة العقلاء - الاخيار لايغض شىء من قيمتهم ، اما الأشرار من نساء ورجال فلعنة الله على اجدادهم ، والعيب فى المرأة والرجل جميعا !)

فهذه المناظرة من الشعر العامى لاتنحط كثيرا عن شعر الفصحاء فى اشراق الدلالة وعذوبة المورد ، وقد تناولت موضوعها المستطرف أحسن التناول فلم تدع مجالا لقائل سواء اكان جادا أم هازلا .

وهؤلاء الشعراء المغنون الذين ينشدون هذه الاشعار العامية ويعرفون بالعشاق ، انما هم خلفاء امثالهم من الترك الاقدمين فى أواسط آسيا المعروفين بـ (اوزان) . كانوا يعزفون على قيثارة يسمونها (قوپوز) وكان الواحد منهم شاعرا مغنيا طبيبا ساحرا كاهنا ، إلا ان بضاعتهم كسدت بعض الكساد بظهور الاسلام فى الترك ، فاقتصروا على الغناء والترتيل فى الأعراس والمآتم(١) وكان هؤلاء العشاق هيئة منظمة لها رئيس يعين لكل عاشق ذلك المشرب الذى يعرض فيه شعره والحانه وتمثيلياته . وكانت الحكومة هى التى تنتخب هذا الرئيس ، ولاغرو فقد كان للعشاق أثر عظيم فى نفوس العامة ، وهذا ما ألجأ الحكومة احيانا الى تكليف رئيس العشاق ببث الدعايات التى تريدها فى سواد الناس . وفى عهد محمود الثانى وعبد المجيد وعبد العزيز ، عينت الوظائف

---

(١) Menzel. Die türkische Literatur, S 326

لعشرين او ثلاثين من هؤلاء العشاق الذين كانوا يرتلون اشعارهم ويمثلون فى حضرة السلاطين . كما كانوا من اصحاب الحظوة عند الامراء وصفوة القوم (١) ويشبه العشاق بعض الشبه هؤلاء القصاصين الذين يسميهم الترك «مداح» : والمداح فى الاصل هو من يمدح النبى صلى الله عليه وسلم ويقص سير اهل بيته وصحابته وكان المداح التركى قديما يستمد قصصه من السيرة النبوية ، وقد ربما ان المداحين كانوا يقصون قصصا كثيرة من تاريخ سيدنا حمزه الذى صنفه حمزوى (٢) غير ان هذا المداح تغير فى العصور المتأخرة عما كان عليه فى العصور المتقدمة ، فاضحى ذلك المغنى المضحك المزال الذى يحذق تقليد الناس من شتى الأجناس ، ويبعث المرح والسرور فى نفوس المستمعين وهو يلوى لسانه بالتركية كاليهود والغجر ، ويرتضخ لكنة غريبة كالتتار وأهل اذربيجان . وقد اشتهر من هؤلاء المداحين فى القرن الماضى لوله جى احمد ، وحاجى وسوسه وكوزه ل ابراهيم ، ومداح اسمه شكرى طالما دعاه السلطان عبد الحميد الى قصره ليسمع منه مايعجبه ويطربه .

---

(١) Fuad Köprulu, Türk Sazsairleri s 452 iii (Istanbul 1941)

(٢) راجع ص ٨٨ .

وقد جرت عادة المداحين بالعمل فى المشارب الكثيرة الزحام، فبعد الغروب بنحو ساعة يجلس المداح، أو الخوجه كما يسميه الأتراك خلف منضدة على منصة قليلة الارتفاع فى صدر المكان وقد أمسك عصا يدق بها الأرض وهو يرفع صوته بقوله (حق دوستم حق) أى الله صفي الله . ويمدح السلطان ويدعو له ثم يقص قصته على غرار ما جاء فى الف ليلة وليلة ، وهى فى الأغلب قصة سيدة تصادف شابا وسيما فى طريقها فيخفق له قلبها، وتدعوه الى دارها أثناء غياب زوجها . ويمضى اليها فتاها ، فيدخل عليها خدرها بعد صعاب وعقاب ، وهو لايدرى أمن الملاح هى أم من القباح ، وكثيرا مايكون قبحها مجالا طيبا للمداح يظهر فيه قدرته على الهزل والتنادر، وكثرة مافى جعبته من مضحكات. وينعم العاشقان برهة بنشوة الوصال ، ثم يعود الزوج الى داره فيطرق بابها ، وهنا يتفنن المداح فى وصف مايبدو على العاشقين من حيرة شديدة وهلع يخلع القلوب ، وكيف تتسع الحيلة للمرأة فتخفى الفتى وهو مرتعد الفرائص ذاهب اللب لايكاد يتماسك . ثم ينتهى أمره بهربانه بعد أن يتوب التوبة النصوح ويغلظ الايمان على ألا يعود لمثلها .وقد يكون موضوع القصة أخلاقيا، فيرغب المداح فى الفضائل ويزع عن الرذائل ، كما قد يتحدث عن

خبث بعض الدراويش وظلم القضاة وأكلهم للسحت ، وكثيرا مايقص المداح على المستمعين نوادر نصر الدين خوجه ومضحكاته (١) ، ولا غرو فإن لها بين الترك أعظم الرواج حتى قيل ان الكتاب الذى يتضمن نوادره ، أكثر الكتب تداولا عند الترك بعد القرآن (٢)

وقد انضم الى هؤلاء المداحين فرق تمثيلية بلغ عدد أفرادها مائتى شخص بين موسيقيين ومغنيين وراقصين ولاعبين، فكانوا مظهرا من أهم مظاهر الحياة التركية فى القرن السابع عشر على الخصوص، ومن رؤساء هذه الفرق أيوب پهلوان ، وكان شاعرا موسيقيا مضحكا ، ومن تمثيلياته القط والفأر، والفأر والسنجاب، ومتعاطى الأفيون ، والمدخن، والأوز و الدجاج والغربان والبط. وكان الرجال يقومون بأدوار النساء. أما هذه التمثيليات فالهزل غالب

---

(١) هو نصر الدين خوجه الذى عاصر علاء الدين الثالث آخر سلاطين السلاجقة فى قرامان ، والسلطان بايزيد الاول (١٣٨٩-١٤٠٤) وتيمورلنك . ويظن انه ولد فى مدينة آق حصار حيث دفن كما يذهب بعض الباحثين الى انه جحا المعروف عندنا بلطائفه .

(٢) Ubicini, La Turquie Actuelle, P314 (Paris 1855)

عليها وان لم تخل من دراسات لعادات الشعب وعيوب المجتمع
ومن قصص الترك الشعبية تلك القصص التى يمتزج فيها الشعر بالنثر وتحدثنا عن الملوك والأبطال والعشاق مثل قصة عاشق غريب وعاشق عمر وناشق كرم وكوراوغلى وشاه اسماعيل .

ومن أهم مايستحق الذكر من أدب التركى الشعبي، خيال الظل والقره كوز . واجماع المؤرخين منعقد على أن الترك فى آسيا الشرقية عرفوا خيال الظل من الصين، والصين أهل حذق وصناعة فكانوا يرسمون على قماش أو ورق أو ما أشبه صورا للانسان والحيوان ، ليحصلوا بذلك على ستار يزدان بالصور والنقوش ، ثم يلفون به مايشبه المصباح الكبير ،ويوقدون شموعا فى المصباح فيبدو ماعلى الستار من صور كأنها أشباح واضحة الشكول . ويدار المصباح حول نفسه فتتعاقب تلك الصور أمام الرائى . وقد ضرب الترك المثل بدورانه فقالوا يدور كما يدور مصباح الخيال (١)

والفرس أول من أخذ عن الترك خيال الظل ، وله ذكر فى الشعر الفارسى ففى احدى رباعيات الخيام (يالهذا الفلك

---

(١) Georg Yacob, Geschichte des Schattentheaters S 26 (Berlin 1907)

الدوار الذى يدور بنا ! كأنى به فانوس الخيال ، فالشمس مبعث الضوء وهذا الكون مصباح ، أما نحن فصور وأشباح فى غدو ورواح) وقال فريد الدين العطار (كان رجل تركى صاحب ستارة ، وكان عظيما فى علمه منقطع القرين فى فنه ، يحسن النقش على الستار ، وحيثما يسر يجد رزقا ، وهو على الدوام يلعب ، ويخلق من الألوان صورا تعجب . فكان اذا ابلى الزمان له نقشا اسرع فاستبدل به غيره ، وصوره يختلف بعضها عن بعض شكلا ولونا ، اما العابه فيعرضها فى سبع ستائر برقشها وزينها)[١]

فيؤخذ من شعر فريد الدين العطار أن اللعب بخيال الظل كان حرفة يتخذها غجر الترك ويطوفون بها فى البلاد . وقد مضوا بخيال الظل الى مصر . وفى القرن الثالث عشر الميلادى تغزل شاعر مصرى فى حسناء تلعب بالخيال فقال :

أرتنا خيال الظل والستر دونها
فأبدت خيال الشمس خلف غمام
تلاعب للاشخاص من خلف سترها
كما لعبت أفعالها بأنام

---

(١) Sabri Siyavusgil, Karagöz , s 27 (Istanbul 1941)

وفى القرن الثالث عشر أيضا ذكره محي الدين العربى بدمشق وشرح به تعاليمه الصوفية فقال ان عالم الخيال رمز لهذا الكون المخلوق ، أما الستار فرمز لقدرة الخالق على اظهار نفسه واخفائها، وقال ابن اياس ان السلطان جقمق أمر باحراق شخوص خيال الظل ، وان السلطان الملك الناصر كان يطيب له استدعاء من يدعى أبا الخير ليشاهد منه العاب الخيال . وذكر الشاعر حمدى خيال الظل فى يوسف وزليخا ، وقيل عن السلطان محمد الفاتح انه أمر بطرد اللاعبين بالخيال من قصره . ولما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ واطردت أموره واستقامت بعد قتل طومان باى ، تحركت فيه يوما نشوة النصر ،واستدعى لاعبا ماهرا بالخيال ، ثم أمره بتمثيل شنق طومان باى على باب زويله وصلبه بعد انقطاع الحبل به مرتين ، فشاهد ما احب أن يشاهد، وبلغ به الاعجاب مبلغه ، ووصل الرجل بثمانين دينارا وخلعة، وأظهر الرغبة فى أن يعود هذا اللاعب معه الى استانبول ليدخل البهجة على نفس ولده الأمير سليمان[١] ولما اعتلى سليمان العرش خير ستمائة من هؤلاء اللاعبين الذين استقدمهم أبوه من مصر،

---

(١) Sabri Siyavusgil, Karagöz S 40

بين البقاء فى تركيا والعودة الى مصر (١).

ومن ثم يذهب الباحثون الى أن الأتراك العثمانيين، عرفوا خيال الظل من المصريين ، الا ان مؤرخى الأتراك لايميلون الى هذا الرأى وحجتهم ان العثمانيين عرفوه فى زمان متقدم هو عند بعضهم عهد السلطان اورخان (١٣٦٢ - ١٣٥٩) ومهما يكن من اختلاف المؤرخين ، فما يصح عقلا أن يعرف خيال الظل بهذه البلاد المتجاورة فى زمان واحد أو أزمنة متقاربة ، ولا مانع من أن يكون اللاعبون المصريون قد زادوا اللاعبين العثمانيين علما بهذه الألعاب فاتسع انتشارها وظهر التحسن فيها. وقد أقبل الترك اقبالا عظيما على مشاهدة خيال الظل فى ليالى رمضان بخاصة ولم تكن الرغبة الشديدة فى مشاهدته مقصورة على الصغار دون الكبار ولا على الغوغاء دون أوساط الناس وصفوتهم . وقلما خلت منه حفلة عرس أو ختان ، فلما احتفل السلطان محمد الرابع بختان الأميرين مصطفى واحمد كان خيال الظل بهجة الحفلة ،ولما زوج السلطان احمد الثالث بابنته امة الله عثمان باشا ، شاهد المدعوون الى حفل الزواج العاب الخيال فى

---

(١) Georg Yacob, Geschichte des Schattentheaters, s79

عدة أماكن . وكان لبعض هؤلاء اللاعبين حظوة عند السلاطين كحسن زاده الذى كان يلعب بالخيال مرتين فى الاسبوع أمام السلطان مراد الرابع، ويقال انه كان واسع العلم بالعربية والفارسية لطيف النظر فى الموسيقى . وقد أراد السلطان ابراهيم أن يكافىء أحد هؤلاء اللاعبين على حسن صنيعه فاسند اليه منصبا رفيعا ، وكتب على قبر أحدهم هذا البيت (ان الستار هبة وهبها الله للفنان، حتى يظهر عليه مخلوقات الرحمن ، ويجعل من المظهر وسيلة الى المخبر) .

أما المعانى التى طرقها اللاعبون بالخيال ورمزوا اليها فانها تشبه ما طرقه شعراء الترك على مر العصور ، فكانت ألاعيب الخيال فى أول الأمر تتناول المعانى الصوفية ، ثم مثلت قصص العشاق كقصة خسرو وشيرين وطاهر وزهرة ، حتى أصبح الخيال نقدا للمجتمع وتبصيرا بالمحاسن والمساوىء . وفى القرن السابع عشر ، وجد الى جانب خيال الظل أو تطور عنه ما يعرف بـ (قره كوز) ويفترق عن الخيال ، بأن شخوصه دمى تتحرك من خلف ستار . ومعنى قره كوز أسود العين وهى صفة الغجر، واليه تنسب اللعبة لأنه الشخصية الرئيسية فيها ، وتتلوها شخصية حاجى واد . وفى رواية أن قره كوز وحاجى واد حداد وبناء

كانا على عهـد السلطان اورخان ، ولما أراد السلطان أن يشيد مسجدا فى بروسه كلفهما بالعمل ، الا انهما أكثرا من المزح وتنادر كل منهما على صاحبه ، وتحلق الصناع حولهما ليسمعوا مضحكاتهما فاهملوا العمل . واغضب ذلك السلطان فأمر بقتلهما، ثم أدركه الندم وأخذه الحزن ، ورأى هذا من حال السلطان رجل يدعى شيخ كشترى كان من المقربين اليه ، وأراد أن يسرى الحزن عن نفس مولاه ، فصنع دميتين من الجلد كهيئتهما ولعب بهما من خلف ستار وهو يقول ما كانا يقولان من مستملح الفكاهات (١)

وقد جرت العادة بأن تبدأ تمثيليات القره كوز على النحو الآتى : يلتقى القره كوز وحاجى واد، ويتجاذبان أطراف الحديث ثم يتفقان على الاشتراك فى عمل يدر ربحا ، ويبدو القره كوز جاهلا شديد الجهل بطىء الحس خامد الفطنة ويظهر معهما أشخاص من جميع الأجناس كاليهود والأرمن واليونان ، فيتكلمون التركية بلهجة يستغرق لها الحاضرون فى الضحك . وللقره كوز قصص كثيرة كقصة البيمارستان والزورق والكاتب . اما لغته

---

(١) Sabri Siyavusgil, Karagöz, s 33

فقد تسمو وتبلغ فى السمو لغة الحريرى والبديع ورموز الصوفية ، وقد تسف فتنحط الى عبارة السوقة . ومما يذكر ان حاجى واد يغنى قبل بدء التمثيل بالعربية ثم بالفارسية ، فيتغنى بقول القائل :

احن شوقا الى ديار

لقيت فيها جمال سلمى

يالا يالا آه ، يللى واى

لقيت فيها جمال سلمى

ثم يقول بالفارسية (منذا فى هذه الارض البعيدة ، يزف الى البشرى بوصل حبيبى يالا يالا آه ، يللى واى ، يزف الى البشرى بوصل حبيبى) .

واليك هذه التمثيلية من تمثيليات القره كوز وهى بعنوان (قره كوز عاشقلغى) بمعنى القره كوز كشاعر :

يدق حاجى وادباب القره كوز فلا يسمع مجيبا ، وبعد مدة ليست بالقصيرة ، يرتفع صوت زوجة القره كوز .

زوجة القره كوز - من هذا ؟

حاجى واد - انا ياسيدتى

زوجة القره كوز - أأنت الطارق ياحاجى واد چلبى !

حاجي واد ـ أجل ياسيدتي .

زوجة القره كوز ـ أتريد شيئا ؟

حاجي واد ـ لم أر القره كوز منذ ايام طوال ، فاقلقني ذلك واحزنني ، واقدمني لمعرفة الخبر .

زوجة القره كوز ـ انه في خير وعافية . وهل يصيب الفساد الباذنجان المر (١) ، نحن نشتجر النهار بطوله ، ان بي منه ماقد كفاني ، فلو توفاه الله اليه واراحني من شره .

حاجي واد ـ كفي عن هذا الكلام ياسيدتي ، لارأينا لجيمة فيه .

زوجة القره كوز ـ لقد بلغ السكين العظم ، ياطول ماصبرت ! لقد جن جنونا في هذه الايام .

حاجي واد ـ كيف هذا !

زوجة القره كوز ـ لقد حمل في يده كتابا ، وجعل يهذي ويقول : اصبحت شاعرا .

حاجي واد ـ واين هو الآن ؟

زوجة القره كوز ـ وهل يكون الاهنا ، انه قابع في الحجرة

---

(١) مثل يضرب للشيء الخبيث أو الفاسد الذي لايتصوره العقل اشد خبثا ولا فسادا .

الداخلية لايخرج منها وبيده كتاب .

حاجى واد - سيدتى ، إنى اعنتك فاصفحى عنى ، أخبريه بمجيئى ، وليهبط الى حتى اناقله الحديث .

ويظهر القره كوز فيشتم صديقه ويغلظ عليه اللائمة لتقصيره فى السؤال عنه أثناء غيبته ، ثم يقول انه اصبح شاعرا ، إلا ان حاجى واد يفهم منه أنه اصيب بالصمم[1] .

القره كوز - ياهذا ما اضعف ادراكك ، اريد لأقول انى قدأصبحت واحدا من هؤلاء الذين يزمرون ويغنون فى المشارب .

حاجى واد - لقد فهمت الآن ماتعنى ، تريد ان تقول انك اصبحت شاعرا ، اليس كذلك ؟

ويسأل القره كوز صاحبه عن علمه بالشعر ومذاهبه ، فيظهر جهلا فاضحا مضحكا . ثم يسمعه القره كوز من منظوماته ، فيستحسن مايسمع ويشهد له بأنه قد دخل فى زمرة فحول الشعر .

القره كوز - وماذا تريد أن تقول أيضا أيها الغبى ؟

حاجى واد - فى هذا المشرب ثلاثة من فطاحل الشعراء ،

---

(١) صاغر فى التركية بمعنى الاصم ، وهى قريبة الشبه من شاعر .

من طارحهم الشعر فغلبهم ، نال عشرين دينارا وكسوة(١) كيف! الا تثق فى قدرتك ؟

القره كوز — وهل فى ذلك ريب

وفى المشهد الثانى يظهر عاشق قلوبى وهو يتغنى بأغنية فيعارضه القره كوز ، وكلما قال احدهما بيتا فى معنى من المعانى ، جاوبه صاحبه وطارحه .

قلوبى - (اقدم ايها العاشق ، وسل عن صفة الحميا معاقردنها فى هذه الدنيا ، سل من اثملته خمر الشعر واخذت فيه مأخذها واذا ماأردت ان تسأل العنقاء خبرا ، فسل من بسط جناحه ليصل الى قلة قاف بعد ان حلق على سبعة بحور) .

القره كوز - (سل عن متعة الدنيا وبهجتها ، ذلك الغنى الملى المتلاف . اما عن خشية الردى فسل ذلك الفأر الذى تردى فى المصيد ! وإذا قلت القحة ماهى ، فتعال ياعاشق قلوبى . وسل عنها ذلك الشاعر الذى يغلب فى المطارحة ثم يهرب بعار وشنار).

قلوبى - بخ بخ ! ابسط يدك الى ياقره كوز لأقبلها ، لقد غلبتنى ،

---

(١) كانت الجوائز تمنح للمنتصر فى المطارحات من هؤلاء الشعراء راجع Georg Yacob, Die Akserai-Schule, S8 (Berlin 1899)

وسأنادي صاحبي ، فطارحه الاشعار .

القره كوز ـ ولكن اين هذا الذهب ؟

قلوبي ـ ماهذا الذي تسمونه (اوسكى) لاأستطيع الفهم[1]

القره كوز ـ ان العشاق من أمثالنا يسمون الذهب (اوسكى)

ويقنع قلوبي القره كوز بضرورة مطارحة صاحبيه والتغلب عليهما ، ويمضي فى طلبهما . اما حاجي واد فيزف اليه التهـــاني بانتصاره على الشاعر .

القره كوز ـ لن يكون هؤلاء من الشعراء امامي !

حاجي واد ـ سترى ياقره كوز ، ان الرجل لآت فى التو والساعة .

القره كوز ـ ليحضر حتى ينال نصيبه .

ويأتي عاشق درونى ، فيجل القره كوز اعظم اجلال ، ويقول شعرا فيرد القره كوز عليه بقوله (إذا انت لم تدر ماهوى العشاق فإنك فى عداد الحيوانات ! من يعشق حبيبا غليظ القلب فهو بصلة مقشورة ! افتح عينيك ياقره كوز لئلا يخدعك قوم لاوفاء لهم . لاتخش احدا ، ان الامتحان سهل يسير . [2]

---

(1) Oski فى الأرمنية بمعنى ذهب .

(2) هذه المطارحة تسمى الامتحان عند الترك .

دروني - الصفح والعفو ياسيدي ، ان مثلي لايطارح مثلك الشعر ، سأمضي واستحضر صاحبي . ويأتي شاعر ثالث فيلقي على القره كوز لغزا ، ومن عجائب المصادفة ان يكون القره كوز قد سمع بهذا اللغز من حاجي واد . وهو في «المبخرة» وبذلك يفوز القره كوز على من يساجله .

وكان القره كوز وتمثيلياته وسيلة تتخذ أحيانا لاحاطة السلطان او العظيم علما بأمر دقيق من الأمور يفضل فيه التلويح على التصريح، فإذا اراد اصحاب الحاجة مثلا ان يذكروه بحاجتهم وكلوا الى القره كوز ان يتحدث بلسانهم ويكني عن مطالبهم . ومثال ذلك ان كريمة محمد علي باشا الكبير رأس الأسرة المالكة المصرية ، استزارت عقيلة الصدر الأعظم ، وشاهدت الزائرة التركية تمثيليات القره كوز في قصر الأميرة المصرية ، فعرفت كثيرا من عاداتها واساليب حياتها ، لأن التمثيل كان مصورا لبيئتها كما كان القره كوز يتحدث عنها وعن حاشيتها(١) اما حال القره كوز في تركيا اليوم ، فيقول ريتر انها لاتدعو الى اليأس ، رغم منافسة الخيالة له ، فإن بعضا من اللاعبين المهرة يمارسون هذه الحرفة ولكن

Mme Kibrizli-Mehemet-Pacha, Trente ans dans (٤) les Harems d'Orient P 103 (Paris 1892)

الى جانب حرفتهم الأصلية ، وغنى عن البيان انهم لايجدون من الفرص لعرض العابهم ما كان يجد اسلافهم من قبل غيرانهم إذا عرضوها ، ملكوا على المشاهدين اعجابهم . وجدير بالذكر أن شيوخ الجيل القديم وحدثان الجيل الجديد يستوون فى هذا الاعجاب بالقره كوز . (١)

---

(١) Hellmut Ritter, Karagös, Türkische Schattenspiele S 12, Zweite Folge (Istanbul 1941)

المصادر التركية

ضيا كوك آلپ ، تورك مدنيتى تاريخى ، استانبول ١٣٤١ ،
كوپريلى زاده محمد فؤاد ، شهاب الدين سليمان ، يكى عثمانلى تاريخ ادبياتى ، برنجى جلد ، استانبول ١٣٣٢ ،
شهاب الدين سليمان . تاريخ أدبيات عثمانيه ، استانبول ١٣٢٨ ،
فائق رشاد . تاريخ أدبيات عثمانيه ، برنجى جلد ، استانبول ،
عبد الحليم ممدوح . تاريخ أدبيات عثمانيه ، استانبول ١٣٠٢ ،
معلم ناجى . اسامى ، استانبول ١٣٠٨ ،
معلم ناجى . عثمانلى شاعرلرى ، استانبول ١٣٠٧ ،
ضيا باشا . خرابات ، برنجى جلد ، استانبول ١٢٩١ ،
رجائى زاده محمود اكرم . تعليم أدبيات ، استانبول ١٢٩٩ ،
محيى الدين . يكى أدبيات ، استانبول ١٣٣٠ ،
محمد توفيق . قافلهٔ شعرا ، استانبول ١٢٩٠ ،
على نور الدين . كلام الملوك ملوك الكلام ، استانبول ١٣١١ ،

قسطمونيلي لطيف . تذكرهٔ لطيف ، درسعادت ١٣١٤ ،
احمد مختار . شاعر خانملرمز ، استانبول ١٣١١ ،
أبوالضيا توفيق . نمونهٔ أدبيات ، استانبول ١٣٠٨ ،
» » . نفعي ، استانبول ١٨٨٧ م ،
طيار زاده احمد عطائي . تاريخ عطا ، دردنجي جلد ، استانبول ٢٩٣ ،
شمس‌الدين سامي . قاموس الأعلام ، يدى جلد ، استانبول ١٣٠٦ ،
نامق كمال بك . تخريب خرابات ، قسطنطينيه ١٣٠٤ ،
توفيق فكرت . رباب شكسته ، استانبول ١٣٢٦ ،
جودت باشا . تاريخ جودت ، بشنجي جلد ، درسعادت ١٣٠٩ ،
احمد راسم . عثمانلي تاريخي ، برنجي جلد ، استانبول ١٣٣٠ ،
شيخ غالب . حسن وعشق ، بولاق ١٢٥٢ ،
ديوان نسيمي ، استانبول ١٢٨٦ ،
ديوان فطنت ، استانبول ١٢٨٦ ،
ديوان ليلا خانم ، بولاق ١٢٦٠ ،
كليات اشعار روحي بغدادي ، استانبول ١٢٨٧ ،

كليات فضولى « استانبول ١٢٩١ »
ديوان فهيم ، نسخة مخطوطة بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ١٤٨٨ تركى
فاضل بك . زنان نامه « مخطوط »
« « . خوبان نامه «
اسماعيل حبيب، تورك تجدد ادبياتى تاريخى «استانبول ١٣٤٠»
قونوش ، تورك خلق ادبياتى « استانبول ١٩٢٥ »
نعيما . تاريخ نعيما ، اوچنجى جلد « استانبول »
ديوان كلشن افكار واصف اندرونى « استانبول ١٢٨٥ »
لامعى . نفحات الأنس
ديوان شناسى «قسطنطينيه ١٣٠٣»
شناسى ، ضروب أمثال عثمانيه « قسطنطينيه ١٢٨٧ »
رشاد ، كمال « استانبول ١٣٢٦ »
نامق كمال ، أوراق پريشان « استانبول ١٢٨٨ »
« « ، وطن ياخود سلستره « استانبول ١٢٨٩ »
سليمان شوكت ، يكى كوزه ل يازيلر ، برنجى جلد «استانبول ١٩٢٨ » اوچنجى جلد «استانبول ١٩٢٧» درنجى جلد «استانبول ١٩٢٣ »

« استانبول ١٩٢٧ ، دردنجی جلد » استانبول ١٩٤٣ »
نامق كمال ، رؤيا » استانبول ١٣٢٦ »
عاكف . عاكف پاشا » استانبول ١٢٩٠ »
عبد الحق حامد ، بالادن برسس » استانبول ١٣٢٧ »
» » حجله » استانبول ١٣٠٣
» » مقبر ، اولو » استانبول ١٣٤٠ - ١٩٢٢ »
» » طارق ياخود اندلس فتحى » استانبول ١٢٩٦ »
على أكرم ، رجائى زاده محمود اكرم بك » استانبول ١٣٢٩ »
رجائى زاده محمود أكرم ، زمزمه » استانبول ١٣٠٦ »
» » » ، تفكر » استانبول ١٣٠٣ »
» » » ، تقدير الحان » درسعادت ١٣٠١ »
معلم ناجى ، خرده فروش » استانبول ١٣٠٢ »
» » ، دمدمه » استانبول ١٣٠٣ »
» » ، آتشپاره » قسطنطينيه ١٣٠٣ »
توفيق فكرت بك ، خلوقك دفترى » استانبول ١٢٢٧ »
ساطع ، توفيق فكرت و تربيه « معلم » استانبول ١٣٢٣ »
ضيا كوك آلپ ، يكى حيات » استانبول ١٩١٨ »
» » » ، توركجيلك اساسلرى » آنقره ١٣٢٩ »

محمد عاكف بك ، صفحات ، برنجی کتاب ، استانبول ۱۹۲۸ ، بشنجی کتاب ، ۱۳۳٦ ، يدنجی کتاب ، مصر ۱۹۲۳ ،
دیمتریادس ، ضروب أمثال عثمانیه وفرانسویه ، قسطنطینیه ۱۳۰۵ ،
حسین سیرت ، لیال کریزان ، پارس ۱۹۰٤ ،

Hamit Zubeyir Kosay, Elamca - Turkce Dilakrobaligi (Ankara 1937)

Resat Ekrem, Sumer Türkleri (Istanbul 1939)

Agah Sirri Levend,Edebiyat Tarihi Dersleri, Tanzimata Kadar (Istanbul 1939)

Agah Sirri Levend, Tanzimat Edebiyati (Istanbul 1936)

« « « , Şervetifünun Edebiyati (Istanbul 1638)

Mustafa Nehat Özön, Son Asir Türk Edebiyati Tarihi (Istanbul 1945)

Suheyl Unver,Fatih Külliyesi ve Zamani ilim Hayati (Istanbul 1946)

Saffet Sitki, Fatih Divani (Istanbul 1944)

Cavid Baysun,Cem Sultan,Hayati ve Siirleri (Istanbul 1946)

Prof Dr. Ali Nihad Tarlan, Yavuz Sultan Selim Divan (Istanbul 1946)

Gölpinarli, Fuzuli Divani (Istanbul 1948)

Mahmud Kemal Inal, Son Asir Türk Sairleri, cüz 7, 9, 10 ve 11 (Istanbul 1940)

Ihsan Sungu, Tanzimat ve Yeni Osmanlilar (Istanbul 1940)

Murat Uraz, Sair ve Edpilerin Hayati (Istanbul)

Dr. Riza Tevik, Tevfik Fikret (Istanbul 1945)

Faruk Nafiz, Tevfi Fikret (Istanbul 1937)

Sabiha Sertel, Tevfik Fikret (Istanbul 1946)

Fevziye Abdullah, Tansel, Mehmed Akif, Hayati ve Eserleri (Istanbul 1945)

Abdûlhak Hamid, Makber (Istanbul 1944)

Agah Sirri Levend, Nabi 'nin Surnamesi(Istanbul1944)

Ahmet Refik, Lale Devri (Istanbul 1932)

« « Ilk Türk Matbaasi (Istanbul 1929)

Ismail Hikmet, Ziya Pasa (Istanbul 1932)

Ibrahim Necmi, Abdulhak Hamit ve Eserleri (Istanbul-

1932.)

Mithat Cemal Kuntay, Namik Kemal (Istanbul 1944)

Enver Behnan Sapelyo,Halk Ninnileri (Istanbul 1938)

Tahir Alangu, Calgili Kahvelerdeki Külhanbey Edebiyati ve Nümuneleri (Istanbul 1943)

Fuad Köprülü, Türk Sazsairleri iii (Istanbul 1941)

Sabri Siyavusgil, Karagöz (Istanbul 1941)

المصادر الفارسية والعربية

بديع الزمان فروزان فر ، مولانا جلال الدين محمد ، تهران ١٣١٥ ،

سعدى الشيرازى . (كلستان) كليات سعدى ، بمبى ١٣٣٥ ،

دكتر قاسم غنى . تاريخ تصوف در اسلام ، طهران ١٣٢٢ ،

دكتر رضا زاده شفق . تاريخ أدبيات ايران ، طهران ١٣٢١ ،

مير على شير نوائى . مجالس النفائس ، بسعى واهتمام على اصغر حكمت ، طهران ١٣٢٣ ،

عبد الله رازى ، تاريخ ايران ، طهران ١٣١٧ ،

عبد الرحمن الرافعى بك . تاريخ الحركة القومية . جزءان

، القاهرة ١٩٢٩ ،
الدكتور عبد الوهاب عزام بك . قصة الأدب فى العالم ،
الجزء الاول ، القاهرة ١٩٤٣ ،
الدكتور زكى مبارك - المدائح النبوية ، القاهرة ١٩٣٥ ،
الاستاذ حمزه طاهر . التصوف الشعبي فى الادب التركى ، فصلة
من مجلة كلية الآداب المجلد الثانى عشر ، الجزء الثانى ديسمبر ١٩٥٠

المصادر الاوربية

Bittner, Der Einfluss des Arabischen und Persischen auf das Türkische (Wien 1900)

Vambery, Uigurische Sprachmonumente und das Kudatku Bilik (Innsbruck 1870)

Von Hammer Purgstall, Geschichte der osmanischen Dichtkunst, B1,3,4 (Pesth 1836)

Yoseph Von Hammer, Baki's Diwan (Wien 1828)

Hachtmann, Europäische Kultureinflüsse in der Türkei (Berlin 1918)

Hachtmann, Türkisch Wie man es erlernt und lehr

(Stuttgart)

Carl Von Sax, Geschichte des Machtverfalls der Türkei (Wien 1913)

Paul Horn, Geschichte der persischen Litteratur (Leipzig 1901)

Paul Horn, Geschichte der türkischen Moderne (Leipzig 1902)

Menzel, Die türkische Literatur (Die orientalischen Literaturen, Berlin 1925)

Babinger, Die Geschichtsscheiber der Osmanen (Leipzig 1927)

Wickerhauser, Deutsch - Turkische Chrestomathie (Wien 1853)

O. Freih V Schlechta Wssehrd, Osmanische Sprichwörter (Wien 1865)

Goerg Yacob, Geschichte des Schattentheaters «Berlin 1907»

Georg Yacob, Die Akserai - Schule "Berlin 1899,,

Hellmut Ritter, Karagös, Türkische Schattenspiele

Zweite Folge (Istanbul 1941)

Cornelio Di Marzio, La Turchia Di Kemal (Milano McMxxvI)

Rossi, La Nouva Turchia « Firenze 1939 »

Cahun, Introduction a l,histoire de l'Asie«Paris1896»

Basmadjian, Essai sur l'histoire de la littérature ottomane «Paris 1910»

Barthold, Histoire des Turcs d'Asie Céntrale (Paris1945)

Youannin et Van Gaver,Turquie «Paris MDcccxL»

Navarian, Les Sultans Poétes «Paris 1936»

Haidar Bammate,Visages de L'Islam «Lausanne1946»

Nicolas, Les Quatrains de Khèyam «Paris 1867»

Moustapha Djelaleddin Les Turcs, anciens et modernes «Paris 1870»

Carra de Vaux, Les Penseurs de L'Islam V, 1, 4. (Paris 1923)

Assad Effendi, Précis historique de la Destruction du corps des Janissaires par le Sultan Mahmoud en

1826, Traduit par Caussin de Perceval "Paris M D ccc xxx iii,,

Clément Alzonne, Istanbul "Paris 1947,,

Ubicini, La Turquie Actuelle "Paris 1855,,

Edmond Fazy et Abdul-halim Memdouh, Anthologie de L'amour turc "Paris mcmv,,

Dorys, Abdul - Hamid Intime "Paris 1903,,

Seignobosc, Turcs et Turquie "Paris 1920,,

Mme Kibrizli - Mehemet - Pacha, Trente ans dans les Harems d'Orient "Paris 1892,,

Le Prince Arfa - Od - Dovleh, Poésie et Art Persans a Monaco "Monte-Carlo 1919,,

Taderini, Letteratura Turchesca, Traduit de l'Italien en Francois par l'Abbé de Cournand "Paris 1789,,

Davids, Grammaire Turke, Traduit de l'Anglais par Sarah Davids «Londres 1836,,

Thornburry, Turkish Life and Character, V, 1(London m. D ccc Lx)

Evrenol, Revolutionary Turkey "Ankara 1936"

Halide Edib, Confbict of East and West in Turkey «Lahore 1935»

Wells, The Literature of the Turks «London 1891»

Ikbal Ali Shah, Islamic Sufism "London 1933»

Luke,The city of Dancing Dervishes "London1914,,

Penzer, The Harem "London 1936,,

Brockelmann,History of the Islamic Peoples(London 1949)

Birge, The Bektashi Order of Dervishes "Hartford 1947,,

Gibb, A History of ottoman Poetry 6 volumes — "London 1910,,

Gibb, Ottoman Literature (London 1901)

« The History of the Forty Vezirs (London1886)

Hughes, A Dictionary of Islam (Lnodon 1885)

Browne, APersian Anthologie (London 1927)

Field, Persian Literature (London)

Lybyer, The Government of the ottoman Empire in

the time of Soleiman the Magnificent (Cambridg 1913)

Garnett, Turkey of the Ottomans (London 1911)

Monroe, Turkey and the Turks (London mDccccviii)

Wittek, Turkish Reader (London 1945)

Heyd, Foundations of Turkish Nationalism (London 1950)

Ronart, Turkey To-Day (London mcmxxxviii)

Blochmann, Contributions to Persian Lexicogrphy (Calcutta 1862)

Charles Adams, Islam and Modernism in Egypt (London 1933)

Lane-Poole, Turkey „London 1908"

ثبت باسماء السلاطين وتواريخ حكمهم

اسم السلطان	تاريخ تملكه
عثمان	٦٩٩هـ-١٢٩٩م
اورخان	٧٢٦هـ-١٣٢٦م
مراد الاول	٧٦١هـ-١٣٥٩م
بايزيد الاول « يلديريم »	٧٩٢هـ-١٣٩٠م

ثم مضت فترة من الزمن قدرها احد عشر عاما تنازع فيها العرش اولاد السلطان بايزيد الاول وهم الامير سليمان والامير عيسى والامير موسى والامير محمد ، وقد بدأت بعد موت بايزيد الاول سنة ٨٠٥ هـ - ١٤٠٣

اسم السلطان	تاريخ تملكه
محمد الاول « جلبي »	٨١٦هـ-١٤١٣م
مراد الثاني	٨٢٤هـ-١٤٢١م
محمد الثاني « الفاتح »	٨٥٥هـ-١٤٥١م
بايزيد الثاني	٨٨٦هـ-١٤٨١م

اسم السلطان	تاريخ تملكه
سليم الاول «ياوز»	٩١٨هـ - ١٥١٢م
سليمان الاول «القانونى»	٩٢٦هـ - ١٥٢٠م
سليم الثانى	٩٧٤هـ - ١٥٦٦م
مراد الثالث	٩٨٢هـ - ١٥٧٤م
محمد الثالث	١٠٠٣هـ - ١٥٩٥م
احمد الاول	١٠١٢هـ - ١٦٠٣م
مصطفى الاول	١٠٢٦هـ - ١٦١٧م
عثمان الثانى	١٠٢٧هـ - ١٦١٨م
مراد الرابع	١٠٣٢هـ - ١٦٢٣م
ابراهيم	١٠٤٩هـ - ١٦٤٠م
محمد الرابع	١٠٥٨هـ - ١٦٤٨م
سليمان الثانى	١٠٩٩هـ - ١٦٨٧م
احمد الثانى	١١٠٢هـ - ١٦٩١م
مصطفى الثانى	١١٠٦هـ - ١٦٩٥م
احمد الثالث	١١١٥هـ - ١٧٠٣م
محمود الاول	١١٤٣هـ - ١٧٣٠م
عثمان الثالث	١١٦٨هـ - ١٧٥٤م

اسم السلطان	تاريخ تملكه
مصطفى الثالث	١١٧١ هـ - ١٧٥٧ م
عبد الحميد الاول	١١٨٧ هـ - ١٧٧٣ م
سليم الثالث	١٢٠٣ هـ - ١٧٨٩ م
مصطفى الرابع	١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م
محمود الثانى	١٢٢٣ هـ - ١٨٠٨ م
عبد المجيد	١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م
عبد العزيز	١٢٧٧ هـ - ١٨٦١ م
مراد الخامس	١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م
عبد الحميد الثانى	١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م
محمد الخامس	١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م
محمد السادس	١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م

والغيت السلطنة فى اول نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم اعلنت الجمهورية فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٢٣ تحت رياسة مصطفى كمال باشا. والغيت الخلافة فى الثالث من مارس سنة ١٩٢٤. وفى عام ١٩٣٤ سمى مصطفى كمال باشا نفسه «اتاتورك» أى جد الترك.

فهرس

فهرس الاعلام

(ب)

(ح)

(خ)

(ق)

(ن)

هذا الفهرس من عمل حضرة الأستاذ عصام محمد سليمان فأشكره الشكر الذى هو أهل له ؟ المؤلف

تصويبات

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٢	١٦	عصبية	عصيبة
٣٦	٤	طربزون	طربزون
٥٦	١٣	اولا	اول
١٣٢	٣	لا	لئلا
١٣٨	١٤	وستان	بوستان
١٤١	٧	وفشوه	فشوه
١٥٨	٣	شكى	شكا
١٨٨	١٤	Litterature	Literature
٢٠١	١٣	قلبه	لسانه
٢٠٦	٩	سمى	سما
٢٣٥	١	عام	سنة
٢٦٤	٦	باحماجيان	باصباجيان
٣٣٨	٥	النطر	النظر
٤٠١	٥	لأسيوى	الأسيوى
٤٤٩	١٨	يزدها	يزيدها
٩٠٤	٨	لبى	حلبى